مجمع البحرين في شرح الفصين

حكم الفتوحات وحكم الفصوص

للشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي



تأليف

الشيخ العلامة ناصر بن الحسن الحسيني الكيلاني

المتوفى بعد سنة ٩٤٠ هـ

تحقيق وتخريج وتعليق

مجدي الجارحي

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKI
أسسها محمد علي بيضون
سنة 1971 بيروت - لبنان

مجمع البحرين

في شرح الفصين

حكم الفتوحات وحكم الفصوص

للشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي

تأليف

الشيخ العلامة ناصر بن الحسن الحسيني الكيلاني
المتوفى بعد سنة ٩٤٠ هـ

تحقيق وتخريج وتعليق
مجدي الجارحي

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKi
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales @al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

Title	: **MAJMAʿ AL-BAḤRAYN FĪ ŠARḤ AL-FAṢṢAYN**	**مجمع البحرين في شرح الفصّين** :	**الكتاب**
Classification:	Sufism	تصوف :	**التصنيف**
Author	: Al-šayḫ Nāṣir ben al-Ḥasan al-Kīlānī	الشيخ ناصر بن الحسن الكيلاني :	**المؤلف**
Editor	: Majdi al-Jāriḥi	مجدي الجارحي :	**المحقق**
Publisher	: Dar Al-Kotob Al-ilmiayh	دار الكتب العلميـــة - بيروت :	**الناشر**
Pages	: 384	384 :	**عدد الصفحات**
Size	: 17*24	17*24 :	**قياس الصفحات**
Year	: 2010	2010 :	**سنة الطباعة**
Printed in	: Lebanon	لبنـــان :	**بلد الطباعة**
Edition	: 1st	الأولى :	**الطبعة**

DKi
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون-القبة-مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠

ISBN 978-2-7451-6103-1

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمدُ لله مخصِّص قُلوب الكَلِم، مخصوص فُصوص نَوادر تنزلات الحِكم.

وصلَّى الله على مَنْ أُوتي جوامع الكَلِم، المنعوت بالنور الأقدم، والقيل الأقوم، والمبعوث إلى كافة الأمم بالشرعِ الأعم الأشمل الأتم على الصراط السوي، والسبيل الأهم، منه افتتحَ خزائن الجودِ والكَرمِ، وبه اختتم حتى صَارَ به الفَاتِح الخاتم، وعلى آله وَصَحْبِهِ وَسلَّم.

وبعد... فهذا شرح مباركٌ لفصين من كتاب فصوص الحِكم لختم الولاية المحمدية سيدي محيي الدين بن عربي - قدس سره - قام بشرحهما مع خطبة الكتاب الشريف ابن ناصر الكيلاني، وقد أجاد في شرحه هذه الذي وسمه بمجمع البحرين - حكم الفصوص والفتوحات - وإنه حقًا لو كان شرح الفصوص كلها لكان أكبر وأعظم شرح للفصوص على الإطلاق.

هذا.. وقد اعتمدت على النسخة الخطية ببلدية الإسكندرية ولعلها الوحيدة لهذا الكتاب، وكذلك استفدت استفادة طيبة من طبعته الأولى بتحقيق الشيخ المزيدي - جزاه الله خيرًا على جهده، فهو ممن سخرهم الله لخدمة تراث السادة الصوفية، خاصة أرباب الكشف والتحقيق، فجزاه الله خيرًا ونورًا.

وقد قمت بالتحقيق والعزو والتخريج وشرح بعض الألفاظ وما استدعى للتعليق، والله الهادي للصواب وبه التوفيق.

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ المناوي في الكواكب الدرية (555) ما نصه: هو الشيخ محمد بن علي بن محمد الحاتمي الطائي الأندلسي.

العارف الكبير، محيي الدين بن عربي، ويقال: ابن العربي.

قال شيخنا الشعراوي: ورأيته بخطه في كتاب «نسب الخرقة» كان مجموع الفضائل، مطبوع الكرم والمائل، قد فض له فضلة ختام كل فن، وبلّ له وبله رياض ما شرد من العلوم وعن، ونظمه عقود العقول، وفصوص الفصول.

وحسبك بقول زروق وغيره من الفحول ذاكرين أحد فضله: هو أعرف بكل فن من أهله، وإذا أطلق الشيخ الأكبر، في عرف القوم، فهو المراد.

ولد بمرسية، سنة ستين وخمسمائة، ونشأ بها، وانتقل إلى إشبيلية سنة ثمان وسبعين، ثم ارتحل وطاف البلدان، فطرق بلاد الشام، والروم، والمشرق، ودخل بغداد وحدَّث بها بشيء من مصنفاته.

وأخذ عنه أحد الحفاظ، كذا ذكره ابن النجار في الذيل.

وقال الحافظ ابن حجر في لسان الميزان: «وهو ممن كان يحط عليه، ويساء الاعتقاد فيه».

كان عارفًا بالآثار والسنن، قوي المشاركة في العلوم، أخذ الحديث عن جمع، وكان يكتب الإنشاء لأحد ملوك المغرب، ثم تزهد وساح، ودخل الروم، والحرمين، والشام، وله في كل بلدٍ دخلها مآثر.

وقال أحدهم: برز منفردًا، مؤثرًا للتخلي والانعزال عن الناس ما أمكنه، حتى أنه لم يكن يجتمع به إلا الأفراد، ثم آثر التأليف، فبرزت عنه مؤلفات لا نهاية لها، تدل على سعة باعه، وتبحره في العلوم الظاهرة والباطنة، وأنه بلغ مبلغ الاجتهاد في الاختراع والاستنباط، وتأسيس القواعد والمعاقد التي لا يدركها، ولا يحيط بها إلا من طالعها بحقها، غير أنه وقع له في تضاعيف بعض تلك الكتب، كلمات كثيرة أشكلت ظواهرها، فكانت سببًا لإعراض كثيرين لم يحسنوا به الظن، ولم يقولوا كما قال غيرهم من الجهابذة المحققين، والعلماء العاملين، والأئمة الوارثين أن ما أوهمته تلك الظواهر ليس هو المراد، وإنما المراد أمور أصطلح عليها متأخرو أهل الطريق، غيرة عليها حتى

لا يدعيها الكذابون، فاصطلحوا على الكناية عنها بتلك الألفاظ الموهمة، خلاف المراد، غير مبالين بذلك؛ لأنه لا يمكن التعبير عنها بغيرها.

وقد تفرّق الناس في شأنه شيعًا، وسلكوا في أمره طرائق قددا.

فذهب طائفة إلى أنه زنديق لا صديق.

وذهب قوم إلى أنه واسطة عقد الأولياء ورئيس الأصفياء.

وصار آخرون إلى اعتقاد ولايته وتحريم النظر في كتبه.

وعوّل جمعٌ على التوقف والتسليم قائلين: الاعتقاد ضيعة، والانتقاد حرمان.

وإمام هذه الطائفة شيخ الإسلام النووي، فإنه استفتي فكتب: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: 134] وتبعه على ذلك كثيرون، سالكين سبيل السلامة.

وقد حكى عن شيخه الخوبي أنه سئل عنه فقال: اختلف فيه من الكفر إلى القطبانية، والتسليم واجب، ومن لم يذق ما ذاقه القوم، ويجاهد مجاهداتهم لا يسعه من الله الإنكار عليهم.

والمنكرون عليه فريقان:

- فريق قصد بإنكاره تنفير الناس عن مطالعة كلامه لما اشتمل عليه من المشكلات وغويص المعضلات، فلم يقصدوا بإنكارهم حظًا نفسانيًا بل سلامة الناس من السقوط في تلك الطامات، كما هو مشاهد من حال كثير ممن اعتقده، وأكب على مطالعة كتبه، فوقع في الخطأ والخطل، حتى ضل وأضل، ولهذا بالغ ابن المقري في روضه، فحكم بكفر من شك في كفر طائفة ابن عربي، فحكمه على طائفته بذلك يشير إلى أنه إنما قصد التنفير عن كتبه، وإن من لم يفهم كلامه، ربما وقع في الكفر باعتقاده خلاف المراد.

وللقوم اصطلاحات أرادوا بها معاني غير المعاني المتعارفة، فمن حمل ألفاظهم على معانيها المتعارفة بين أهل العلم الظاهر ربما كفر، كما قال الغزالي.

وقد حكى الشيخ الإمام ناصر الدين الطبلاوي أنه دخل القاهرة رجل أعجمي، عليه لوائح العارف، فكثر أتباعه جدًا، وألحوا عليه في قراءة الفصوص فامتنع، فما زالوا يلحون ويبرمون، حتى وعدهم بعد الاستخارة مرارًا بشرط ألاّ يقرئهم إياه إلا فيما وراء النيل من أرض الجيزة، وألاّ يحضر معهم غيرهم، فقرر لهم هناك تقريرًا بديعًا بلسان

الحقيقة المؤيد بالشريعة، ولزم ذلك مدة، ثم انقطع يوم النوبة، فسألوه عن السبب، فقال: نظرت الليلة في الدرس، فأشكل علي موضع منه، فكررت النظر، فرأيت الأمر أشكل، فتوجهت، وأخلصت إلى الله في التوجه ليكشف لي ذلك فكشف لي، فرأيت الشيخ في هذه المسألة اختل كشفه، فانتقل نظره، فأمسكت عن هذا الكتاب بخصوصه.

- وفريق قصد بالإنكار عليه وعلى أتباعه الانتصار لحظ نفسه، لكونه وجد قرينه وعصريه يعتقد، وينتصر له، فحملته حمية الجاهلية على معاكسته، فبالغ في خذلانه وخذلان أتباعه ومعتقديه، وقد شوهد عود الخذلان والخمول على هذا الفريق، وعدم الانتفاع بعلومهم، وتصانيفهم على حسنها.

وممن كان يعتقده سلطان العلماء ابن عبد السلام، فإنه سئل عنه أولاً، فقال: شيخ سوء كذاب، ولا يحرم فرجًا، ثم وصفه بعد ذلك بالولاية بل بالقطبانية، وتكرر ذلك منه.

وحكي عن اليافعي أنه كان يطعن فيه ويقول هو زنديق، فقال له أحد أصحابه يومًا: أريد أن تريني القطب، فقال: هو هذا، فقيل له: فأنت تطعن فيه، قال: حتى أصون ظاهر الشرع.

وأثنى اليافعي عليه في إرشاده، ووصفه بالمعرفة والتحقيق، فقال: اجتمع الشيخان الإمامان العارفان المحققان الربانيان السهروردي وابن عربي، فأطرق كل منهما ساعة، ثم افترقا من غير كلام، فقيل لابن عربي: ما تقول في السهروردي؟ قال: مملوء سُنَّة من قرنه إلى قدمه، وقيل للسهروردي: ما تقول في ابن عربي؟ قال: بحر الحقائق.

ومنهم الزملكاني، قال في كتابه المؤلف في النبي والملك: كان الشيخ ابن عربي بحرًا زاخرًا في المعارف الإلهية.

ومنهم قاضي القضاة الشمس البساطي المالكي، فإنه حضر مجلس فيه العلاء البخاري، فبالغ البخاري في ذمه، وتكفير معتقديه، فانتصر له البساطي، وقال: أما ينكر الناس عليه ظاهر الألفاظ التي يقولها؟ وإلا فكيف في كلامه ما ينكر إذا حمل مراده، وضرب من التأويل - وكان من كلام البخاري الإنكار على من يعتقد الوحدة المطلقة - فقال البساطي: أنتم ما تعرفون الوحدة المطلقة؟ فاستشاط غضبًا، وحلف إن لم يعزله السلطان خرج من مصر، فعزم السلطان على ذلك فما تم، واستمر البساطي في منصبه

بعد ذلك إحدى عشرة سنة حتى مات، ولم يتفق له عزل قط بعدها.

ولما جرت كائنة البقاعي، وعقدت بسببها المجالس، وأجمع أكثر أهل ذلك العصر على اعتقاد ابن عربي وتأويل كلامه، أراد أحد الناس أن يوقد نار الفتنة بين المعتقدين والمنكرين، وسعى بذلك إلى السلطان، فأمر بأخذ خطوط العلماء، فامتنع شيخ الإسلام زكريا الأنصاري من الكتابة خوف الفتنة، فتأثر منه المعتقدون، فخرج من درسه بجامع الأزهر، فلقيه سيدي محمد الإسطنبولي المجذوب الصاحي، فتعرض له وقال: يا زكريا، نحن رفعناك من الأرض إلى السماء ومع ذلك تتوقف في الكتابة؟ فاعتذر الشيخ وبالغ وكتب.

ثم آل الأمر إلى نصرة المعتقدين على المنكرين.

وأقوى ما احتج به المنكرون أنه لا يؤول إلا كلام المعصوم.

ويرده قول الإمام النووي في «بستان العارفين» بعد نقله عن أبي الخير التيناني واقعة ظاهرها الإنكار: «قد يتوهم من يشتبه بالفقهاء، ولا فقه عنده أن ينكر هذا، وهذا جهالة وغباوة، ومن يتوهم ذلك، فهي جسارة منه على إرسال الظنون في أولياء الرحمن، فليحذر العاقل من التعرض لشيء من ذلك، بل حقه إذا لم يفهم حِكمهم المستفادة، ولطائفهم المستجادة، أن يتفهمها ممن يعرفها، وربما رأيته من هذا النوع ممن يتوهم فيه من لا تحقيق عنده أنه مخالف ليس مخالفًا، بل يجب تأويل أفعال أولياء الله». إلى هنا انتهى كلامه.

وإذًا: وجب تأويل أفعالهم، ووجب تأويل أقوالهم، بلا فرق.

وكان المجد صاحب القاموس عظيم الاعتقاد في ابن عربي، ويحمل كلامه على المحامل الحسنة، وطرّز شرحه للبخاري بكثير من كلامه.

وقد عظم انتشار كتبه بالأقطار وبأرض الروم، فإنه أخبر في أحدها بصفة جد السلطان سليمان، وفتحه لبلدهم في وقت كذا، فكان كذلك. فلذلك بني على قبره قبة عظيمة، وجعل فيها طعامًا وخيرات، حتى احتج أحد المنكرين عليه من الفقراء لدخولها بعدما كانوا يبولون ويروثون على قبره.

وأخبر الشعراوي عن أحد إخوانه، أنه شاهد رجلاً أتى ليلاً بنار ليحرق تابوته، فخسف به، وغاب بالأرض، فأتى أهله فحفروا، فوجدوا رأسه، فكلما حفروا نزل في الأرض، فعجزوا، فأهالوا عليه التراب.

وكان شيخنا شيخ الإسلام، فقيه عصره، الشمس الرملي، يوصي من يميل إليه من تلامذته، بتعظيم ابن عربي واعتقاده، وينقل ذلك عن أبيه.

وحكى الشيخ شهاب الدين ابن حجر الهيثمي عن أحد مشايخه أنه كان من المنكرين فمرض، واشتد به ضيق النفس حتى منعه الطعام والمنام وقال: فقلت له هذا من الإنكار. فسبَّني، ثم رجع وقال: لعلك صادق. فقلت له: إذن، اعقد التوبة عن الإنكار عليه، وأنتم يحصل لكم الشفاء فورًا، فقال: تبت، ولا أعود، فشفي، وصار يأكل ويشرب وينام مدة.

ثم جاءه رجلٌ من معتقدي ابن عربي، فبحث معه شأنه، فحمله حنقه منه على أن قال: اشهدوا عليَّ أني باقٍ على الإنكار، فعاد إليه المرض بأشد ما كان إلى أن مات. وكان ألَّف كتبًا فاقت على جميع أهل عصره، فلم ينفع الله بشيء منها.

ومن تأمَّل سيرة ابن عربي، وأخلاقه الحسنة، وانسلاخه من حظوظ نفسه، وترك العصبية، حمله ذلك على محبته واعتقاده.

ومما وقع له أن رجلاً من دمشق، فرض على نفسه أن يلعنه كل يوم عشر مرات، فمات، وحضر ابن عربي جنازته، ثم رجع فجلس ببيته، ثم توجه للقبلة، فلما جاء وقت الغداء أحضر إليه فلم يأكل، ولم يزل على حاله إلى بعد العشاء، فالتفت مسرورًا وطلب العشاء وأكل، فقيل له في ذلك فقال: التزمت مع الله أني لا أكل ولا أشرب حتى يغفر لهذا الذي يلعنني، وذكرت له سبعين ألف «لا إله إلا الله» فغفر له.

وقد أوذِي الشيخ كثيرًا في حياته وبعد مماته بما لم يقع نظيره لغيره، وقد أخبر هو عن نفسه بذلك، وذلك من غُرر كراماته.

فقد قال في الفتوحات: «كنت نائمًا في مقام إبراهيم، وإذا بقائل من الأرواح - أرواح الملأ الأعلى - يقول لي عن الله: ادخل مقام إبراهيم، إنه كان أواهًا حليمًا، فعلمت أنه لا بُدّ أن يبتليني بكلام في عرضي من قوم، فأعاملهم بالحلم، وقال:

ويكون أذى كثيرًا، فإنه جاء بحليم بصيغة المبالغة، ثم وصفه بالأوّاه، وهو من يكثر من التأوه لما يشاهد من جلال الله» انتهى.

قال الصفي ابن أبي منصور: جمع ابن عربي بين العلوم الكسبية والعلوم الوهبية.

وكان غلب عليه التوحيد علمًا وخَلْقًا وخُلُقًا، لا يكترث بالوجود، مقبلاً كان أو معرضًا.

وقال تلميذة الصدر القونوي الرومي: كان شيخنا ابن عربي متمكنًا بالاجتماع بروح من شاء من الأنبياء والأولياء الماضين على ثلاثة أنحاء:

- إن شاء استنزل روحانيته في هذا العالم، وأدركه متجسدًا في صورة مثالية، شبيهة بصورته الحسنة العصرية التي كانت له في حياته الدنيا.

- وإن شاء أحضره في نومه.

- وإن شاء انسلخ من هيكله، واجتمع به.

وهو أكثر القوم كلامًا في الطريق، فمن ذلك ما قال:

ما ظهر على العبد إلا ما استقر في باطنه فما أثر فيه سواه.

فمن فهم هذه الحكمة وجعلها مشهورة، أراح نفسه من التعلق بغيره، وعلم أنه لا يؤتى عليه بخير ولا بشر إلا منه، وأقام العذر لكل موجود.

وقال: إنما كان العارف لا يرى في نومه ما يراه المريد من الأنوار والأمور الحسنة؛ لأنه لا ينام إلا على الخوف، ورؤية التقصير والتفريط في حق الحق تبارك وتعالى، والمريد ينام على رؤية استحسان حاله، ورؤية نتيجة أعماله، والنوم تابع للحس، لذلك كان أحد العارفين يحن إلى البداية.

وقال: إذا فتح عليك بالتصرف، فأت البيوت من أبوابها، وإياك بالفعل بالهمة من غير آلة، فانظر إليه سبحانه كيف خمّر طينة آدم بيده، ثم نفخ فيه الروح وعلمه الأسماء، فأوجد الأشياء على ترتيب، ولو شاء لقال: كن فكان.

وقال: إذا ترادفت عليك الغفلات وكثر النوم، فلا تسخط، ولا تلتفت لذل، فإن من نظر الأسباب مع الحق أشرك، كن مع الله بما يريد لا مع نفسك بما تريد، لكن لا بُدّ من الاستغفار.

وقال: علامة الراسخ أن يزداد تمكنًا عند سلبه؛ لأنه مع الحق بما أحب، لا مع نفسه بما يحب، فمن وجد اللذة في حال المعرفة دون السلب، فهو مع نفسه، غيبةً وحضورًا.

وقال: من صدق في شيء، وتعلقت همته بحصوله كان له عاجلاً أو آجلاً، فإن لم يصل إليه في الدنيا فهو له في الآخرة، ومن مات قبل الفتح رفعه إلى محل همته.

وقال: من جمع بين النقيضين شهد الواحد كثيرا، والكثير واحدًا، ولا نعني بين الجمع في النقيضين إلا ما هو محال في العقل من غير تأويل، ولأن طور الولاية

يخالف ما قاله العلماء الحاكمون بمقتضى عقولهم، والله واسعٌ عليم.

وقال: العارف يعرف ببصره ما يعرفه غيره ببصيرته، ويعرف ببصيرته ما لا يدركه أحد غيره إلا نادرًا، ومع ذلك فلا يأمن على نفسه من تنفسه، فكيف يأمن على نفسه من مقدور ربه، وهذا مما قطع الظهور ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: 44].

وقال: العلوم ما دامت في معادنها، فهي واسعة مطلقة، ولا تقبل تغييرًا ولا تبديلا، فإذا ظهرت مقيدة بالحروف دخلها ما يدخل الكون من التغيير والتبديل، واختلاف العبارات، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا.

وقال: كل من صدق في احترام الألوهية واستحضرها، وكانت مشهورة له، كان النصر الإلهي معه، غيرة إلهية أن يغلب من استند إلى الحق ولو في زعمه، ومن هنا كانت الغلبة للمشركين في أحد المواطن، لأنهم وفوا آلهتهم حق الحرمة لما اعتقدوا فيها الألوهية، فإذا كان هذا النصر يقع لمن استند إلى الاسم ولو وضع على غير مستحقه ممن لا ينفع، فكيف بالاستناد إلى الله؟! ولهذا قالوا: الصدق سيف الله.

وقال: لا ينقص العارف قوله لتلميذه: خذ هذا العلم الذي لا تجده عند غيري ونحوه، مما فيه تزكية نفسه؛ لأن قصده حث المتعلم على القبول.

وقال: كلام على صورة السامع بحسب قوة استعداده وضعفه، وشبهته القائمة بباطنه.

وقال: كل من ثقل عليك الجواب عن كلامه فلا تجبه، فإن وعاءه ملآن، لا يسع الجواب.

وقال: من صح له قدم في التوحيد، انتفت عنه الدعاوى من نحو رياءٍ وإعجاب، فإنه يجد جميع الصفات المحمودة لله لا له، والعبد لا يعجب بعمل غيره، ولا بمتاع غيره.

وقال: من ملكته نفسه عذب بنار التدبير، ومن ملكها لله عذب بنار الاختيار، ومن عجز عن العجز أذاقه الله حلاوة الإيمان، ولم يبق عنده حجاب.

وقال: من أدرك من نفسه التغير والتبديل في كل نفس فهو العالم بقوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: 29].

وقال: من علامة فقد النفس في حق المريد، عدم شهوته لشيء من أمر الدارين.

وقال: من طلب دليلاً على وحدانية الله تعالى، كان الحمار أعرف بالله منه.

وقال: الجاهل لا يرى جهله؛ لأنه في ظلمته، والعالم لا يرى علمه؛ لأنه في ضياء نوره، ولا يرى شيء إلا بغيره، فالمرآة تخبرك بعيوب صورتك، وتصدقها مع جهلك بما أخبرت، والعلم يخبرك بعيوب نفسك مع علمك بما أخبر، وتكذبه، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟

وقال: حسن الأدب في الظاهر آية حسنة في الباطن، فإياك وسوء الظن.

وقال: كان المصطفى يتواضع لأكابر قريش؛ لأن الأعزاء من الخلائق، مظاهر العزة الإلهية، فكان يقدمهم على فقراء الصفة ليوفي صفة الكبرياء حقها، وهذا مقام عال، لكن فوقه أعلى منه، وهو ما أمره به آخرًا بقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ [الكهف: 28] فأمر ألاّ يشهده في شيء دون شيء.

وقال: معنى الفتح عندهم كشف حجاب النفس أو القلب أو الروح أو السر، لما في الكتاب والسنة.

وقال: ربما فهم أحدهم من اللفظ ضد ما قصده المتكلم.

سمع أحد علماء بغداد رجلاً من شربة خمر ينشد:

إذا الْعِشْرُونَ مِنْ شَعْبَانَ وَلَّتْ ... فَوَاصِلْ شُرْبَ لَيْلِكَ بِالنَّهَارِ
وَلاَ تَشْرَبْ بِأَقْدَاحٍ صِغَارٍ ... فَإِنَّ الْوَقْتَ ضَاقَ عَنِ الصِّغَارِ

فهام على وجهه في البرية، حتى مات.

وقال: كثيرا ما يوهب في قلوب العارفين نفحات إلهية، فإن نطقوا بها جهلهم كمل العارفين، وردها عليهم أصحاب الأدلة من أهل الظاهر، وغاب عن هؤلاء أنه تعالى كما أعطى أولياءه الكرامات التي هي فرع المعجزات، فلا بدع أن تنطق ألسنتهم بعبارات تعجز العلماء عن فهمها.

وقال: من لم يقم بقلبه تصديق ما يسمعه من كلام القوم فلا يجالسهم، فإن مجالستهم بغير تصديق سمٌّ قاتل.

وقال: شدة القرب حجاب، كما أن غاية البعد حجاب، وإذا كان الحق إلينا أقرب من حبل الوريد، فأين السبعين ألف حجاب[1]؟

وقال: لا تدخل الشبهة في المعارف والأسرار الربانية، وإنما محلها

(1) رواه ابن أبي عاصم في السنة (353)، والطبراني في الكبير (5802) بنحوه.

العلوم النظرية.

وقال: نهاية العارفين منقولة غير معقولة، فما ثم عندهم إلا بداية، وتنقضي أعمارهم، وهم مع الله على أول قدم.

وقال: أقل الناس طمعًا من رضي بالدنيا، وأكثر منه طمعًا من لم يرض بها وطلب الآخرة، وأكثر منه طمعًا من طلب وجه الله، وهنا أسرار لا تسطر في كتاب.

وقال: ليس عند العارفين خلوة؛ لأن الكون كله معمور، متى ناطق بتسبيح خالقه، ومن اتخذ الخلوة استجلاءً للفراغ الذي يجده تقويةً للاستعداد، فهو في حظ نفسه ما برح، وقد ذم الله الذين يتسللون على أمر ليسوا له بأهل.

وقال: الحق غني عن الدلالة عليه، ولولا غناه لكان للدليل فخر على المدلول.

وقال: كل من آمن بدليل فلا وثوق بإيمانه لأنه نظري، فهو معرض للقوادح، بخلاف الإيمان الضروري الذي يوجد في القلب، ولا يمكن دفعه، وكل علم حصل عن نظر وفكر، لا يسلم من دخول الشبه عليه ولا الحيرة فيه.

وقال: شرط الكامل الإحسان إلى أعدائه وهم لا يشعرون، تخلّق بأخلاق الله، فإنه دائم الإحسان إلى من سماهم أعداءه مع جهل الأعداء به.

وقال: شرط الشيخ أن يكون عنده جميع ما يحتاجه المريد في التربية، لا ظهور كرامة، ولا كشف باطن المريد.

وقال: لا يعمل للخلق في حركة ولا سكون، إلا بحكم التبعية للحق؛ لأنه المحرك للحركة الظاهرة بالحركة الخفية.

قال: ما من نقمة إلا وفيها رحمة، ألا ترى أنه لولا قطع الأكلة، هلك صاحبها؟.

وقال: الشفقة على الخلق أحق بالرعاية من الغيرة في الله؛ لأن الغيرة لا أصل لها في الحقائق الثبوتية؛ لأنها من الغيرية، ولا غيرية هناك.. ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: 61]، ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، [الشورى: 40] فجعل القصاص سيئة، أي أن ذلك الفعل سيئة مع كونه مشروعًا.

كل ذلك تعظيمًا لهذه النشأة التي تولى الحق خلقها بيده، واستخلفها في الأرض، وحرم على عباده السعي في إتلافها بغير إذنه.

وقال: لو كان ما بأيدي الخلق ملكهم، ما حجر عليهم حق التصرف فيه، ولا حد لهم الحدود، فكل ما بأيديهم - حتى أفعالهم - له.

وقال: الصوفي من أسقط الياءات الثلاث، فلا يقول لي، ولا عندي، ولا متاعي - أي لا يضيف لنفسه شيئًا.

وقال: الروح إذا صفت من كدر الوقوف مع الطبع، التحقت بعالمها المناسب لها، فأدركت ما أدركته الأرواح العلا من علوم الملكوت والأسرار، وانتقش فيها كل ما في العالم من المعاني، وحصلت من الغيوب بحسب الصنف الروحاني المناسب لها، فإن الأرواح - وإن جمعهم أمر واحد - فلكل روح مقام معلوم، فهم على طبقات، منهم الكبير، والأكبركجبريل، وإن من أكابرهم فميكائيل أقرب، ومنصبه فوق منصبه، وإسرافيل أكبر من ميكائيل، وجبرائيل أكبر من إسماعيل.

وقال: العلم بوجود الصانع - عند ظهور الصنعة للناظر - ضروري وإن لم يعلم حقيقة الصانع ولا ماهيته، ومن لم يعلم ما يجب ويجوز ويستحيل عليه إلا بعد نظر فكري، فهذا مرضٌ لا طبَّ فيه.

وقال: المؤمن الصحيح الإيمان هو من يعبد الله الذي وصفه الشارع، والمؤمن المريض الإيمان من يعبد الله الذي دلَّ عليه العقل لا غير، وقد نبهتك على أمر يتضمن عذر كل من اعتذر.

وقال: المضطر هو الذي دعا ربه عن ظهر فقر إليه، وما منع الناس الإجابة إلا لكونهم يدعونه عن ظهر غنى؛ لالتفاتهم إلى الأسباب وهم لا يشعرون.

وقال: «الدعاء مخ العبادة[1]»، وبالمخ تكون القوة للأعضاء، فلذا تتقوى به عبادة العابدين.

وقال: لا يخلص المؤمن من معصيته بغير أن يخالطها طاعة، فالمخلط هو المؤمن العاصي، فإنه إذا عصى في أمر، فهو مؤمن بأن ذلك معصية والإيمان واجب فقد أتى واجبًا، فالمؤمن مأجور في عين عصيانه.

وقال: أراد رجل من أهل القيروان الحج وتردد، هل يمشي بحرًا أو برًا، وما ترجح شيء عنده، فقال: أسأل أول رجل ألقاه. فأول من لقيه يهودي، فحار في أمره ثم سأله، فقال له: يا مسلم، أليس الله يقول: «هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ»؟ قدم ما قدم الله.

وهذا هو الطريق: نبدأ بما بدأ الله به، ونقدم ما قدمه، فمن التزم ذلك، رأى في

(1) رواه الترمذي (3368).

حركاته خيرًا كثيرًا.

وقال: يدور القضاء في الجو من مقعر فلك القمر إلى الأرض ثلاث سنين، وحينئذ ينزل، فيعرف الأولياء ذلك بحالة تسمى فهم الفهم.

وقال: تحفظ من لذّات الأحوال؛ فإنها سموم قاتلة، وحجب مانعة.

وقال: لا تدخل دارًا لا تعرفها، فما من دار إلا فيها مهاوٍ ومهالك، قف عند باب دارك حتى يأخذ الحق بيدك.

وقال: أماني النفوس تضاد الأنس بالله؛ لأنه لا يدرك بالأماني.

وقال: لا يغرنك إمهاله، فإن بطشه شديد، والتقي من اتعظ بنفسه، ولا يغرنك من خالف، فجوزى بإحسان المعارف، ووقف في أحسن المواقف وتجلت له المشاهد، هذا كله مكرٌ به، واستدراج من حيث لا يعلم، قل له احتج عليك بنفسه:

ستعلم حين ينقشع الْغُبَارُ أبغلٌ كانَ تَحْتَكَ أَمْ حِمَارُ

وقال: ليس للكُمَّل همة تؤثر في أحد إذا همَّ؛ لأن المعرفة لم تترك لهم همة يتصرفون بها، وكلما علت المعرفة نقص التصرف لتحققهم بمقام العبودية، ونظرهم إلى أصلهم من الضعف.

وقال: لا يصح لعبدٍ مقام المعرفة بالله وهو يجهل حكمًا من شرائع الأنبياء، فمن ادّعى المعرفة، واستشكل حكمًا واحدًا في الشريعة المحمدية أو غيرها، فهو كاذب.

وقال: أجمعت الطائفة على أن العلم بالله عين الجهل به تعالى.

وقال: إذا طلبت الطريق إلى الله من حيث ما شرعه كان الحق غايتك، وإذا طلبته من حيثما تعطيك نفسك من الصفات، والالتحاق بعالمها من التنزه عن الطبيعي إليها، كان غايتها اللحوق بعالمها الروحاني، ومن ثم تنشأ شريعة الأرواح، حتى يكون الحق غايتها.

وقد أفردنا لهذه الطريقة خلوة مطلقة في جزء يعمل عليها المؤمن، فيزيد إيمانًا، والكافر والمعطل والمشرك والمنافق، فإذا وفّى العمل عليها وبها، حصل له العلم بما الأمر عليه، ويكون ذلك سبب إيمانه بوجود الله وإن كان معطلاً، وبتوحيده إن كان مشركًا، وبحصول إيمانه وإن كان كافرًا، وبإخلاصه وإن كان منافقًا، فمن عمل بشروط تلك الخلوة، أثمرت له ما ذكر، وما سبقني إليها أحد في علمي.

وقال: قد يقصد العبد مناجاة ربه، وقد يأتيه الأمر بغتةً كموسى، ذهب ليقتبس

نارًا، فكلمه ربه، ولم يكن له قصد لذلك.

وقال: ليس في الإمكان أبدع من هذا العالم؛ لكماله في الدلالة عليه، واستيعابه ما نسب الحق إلى نفسه وإلى العالم، فقد انحصر الأمر فيما وجد من العالم من جهة الحقائق.

وقال: إذا ذكر الله الذاكر ولم يخشع قلبه، ولا خضع عند ذكره إياه، لم يحترم الجناب الإلهي، ولم يأت بما يليق به من التعظيم، وأول ما تمقته جوارحه، وجميع بدنه.

وقال: أمهات الأسماء الإلهية كلها التي عليها يتوقف وجود العالم أربعة لا غير: الحي، العالم، المريد، القادر. وبهذه الأسماء ثبت كونه إلهاً.

وقال: من يتعرض للفتح فلا يُفتح له، يُجمع له إلى أن يموت، فيرى عند موته ما أخفي له من قرة أعين، فيعلم عند ذلك أنه كان مسافرًا إلى الله، ولم يشعر لكونه ما فتح له في حياته الأولى، ولا شاهد ما شاهد غيره من السائرين إلى الله.

وقال: الحق سبحانه لا يقرّب عبده إلا ليمنحه ويعطيه، ثم يبرزه للناس قليلاً قليلا، لئلا يبهرهم نور ما أعطاه؛ لضعف عيون بصائرهم رحمةً بالعامة.

وقال: العبد لا فخر له بأبيه، بل بسيده، وإن افتخر عبدٌ بأبيه، فإنما يفتخر به من حيث إنه كان مقرّبًا عند سيده؛ لأنه عبد مثله.

وقال: جميع حركات الكون من جهة الحقيقة اضطرارية مجبورٌ فيها، وإن كان الاختيار في الكون موجودًا تعرفه، لكن ثَمّ علم آخر، علمنا به أن المختار مجبور في اختياره، بل الحقائق تعطى، فلا مختار؛ فقد رأينا الاختيار في المختار اضطراريات، أي لا بد أن يكون مختارًا.

وقال: أخبرني من أثق به قال: دخلت على رجلٍ فقيهٍ عالمٍ متكلم، فوجدته بمجلس فيه الخمر وهو يشرب، ففرغ النبيذ فقيل له: أنفذ إلى فلان يأتي بنبيذ. قال: لا، فإني ما أصررت على معصية قط، ولي بين الكأسين توبة، ولا أنتظره، فإذا حصل بيدي أنظر: هل يوفقني ربي فأتركه، أو يخذلني فأشربه؟ ثم قال - أعني ابن عربي - فهكذا العلماء.

وقال: كل رُوح لا يعطي رسالة، فهو روح لا يقال فيه ملَك إلا مجازًا، كالأرواح المخلوقة من أنفاس المؤمنين الذاكرين، يخلق أنفاسهم أرواحًا يستغفرون الله لصاحب

الذكر إلى يوم القيامة، وكذا من أعمالهم المحمودة التي فيها أنفاسهم، فهؤلاء أرواح مطهرة، فمن أرسل منهم في أمر سُمي ملكًا.

وقال: الوقف عن تفضيل البشر على الملك، وعكسه لاختلاف الجنس، فلا يقال الحمار أفضل من الفرس مثلاً، اللهم إلا أن يرجع التفاضل إلى الأرواح فلا مانع؛ لأن أرواح البشر ملائكة، فالملك جزء من الإنسان، فالكل من الجزء وعكسه.

وقال: علوم العقل المستفادة من الفكر يشوبها تغيير؛ لأنها بحسب مزاج المتفكر من العقلاء؛ لأنه ينظر في مواد محسوسة كونية في الخيال، ولذلك تختلف مقالاتهم في شيء واحد، بل تختلف مقالة الواحد في شيء واحد لاختلاف الأمزجة، والتخليط والأمشاج التي في النشأة الأولى بخلاف العلم اللدني، فإنه خالص لم يشبه كدر؛ لخلوصه من حكم المزاج الطبيعي.

وقال: ليس في مقدور العبد مراقبة الله في السر والعلن مع الأنفاس، فالذي عليه بذل الجهد في الاستحضار.

وقال: إنما سميت شبهة شبه لأنها تشبه الحق من وجه.

وقال: اقتضت الحكمة الإلهية عدم اتفاق الخلق على اعتقاد ولي من الأولياء، والإذعان له لسرٍ خفي، هو أنه لو كان كل الخلق مصدقين له فاته أجر الصبر على التكذيب، ولو كانوا كلهم مكذبين له فاته الشكر على تصديق المصدقين له والمعتقدين لآثاره، فجعلهم الحق قسمين: معتقِدًا ومنتقِدًا، ليتعبد الله فيمن صدقه بالشكر، وفيمن كذبه بالصبر.

وقال: من عوّد نفسه الكذب على الناس، يستدرجه الطلب حتى يكذب على الله، فإن الطبع سرّاق.

وقال: من شرفت مرتبته وعلت منزلته كبرت صغيرته، ومن كان وضيع المنزلة خسيس المرتبة، صغرت كبيرته.

وقال: من لم يخطر له خاطر الحضور مع الله إلا في وقت قضاء الحاجة، فهو خاطر شيطاني لا يعوّل عليه.

وقال: ليس للأماكن أثر في حجاب القلب عن ربه، وإنما الأثر، الغفلة والجهل.

وقال: لا خير في علم لا يعطي صاحبه سعادة الأبد، ولا يقدس حامله عن تأثير الأمد.

وقال: إذا وقع التماثل، سقط التفاضل.

وقال: تكليف ما لا يطاق جائز عقلاً، وقد عاينا ذلك مشاهدةً ونقلاً.

وقال: كل ما أدى إلى نقص الألوهية فهو مردود، ومن جعل في الوجود الحاضر ما ليس بمراد الله فهو عن المعرفة مطرود، وباب التوحيد في وجهه مسدود، وقد يراد الأمر ولا يراد المأمور به على الصحيح، وهذا غاية التصريح.

وقال: أصْلُ الأعداد الواحد، فلا وجود لها إلا به، وبه بقاؤها، فافهم.

وقال: الأدب مع الله، ألاَّ ترد عليه ما أعطاك.

وقال: فتنة العلم أعظم من فتنة المال، فإن شرف المال عارض لا تتعداه أفواه الناس، للنفس منه صفة، وشرف العلم حليةٌ تتحلى بها النفس، وفتنته أعظم، ولا زوال له عن صاحبه في حال فقره وغناه ونوائبه.

والمال يزول عن صاحبه بنحو لص أو حرق أو غرق أو جائحة، والعلم منك في حصنٍ حصين يلزم الإنسان حيًا وميتًا، ودنيا وأخرى، وهو لك على كل حال، وإن كان عليك في وقت فهو لك آخر الأمر. وإن أصابك آفة من جهته فلا تكترث، فليس إلا لشرفه، حيث لم يعمل به، فإذا نجوت أخذك إلى منزلته، وهي معلومة.

وقال: للصوم شرط في طريق الله، وهو أن الصائم إنما يمسك عن الأكل بالنهار ليأخذ ما يأكله فيه فيتصدق به، فإن لم يفعل ذلك، واستوفى في عشائه ما فاته بالنهار، فما أمسك، وبهذا ينفصل صوم خواص أهل الله عن صوم العامة.

وقال: من لا علم له بأحدية خالقه كثرت آلهته، وغاب عن معرفته بنفسه، فجهل ربه، فصار عبدًا لكل رب، فهو محلّ لكل ذنب.

وقال: الخيال تابع للحس، ولهذا إذا احتلم المريد برؤيا عاقبه شيخه، ألا ترى أنه ما احتلم نبيٌّ قط ولا عارف؟ فإن الاحتلام إنما هو من بقية طبيعته في خياله، وهو كذب، فإنه يظن أنه في الحس الظاهر، والورع تجنب الكذب، فلو اجتنبه في الحس أثر في خياله، فلم تكذب رؤيا قط، فإذا رأيتم ورعًا اغتسل، فهو من مرض طرأ في مزاجه، لا عن رؤيا، لا في حلالٍ ولا في حرام.

وقال: إذا رأى إنسان إنسان على مخالفة حق مشروع، وفارقه في لحظة، ثم رآه في اللحظة الأخرى، وحكم عليه بالحالة الأولى فما وفّى الألوهية حقها، ولا الأدب مع الله حقه، وكان قرين إبليس، حليف الخسران، سيئ الظن بالله وبعباده، فباطنه مظلم،

وخلقه سيئ، وورعه مقتٌ عليه.

وقال: إن الله ما وصف بالكثرة شيئًا إلا الذكر، وما أمر بالكثرة من شيءٍ إلا منه، وما أوتي الذكر قط إلا باسم الله خاصة معرّى عن التقييد، فقال: اذكروا الله، وما قال بكذا، وقال: ولذكر الله أكبر، ولم يقل بكذا.

وقال: المتولد عن الأضداد المتنافرة، لا بُدّ فيه من المنازعة مع ما في المولد من الأركان، فإنه مولد من مولد، من مولد عن فلك، عن برج، عن طبيعة، عن نفس، فنحن في آخر الدرجات.

وقال: من أفسد شيئًا بعدما أنشأه، جاز أن يعيده كما بدأه.

وقال: من قدر على إمساك الطيور في الهواء، وهي أجسام، قدر على إمساك جميع الأجرام.

وقال: الأزل نعت سلبي، وهي نفي الأولية.

وقال: إذا تجلى الحق لسر عبد، ملّكه جميع الأسرار، وألحقه بالأحرار.

وقال: من لم يعرف حقيقة نفسه لم يصل إلى المعرفة، وكان بعيدًا خلف الحجاب.

وقال: لا يصل المرتاض إلى ما طلب من الذوات المارجية إلا أن يكون جنيًا بالقوة، ويبعد عن الناس بُعدًا كليًا بحيث لا يعلم به غير خادمه، ولا يشغل فكره بغير الأمر المطلوب، فهذه شروط أعرفها، وأشكر الله.

وقال: تكبّر على من تكبّر على الله، وإن التكبّر من صفته.

وقال: من طلبه بالفكر وقوة الفعل، لم يحصل من المعرفة بالحق على طائل، كيف يطلب من يقبل المثل والنظير من لا مثل له ولا نظير؟

وقال: الكل خلق الله، ومضافٌ إليه، فتعظيم خلقه تعظيمه، فطوبى لمن رحم خلقه، ولا يلزم من رحمته أن تلقى إلى أعداء الله بالمودة، ارحمهم من حيث لا يعلمون.

وقال: من نظر الخلق بعين الحق رحمهم، ومن نظرهم بعين العلم مقتهم، ولله أمر وإرادة، فانظر أي الطريقين أنجى لك فأسلكه.

وقال: إذا تجلت لقلبك العظمة وقيدتك، فلا تقف عندها، واهرب إلى الله، فإنها تهلكك.

وقال: لا يهولنك مخلوق، فمن هاله مخلوق أهلكه.

وقال: ما دامت الدنيا موجودة، فالتعب موجود في السعداء، فإنها دار السبك والتخليص.

وقال: كل من أحبك لك فاعتمد على حبه، فإنه الحب الصحيح، وحب الله لخلقه بهذه المثابة.

وقال: عليك بأمر الحق فاتبعه، ولا تغتر بأنك لا ترى شيئًا إلا تحت تصريفه، وحكم إرادته، وما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، هذا لا ينجيك، فانظر ذلك عقدًا، وتصرّف بالأمر.

وقال: إنما كان العلم حجابًا لأنه يطلب المعلوم على حد علمه، وما كل معلوم يتصور الطلب عليه.

وقال: لا تصح المعرفة بالله لأحد حتى يتعرف إليه، وتعرفه بظهوره، فيبصره من القلب عين اليقين بنور اليقين.

وقال: الحق لا يقرب العبد إلا على قدر تعلق همته به، فهمته أنزلته ذلك المنزل، وهمتك خلقها فيك عناية منه بك، فعنايته أنزلتك، فلا شيء لك، فالكل منه وإليه، وهو الله لا إله إلا هو.

وقال: لله تعالى الجود المطلق، فمن آتاه اصطفاه، ومن أعرض عنه دعاه، فإن أجابه تلقاه، وإن تمادى به الإعراض حتى يصل إليه حين تصير الأمور إليه، وجده معرضًا عنه.

وقال: المصلي والذاكر يخلق له من ذكره وصلاته ملك يستغفر له إلى يوم القيامة.

وقال: الإنسان قلب الفلك وعمدته، ألا تراه إذا زال وانتقل من الدنيا، خربت وزالت الجبال، وانشقت السماء، وانكدرت النجوم؟

وقال: إذا رأيت الفتح يتوالى عليك في باطنك، فزنه بحالك، واحفظ حدود الشرع، فإن قام الوزن بالحق، فتلك الواردات بشائر السعادة، وإلا فاحذر المكر.

وقال: كلمة «هو» جمعت جميع قوى الحروف في عالم الكلمات، فلهذا كانت «الهُوية» أعظم الأشياء فعلاً.

وقال: قال أهل الله «بسم الله» منا في إيجاد الأفعال بمنزله «كن» منه.

وقال: الذاكرون أعلى الطوائف لأنه جليسهم.

وقال: أوصاني شيخي أول ما دخلت عليه قبل أن أراه فقلت: أوصني قبل أن تراني، فأحفظ وصيتك، فلا تنظر إلي حتى ترى خلعتها علي قال: هذه نعمةٌ عالية، سد الباب، واقطع الأسباب، وجالس الوهّاب، يكلمك بدون حجاب.

فعملت على وصيته حتى رأيت بركتها ثم جئته، فرأى خلقها علي فقال: هكذا، هكذاً وإلا فلا.

ثم قال: امحُ ما كتبت، وانس ما حفظت، واجهل ما علمت، وكن هكذا معه على كل حال.

وقال: رب حجة تأتي على بهجة، وفرصة تؤدي إلى غصة، وإياك واللجاج؛ فإنه يوغّر القلب وينتج الحرب، عيّ تسلم به، خير من نطقٍ تندم عليه، فاقتصر من الكلام على ما يقيم حجتك ويبلغك حاجتك.

وإياك والفضول، فإنه يزل القدم، ويورث الندم، عيّ يزري بك خير من براعةٍ تأتي عليك.

وقال: ليس الناطق من كلّمك بصوته وحرفه، بل من كان في قوته أن يوصل إليك ما عنده من المعاني.

وقال: الفرق بين ولد الدين وولد الطين في الميراث، الدين للعلم، والطين للمال.

وقال: أبوك من أنفق عليك، فإن أنفقت عليه فأنت أبوه.

وقال: صورة الإنسان بعد موته ينبوع أحواله في الدنيا، فكن على أحسن الحالات، تكن على أحسن الصور.

وقال: من جنا وعلم أن الحق غفار غُفر له، ومن لم يجنِ ولم يعلم أنه غفار، فقد جنا.

وقال: الصدق صفة جامعة للشرف، عليه دلت المعجزات كلها، فالزم الصدق أيها السالك، ترى العجب العجاب، اخلُ مع الحق على قدم الصدق أسبوعًا بل أقل، لولا أن اتألّي على الله لحلفت أنه يجعل الطير تظلك، والوحش تصلي خلفك، ويخرج منك نور يضيء منه المشرق والمغرب.

وقال: لك ظاهرٌ إلى الخلق، وباطنٌ إلى الحق، فمتى ظهر الحق على ظاهرك

سقطت حرمتك عند الخلق، وفيها سعادتك، وإذا خرج العبد من عند الحق خدم وعظم، وإذا دخل عليه جُهل، وما احترم إلا عند الخواص.

وقال: القرب من الحق بحسب تقديس الذات وتزكيتها، ولا يختص بذلك ذَكرٌ دون أنثى، بل هو فضل الله يؤتيه من يشاء، وقد كمُل من النساء مريم وآسيه.

وقال: الفرح من صفات المؤمنين لانتظارهم لما آمنوا به، فإذا لقوه فرحوا، «للصائم فرحتان»[1]، والعارفين لا يجوز عليهم الفرح مع المعرفة، بل لو جاز عليهم الغم لاغتموا إذا سمعوا ردّوهم إلى قصورهم، ولا فرح للمشاهدة لاستيلاء العظمة، فإنها تمنع من الحركة، والفرح حركة، فعليهم هيبةٌ وسكينة.

وقال: إذا عمَّ الفساد البر والبحر، فارفع همتك عن الأرض، واجعلها سماوية علوية، حذر الهلاك.

وقال: الابتلاء مقرون بالدعوى، لا تدع فتُبتلَ، ولا تُطالب فتطالب.

وقال: في ذبح القرابين هو ائتلاف أرواح عند تدبير أجسام حيوانية، لتتغذى بها أجسام إنسانية، فتنظر أرواحها إليها حين تفريقها، فتدبرها إنسانية، بعد أن كانت تدبرها إبلاً أو بقرًا أو غنمًا.. قال: وهذا لا يفطن له إلا من نور الله بصيرته من أهل الله.

وقال: نفوسنا من حيث هي من الملائكة الذين مقامهم تدبير هذه الأجسام العنصرية، وجعلت هذه الأجسام الطبيعية حجاباً دوننا عن إدراكنا إياها.

وقال: حصول المطلوب أو اليأس من تحصيله بدء السكينة فيما يطلب، لهذا قيل:

إِنَّمَا أَجْزَعُ مِمَّا أَتَّقِي ... فَإِذَا حَلَّ فَمَا لِي وَالْجَزَعُ
وَكَذَا أَطْمَعُ فِيمَا أَبْتَغِي ... فَإِذَا فَاتَ فَمَالِيَ وَالطَّمَعُ

وقال: كان أحد رجال الله يقول: جعلك الله محدثًا صوفيًا، وَلاَ جعلك صوفيًا محدثًا، فإن الغالب أن يكون يحكم الأصل المتقدم إلا أن يعصم الله، فمعرفة المكان الذي لنا من الأنبياء يجب علينا العلم به، لئلا نكون ممن ليس عليه ذلك.

وقال: ملائكة التدبير هم الأرواح المدبرة أجسام العالم المركب، وهي المدبرة في النُفوس الناطقة.

---

(1) رواه البخاري (7492).

وقال: خلق الله الدنيا وما نظر إليها ففنيت؛ لأن نظر الباقي ثمرته البقاء، فما وقع الإعراض عن الدنيا لهوانها - كيف وهي منزل الخلفاء - بل لما كان من الفناء والبقاء، والإنسان هنا خليفه، وفي الآخرة إنسان لا غير.

وقال: ينبغي للعبد التأدب بآداب الحق، فإذا رأى فحشًا، كنّى عنه ولا يسميه.

وقوله ﷺ: «أنكتها؟»[1] حالة ضرورة.

وقال: من طلب السلطة على الخلق، ملأ الله قلبه شغلاً، ولا يعرف قدره، وإن أعطيها، نفذ فيها صفر اليدين وقد عرف قدره.

وقال: أنصحك إذا رأيت من يقول لك: أنا الحق، فقل له: أنت بالحق، فإنه يفنى ولا بد.

وقال: إذا ادّعيت الوصلة وجمع الشمل، أخاف عليك أن يكون جمعك به لا به؛ لأنك إن طلبته لعلّه، فإنما وصلت لغرضك منه، وإن طلبته له وتحققت بهذا المقام، فأنت الواصل إليه حقًا.

وقال: الأولياء على عدد الأنبياء، فلا بد أن يكون في كل عصر مائة ألف ولي، وأربعة وعشرون ألفًا - لا يزيدون ولا ينقصون - لكل نبي ولي.

وقال: احذر هذا الطريق، فإن أكثر الخوارج إنما خرجوا منه وما هو إلا طريق الهلاك أو الملك.

من حقق علمه وعمله وحاله، نال عز الأبد، ومن فارق التحقيق فيه هلك وما نفد.

وقال في رسالة كتبها إلى الإمام الرازي:

اعلم يا أخي أن الرجل لا يكمل في مقام العلم حتى يكون علمه عن الله بلا واسطة من نقل أو شيخ، فمن كان علمه مستفاد من ذلك، ما برح عن الأخذ من المحدثات، وذلك معلول عند أهل الله، ومن قطع عمره في معرفة المحدثات وتفاصيلها، فإنه حظه من ربه؛ لأنه العلوم المتعلقة بالمحدثات يفني الرجل عمره فيها ولا يبلغ حقيقتها، ولو سلكت على يد شيخ من أهل الله أوصلك إلى حضرة شهود الحق، فتأخذ منه العلم من طريق الإلهام الصحيح، بلا تعبٍ ولا سهر - كما أخذه الخضر - فلا علم إلا ما كان عن كشف وشهود، لا عن نظر وفكر.

---

(1) رواه البخاري (6824)، ومسلم (1691)، والترمذي (1428).

وحكي عنه - أي عن الفخر الرازي - أن السلطان حبسه وعزم على قتله، وما له شفيع عنده. قال: فطمعت أن اجمع همي على الله في أمري أن يخلصني لما انقطعت الأسباب، وحصل اليأس من كل ما سواه، فما خلص لي ذلك، لما يرد على من الشُبه النظرية في إثبات الله الذي ربطت معتقدي به، إلى أن جمعت همتي بكليتي على الإله الذي يعتقده العامة، ورميت من نفسي نظري وأدلتي، ولم أجد في نفسي شبهة تقدح فيه، وأخلصت إليه ودعوته، فما أصبحت إلا وقد فرّج الله عني.

وقال: الرياضة عند المحققين إنما هي لتحسين الأخلاق، وعند الحكماء لصفاء المحل، وعلى كل، فليس هما بفتح ولا ينتجانه، وإنما يأتي الفتح من عند الله، ولو كان له سبب ينتجه كان مكتسبًا، وإنما جعل الذكر عادة لئلا يروح الوقت بغير عبادة، ويتعين على الذكر ألاّ يقصد بذكره حضرةً مخصوصةً أصلاً، بل يترك الحق يختار له من خزائن غيبة، ما يقتضيه جوده وإحسانه.

وقال: الإيمان نور شعشعاني ممزوج بنور الإسلام، فإنه ليس بوحدته استقلال، فإذا امتزج بنور الإسلام أعطى الكشف والمطالعة، فعلم من الغيوب على قدره، حتى يرتقي إلى مقام الإحسان.

وقال: ظنون الولي مصيبة، فإنه كشف له من خلف حجاب الجسد، فيجد الشيء في نفسه، ولا يعرف من أين جاء.

وقال: صاحب النشأة المعتدلة لا تكذب خواطره أبدًا، فإن كذبت فلعارض، ومن هذه النشأة كانت الكهنة، فإذا كان لصاحبها قدم سعادة بحيث يصل إلى النفس الكلية، أخذ عنها أخذًا صحيحًا، واستشرف على الغيب، ورأى هو العالم في قوة النفس.

وقال: الخاطر الأول رباني لا يخطئ أصلاً إلا لعارض، فمن فاته معرفة الخاطر الأول - وليس عنده تصفية خلقية - فلا رائحة له من علم الغيب، ولا يعتمد على حديث النفس، فإنه أماني.

وقال: احذروا الأحوال، فإنها سموم قاتلة، وحجب مانعة، فإن العلم يستعبدك له، وهو المطلوب منا، والحال إما يسودك على أبناء جنسك لانقيادهم لما قهرتهم به من الوصف الرباني، وإما يلذذك بذاتك، وصاحب اللذة محجوب بها، ممنوع عن المشاهدة.

وقال: كم ماشٍ على الأرض والأرض تلعنه، وكم ساجدٍ عليها وهي لا تقبله،

كم داعٍ لا يتعدى كلامه لسانه، كم من عدوٍ بغيضٍ في الصلوات والمساجد، كم من وليٍ حبيبٍ في البيع والكنائس، يعمل هذا في حق هذا، وهو يحسب أنه يعمل لنفسه، حقت الكلمة، ووقعت الحكمة، ونفذ الأمر، فلا نقص ولا مزيد.

وبالنرد كان اللعب لا بالشطرنج قاصمة الظهر، وقارعة الدهر، حكم نفذ لا راد لأمره، ولا معقب لحكمه، انقطعت الرقاب، وسقط من الأيدي، تلاشت الأعمال، طاحت المعارف، أهلك الكون السلخ والخلع، يسلخ من هذا، ويخلع على هذا، فاعتبروا يا أولى الأبصار.

وقال: إذا أردتَ ألاّ تخاف أحدًا فلا تخف أحدًا، تأمن من كل شيء ويأمنك كل شيء.

وقال: «مررت في سفري - في زمن جاهليتي - مع والدي في برية، وإذا حمرٌ وحشيةٌ ترعى، وكنت مولعًا بالصيد، وكانت غلماني بعيدة، فجعلت في قلبي ألاّ أوذي أحدًا منها، فوصلتها ودخلت بينها - ربما مرَّ سنان الرمح بسنام أحدها - فما رفعت رءوسًا حتى جزتها، ثم أعقبني الغلمان، فنفرت أمامهم، فما علمت سببه حتى دخلت طريق الله، فعلمت أنه سرى الأمان الذي في نفسي لهم في نفوسهم».

فكف عن ظلمك، واعدل في حكمك ينصرك الحق، ويطيعك الخلق، وتصفوا لك النعم، وترتفع عنك التهم، فيطيب عيشك، ويسكن جأشك، وتملك القلوب، وتأمن محاربة الأعداء. والسلام.

مات بدمشق في ربيع سنة ست وثلاثين وستمائة، ودفن بالصالحية، بتربة ابن سراقة.

وقال البساطي: وعنه أخذ ابن الفارض والقونوي. انتهى كلام العلامة المناوي رحمه الله تعالى.

وصلى الله على سيدنا محمدٍ وآله وصحبه وسلم

* * *

ترجمة الشارح

هو الشيخ الإمام العالم الفقيه الرباني سيدي ناصر بن الحسن الشريف الحسيني، السبتي، الكيلاني، الحنفي، نزيل طيبة. يُعرف بالحكيم.

لم ينصف في ترجمته مثل كثيرين من العلماء المحققين.

فما وصلنا عنه سوى التعريف به ﷺ وأرضاه.

مصنفاته:

- شرح مختصر القدوري في الفقه الحنفي.
- مطالع النقش والنصوص في شرح الفصوص لسيدي محيي الدين بن عربي.
- مجمع البحرين شرح الفصين (حكم الفتوحات وحكم الفصوص).

كان حيًا سنة 940 هـ.

وانظر في الترجمة:

- هدية العارفين للبغدادي (488/2).
- كشف الظنون لحاجي خليفة (1261/2).
- معجم المؤلفين لكحالة (7/4).
- أعلام القادرية للدكتور درنيقة.

•••

نماذج من صور المخطوط



صورة غلاف المخطوط



صورة الورقة الأولى من المخطوط



حرجا والله يسيئون هذا الذي أرى لك فانظر ماذا ترى وورد في الحديث عن بيان
كلمة حكمة من سفيه فاقبلوها وكلمة سفه من حكيم فاغفروها فانه لا سعيد الا
ذو عثرة ولا حكيم الا ذو تجربة والله المستعان وعلى الله قصد السبيل الحمد لله رب
العالمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وآله الطاهرين وصحبه الحائزين كل
خشية ختم الأولياء المحمديين وجعلنا وإياكم المؤمنين الصديقين [illegible] عنهم أجمعين
برحمتك يا ارحم الراحمين، ختمت هذين [illegible] اللذين كالزهرادين [illegible]
في رمضان ليلة عشرين سنة اربعين وتسعمائة من هجرة خير المرسلين وفي تلك
الليلة رأيت والدي رحمه الله وعنده شخص اسمه علي كان مؤدبي في الصغر وانا جاث
بين يديهما فاحضر الي خلعة سنية مذهبة وهو يخاطبني ويبادرني ويلاطفني
بما اشرب في قلبي منه الفرح فانه ورد في الحديث ان رؤيا المؤمن كلام يكلم به
العبد ربه في المنام ذكره الشيخ الإمام الحافظ الشيخ جلال الدين السيوطي في
كتابه جمع الجوامع رحمه الله فكتبتها هنا فرحا بها والسلام على من
من اتبع الهدى والله اعلم

٢٨٧

صورة الصفحة الأخيرة من المخطوط

خطبة الفصوص

الحمد لله منزل الحِكَم على قلوب الكَلِم بأحديَّة الطريق الأَمَم من المقام الأقدم، وإن اختلفت النِّحل والملل لاختلاف الأمم، وصلى الله على مُمدِّ الهمم، من خزائن الجود والكرم، بالقيل الأقوم، محمد وعلى آله وسلم، أما بعد... فإني رأيت رسول الله ﷺ في مُبشِّرة أُريتُها في العشر الآخِر من محرم سنة سبع وعشرونَ وستمائة بمحروسة دمشق، وبيده ﷺ كتاب، فقال لي: هذا «كتاب فصوص الحكم» خذه، واخرج به إلى الناس ينتفعون به، فقلت: السمع والطاعة لله ولرسوله وأولي الأمر منا كما أُمِرْنَا، فحقَّقْتُ الأمنية، وأخلصت النيَّة، وجردت القصد والهمة إلى إبراز هذا الكتاب كما حدَّه لي رسول الله ﷺ من غير زيادة ولا نقصان.

وسألت الله تعالى أن يجعلني فيه، وفي جميع أحوالي من عباده الذين ليس للشيطان عليهم سلطانٌ، وأن يَخُصَّني في جميع ما يرقُمُه بَنَاني، وينطق به لساني، وينطوي عليه جَناني بالإلقاء السُّبوحي، والنَّفْث الروحي في الرُّوعِ النفسي بالتأييد الاعتصامي؛ حتى أكون مترجمًا لا متحكمًا، ليتحقق من يقف عليه من أهلِ الله أصحاب القلوبِ أنه من مقام التقديس المنزَّه عن الأغراض النفسية التي يدخلها التلبيس.

وأرجو أن يكون الحق لمَّا سمع دعائي قد أجاب ندائي؛ فما أُلقي إلا ما يُلقِي إليَّ، ولا أُنزل في هذا المسطور إلاَّ ما ينزِّل به عليَّ، ولست بنبيّ رسول، ولكنِّي وارث ولآخرتي حارث.

فمـــــــن الله فاســــــــمعوا	وإلـــــــى الله فارجعـــــــــوا
فـــــإذا مــــا ســــمعتم مــــا	أتــــــيت بـــــه فَعُـــــوا
ثـــم بــــالفهم فَـــصِّلوا	مجمـــــل القـــــول، واجمعـــــوا
ثـــم مُـــنُّوا بـــــه علـــى	طالبـــــــيه لا تمـــــــنعوا
هـــــذه الـــــرحمة التــــي	وَسِـــــــعتكم فوسِّـــــــعوا

ومن الله أرجو أن أكون ممن أُيِّد فتأيد، وقُيِّد بالشرع المحمدي المطهَّر فتقيد

وقيِّد، وحشرنا في زمرته كما جعلنا من أمته، فأول ما ألقاه المالك على العبد من ذلك.

الفصُّ الآدمي

فصُّ حكمة إلهية في كلمة آدمية[1]

لمَا شاءَ الحقُّ سُبحانَهُ مِنْ حَيثُ أسمائِهِ الحُسنى الّتي لا يَبْلُغُها الإحصاءُ أن يَرى أعيانَها، وإنْ شِئتَ قُلت: أن يَرى عَيْنَهُ في كونٍ جامعٍ يَحْصُر الأمْرَ كلَّه، لكَوْنه مُتَّصِفًا بالوجودِ، ويَظهَرَ بِهِ سِرُّهُ إليْه؛ فإنَّ رُؤيَةَ الشَّيءِ نَفْسَهُ بِنَفسِهِ ما هِيَ مِثل رؤْيته نَفْسَهُ في أمرٍ آخرٍ يَكُونُ لَهُ كَالمِرآة؛ فإنّه تَظْهَرُ لَهُ نَفْسُهُ في صورةٍ يُعطيها المحلُّ المَنْظُورُ فيهِ مِمّا لَمْ يَكُنْ يظهَرُ لَهُ مِن غَيْرِ وُجُودِ هذا المَحَلِّ وَلا تَجلِّيهِ لَهُ، وَقَد كانَ الحَقُّ أوجَدَ العالَم كُلَّهُ وُجودَ شَبحٍ مُستوٍ لا رُوحَ فِيهِ، فَكَانَ كَمِرآةٍ غَيْرِ مَجلوَّةٍ ومن شأن الحُكمِ الإلهي أنَّهُ ما سوَّى مَحَلاً إلاّ ولا بدَّ أن يَقْبَلَ رُوحًا إلهيًّا عُبِّرَ عَنْهُ بالنَّفْخِ فيه.

وَما هُوَ إلاّ حُصولُ الاستعدادِ مِنْ تلكَ الصُّورةِ المسوَّاة لِقبولِ الفيض التَّجلِّيَ الدائم الَّذي لَمْ يَزَلْ ولا يَزالُ، وما بَقِيَ ثَمَّةَ إلاّ قابِلٌ، والقابلُ لا يَكُونُ إلاّ مِنْ فَيْضِهِ الأقدس، فالأمرُ كُلُّهُ مِنهُ ابتداؤُهُ وانتهاؤهُ: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود: 123] كما ابتدأ مِنه، فَاقْتَضَى الأمرُ جلاءَ مرآةِ العالَم، فكان آدَمُ عيْنَ جَلاءِ تلكَ المِرآة وَرُوحَ تلكَ الصُّورَةِ، وكانت الملائكةُ مِنْ بَعْضِ قُوى تِلكَ الصُّورَةِ الّتي هِيَ صُورَةُ العالَمِ المُعبَّرِ عنه في اصطلاحِ القَوم بـ «الإنسانِ الكَبير»، فَكانَتِ الملائكةُ لَهُ كالقُوى الرُّوحانيّةِ والحِسّيّةِ الّتي هي النَّشأةُ الإنسانيّةُ، وكُلُّ قوةٍ مَحجُوبَةٌ بِنفْسِها لا تَرى أفْضَلَ مِنْ ذاتِها، وَأَنَّ فِيْها فيما تَزْعَمُ، الأهْلِيَّةَ لِكُلِّ مَنْصِبٍ عالٍ، ومَرْتَبَةٍ رَفِيعَةٍ عِنْدَ اللهِ لِما عِنْدَها مِنَ الجَمْعيَّةِ الإلهيَّةِ، بَيْنَ ما يَرجِعُ مِنْ ذلك إلى الجَناب الإلهيِّ، وإلى جانب حَقيقَةِ الحقائق، وفي النشأةِ الحامِلَةِ لهذهِ الأوصافِ إلى ما تَقْتَضيهِ الطَّبيعَةُ الكُلّيَةُ الّتي حَصرتْ قَوابِلَ العالَم كُلِّهِ أعلاهُ وأسفَله.

---

(1) فص: في اللغة، عبارة عن ملتقى الحكم الإلهيّة المشتملة على قوسي الأحديّة والواحديّة، فالملتقى هو الوحدة الصرفة التي هي القلب المحمّدي وقلب كل نبي قبله، والحكمة هي العلم بوضع الأشياء موضعها، والإلهيّة هي مرتبة جامعة لجميع الأشياء، والكلمة هي العين الفاضلة الجامعة الفاصلة المانعة كأعيان الأنبياء عليهم السلام، والآدميّة هي المنسوبة إلى آدم حقيقة الحقائق الإنسانية، وأراد ﷺ بآدم وجود العالم الإنساني.

وهذا لا يَعْرِفُهُ عقلٌ بطريقِ نظرٍ فكريٍّ، بل هذا الفَنُّ مِنَ الإدراكِ لا يَكُونُ إلاّ عَن كَشف إلهيّ منهُ يُعرفُ ما أصل صُورِ العالَمِ القابِلةِ لأرواحِهِ، فَسُمِّيَ هذا المذكُورُ إنسانًا وخليفةً، فأمّا إنسانِيّتُهُ فَلِعُمومِ نشأتِهِ وحَصْرِهِ الحقائقَ كُلَّها وَهُو لِلْحَقِّ بِمَنزلَةِ إنسانِ العَيْنِ من العَينِ الَّذي بِهِ يَكُون النَّظَرُ، وَهُو المعبَّرُ عَنْهُ بِالبَصَرِ، فإنَّهُ بِهِ نَظَر الحَقُّ تعالى إلى خلقِهِ فَرَحِمَهُم، فَهُوَ الإنسانُ الحادِثُ الأزَليّ والنَّشْؤُ الدّائِمُ الأبَديُّ، والكَلِمَةُ الفاصِلَةُ الجامِعَةُ، فَتَمَّ العالَمُ بِوُجُودِه، فَهُوَ مِنَ العالَمِ كَفَصِّ الخاتَم مِنَ الخاتَم، الَّذي هُوَ مَحلُّ النَّقشِ والعَلامَةِ الَّتي بِها يَخْتِم المَلِكُ على خِزانَتِهِ، وَسَمّاهُ خَليفَةً مِنْ أجلِ هذا؛ لأنَّهُ تعالى الحافِظُ بِهِ خَلْقَهُ كَما يَحْفَظُ الخَتمُ الخَزائنَ فَما دَامَ خَتْمُ المِلِكِ عَليها لا يَجْسُرُ أحَدٌ عَلَى فَتْحِها إلاّ بِإذْنِه، فاسْتَخْلَفَهُ في حِفظِ العالَم فَلا يَزالُ العالَم محفُوظًا ما دامَ فيهِ هذا الإنسان الكاملُ، ألا تَراهُ إذا زالَ وفُكَّ مِنْ خِزانَةِ الدّنيا لَمْ يَبْقَ فِيها ما اخْتَزَنَهُ الحَقُّ تعالى فيها وَخَرَجَ ما كان فيها والتَحقَ بَعْضُهُ بِبَعضِهِ، وانْتَقَل الأمْرُ إلى الآخِرةَ فكان خَتْمًا على خِزانَةِ الآخرةِ خَتْمًا أبَديًّا، فَظهرَ جَميعُ ما في الصُّورَةِ الإلهيّةِ مِنَ الأسماء في هذِهِ النَّشأة الإنسانِيّةِ، فحازَتْ رُتبَةَ الإحاطَةِ والجَمْعِ بهذا الوُجودِ، وبِهِ قامتِ الحُجَّةُ للهِ تعالى عَلَى الملائكَةِ، فَتحَفَّظْ فَقَدْ وَعَظَكَ اللهُ بِغَيرِكَ، وانظُر من أينَ أُتِيَ عَلى مَن أُتِيَ عَليه.

فإنَّ الملائكَةَ، لَمْ تَقِفْ مَعَ ما تُعْطِيهِ نشأةُ هذا الخَلِيفَةِ ولا وقَفَتْ مع ما تَقْتَضِيهِ حَضْرَةُ الحَقِّ مِنَ العِبَادَةِ الذّاتِيّةِ، فَإنَّهُ ما يَعْرِفُ أحدٌ مِن الحَقِّ إلاّ ما تُعطِيْهِ ذاتُهُ، وَلَيْسَ لِلْمَلائكة جَمْعِيَّةُ آدَمَ، وَلا وَقَفَتْ مَعَ الأسماءِ الإلهِيَّةِ الّتي تَخُصُّها وَسَبَّحَتِ الحَقَّ بِها وقَدَّسَتْهُ، وما عَلِمَتْ أن لله أسماءً ما وَصَلَ عِلمُها إلَيها، فَما سَبَّحَتْه بِها ولا قَدَّسَتْهُ فغَلب عَلَيْها ما ذَكرنَاهُ، وحَكَمَ عَلَيها هذا الحالُ فَقالَتْ مِنْ حيثُ النَّشأةِ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: 30]، وَلَيْسَ إلاّ النّزاعَ وَهُوَ عَينُ ما وَقَعَ مِنْهم فَما قَالُوهُ فِي حقّ آدمَ هُوَ عَيْنُ ما هُمْ فِيه مَعَ الحقِّ، فَلَوْلا أنَّ نشأتَهُم تعطي ذلِكَ ما قالُوا في حَقّ آدمَ ما قالوه وهُم لا يَشْعُرُونَ، فَلَو عَرَفُوا نُفُوسَهُم لَعَلِمُوا، ولو عَلِمُوا لَعُصِمُوا، ثُمَّ لَم يَقِفُوا مع التَّجريْحِ حَتّى زادُوا في الدَّعوى بِما هُم عَلَيْهِ مِنَ التَّقديسِ والتَّسبيح، وَعِنْدَ آدَمَ من الأسماءِ الإلهيَّةِ ما لَمْ تَكُنِ الملائكة تقف عَليها؛ فما سَبّحت ربَّها بِها ولا قَدَّسَتْهُ عَنها

تَقْدِيسَ آدَمَ وتَسْبيحَهُ، فَوَصَفَ الحَقُّ لنا ما جَرى لِنَقِفَ عِندَه ونَتَعَلَّمَ الأدبَ مَعَ الله تعالى فلا نَدَّعِي ما نَحنُ مُتَحَقِّقون بِهِ وحاوُون عَليهِ بالتَقيد؛ فَكَيفَ أنْ نُطلِقَ في الدَّعوى فَنَعُمَّ بِها ما لَيس لنا بِحالٍ ولا نَحْنُ مِنْهُ على عِلمٍ فَنَفْتَضِحَ؟ فهذا التَّعريفُ الإلهيّ مِمَا أدَّبَ الحقّ بِهِ عبادَهُ الأدباء الأُمَناء الخُلَفَاءَ، ثُمَّ نَرجِع إلى الحكمة فَنَقُولُ: اعْلَمْ أنَّ الأُمورَ الكُلّيَةَ، وإنْ لَم يَكُنْ لَها وجودٌ في عَيْنها؛ فهِيَ مَعْقُولَةٌ مَعْلُومَةٌ بِلا شكٍّ في الذِّهنِ؛ فهي باطِنَةٌ لا تَزُولُ عَنِ الوجُودِ العَيْني.

وَلَها الحُكمُ والأَثَرُ فِي كلّ ما لَهُ وجودٌ عينيٌّ، بِل هُوَ عَيْنُها لا غيرها، أعني: أعيانَ الموجودات العَيْنِيَةِ، وَلَمْ تَزَلْ عَنْ كَونِها مَعْقُولَةً فِي نَفْسِها؛ فهِيَ الظّاهِرَةُ مِنْ حيثُ أعيانِ الموجُوداتِ كما هِيَ الباطِنَةُ مِنْ حَيْثُ مَعْقُولِيَتِهَا، فاستِنادُ كُلِّ مَوْجُودٍ عَيْنيّ لهذِهِ الأُمورِ الكُلّيَةِ التي لا يُمْكِنُ رَفْعُهَا عن العَقل، ولا يُمْكِنُ وجودُها في العينِ وجُودًا تَزُول بِهِ عَن أن تَكُونَ مَعْقُولَةً، وسَواءٌ كانَ ذلكَ الموجُود العينيُّ مؤقتاً أو غير مؤقتٍ إذْ نِسْبةُ الموقتِ وغير الموقتِ إلى هذا الأمرِ الكُلّي المعقولِ نِسْبَةٌ واحدَةٌ.

غَيْرَ أنَّ هذا الأمْرَ الكُلّي يَرْجِعُ إلَيْه حُكْمٌ مِنَ المَوجوداتِ العينيّة بِحَسَبِ ما تَطْلُبُهُ حَقائقُ تِلكَ المَوجُوداتِ العينيةِ، كنِسبَةِ العِلمِ إلى العالمِ والحياةِ إلى الحَيّ؛ فالحَياةُ حَقيقةٌ مَعْقُولَةٌ والعِلْمُ حَقِيقَةٌ مَعْقُولَةٌ متميّزةٌ عَنِ الحياةِ كما أنَّ الحياةَ مُتَمَيّزَةٌ عَنْهُ.

ثُمَّ نَقُولُ في الحقّ تعالى: إنَّ له حياةً وعِلْماً فَهُوَ الحيُّ العالِمُ، ونقول في المَلَكِ: إنَّ لهُ حياةً وعِلْماً فَهُو الحيُّ العالِمُ، ونَقولُ في الإنسان: إنَّ لَهُ حياةً وعِلْماً فَهُوَ الحَيُّ العالِمُ، وحَقِيقَةُ العَلْمِ واحدةٌ، وحقيقةُ الحيَاة واحِدةٌ، ونسبَتُها إلى العالمِ والحيّ نِسْبَةٌ واحِدَةٌ، ونَقُولُ في عِلمِ الحقِّ: إنّهُ قَدِيم، وفي عِلْم الإنسان: إنَّه مُحْدَثٌ فانظر ما أحْدَثَتْهُ الإضافَةُ من الحُكْمِ في هذِهِ الحقيقة المَعْقُولَةِ.

وانظُر إلى هذا الارتِبَاطِ بَيْنَ المَعقُولاتِ والموجُوداتِ العينية، فكَما حَكَمَ العلْم على من قامَ بِهِ أنْ يُقالَ فِيهِ: إنَّهُ عالِمٌ، حَكَم الموصُوفُ بِهِ عَلى العلْمِ بِأنَّه حادثٌ في حَقِّ الحادِثِ، وقَديمٌ في حَقّ القديم، فَصارَ كُلُّ واحِدٍ مَحكُومًا بِهِ ومَحكُومًا عَليه، وَمَعْلُومٌ أنَّ هذِهِ الأمور الكليّةَ، وإنْ كانَتْ مَعقُولَةً فإنَّها مَعْدُومَةُ العَيْنِ مَوجودةُ الحُكمُ كما هِيَ مَحْكُومٌ عَليها إذا نُسِبَتْ إلى الموجُودِ العَيْني، فتَقْبَلُ الحكْمَ في الأعيانِ الموجودةِ، ولا تَقْبَلُ التَفصِيلَ، ولا التَّجزّي؛ فإنَ ذلك محالٌ عَلَيْها، فإنّها بِذاتِها في كلِّ

موصوفٍ بها كالإنسانيّةِ في كُلّ شخصٍ شخصٍ مِن هذا النّوعِ الخاصِ لم تتفصّل ولم تتعدّد بتعدّد الأشخاص، وَلا برَحَتْ معقولةً، وإذا كانَ الارتباطُ بين مَن له وجودٌ عينيٌّ وبينَ من ليسَ له وجودٌ عينيٌّ قد ثَبتَ، وَهِيَ نِسَبٌ عَدميّةٌ، فارتباطُ الموجودات، بَعْضُها بِبَعْضٍ أقرب أن يُعْقل؛ لأنه على كلّ حالٍ بينَها جامعٌ وهو الوجودُ العينيّ، وهُناكَ فما ثَمَّ جامعٌ وقَد وُجِدَ الارْتباطُ بِعَدمِ الجامع فَبالجامِع أقوى وأحقُّ.

ولا شكَّ أنَّ المُحَدثَ قد ثَبتَ حدوثه وافتقارُهُ إلى مُحدِثٍ أحْدَثَهُ لإمكانِهِ لِنَفْسِهِ فَوُجودُهُ مِنْ غَيرِهِ، فَهُوَ مُرتَبِطٌ بِهِ ارتباطَ افتقارٍ، ولا بدَّ أن يكونَ المُسْتنَدُ إليه واجبَ الوجودِ لذاتِهِ غَنِيًّا في وجودِهِ بِنَفْسِهِ غَيْرَ مُفْتَقِرٍ، وَهُوَ الَّذِي أَعْطَى الوُجودَ بِذاتِهِ لهذا الحادِثِ فانْتَسَبَ إليهِ، ولَمّا اقْتَضاهُ لذاتِهِ كانَ واجبًا به، ولَمّا كان استنادُهُ إلى مَنْ ظَهر عَنْهُ لِذاتِهِ؛ اقتضى أنْ يكُونَ على صُورتِهِ فيما يُنْسَبُ إلَيْهِ مِنْ كُلِّ شَيءٍ مِن اسْم وصَفَةٍ، ما عَدا الوُجوب الذّاتيّ؛ فإنَّ ذلك لا يَصحُّ للحادثِ، وإنْ كانَ واجِبَ الوُجودِ، ولكِنَّ وجُوبَهُ بغَيْرِهِ لا بِنَفْسِهِ.

ثُمَّ لِيُعلَمْ أنَّهُ لَمّا كَانَ الأمْرُ عَلى ما قُلْناهُ مِنْ ظهورِهِ بصُورَتِهِ، أحالَنا تعالى فِي العِلْم بِهِ على النَّظَرِ في الحادِثِ، وَذَكَرَ أنَّهُ تعالى أرانا آياتِهِ فِيهِ، فَاسْتَدْلَلْنا بِنَا عَلَيْهِ فَما وَصَفْناهُ بِوَصفٍ إلاَّ كُنّا نَحْنُ ذلِكَ الوصفَ إلاَّ الوُجوبَ الذاتي الخاصَّ، فَلَمّا عَلِمْناهُ بِنا ومِنّا نَسَبْنا إلَيهِ كُلَّ ما نَسَبْنَاهُ إلينا، وبِذلكَ وَرَدَتِ الأخبارُ الإلهيَّةُ عَلى ألسِنَةِ التَّراجِمِ إلَيْنا، فَوصفَ نَفسَهُ لَنا بنا: فَإذا شَهِدْنَاهُ شَهِدْنا نُفُوسَنا، وإذا شَهِدنا شَهِد نَفْسَهُ.

وَلا نَشُكُّ أنّا كثيرون بالشَّخصِ والنَّوعِ، وأنّا وإنْ كنّا على حقيقةٍ واحدةٍ تَجْمَعُنا فَنَعْلَمُ قَطْعًا أنَّ ثَمَّةَ فارِقًا بِهِ تميّزت الأشخاصُ بَعْضُها عَنْ بَعْضٍ، ولَولا ذلِكَ ما كَانَتِ الكثْرَةُ في الواحِدِ، فكذلِكَ أيضًا، وإنْ وَصفناه بِما وَصَف نَفْسَهُ مِنْ جَميعِ الوجوهِ فلا بُدَّ من فارقٍ، ولَيس إلا افتقارنا إليه في الوُجُودِ وتَوَقُّفُ وجودِنا عليه لإمكانِنا وغِنَاهُ عَن مثلِ ما افتقرنا إليه، فبهذا صَحَّ لَهُ الأزلُ والقدم الَّذي انْتَفَتْ عَنْهُ الأوَّليّةُ التي لها افتتاحُ الوجودِ عَنْ عَدَمٍ؛ فَلا تُنْسَبُ إليه الأوّليّة مع كونِهِ الأوَّلَ.

وَلهذَا قِيلَ فيه الآخِرُ فَلو كانَتْ أوليتُهُ أوّليّةَ وُجودِ التَّقييد لَم يَصحَّ أنْ يَكُونَ الآخرُ للمقيّدِ لأنّه لا آخر للممكِنِ؛ لأنَّ الممكِناتِ غَيْرُ مُتناهِيةٍ فلا آخِر لَها، وإنّما كانَ آخِرًا لِرُجوعِ الأمْرِ كُلِّهِ إلَيهِ بَعد نسبة ذلك إلينا، فَهُوَ الآخِرُ في عَيْنِ أوّليّتِه والأوَّلُ في

عَيْنِ آخرِيتِه، ثُمَ لِيَعْلَمَ أنَّ الحَقَّ وَصَفَ نَفْسَهُ بأنَّهُ ظاهِرٌ وباطن، فأوْجَدَ العالَمَ عالمَ غَيبٍ وشهادَةٍ لنُدرِكَ الباطِنَ بِغَيبنا، والظاهِرَ بِشهادَتِنا، ووَصَفَ نَفْسَه بالرِّضا والغَضَب، فأوجد العالَمَ ذا خَوفٍ ورَجاءٍ فَنخافُ غَضَبَهُ ونَرجُو رضاهُ، وَوَصَفَ نَفْسَهُ بِأنَّهُ جَمِيلٌ وذُو جلالٍ فأوجَدَنا على هَيْبَةٍ وأنسٍ.

وهَكذَا جَمِيعُ ما يُنْسَبُ إليه تعالى ويُسَمّى بِهِ، فَعبَّر عن هاتين الصفتين باليَدين اللَّتَين توجَّهتا منه على خلقِ الإنسانِ الكامِلِ، لِكونِه الجامعَ لِحقائِقِ العالَمِ ومُفْرَداتِهِ، فالعالَم شهادةٌ والخَلِيفةُ غيبٌ، ولهذا يُحْجَبُ السّلطانُ، وَوصَفَ الحقُّ نفسه بالحُجُبِ الظُّلمانِيّةِ، وهِيَ الأجسامُ الطّبيعيّةُ الكثيفة؛ والنّوريّة وهي الأرواحُ اللطيفَةُ والعُقُولُ والنُّفُوسُ وعالَمُ الأمرِ والإبداعِ، فالعَالَمُ بينَ كثيفٍ ولطيفٍ، فلا يُدرِكُ الحقَّ إدراكَه نَفْسَهُ، فلا يَزالُ في حِجابٍ لا يُرفَع، مَعَ عِلْمِهِ بأنَّهُ مُتَمَيّزٌ عن موجده بافتقاره إلَيْه، ولكن لا حَظَّ له في الوجوبِ الذاتي الذي لوجودِ الحق، فلا يُدْرِكُهُ أبدًا، فلا يزال الحقُّ من هذهِ الحيثيّة غيْرَ معلومٍ علْمَ ذوقٍ وشهودٍ، لأنّه لا قَدَمَ للحادِث في ذلك، فما جمع الله لآدم بين يَدَيْهِ إلاّ تشريفًا.

وَلِهذا قالَ لإبْليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: 75]، ومَا هُوَ إلاّ عَيْنَ جَمْعِهِ بَيْنَ الصُورَتَيْنِ، صُورَةِ العالَم وصورة الحقّ وهُما يَدا الحق، وإبْلِيسُ جُزءٌ مِنَ العالم لَمْ تَحْصُل لَهُ هذِهِ الجَمْعِيّةُ.

وَلِهذَا كان آدَم خَلِيفَةً، فإن لَمْ يكُنْ ظاهِرًا بِصُورَةِ مَنِ استَخْلَفَهُ فِيما استَخلَفه فِيهِ فَما هُوَ خَلِيفَةٌ، وإن لَمْ يَكُنْ فِيه جميعُ ما تَطْلُبُه الرّعايا الّتي استُخْلِفَ عَلَيها؛ لأنَّ استنادَها إليه فلا بُدَّ أنْ يَقُومَ بِجَمِيعِ ما تَحْتَاجُ إلَيهِ، وإلاّ فَلَيْسَ بِخَلِيفَةٍ عَلَيْهم، فما صَحَّتِ الخلافةُ إلاّ للإنسان الكامِلِ، فأنْشأ صُورَتَهُ الظّاهِرةَ مِنْ حَقائق العالِم، وصُورِهِ وأنشأ صورتَه الباطنَةَ على صُورَتِهِ تعالى.

ولذلك قال فيه: «كنتُ سَمْعَهُ وبَصَرَه»، وما قال: «كُنْتُ عَيْنَهُ وأُذُنَه»، ففرَّقَ بَيْنَ الصُّورتَين، وهَكذا هُوَ فِي كُلِّ مَوجُودٍ مِنَ العالَم بقَدر ما تَطْلُبُهُ حقيقةُ ذلِكَ المَوجُودِ، لكن ليسَ لأحَدٍ مجموعُ ما لِلْخَلِيفَةِ، فَما فازَ إلاّ بِالمَجْمُوعِ، ولولا سَريانُ الحقِّ في المَوْجودات وظُهُورُهُ فِيها بالصُّورَةِ ما كان لِلْعَالَمِ وُجُودٌ، كَما أنّهُ لَولا تِلكَ الحقائقُ المَعقولةُ الكليّةُ ما ظَهَرَ حُكْمٌ في الموجُوداتِ العَيْنيّة.

وَمِنْ هذِهِ الحقيقةِ كانَ الافتقارُ مِنَ العالَمِ إلى الحَقّ فِي وُجُودِهِ.

فالكُلُّ مُفْتَقِرٌ ما الكُلُّ مُستَغْنِ ... هذا هُوَ الحَقُّ قَدْ قُلْنَاهُ لا نَكْنِي

فإن ذكرت غنيًّا لا افْتِقَارَ بهِ ... فقدْ علِمتَ الذي مِنْ قَوْلِنا نَعْنِي

فالكُلُّ فِي الكُلِّ مَربُوطٌ وليسَ لَهُ ... عَنْهُ انفصالٌ خُذُوا ما قلتُهُ عنّي

فقد عَلمتَ حكْمَةَ نَشأة جسدِ آدَمَ أعني صُورَتَهُ الظاهِرة، وقد عَلِمْتَ نشأةَ رُوحِ آدَمَ أعني صُورتَهُ الباطِنَةَ، فَهُوَ الحقُّ الخَلْقُ، وَقَد عَلمْتَ نشأةَ رُتْبَتِهِ، وَهِيَ المَجْمُوعُ الَّذي بِهِ استحقّ الخِلافَةَ، فآدمُ هُوَ النَّفسُ الواحِدةُ الّتي خُلِقَ مِنْها هذا النَّوعُ الإنساني، وهو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: 1]، فقوله: «اتّقوا ربّكُم» اجْعَلُوا ما ظَهَرَ مِنكُم وقايَةً لرَبّكم، واجْعَلُوا ما بَطنَ مِنكُم وَهُوَ رَبُّكُم وقَايَةً لَكُم؛ فَإنَّ الأمر ذَمٌّ وحَمْدٌ فَكونُوا وقايَته في الذمّ، واجْعَلُوهُ وقايَتكُم في الحَمْدِ تَكُونُوا أدباءَ عالِمِين، ثُمّ إنّه تعالى أطلَعَهُ عَلى ما أوْدَعَ فِيهِ وَجَعَلَ ذلكَ في قبضَتَيهِ: القَبْضَةُ الواحِدَةُ فِيها العالَمُ، وفي القَبْضَةِ الأُخرى آدَمُ وَبَنُوهُ وَبَيَّنَ مَراتِبَهُمْ فِيه.

وَلَمّا أطلَعَنِي الله في سِرّي عَلى ما أوْدَعَ فِي هذَا الإمامِ الوَالِدِ الأكبَر، جَعَلْتُ فِي هذا الكِتابِ منه ما حُدّ لي لا ما وَقَفْتُ عَلَيْهِ؛ فَإنّ ذَلِكَ لا يسعهُ كِتابٌ ولا العالم الموجُودُ الآن، فممّا شهدتهُ ممّا نودعُهُ في هذا الكتابِ كَما حَدَّهُ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ، حِكْمَةٌ إلهيّة في كلمةٍ آدَمِيّةٍ وهو هذا الباب.

ثُمّ حِكْمَةٌ نَفْثِيّة فِي كَلمةٍ شِيثِيّةٍ، ثُمّ حِكْمَةٌ سبّوحيّة فِي كَلمةٍ نوحيّةٍ، ثُمّ حِكْمَةٌ قُدُّوسيّة فِي كَلِمَةٍ إدريسيّةٍ، ثُمّ حِكْمَةٌ مُهَيَّمِيّةٌ فِي كَلمةٍ إبراهيميّةٍ، ثُمّ حِكْمَةٌ حَقيّةٌ فِي كَلمةٍ إسحاقيّةٍ، ثُمّ حِكْمَةٌ عَلِيّةٌ فِي كَلمةٍ إسماعيليّةٍ، ثُمّ حِكْمَةٌ روحيةٌ فِي كَلمةٍ يعقوبيّةٍ، ثُمّ حِكْمَةٌ نُوريّةٌ فِي كَلمةٍ يُوسفيّةٍ، ثُمّ حِكْمَةٌ أَحَديّةٌ فِي كَلمةٍ هُودِيّةٍ، ثُمّ حِكْمَةٌ فَاتِحيّة فِي كَلمةٍ صالحيّةٍ، ثُمّ حِكْمَةٌ قَلْبيةٌ فِي كَلمةٍ شُعيبيّةٍ، ثُمّ حِكْمَةٌ مَلْكِيّةٌ فِي كَلمةٍ لُوطِيّةٍ، ثُمّ حِكْمَةٌ قَدَريّةٌ فِي كَلمةٍ عُزَيْريّةٍ، ثُمّ حِكْمَةٌ نَبويّةٌ فِي كَلمةٍ عِيسَوِيّةٍ، ثُمّ حِكْمَةٌ رحمانيّةٌ فِي كَلمةٍ سُليمانيّةٍ، ثُمّ حِكْمَةٌ وُجوديّةٌ فِي كَلمةٍ داوديّةٍ، ثُمّ حِكْمَةٌ نَفَسِيّةٌ فِي كَلمةٍ يُونسيّةٍ، ثُمّ حِكْمَةٌ غيبيّةٌ فِي كَلمةٍ أيّوبيّةٍ، ثُمّ حِكْمَةٌ جلاليّةٌ فِي كَلمةٍ يَحياويّةٍ، ثُمّ حِكْمَةٌ مالكيّةٌ

فِي كَلمةٍ زكرياوِيَةٍ، ثُمَّ حِكْمَةٌ إيناسيَّةٌ فِي كَلمةٍ إلياسيَّةٍ، ثُمَّ حِكْمَةٌ إحسانيَّةٌ فِي كَلمةٍ لُقمانِيَّة، ثُمَّ حِكْمَةٌ إماميَّةٌ فِي كَلمةٍ هارونيَّة، ثُمَّ حِكْمَةٌ عَلَوِيَّةٌ فِي كَلمةٍ مُوسَوِيَّةٍ، ثُمَّ حِكْمَةٌ صَمَديَّةٌ فِي كَلمةٍ خالديَّةٍ، ثُمَّ حِكْمَةٌ فَرديَّةٌ فِي كَلمةٍ مُحمَّديَّةٍ، وفصُّ كل حكمةٍ الكَلِمةُ الّتي نُسِبَ إليها، فَاقْتَصَرْتُ على ما ذَكَرْتُهُ مِنْ هذِهِ الحِكَمِ في هذا الكِتابِ على حَدِّ ما ثَبَتَ في أُمِّ الكتابِ، فَامْتَثَلْتُ على ما رُسِمَ لِي، وَوَقَفْتُ عِنْدَما حُدَّ لي، وَلَوْ رُمْتُ زيادةً على ذلكَ ما اسْتَطَعْتُ؛ فإنَّ الحضرة تَمْنَعُ مِنْ ذلِكَ، والله الموفّقُ لا رَبَّ غَيْرُهُ.

• • •

ومن ذلك

الفصُّ الشيثي

فصُّ حكمة نفثية في كلمة شيثية

اعْلَمْ أنَّ العَطايا والمِنَحَ الظَّاهِرَةَ فِي الكَوْنِ عَلى أيْدي العِبادِ وعَلى غَيرِ أيْدِيهم على قسمَيْن: منها ما تكُون عطايا ذاتِيَّةً وعطايا أسمائيَّةً وَتَتَميَّزُ عِنْدَ أَهْلِ الأذواقِ، كَما أنَّ منها ما يكُونُ عَنْ سُؤالٍ في مُعَيَّنٍ وَعَنْ سُؤال في غيرِ مُعَيَّنٍ، ومنها ما لا يكون عن سؤالٍ، سواء كانَتِ الأعطية ذاتيةً أو أسمائيَّةً، فَالمُعيّن كمنْ يَقُولُ: يا ربِّ أعطِني كذا فَيُعَيِّنُ أمْرًا ما لا يَخْطُر لَهُ سِواهُ، وغَير المعَيِّن كَمَنْ يَقُولُ: يا ربِّ أعْطِنِي ما تَعْلَمُ فِيه مصْلَحَتِي مِنْ غَيرِ تعيينٍ لكُلّ جُزءٍ مِنْ ذَاتِي مِنْ لَطِيفٍ وكَثيفٍ.

والسّائِلُون صِنفانِ: صِنفٌ بَعَثَهُ عَلى السّؤال الاستعْجالُ الطَّبيعيُّ؛ فإنَّ الإنسانَ خلِقَ عَجُولاً، والصِّنفُ الآخر بَعَثَهُ على السؤالِ لِما عَلِم أنَّ ثَمَّةَ أُمورًا عِنْدَ الله قَدْ سَبَقَ العلم بأنّها لا تنالُ إلاّ بَعدَ السّؤالِ، فيقولُ: فلعلَّ ما نَسْأله مِنْهُ سُبْحانه يَكُونُ مِنْ هذا القبيل؛ فسُؤاله احتياط لما هُوَ الأمرُ عَليه مِنَ الإمكان وهُو لا يعلمُ ما في علم اللهِ، ولا ما يُعْطِيهِ استِعدادُه في القَبُولِ، لأنّه مِنْ أغمضِ المعلوماتِ الوقُوفُ في كلّ زمانٍ فَرْدٍ على استعدادِ الشَّخْصِ في ذلِك الزّمان، وَلَوْلا ما أعطاهُ الاستعدادُ السُّؤالَ ما سأل، فغاية أهْلِ الحُضُور الّذين لا يعلمونَ مِثْل هذا أنْ يعلَمُوهُ في الزّمان الّذي يكونُون فيه، فإنَّهُمْ لحُضُورِهِم يَعْلَمُونَ ما أعطاهُم الحَقُّ فِي ذلك الزّمانِ وَأَنَّهم ما قَبلوه إلاّ بالاستعدادِ، وهُمْ صِنْفان: صِنْفٌ يَعْلَمُونَ مِن قَبُولِهم استِعدادَهُم؛ وصِنفٌ يَعْلَمون مِن استِعدادِهم ما يقبلونه، هذا أتمّ ما يكونُ في معرفة الاستعدادِ في هذا الصّنفِ، ومِنْ هذا الصِّنفِ مَنْ

يَسألُ لا للاستعجالِ ولا للإمكان، وإنّما يسأل امتثالاً لأمر الله تعالى في قوله: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: 60]؛ فَهُوَ الْعَبْدُ المَحض، وَلَيْسَ لهذا الدّاعي هِمّةٌ مُتعلّقةٌ في ما يَسْألُ فِيْه مِن مُعيَّنٍ أوْ غَيرِ مُعَيَنٍ، وإنّما هِمّتُهُ في امتثالِ أوامِرِ سَيّدِهِ، بَلْ نَظَره عَلى الحقّ جَمعًا في مقام وَحْدَتِهِ وتَفصِيلاً في مظاهرِهِ، فإذا اقتضى الحالُ السؤالَ سَألَ عُبوديّةً، وإذا اقْتَضى التّفويْضَ والسُّكوتَ سَكَتَ فَقَدْ ابتُلِيَ أيّوبُ وغيرهُ وما سَألُوا رَفْعَ ما ابتَلاهُم الله بِهِ، ثُمّ اقتَضَى لَهُم الحالُ في زَمانٍ آخر أنْ يَسألُوا رَفعَ ذلك فسألوا فَرَفَعَهُ اللهُ عَنهُمْ، والتّعجيلُ بِالْمَسؤولِ فيهِ والإبطاءُ للقدر المُعيَّن لَهُ عِنْد الله، فإذا وافَقَ السُّؤالُ الوَقتَ أسرع بالإجابَةِ وإذا تأخّر الوَقتُ إمّا في الدّنيا وإمّا في الآخِرَة تأخّرتِ الإجابَة، أي المسؤول فيه لا الإجابة التي هي لَبّيكَ مِنَ الله فافهم هذا، وأمّا القِسْمُ الثّاني، وهُوَ قَوْلُنا: «ومِنْها ما لا يَكُون عَنْ سؤالٍ» فإنّما أُريدُ بالسّؤالِ التّلفُّظ بِهِ، فَإنّهُ في نَفْسِ الأمرِ لا بُدَّ مِنْ سُؤالٍ إمّا باللّفظِ، أو بالحالِ، أو بالاستعدادِ، كما أنّه لا يَصِحُّ حَمْدٌ مطلقٌ قَطُّ إلاّ في اللّفظِ، وأمّا في المعنى فَلا بُد أن يُقَيّدَهُ الحالُ؛ فالّذِي يبعثُكَ على حَمْدِ الله هُوَ المُقيِّدُ لَكَ باسمِ فِعْلٍ أو بِاسْمِ تنزيهٍ.

والاستِعدادُ مِنَ العَبْدِ لا يَشْعُرُ بِهِ صاحِبُهُ، ويَشْعُرُ بالحالِ؛ لأنّهُ يَعْلمُ الباعِثَ، وَهُوَ الحالُ فالاستعدادُ أخفى سُؤالٍ، وإنّما يَمْنَعُ هؤلاءِ من السّؤال عِلْمُهُم بأن لله تعالى فيهم سابقةَ قضاءٍ فهم قد هيؤوا مَحلّهم لِقَبول ما يَردُ منه، وقد غابوا عن نُفُوسِهِم وأغراضِهِم، ومِنْ هؤلاء مَنْ يَعْلَمُ أنَّ عِلمَ الله بِهِ في جَميعِ أحوالِهِ هُوَ ما كانَ عَلَيْهِ في حالِ ثُبوتِ عَينِهِ قَبْلَ وجودِها، ويَعْلَمُ أنَّ الحقَّ لا يُعطِيْهِ إلاّ ما أعطتْهُ عَيْنُهُ مِنَ الْعِلْمِ بِهِ، وَهُوَ مَا كانَ عَلَيْهِ في حال ثُبوتِهِ، فَيَعْلَمُ عِلمَ الله بِهِ مِنْ أينَ حَصَلَ وَما ثَمّةَ صِنفٌ مِنْ أهْلِ الله أعلى وأكشَفَ مِنْ هذا الصّنفِ؛ فَهُم الواقِفُونَ على سِرّ القَدَر.

وهم عَلَى قسمين: مِنْهُمْ مَنْ يَعْلَم ذلِكَ مجمَلاً، وَمِنْهُم مَنْ يَعْلَمُهُ مُفَصّلاً، وَالَّذِي يَعْلَمُهُ مُفَصّلاً أعْلى وأتم من الّذِي يَعْلَمُهُ مُجمَلاً، فَإنّهُ يَعْلَمُ ما فِي عِلْمِ الله فِيهِ إمّا بإعْلامِ اللهِ إيّاهُ بما أعْطاهُ مِن العِلْمِ بِهِ، وإمّا أنْ يكشِفَ لَهُ عَنْ عَيْنِه الثّابِتَةِ وانتقالاتِ الأحوالِ عَلَيْها إلى ما لا يَتناهى، وهُوَ أعلى فإنّهُ يَكُونُ فِي عِلْمِهِ بِنَفْسِهِ بِمَنزِلَةِ عِلْمِ الله بِهِ؛ لأنَّ الأخْذَ مِنْ مَعدِنٍ واحِدٍ هو العين المعلومة، إلاّ أنّه مِنْ جهَةِ الْعَبْدِ عِنايَةٌ من الله سَبَقَتْ لَهُ

هي مِنْ جُمْلَةِ أحوالِ عَيْنِهِ الثابِتَةِ يَعْرِفها صاحِبُ هذا الكَشْفِ إذا أطْلَعَهُ الله على ذلِكَ، فإنَّهُ لَيْسَ في وُسْعِ الْمَخلُوقِ إذا أطْلَعَهُ الله على أحوالِ عَيْنِه الثّابِتَة الّتي تَقَعُ صُورَةُ الوُجُودِ عَلَيْها أنْ يَطَّلع في هذِه الحال عَلى اطّلاع الحَقّ عَلى هذهِ الأعيانِ الثّابِتَةِ في حالِ عَدَمِهَا؛ لأنّها نِسَبٌ ذاتيّةٌ لا صُورة لها، فبهذا القَدرِ نَقُولُ: إنَّ العِنَايَةَ الإلهيّةَ سَبَقَتْ لِهذا العَبْدِ بهذِهِ المُساواةِ في إفادَةِ العِلمِ.

ومِنْ هُنا يَقُول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ [محمد: 31]، وهِيَ كَلِمَةٌ مُحقَّقَةُ المَعْنى ما هِيَ كَما يَتَوَهَّمه مَنْ لَيْس لَهُ هذا المَشْرَبُ، وغايَة الْمُنزّه أنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ الحُدُوثَ في الْعِلْم للتَّعَلُّقِ، وَهُوَ أعْلى وَجْهٍ يَكُونُ لِلْمتَكَلِّمِ بعقلِهِ في هذه المسألةِ، لَولا أنّه أثبت العِلْمَ زائدًا على الذّات، فَجَعَل التَّعَلُّقَ لَهُ لا للذّاتِ، وبِهذا انْفَصَل عَن الْمُحَقّقِ مِنْ أهلِ الله صاحب الكَشْفِ والوُجُودِ.

ثُمَّ نَرجِعُ إلى الأعطيات؛ فَنَقُولُ: إنَّ الأعطيات إمّا ذاتِيّةٌ أوْ أسمائيّةٌ، فأمّا المِنَحُ والهباتُ والعَطايا الذّاتِيّةُ؛ فَلا تَكُون أبدًا إلاّ عَنْ تَجلٍّ إلهي، والتَّجَلّي من الذّاتِ لا يكونُ أبدًا إلاّ بصورةِ استعدادِ المتجلَّى لَهُ، غَيْرُ ذلِكَ لا يكُونُ، فإذًا المُتجلَى لَهُ ما رأى سوى صُورتِهِ في مرآةِ الحقّ، وما رَأى الحَقَّ ولا يُمْكِنُ أن يَراهُ مَعَ عِلْمِهِ أنّهُ ما رَأى صُورَتَهُ إلاّ فيه كالمرآةِ في الشّاهِدِ إذا رأيتَ الصُّورَ فِيها لا تراها مَعَ عِلْمِكَ أنّكَ ما رَأيْتَ الصُّورَ أو صُورَتَكَ إلاّ فيها، فأبرَزَ الله ذلِك مِثالاً نَصَبَهُ لِتَجلّيهِ الذّاتي لِيَعْلَمَ المُتَجلَّى لَهُ أنّهُ ما رآه، وما ثَمَّةَ مِثالٌ أقْرَبُ ولا أشبَهُ بالرُّؤيَةِ والتَّجَلّي مِنْ هذا.

واجهَدْ في نَفْسِكَ عِنْدَما تَرَى الصُّورَةَ في المرآةِ أنْ تَرى جِرْمَ المِرآةِ لا تراهُ أبدًا البَتَّةَ حتّى أنّ بَعْضَ مَنْ أدْرَكَ مِثْلَ هذا في صُوَر المرايا ذَهَبَ إلى أنَّ الصُّورَةَ المَرْئيّةَ بَيْن بَصَرِ الرّائي وبَيْن المِرآةِ، وهذا أعْظَمُ ما قَدرَ عَلَيْهِ مِنَ الْعِلْمِ، والأمرُ كَما قُلْناه وَذَهَبْنا إلَيْه، وقَدْ بَيّنّا هذا في «الفُتوحاتِ المكيّةِ»، وإذا ذُقْتَ هذا ذُقْتَ الغايَةَ الّتي ليس فَوْقَها غايَةٌ في حَقِّ المَخْلُوق.

فلا تَطْمَعْ ولا تُتْعِبْ نَفْسَكَ في أن تَرْقى في أعْلى مِنْ هذا الدّرجِ فَما هُوَ ثَمَّ أصْلاً، وما بَعْدَه إلاّ العَدَمُ المحضُ؛ فَهُوَ مِرآتُكَ فِي رؤيتكَ نَفْسَكَ، وأنْتَ مِرآتُهُ في رُؤيَتِهِ أسماءَهُ وَظُهُورَ أحكامِها، ولَيْسَتْ سوى عينه، فاختَلَطَ الأمرُ، وَانْبَهَمَ فَمِنّا مَنْ جَهِلَ فِي علمه، بَل أعطاهُ العِلْمُ السّكُوتَ كَما أعطاهُ العَجْزَ، وهذا هُوَ أعْلى عالِمٍ بالله، ولَيْس هذا العِلْم إلاّ لِخاتَمِ الرُّسُلِ، وخاتَم الأولياءِ وَلا يَراهُ أحَدٌ مِنَ الأنبياء والرُّسُلِ إلاّ

مِنْ مشكاةِ الرَّسُول الخَاتَم، ولا يَراهُ أحَدٌ مِن الأولياء إلاّ مِنْ مشكاةِ الوليّ الخاتَمِ، حَتى أنَّ الرُّسُل لا يَرونَهُ مَتى رَأوه إلاّ مِن مِشكاةِ خاتَمِ الأولياء، فَإنَّ الرِّسالةَ والنبوّة، أعني نُبُوَّةَ التشريع ورِسالَتَهُ تَنقَطِعانِ، والولايَةُ لا تَنقَطع أبداً، فَالمُرسَلُون مِنْ كَونِهم أولياء لا يَروْنَ ما ذَكَرْناهُ إلاّ مِنْ مِشكاةِ خاتَمِ الأولياءِ، فَكَيْف مَنْ دُونَهم مِن الأولياء؟ وإنْ كانَ خاتَمُ الأولياء تابِعًا في الحُكْمِ لِما جَاءَ به خاتَمُ الرُّسُلِ مِنَ التَّشريعِ، فَذلكَ لا يَقدَحُ في مَقَامِهِ ولا يُناقِضُ ما ذَهَبْنَا إلَيْهِ، فإنّه من وَجْه يَكُونُ أنْزل كَما أنَّهُ مِنْ وَجْهٍ يَكُونُ أعلى.

وَقَدْ ظَهَر في ظاهِرِ شَرعِنا ما يُؤيِّدُ ما ذَهَبْنا إلَيه في فضل عُمَرَ في أسارَى بَدرٍ بِالحُكْم فِيْهم؛ وفي تأبِيرِ النَّخْلِ، فَما يَلْزَمُ الكامِلَ أنْ يَكُونَ لَهُ التَّقَدُّمُ فِي كُلّ شَيءٍ وَفِي كُلّ مَرتَبَةٍ، وإنَّمَا نَظَرُ الرِّجالِ إلى التَّقَدُّم فِي رُتَبِ العِلمِ بالله، هُنالِكَ مَطْلَبُهُمْ.

وأمّا حَوادِثُ الأكوانِ؛ فَلا تَعَلُّقَ لِخواطرِهِم بها، فَتَحَقَّقْ ما ذَكَرْنَاهُ، ولَمّا مَثَّل النَّبيُّ ﷺ النُّبُوَّةَ بالحائطِ مِنَ اللَّبِنِ، وقَدْ كَمُلَ سوى مَوضِعِ لبنةٍ واحِدَةٍ، فكان ﷺ تلكَ اللَّبِنَةَ.

وَالسَّبَبُ الموجِب لكَونه رآها لَبِنَتَيْن أنّه تابِعٌ لِشَرع خاتَمِ الرُّسُلِ فِي الظّاهِرِ وهُوَ مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ الفضيَّةِ، وهو ظاهِرُهُ وما يَتْبَعُهُ فيه مِن الأحكام، كما هو آخِذٌ مِنَ اللهِ تعالى في السّرّ ما هُوَ بالصُّورةِ متَّبعٌ فيه؛ لأنه يَرَى الأمرَ عَلَى ما هو عَلَيه، فلا بُدَّ أنْ يَراه هكذا، وَهُوَ مَوضِعُ اللَّبِنَةِ الذَّهَبيّة في الباطِن، فإنَّه آخِذٌ مِن الْمَعْدِنِ الّذي يَأخُذُ مِنْهُ المَلَكُ الّذي يُوحَى بِهِ إلى الرسول؛ فإنْ فَهِمتَ ما أشرتُ إليه فَقَد حَصلَ لك الْعِلمُ النافِعُ، فَكُلُّ نَبِيّ مِنْ لَدُنْ آدَمِ إلى آخر نَبِيّ ما مِنهُم أحَدٌ يَأخُذُ إلاّ مِنْ مشكاةِ خاتَمِ النَّبِيّين، وإنْ تَأخَّرَ وُجُودُ طينَتِهِ فإنَّهُ بحقيقتِهِ مَوجُودٌ، وهو قوله ﷺ: «كُنْتُ نَبِيًّا وآدمُ بَيْنَ الماءِ والطِّينِ»، وغيرُهُ من الأنبياءِ ما كانَ نبيًّا إلا حِينَ بُعِثَ، وكذلِكَ خاتَمُ الأولياء كانَ وَلِيًّا وآدمُ بَيْنَ الماءِ والطِّينِ، وغَيرُه مِنَ الأولياء ما كان وليًّا إلاّ بَعدَ تحصِيلِهِ شرائطَ الولايَةِ مِنَ الأخلاقِ الإلهيّةِ في الاتِّصاف بِها مِنْ كَونِ الله يُسَمَّى «بالوليّ الحَمِيدِ»، فخاتَمُ الرُّسُلِ مِنْ حيث وِلاَيته، نِسْبَتُهُ مَعَ الخاتِم للولايَةِ نسبةُ الأنبياء والرُّسُلِ مَعَهُ، فإنّهُ الوليُّ الرَّسُولُ النبي؛ وخاتَمَ الأولياء الوليُّ الوارِثُ الآخِذُ عَنِ الأصلِ المُشاهدُ للمراتب، وَهُوَ حَسَنةٌ مِنْ حَسَناتِ خاتم الرُّسلِ محمدٍ ﷺ، مُقَدَّمِ الجماعةِ وسَيّدِ ولدِ آدَم في فَتْحِ بابِ الشَّفاعَةِ الكُبْرَى

وَفِي هذا الحال الخاصّ تَقَدَّم عَلَى الأسماءِ الإلهيّةِ، فإنَّ الرّحمن ما يَشْفَعُ عِند

المُنتَقِمِ في أهْلِ البَلاءِ إلاّ بعد شفَاعَةِ الشّافِعين، ففاز مُحَمَّدٌ ﷺ بالسّيادَةِ في هذا المَقامِ الخاصِ فَمَنْ فَهِمَ المَراتبَ والمقاماتِ لَمْ يَعْسُره قَبُولُ مِثْلِ هذا الكلامِ.

وأمّا المِنَح الأسمائية، فاعلَم أنَّ مَنْحَ الله تعالى خَلْقَهُ رَحْمَةٌ مِنْهُ بِهِم، وَهِيَ كُلُّها مِنَ الأسماءِ، فإمّا رَحْمَةٌ خالصَة كالطَّيِّبِ مِنَ الرِّزقِ اللّذِيذ في الدُّنيا الخالِص يَوْمَ القِيَامَةِ، ويُعْطَى ذلك الاسمُ الرَّحمنُ فَهُوَ عطاءٌ رحمانيّ، وإمّا رَحْمَةٌ مُمتزِجةٌ كشُرْبِ الدَّواءِ الكرِهِ الذي يَعْقِبُ شُرْبَهُ الرّاحةُ، وهِيَ عَطاءٌ إلهِي فإنَّ العَطَايا الإلهيّة، لا يُمكِنُ إطلاقُ عطائه مِنْهُ مِنْ غَيْرِ أنْ يَكُونَ عَلى يَدَي سادِنٍ مِنْ سَدَنَةِ الأسماء، فَتارَةً يُعْطِي الله تعالى الْعَبْدَ عَلَى يَدَي الرَّحمن فيَخْلُصُ العطاءُ مِنَ الشَّوْبِ الّذي لا يُلائم الطَّبْع في الوَقْت أوْ لا يُنيلُ الغرضَ وما أشْبَهَ ذلِك، وَتارَةً يُعطي الله على يدي الواسِع فيعمّ، أو على يدي الحكيم فَيَنْظُرُ فِي الأصْلَح في الوقت، أوْ على يَدي الوهّابِ فَيُعطِي لِيُنْعِمَ وَلا يَكُونُ مَعَ الواهِبِ تكْلِيفُ المُعطَى لَهُ فَيَنْظُرُ فِي المَوْطِنِ وَما يَسْتَحِقُّهُ، أو عَلى يَدَي الغَفّارِ فَيَنْظُرُ في المحلّ وَما هو عَليه، فإنْ كانَ عَلَى حالٍ يَستَحِقُّ العُقُوبَةَ فيسْتُرُهُ عنها، أوْ على حالٍ لا يستحقّ العُقُوبَةَ فَيَسْتُرُهُ، عَن حالٍ يستحقُّ العُقوبَةَ فَيُسَمّى مَعْصُوماً ومُعْتَنى بِهِ ومَحفُوظًا، وغَير ذلك ممّا يُشاكِلُ هذا النّوع.

والمُعْطي هُوَ الله مِن حَيْثُ ما هُو خازِنٌ لِما عِنْدَه في خزائِنِه فَما يُخرِجُهُ إلاّ بِقَدَرٍ مَعلومٍ عَلى يَدي اسْمٍ خاصٍ بِذلِكَ الأمر، ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [طه: 50] على يَدي الاسمِ العَدلِ وأخواتِهِ، وأسماءُ الله، وإنْ كانَتْ لا تتناهى؛ لأنّها تُعْلَمُ بما يَكُون عَنْها، وما يكونُ عَنها غير مُتَناهٍ، وإنْ كانَتْ تَرجِعِ إلى أصولٍ مُتناهِية هِيَ أمّهاتُ الأسماء أو حَضراتُ الأسماء، وعلى الحقيقَة فَما ثَمَّ إلاّ حَقِيقَةٌ واحِدَةٌ تقبل جَمِيعَ هذِهِ النسبِ والإضافات الّتي تُكنّى عَنْها بالأسماء الإلهيّة، والحقيقَةُ تُعْطي أنْ تَكُونَ لِكلّ اسمٍ يَظْهَرُ إلى ما لا يَتَناهَى، حَقِيقَةٌ تُتَمَيّزُ بها عَن اسمٍ آخَر، وتِلكَ الحَقِيقَةُ الّتي بِها يَتَميّز الاسمُ عَيْنُهُ لا ما يَقَعُ فِيهِ الاشتراكُ، كَما أنّ الأعطيات تتميز كلُّ أعطيَةٍ عَنْ غيرها بشَخْصيتِها، وإنْ كانَت مِن أصلٍ واحِدٍ، فَمَعلُوم أنَّ هذِهِ مَا هِي هذه الأُخرى.

وسَبَبُ ذلِكَ تَمَيُّز الأسماء، فَما في الحَضْرَة الإلهيَّةِ لاتّساعها شَيءٌ يَتَكَرَّرُ أصلاً هذا هُو الحقُّ الّذي يُعَوَّلُ عَليه، وهذا العِلْمُ كان عِلْمَ شيثٍ ﷺ ورُوحُه هُوَ المُمدُّ لِكُلّ مَنْ يَتَكَلَّمُ في مِثْلِ هذا من الأرواح ما عَدا روح الخاتِمِ فإنَّهُ لا تأتيهِ المادّة إلاّ مِنَ الله لا مِنْ روحٍ مِنَ الأرواحِ، بَلْ مِنْ رُوحِه تَكُونُ المادَّةُ لجَميعِ الأرواحِ، وإن كانَ لا يَعْقِلُ مِنْ

نَفْسِهِ في زَمانِ تَركِيبِ جَسَدِهِ العُنْصرِيِّ، فَهُوَ مِنْ حَيثُ حَقِيقَتِه وَرُتْبَتِه عالِمٌ بذلك كُلِّهِ بِعَينِه، مِنْ حَيثُ ما هُوَ جاهِلٌ به مِنْ جِهَةِ تَركِيبِه العُنْصُرِيِّ، فَهُوَ العالِمُ الجاهِلُ؛ فَيقبلُ الاتصافَ بِالأضدادِ كَما يَقْبَلُ الأصلُ الاتّصافَ بذلك، كالجَليلِ والجَميلِ والظاهِرِ والباطِنِ والأوّلِ والآخِرِ، وَهُوَ عَيْنُهُ وَلَيس غَيره فَيعلَمُ وَلا يَعلَمُ، ويَدري وَلا يدرِي، ويشهدُ ولا يشهدُ، وبهذا العِلْم سُمّي شيث؛ لأنَّ مَعناهُ هِبَةُ الله، فَبِيَدِهِ مَفاتيح العَطايا عَلى اختلافِ أصنافِها ونِسَبِها، فإنّ الله وَهَبَهُ لآدَمَ أوّل ما وَهَبَه، وَما وَهَبَهُ إلاّ مِنْهُ؛ لأنَّ الوَلَد سِرُّ أبيه، فَمِنْهُ خَرَجَ، وإليه عادَ، فَما أتاهُ غَريبٌ لِمَنْ عَقَل عنِ الله تعالى.

وكُلُّ عطاءٍ في الكَونِ عَلى هذا المجرى، فَما في أحدٍ مِن الله شيءٌ ولا فِي أحدٍ مِن سِوى نَفْسِهِ شيءٌ، وإنْ تَنوعتْ عَلَيه الصُوَرُ، وَما كلُّ أحدٍ يَعْرِفُ هذا، وأنَّ الأمرَ على ذلك إلاّ آحادٌ مِنْ أهلِ الله؛ فإذا رَأَيْتَ مَنْ يَعْرِفُ ذلك فاعْتَمِدْ عَلَيهِ، فذلك هُوَ عينُ صَفاءِ خُلاصَةِ خاصَّةِ الخاصَّةِ مِنْ عُمومِ أهلِ الله، فأيُّ صاحِبِ كَشْفٍ شاهَدَ صُورَةً تُلقى إليه ما لَم يَكُنْ عِنْدَه مِنَ المعارِفِ وتَمْنَحُهُ ما لَم يَكُن قَبلَ ذَلِكَ فِي يَدِهِ فَتلكَ الصُورةُ عَيْنُهُ لا غَيْرُهُ؛ فَمِنْ شَجرةِ نَفْسِهِ جَنى ثَمَرَةَ عِلْمِهِ، كالصُورَة الظاهِرَة مِنْهُ في مُقابَلَةِ الجسمِ الصَقيل لَيس غيرَه، إلاّ أنَّ المحلَّ أو الحضرةَ الَّتي رأى فِيها صُورةَ نَفْسِهِ تُلْقَى إليه بتقلبٍ من وجهٍ لحقيقة تِلكَ الحَضْرَةِ كَما يظهر الكَبيرُ في المرآةِ الصغيرة صغيرًا، ويظهر غيرُ المستطيل والمتحرك في المستطيلة مُستطيلاً، والمتحرّكَةِ مُتحرّكًا، وَقَدْ تُعْطِيهِ انتكاس صُورتِهِ مِنْ حَضرَةٍ خاصَّةٍ، وَقَدْ تُعطيه عَيْنَ ما يَظْهَرُ مِنها فَيُقَابِلُ اليَمينُ مِنها اليَمينَ مِنَ الرّائي، وقدْ يُقابِلُ اليَمينُ اليَسارَ وَهُوَ الغالِبُ في المرايا بِمَنزِلَةِ العادَةِ في العُموم، وبِخَرقِ العادةِ يُقَابِلُ اليَمينُ اليمينَ، ويَظهَرُ الانتكاسُ، وهَذا كُلُّهُ من أعطياتِ حَقيقةِ الحَضْرَةِ المُتَجَلّى فيها الّتي أنْزَلناها مَنْزِلَةَ المَرايا، فَمَنْ عَرَف استِعدادَهُ عَرَفَ قَبولَهُ، وما كلُّ مَن عَرَف قَبولَهُ، يَعْرِفُ استِعدادَهُ إلاّ بَعد القَبولِ، وإنْ كانَ يَعرِفُه مُجْمَلاً، إلاّ أن بعض أهلِ النَّظَرِ مِنْ أصحابِ العُقُولِ الضَّعِيفة يَرَوْنَ أنَّ الله لَمّا ثَبَتَ عنْدَهُم أنّهُ فَعّالٌ لِما يَشاءُ، جَوَّزُوا عَلى الله ما يُناقِضُ الحِكْمَةَ، وَما هُوَ الأمرُ عليه في نَفْسِهِ، ولِهذا عَدل بَعضُ النُّظارِ إلى نَفْيِ الإمكانِ، وإثباتِ الوُجُوبِ بالذّاتِ وبالغَيْرِ، والمُحقّقُ يُثْبِتُ الإمْكانَ، ويَعْرِفُ حَضْرَتَه، والمُمْكِنَ وَما هُوَ المُمكِنُ، وَمِنْ أين هُوَ مُمْكِن، وَهُوَ بِعَيْنِهِ واجبٌ بِالْغَيرِ؛ ومِنْ أين صَحَّ علَيهِ اسم الغَيرِ الّذي اقتَضى لَهُ الوُجُوبَ، وَلا يَعْلَمُ هذا التّفصيلَ إلاّ العلماءُ بالله خاصّةً.

وعَلى قَدَم شيثٍ يَكُونُ آخِرُ مَولُودٍ يُوْلَدُ مِنْ هذا النَّوعِ الإنسانِيّ، وَهُوَ حاملُ أسراره، وَلَيْسَ بَعْدَه وَلَدٌ في هذا النَّوعِ؛ فَهُوَ خاتَمُ الأولادِ، وتُولَدُ مَعَهُ أُختٌ لَهُ فَتَخْرُجُ قَبْلَهُ، ويَخْرُجُ بَعدَها ويَكُونُ رأسُه عِنْدَ رجلَيها، وَيَكُون مولِدُه بالصِين، ولُغَتُهُ لُغَةَ بَلَده ويَسْرِي العُقْمُ في الرِجالِ والنّساءِ، فَيَكثُرُ النِكاحُ مِن غَير ولادَةٍ ويَدعُوهُم إلى الله فَلا يُجابُ فإذا قَبَضَهُ الله وقَبَضَ مُؤمِني زَمانِهِ بَقِي مَنْ بَقِي مِثْلَ البَهائِمِ لا يُحلُّون حَلالاً ولا يُحَرِّمُونَ حَرامًا، يَتَصَرَّفُونَ بِحُكم الطَّبيعَةِ شَهْوَةً مُجَرَّدَةً عَنِ العقلِ والشَّرعِ فَعَلَيهم تَقُومُ الساعَةُ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة المصنف

الحمدُ لله مخصِّصِ قُلوب الكَلِم، مخصوص فُصوص نَوادر تنزلات الحِكم، وصلَّى الله على مَنْ أُوتي جوامع الكَلِم، المنعوت بالنور الأقدم، والقيل الأقوم، والمبعوث إلى كافة الأمم بالشرعِ الأعم الأشمل الأتم على الصراط السوي، والسبيل الأهم، منه افتتحَ خزائن الجودِ والكَرمِ، وبه اختتم حتى صَارَ به الفَاتِح الخاتم، وعلى آله وَصَحْبِهِ وَسلَّم.

أما بعد..

فإن كتاب فصوص الحكم من نصوص الوارث العلم من جلالة قدره حفَّ القلم، وورث الجود والعلم والكرم على الوجه الأحسن الأكمل الأتم، فتح الوجود بحسن الاتباع، وعبّر على العلم بأحسن الاطِّلاع، وختم خزائن الجود بوضع القدم على القدم، طنت بصيت مفاخره آذان الزمان، ونطقت بمحامده ألسنة الأكوان، وتعطَّرت بنفائس أنفاسه مشام عوالم الحدثان، ورأت عين الكمال بعينه إنسان عين كمال الإنسان، لا تحصره الأسماء الحسنى، ولا يقيِّده الوصف والتخلق بالأسماء.

فَكُـلُّ رِدَاءٍ خُـيِّطَ مِـنْ نَـسْجِ تِـسْعَةٍ ... وتـسعين اسـمًا عَـنْ مَعَالِـيهِ قَاصِـرُ

﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: 91].

والأمر كما قيل:

إذا نحـنُ أَثْنيـنَا عَلـيكَ بِـصَالحٍ ... فَأنْتَ الذي تُثْنَى وَفَوْقَ الذِي يُثْنِي يثني

أعني الشيخ الأكبر أبا عبد الله محمد بن علي الطائي الحاتمي الخاتم ﷺ وأرضاه وجعل البقاء على الأصل منزله ومأواه.

كتابٌ ظهر بين أظهر الناس بحكم أعزِّ الإشارة، وأشرف الالتماس، لعمرك! إنه فصل الخطاب باطنه فيه الرحمة، وظاهره من قبله العذاب، كلا إنها عصا ألقاها موسى.

قال تعالى: ﴿فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه: 20]، فمن الناس مَن إليها سعى، ومنهم مَن أدبر يسعى.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً﴾ [البقرة: 26].

ثم إني كنت بُرهة من الزمان مشغوفًا بأن امتثل أمره حيث أمر بقوله: بالفهم فصِّلوا، واجمعوا، ومشغوفًا أن أتمثل بين يدي نهيه حيث نهيه، حيث نهى وقال: لا تمنعوا، وكنت أقدم رجلاً، وأؤخِّر أخرى أطلب منه إشارة الإذن والبشرى حتى رأيت في مبشرةٍ في سنة ست وثلاثين وتسعمائة بالمدينة المشرَّفة - على مُشرِّفها أفضل التسليم والتحية - أنه ﷺ وضع فمه على فمي وعليه أثر ماء الوضوء، وفي سنةٍ قبلها بمكة المعظَّمة رأيت أيضًا في مبشرة كأني في مجلسه ﷺ وعنده شخصٌ معروفٌ بالصلاح والخير، وبيده كتابٌ من كتب الشيخ ﷺ يقرأ عليه، فكلما قرأ سطرًا وينتظر منه بيانه، وأنا جاثٍ بين يديه آخذ من لسانه، وأشرح ما فيه فينشرح ﷺ حتى أحس منه أثر السرور والقبول، وأرى منه الإذن في هذه الفصوص، ثم انتبهت من النوم، وشملتني بركة تلك الليلة إلى اليوم، فجمع أمري، وأحضر ضميري فتوجَّهت إلى روحه الأقدس، وقلبه الأطهر الأقدس توجُّه مَنْ ظنَّ ألاَّ ملجأ منه إلا إليه، فاستعنت عليه، ففصَّلت معضلات المجملات باستنباط الجزيئات، وأجملت المفصَّلات تحت القواعد الكليَّات بإيضاح المعضلات، بفتوح العبارات ونصوص «الفتوحات» ليكون لي أسوة حسنة في الشارحين، فاقْتَديت بهداهم في الإنشاء والإملاء، ولم نقتدِ بهم في بيان معاني الكلام ولم نشأ، فأسسته بأصول غيرِ واهية، وجعلت قطوفها دانية ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: 12] وإن كان الأمر كما قيل:

وَمَا كُلُّ مَعْلُومٍ يُباحُ مَصونَة وَمَا كلُّ مَا أَمَلَت عيون الظِّبا يُروى

لعمري إني شرحت فيه للحقائق صدرًا، ورفعت لها في ظهور المراتب قدرًا، وسرحت تحت أستار الأسرار سرًّا وجهرًا، ونشرت أعلام الآثار والأخبار نشرًا ينشرح به صدور العرفان، ويؤاخي بين الإيمان والعيان.

قال تعالى: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾ [يوسف: 100].

فقرر في نفس الأمر أن يكون الكلام على الكمال والتَّمام من الافتتاح إلى الختام منه إليه باللفظ والمعنى، أي بصريح العبارة، أو بنقل المعنى حتى لا نكون من الخائضين فيما ليس لنا حظ فيه، فإن الجهل يقصر عما يوافيه فاسمعوا.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: 21]، فلمَّا جمعت كتابي هذا «حِكم الفتوحات» و«حِكم الفصوص» كما ستقف عليه بأوضح الأدلة والنصوص، فحق له أن يسمَّ «مجمع البحرين».

أما «الفصوص»: فكما عرفته من فصوص الحكم التي حدَّها له رسول الله ﷺ.

وأما «الفتوحات»: فحدُّها الله الحكيم أنها كما قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: 1].

قال ﷺ في الباب الثالث والتسعين وثلاثمائة من «الفتوحات»: فوالله ما كتبنا من «الفتوحات» حرفًا إلا عن إملاء إلهي، وإلقاء رباني، أو نفث روحاني في فروع كتابي.

قال ﷺ في الباب السادس والستين والثلاثمائة: إن جميع ما أتكلَّم به في مجالسي وفي تصانيفي، إنما هو من حضرة القرآن وخزائنه، أُعطيت مفتاح الفهم فيه، والإمداد منه وهذا حتى لا نخرج عند انتهاء كلامه ﷺ.

وقال ﷺ: إن الله سبحانه وتعالى قد أمرني على لسان نبيِّه ﷺ بالنصيحة لله ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم خطابًا عامًا، ثم خاطبني على الخصوص مِنْ غير واسطة غير مرةٍ بمكة وبدمشق، فقال لي: انصح عبادي في مُبشِّرة أريتها، فتعين على الأمر أكثر مما تعين على غيري، فالله يجعل ذلك من الله عنايةً وتشريفًا لا ابتلاءً وتمحيصًا.

وأمَّا العبد المتعدي لهذا الجمع الفقير الفاني شريف بن ناصر الحسيني الكيلاني، فهو تُرجمان أعرب المعجمات بمحاسن البيان ولم يعجم، وأضرب العنان عن الموهمات ولم يُبهم، واستعان لاقتناص الناس بالاقتباس.

ورد في الحديث: «إن المؤمنَ ليؤجر في تعبيره بلسانه عن الأعجمي»[1] رواه الطبراني عن أنس ﷺ، فجميع ما ذكرناه في هذا الكتاب، فكلما أسندته إلى المآخذ، فهذا هو الذي أسندته، وأما الذي أطلقت ولم يسند فإني ما أخذت شيئًا إلا عنه ﷺ

(1) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (29/4).

على حسب فهمي منه، ولم أكذب عليه إن شاء الله تعالى.

فإذا كانت المسألة صافية عن غبار العبارة ذكرتها بلا إسناد للاعتمادِ على القابل المستعد المؤمن وافي العيار، فإنه يفهم بصفاء الصدر من وراء حجاب الإيمان، وإذا كانت من أعمال الكشف فذكرت المسألة لصرافتها، وأُخيرت بمآخذها ومحلِّها الذي ذكرها فيه الشيخ الأكبر ﷺ، فلا تعجل يا أخي في الخوض فيها إن بحرها عميق، وغورها غريق، وبدقة التدبير جدير حقيقي، قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: 17. 19].

فأوجز البيان في مواطن الإيجاز، وأسهب وأطنب في مجال الإسهاب، والإطناب على طرز جديد، ونمط سديد، وكلَّما لا يمكنني التصريح به دفعة واحدة قد أُعيد ذكره بتعريف آخر، ولقب غير اللقب الأول؛ لأكشف بذلك قناع الحجاب حيث لم ألثم ولم أوضِح اقتداءً بالكتاب، واقتفاءً بفصل الخطاب، فاقنع واستبصر.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: 17]، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: 37] والله الهادي والمنصر، فأرجو من الله الكريم أن أكون ممن أيِّدَ بالفهم والبيان، ووعي للتفصيل التفصيل في الآجال، والإجمال في التفصيل على مقتضى الأصل الأصيل، وعثر على المراد ما ضلَّ وما غوى.

فسألت الله أن يجعلني ممن له قلب، وممن ألقى السمع إلى مَنْ له قلب، ويوفقه لإلقاء ما سمع إلى مَنْ ألقي السمع وهو شهيدٌ حاضرٌ منتهي لقبول ما يرد عليه منه قابل لفهمه، إنه على كل شيء قدير، ولإجابة عبده لما يريد منه حقيق جدير.

فقدمت من المقدمات ما يجري مجرى الأمهات؛ لتكون بمراعاتها بصيرًا وبحفظها مستظهر الضَّيرا، لعلك تجلّ بها عقدًا، وتكون لكشف المعضلات لك جندًا، وفي حل المشكلات ظهرًا ومددًا، ففصلتها وصولاً لمباني أصول وحدة الوجود عونًا بحصول المقصود؛ ولأنه شاهدٌ ومشهودٌ، ووارِدٌ ومورودٌ.

قال تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: 97] ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: 98] فهلمُّوا إلى أبكار المعاني والبيان، وكشف قناع الخدرات التي هي ﴿مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرحمن: 72] ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ

وَلاَ جَانٌّ﴾ [الرحمن: 74].

فإن لذلك المقام أحكامٌ متداركة متقاربة متباعدة متعانقة متمانعة على الطباع المتعصبة العادية عسيرة، وعلى الطبائع الغليظة المحصبة العادية غير يسيرة، ربِّ يسّر ولا تُعسّر إنك المدبّر الميسّر.

واعلموا - جعلنا الله وإيّاكم من أهل الكشف في الوجود، وجمع لنا بين الطرفين المعقول والمشهود - أن العالم كان مَنْ كان على ثلاث مراتب:

عالم علمه زائد عليه إما موهوب، وإما مكتسب، ولهذه المسألة حكم في الإلهيات، ولها حكم في الكون في بيانه إشاعة بشاعة، وفي محاققته كشف ما لا ينبغي كشفه، ولكن سأبرز نبذًا من تلك الأسرار إلى إخواني مرحوا لأُنس الغائلة مع تحقيق الفائدة بين التصريح والإلغاز والإخفاف والإغلاق، والله المستعان.

فاعلم أن العالم الذي علمه عين ذاته في الإلهيات ظاهرٌ، فإن علمه تعالى عين ذاته تعالى، وأما في الكون حين شهود وحدة العالم والمعلوم، والعلم يشهد ذلك، فافهم.

وأمّا العلم الموهوب والمكتسب بالنسبة إلى الكون فظاهر الدرك هين الخطب، قال الله تعالى في عبدٍ من عباده: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ [الكهف: 65] وهو علم الإقرار.

وأما العلم الكسبي كالعلوم التي هي نتائج الأفكار، والأعمال المشروعة التي تُورث العلم قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 282].

وأما هذان العلمان في الإلهيات فصعبا التصور؛ لأنه تعالى منزَّه عن ذلك، ولكن قال الله تعالى عن نفسه حتى نعلم، فأنزل نفسه في هذه الأخبار منزلة مَنْ يستفيد بذلك علمًا وهو سبحانه وتعالى العالم بما كان وما يكون.

وقولنا: إن العلم تابع المعلوم وبحسبه، فأعطي المعلوم من نفسه للعالم به العلم على ما هو عليه، فكل عطاءٍ بلا عوضٍ فهو هبةٌ، فافهم فإن المقام ليس مقام المحاققة، فتأدب قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه: 114].

اعلم ثانيًا أن المعلوم كان ما كان حقًّا كان أو خلقًا ما لا يعلم بغيره أصلاً وليس له دليلٌ قاطعٌ عليه سوى نفسه، والبصر له الشهود، والعقل له القبول، وهذا هو التحقيق

الأتم، والذوق الصحيح الأشمل الأعم، وغير هذا الذوق تمويه وتمريج.

فمن تطلَّب معرفة الأشياء كما هي بالدلائل الخارجية الغريبة التي ليست عين المطلوب، فمن المحال أن يحصل ذلك، بل استسمن الورم، ونفخ النار بلا ضرم ولا تظفر يداه إلا بالخيبة، فلهذا نصَّ أهلُ الحق ﷺ، وأهل العقول السليمة على أن الشيء لا يُدرك بما يغايره في الحقيقة، ولا يؤثر شيء فيما يضاده وينافيه من الوجه المعتاد والمنافي، بل يدرك بغلبة حكم ما به الاتحاد والاشتراك على ما به الامتياز، فافهم.

وبيانه أن إدراك الأشياء كانت ما كانت بكنهها، ولو كان متعذرًا من حيث الفكر والنظر، ولكن لإدراكها وجه آخر يُسمَّى الوجه الخاص، وهو ارتفاع حكم النسب الجزئية والصفات التقليديَّة من العالم العارف حال تحققه بمقامٍ: «كنت سمعه وبصره»[1] فمن كان الحق سمعه وبصره وجميع قواه فـ﴿لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ﴾ [سبأ: 3].

وفي المرتبة التي فوقها المجاوزة لها المختصَّة بقرب الفرائض، وقد ثبت عند أرباب الكشف أن الأمر كان ما كان ما يدرك منه إلا وجه ما به الاشتراك لا ما به الامتياز، فإذا أراد عالمٌ علم شيء فتوصَّل إليه بوجه المضاهات، وعلم ذلك الشيء بنفسه في نفسه؛ لأن الإنسان الكامل مضاهٍ للحق والخلق، فإنه يتنزَّل إلى أسفل سافلين من مقام أحسن التقويم؛ لأنه على الصورة الإلهية، وله الأوليَّة والآخريَّة؛ وذلك لتمكنه في مقام الجمع الأحدي الذي صحَّت له المحاذاة والمحاكات والمطابقات.

وصورته أن الإنسان برزخ بين الحضرات الإلهية والكونية ونسخة جامعة لهما، ولما اشتملتا عليه حرفًا حرفًا، فليس شيء من الأشياء إلا وهو مرتسم في مرتبته التي هي عبارة عن جمعيه، والمتعين مما اشتملت عليه نسخة من وجوده، وحَوَتها مرتبته في كل وقتٍ وحالٍ ونشأةٍ، وموطن إنما هو ما يستدعيه حكم المناسبة التي بينه وبين ذلك الحال والوقت والنشأة والموطن، وأهله كما هو سُنَّة الحق من حيث نسبة تعلقه بالعالم وتعلُّق العالم به، فمهما لم يتخلَّص الإنسان من ربقة قيود الصفات الجزئيَّة الحاكمة عليه على الوجه المذكور، فلا يدرك بها إلا ما يقابلها من أمثالها وما تحت حيطتها لا غير، فإذا تجرَّد من أحكام القيود، وتخلَّص من زيوف الميول والمجازيات الانحرافية الأطرافية الجزئيَّة، وانتهى إلى مقام الاعتدالي إلى الجمعي الوسطي الذي هو نقطة

(1) أخرجه البخاري (2384/5).

المسامية الكليّة، ومركز الدائرة الكبرى الجامعة لمراتب الاعتدالات كلها المعنويّة والروحانيّة والمثاليّة والحسيّة المشار إليها، واتّصف بالحال الذي حررناه، قام للحضرتين في مقام محاذاته المعنويّة البرزخيّة، فواجهها بذاته كحال النقطة مع كل جزءٍ من أجزاء المحيط، وقابل كل حقيقةٍ من الحقائق الإلهية والكونية بما فيه منها من كونه نسخة من جملتها، ومع كل شيء له نسبة ثابتة لا جرم فيها ما يقتضي الانجذاب من نقطة الوسط الذي هو أحسن تقويم إلى كل طرفٍ والإجابة لكل داعٍ، فأدرك بكل فرد من أفراد نسخة وجوده ما يقابلها من الحقائق في الحضرتين، فحصل له العلم المحقق بحقائق الأشياء وأصولها ومبادئها؛ لإدراكه لها في مقام تجريدها، ثم أدركها من حيث جملتها وجمعيتها بجملته وجمعيته، فلم يختلف عليه أمرٌ، ولم ينتقض عليه حالٌ ولا حكمٌ، ولولا القيود الكمالية لاستمرّ حكم هذا الشهود، وظهرت آثاره على المشاهد على الاستمرار والدوام، ولكن الجمعية التامة الكمالية تمنع من ذلك؛ لأنها تقتضي الاستيعاب المستلزم للظهور بكلِ وصفٍ، والتلبُّس بكل حالٍ وحكمٍ، فالثبات على هذه الحالة الخاصة المذكورة وإن جَلَّ فالمرور عنه أجلّ؛ لأنه يقدح فيما ذكرناه مِنْ الحيطة الكماليّة والاستيعاب الذي ظهر به الحق تعالى من حيث هذه الصورة العامة الوجوديّة التّامة التي هي الميزان الأتم، والمظهر الأكمل الأشمل الأعم، فافهم.

فما ليس كذلك من العلوم والعلماء والمعلومات فليس بالعلم الحقيقي الذي نحن نُصدر بيانه إلا بنسبةٍ ضعيفةٍ بعيدةٍ، ولا يُعدُّ صاحبها عند أكابر المحققين عالمًا، فإن صاحب العلم الحقيقي هو الذي يدرك حقائق الأشياء كما هي، ومن سواه إنما يُسمَّى بمعنى أنه عارفٌ باصطلاح بعض الناس واعتقاداتهم، أو صور المفهومات من أذواقهم أو ظنونهم، ومشخصات صور أذهانهم، ونتائج تخيلاتهم ونحو ذلك من أعراض العلم ولوازمه وأحكامه في القوابل، بل باعتبار كمال إطلاق هذا العلم الحقيقي وتوجهه، وسعة دائرة مرتبته، وانسلاخه من قيود الأحكام؛ لغلبة صفة أُحديّة الجمع بعظم إدراكه ومعرفته وعلمه، وإحاطته بالأشياء التي عَلِمَها من هذا الوجه، بهذا الطريق حكم الحق تعالى في علمه لأحمديّة الأصل والمرتبة ووحدة المآخذ.

فافهم أنه تعالى أشار إليه بقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: 255] ولكن يبقى هناك فروق أخرى بين العِلمين، فمثل هذا الذوق يُسمَّى علمًا حقًّا ونورًا صدقًا، فإنه كاشف سرٍّ، ورافع كل شكٍّ وريبٍ، فافهم هذا الباب فإنه

لبُّ المعارف الإلهية.

ثم لتعلم قلة حذوي الاستدلال، ونهاية وصول العقل والوهم والخيال، وبيانه أن الله تعالى لما خلق النفس الناطقة، وخلق فيها قوة معنويَّة نسبة معقولة وهي عينُ ما اتَّصفت بها في الخارج كالأسماء الإلهية في الإلهيات، فكانت من القوى قوة تُسمَّى مفكرة، إذا استعملها الوهم، وميَّز الحق تعالى لهذه النفس الناطقة الحضرات الثلاث وولاها عليها وهي:

* حضرة المحسوسات.
* وحضرة المعاني الصِّرفة المجرَّدة عن المواد: وإن لم تظهر بعضها في المواد.
* وحضرة الخيال: وهي حضرة متوسطة بين طرفي الحس والمعنى، وهي خزانة الجباية التي تجبيها، وجعل فيها - أي في حضرة الخيال - قوة مصوِّرة تحت حكم العقل والوهم، فيتصرَّف فيها العقل بأمر والوهم بأمرٍ آخر، ويقوى في هذه النشأة سلطان الوهم على سلطان العقل كما هو محسوس لأكثر الناس؛ وذلك لأنه لم يجعل في قوةٍ أن تدرك من المجرَّدات كالصفات التنزيهيَّة إلا العقل، ومع هذا لم يكن في قوة العقل إذا خاض في الإدراك أن يدركها إلا بتصور ذلك الأمر المجرَّد، وهذا التصوُّر من حكم الوهم ولا بُدّ؛ وذلك لأن التصور ليس غير الصورة التي لا يحكم بها إلا الوهم، فصار فيما هو به عالم بالنظر والفكر، أسير الوهم مُقيَّدًا بلا شكٍّ، فله الحكم والسلطنة على العقل من حيث التصور، فافهم.

ووجه آخر في ضعف العقل وقصوره، وقلة جَذْوَاه في الإدراك، وهو أن القوة الفكريَّة لو كانت صفة من صفات الروح وخاصة من خواصه، أدركت صفة مثلها، ومن حيث إن القوى الروحانيَّة عند المحققين ﷺ لا تغاير الروح فصحَّ أن نسلم للناظر أنه عرف حقيقة ما، ولكن من الوجه الذي يرتبط بتلك الصفة التي هي منتهى نظره ومعرفته.

وقد اعترف أستاذ أهل النظر ومقتداهم عند عثوره على هذا السرُّ إمَّا بالذوق وإمَّا خَلف حجاب القوة الفكريَّة بصحة الفطريَّة، أنه ليس في قوة البشر الوقوف على حقائق الأشياء وعوارضها الذاتيَّة ذكره في القانون في بحث المزاج بل ولا الذاتيات؛ لأن معرفتها فرع لمعرفة الذات، فمن لم يعرف الذات كيف يعرف النسب المخصوصة لتلك الذات المخصوصة؟! فلا شفاء في الفكر أصلاً، فلهذا قيل: العقل عقال

والانسلاخ عنه مطالب الرجال.

ولكن إدراك العقل على قسمين غير ذاتي وهو الذي ذكرته آنفًا، فإنه يُدرك بالآلة التي هي المفكرة، وبالآلة التي هي الحس، فالخيال يقلد فيما يعطيه، والفكر ينظر في الخيال فيحدُّ الأمور مفردات، فيجب أن ينشئ منها صورة يحفظها العقل، فينسب بعض المفردات إلى بعض، فقد يخطئ في نسبة الأمر على ما هو عليه، وقد يصيب فيحكم على ذلك الحد فيخطئ ويصيب، وهذا طريق الفكر الذي هو حرامٌ على المرتدين خاصة، فافهم.

ليسوا من أهل الفكر والنظر، وإنما الفكر لإناث الرجال وهم الفلاسفة، وأهل الأرصاد، فإن قيل: هذا الحكم الذي ليت تحكم على أحكام العقل أيضًا من أحكام النظر والفكر؛ لأنه ليس من مدركات الحس ولا من البديهيّات فلم يبقَ إلا النظر، فكيف تُثبت به مدَّعاك؟.

قلنا: ليس كما تقول، بل هو من الإعلام الإلهي والإلهام الربّاني، فتتلقاه النفس الناطقة من ربها كشفًا وذوقًا من الوجه الخاص، فإذا صورت المسألة بعد الكشف يكون هذا مصداقه.

فإن قيل: إن الله تعالى أمر بالتفكُّر ومدح التفكُّر قال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [آل عمران: 191] في مقام المدح، وقال تعالى: ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: 17] وقال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف: 185] وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان: 45] وأمثالها من الآيات كثيرة التي تدل على ثناء الاستدلال، واستعمال الفكر.

قلنا: ما ذهبنا إلى أن الفكر ليس له نتيجة، بل وما خلقه الله سُدى، ولكن أهل الله لما علموا أن الفكر يخطئ ويصيب، وأنه غاية علم الرسوم، وأهل الاعتبار من الصالحين، وأنه يعطي المناسبات بين الأشياء تركوه لأهله، واتقوا منه أن يكون حالاً لهم؛ ليلحقوا بالذين فطروا على العلم بالله، والموحي إليهم ابتداءً من الله وعنايةً بهم كالملائكة والأنبياء والأولياء عليهم السلام هكذا ذكره ﷺ في الباب الرابع والأربعين ومائة، والخامس والأربعين ومائة، بل قال ﷺ في «مواقع النجوم»:

«إن العلم الكسبي يحصل للنبي والولي من غير فكرٍ واكتسابٍ، بل يعطي الدليل

والمدلول ابتداءً من غير نظرٍ وفكرٍ»، فافهم.

قال ﷺ في «الفتوحات» في الاسم (المؤمن) في تحققه بهذا الاسم: عصمني الله من التفكُّر في الله، فلم أعرفه إلا من قوله وخَبَرِهِ وكشفِهِ وشهودِهِ، وبقي الفكر مني معطلاً في هذه الحضرة، وشكرني فكري على ذلك، وقال لي: الحمد لله الذي عصمني بك من التصرُّف والتعب فيما لا ينبغي إليّ أن أتصرَّف فيه، فصرفته في الاعتبار، وما يعني على أني لا أصرفه إلا في الشغل الذي خُلق له مني، صرفته فأجبته إلى ذلك فما قصَّرت في حق قواي كلها حيث لم أتعد بها ما خلقت له وحصل لها الآمان من جهتنا في ذلك، فأرجو أنها تشكرني عند الله تعالى، وأعني القوى الروحانية التي خلق الله، فافهم.

وأما القسم الآخر: وهو الإدراك الذاتي، وهو فيه كالحواس لا يخطئ أبدًا، وهو إدراك بحت صرف، وقبول محض خالص من إلقاء إلهي أو رباني أو إيماني بإلقاء التراجح، فهو صحيح لا فساد فيه أصلاً، فلهذا كثيرًا ما يقول ﷺ: إن العقل لا يستقل بالإدراك، ولم يَقُل ﷺ أنه لم يدركه؛ لأن الله تعالى ما جعل لإدراك الأمور سيَّما المجرَّدات الصرفة سوى العقل.

ورد في الخبر: «إن الناس يعملون بالخير، وإنما يُعطون أجورهم على قدر عقولهم»[1] رواه الحكيم عن أنس ذكره في «جمع الجوامع».

ولكن بالفكر تلكُ شبه وهميَّة كما فهمته، أما ترى صاحب الناموس الأكبر ﷺ نهى عن التفكُّر، وأمر بالتخيل حيث قال ﷺ: «لا تفكروا في ذات الله»[2].

ورد في الخبر عنه ﷺ: «ألا في الله لا تفكروا»[3] ثلاثًا ذكره أبو الشيخ في «العظمة» عن يونس بن ميسرة مرسلاً، وقال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: 30].

قال العلماء الراسخون: هو التفكُّر في الذات.

وقال الشيخ ﷺ في «الفتوحات»: كما أمرنا أن نقول: لا إله إلا الله نهانا أن نتفكَّر

---

(1) أخرجه البيهقي (155/4).
(2) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (241/1).
(3) أخرجه أبو الشيخ في «العظمة» (236/1).

في ذات الله.

وفي التخيل قال ﷺ في الإحسان[1]: «**أن تعبد الله كأنك تراه**»[2].

قال ﷺ في الفص الشعيبي: إن صاحب الإحسان شهيدٌ للحق مشاهدٌ له، فلهذا أعرض الأنبياء - عليهم السلام - كلهم عن الفكر والنظر.

---

(1) **الإحسان**: ضد الإساءة، والحسن كل مبهج مرغوب فيه، والإحسان يقال على وجهين:

أحدهما: الإنعام على الغير. الثاني: الإحسان في الفعل، وذلك إذا علم علمًا حسنًا، أو عمل عملاً حسنًا.

والإحسان في اصطلاح الصوفية، هو تهذيب القصد بعلم الشريعة والطريقة فيكون قصده مطابقا للأمر، مبرأ عن شوب الرياء والغرض، وإحكامه بالجزم وتوطين النفس على ثبات العزم، وعدم الفتور فيه، وتصفيته عن النظر إلى غير المقصود بشهود المعبود، وعدم الالتفات إلى الغير ولو نفسه، فيعبد الله معتقدًا أنه بمرأى من الله متوجهًا إليه كأنه يراه بقلبه، وهذا المعنى إلى هذا الحد قرآني خالص يدل عليه الأصل النبوي، الوارد في حديث جبريل السابق، إذ جعله الرسول ﷺ أعلى درجات الدين بعد الإسلام الإيمان، ويؤكد السراج الطوسي (ت: 387هـ)، أن معنى الإحسان الوارد في الحديث، هو المعنى عند الصوفية وأن معنى قوله: أن تعبد الله كأنك تراه، يكون بدوام المراقبة والمشاهدة بالإيمان واليقين، وينكر على من قال بخلاف ذلك، يقول: (بلغني عن جماعة من أهل الشام أنهم يدعون الرؤية بالقلوب في دار الدنيا، كالرؤية بالعيان في دار الآخرة، ولم أر أحدا منهم، ولا بلغني عن إنسان، أنه رأى منهم رجلاً له محصول)، ثم يبين أن الصوفية أشاروا برؤية القلوب إلى التصديق والمشاهدة بالإيمان وحقيقة اليقين، وأنه ينبغي أن يعلم العبد أن كل شيء رأته العيون في الدنيا من الأنوار، أن ذلك مخلوق، ليس بينه وبين الله تعالى شبه، وليس ذلك صفة من صفات الله، بل جميع ذلك مخلوق.

ويذكر الكاشاني (ت: 735هـ) للإحسان في عرف الصوفية، معنى مغايرًا للمعنى السابق البسيط، ينبثق من مدرسة وحدة الوجود، فالإحسان عندهم يدل على رؤية الرب نفسه في عبده، ورؤية العبد نفسه في ربه، كالمرآة يرى الناظر فيها نفسه، والمحسن هو الذي يرى الحق موصوفًا بصفات العبد، فيراه العبد وراء حجب صفاته بعين صفاته؛ لأنه في عين اليقين، فلا يرى الحقيقة بالحقيقة؛ لأنه تعالى هو الرائي وصفه بوصفه.

يقول الكاشاني: إنما يكون الرائي هو الحق، ولا يكون للعبد أثر حيث يسلبه أثار أوصافه عنه بأوصافه، بأنه الفاعل فيه منه لا هو، وإذا استحال أن ترى شيئًا سواه غير قائم به، فالكل تعيناته، فلا شيء يوصف مما سواه، بأنه عينه أو أنه غيره، فنقلوا المعنى من رؤية المراقبة إلى رؤية الله متعينًا في جميع الأشياء.

(2) أخرجه البخاري (27/1)، ومسلم (37/1)، وأبو داود (223/4)، والترمذي (6/5)، والنسائي (6/528).

قال تعالى على لسان نبيّه: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: 15] وهو عين القبول من الحق كما ذكرناه تُعلمهم بقصور العقل من حيث نظره وفكره عن إدراك الأشياء على ما هي عليه ولو كان في الأدلة الفكريّة، والتقريرات الجدليّة غناءً أو شفاءً لم تعرض عنها الأنبياء - عليهم السلام - ولا وَارثوهم العالمون بحجج الحق، والحاملون لما يرضى الله عنهم كفاك أن العقل بالنظر والفكر يحكم على العلة أنها لا تكون معلولة لمن هي علة له، وذلك لوحدة العين.

قال الخراز - قَدَّس الله سرّه -: وهو وجة من وجوه الحق، ونائبٌ من نوائبه، ولسانٌ من ألسنته ينطق عن كشفه وشهوده وتحققه، عرفت الله بجمع الأضداد ثم تلا: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 3]: أي من عينٍ واحدة، ونسبةٍ واحدةٍ لا من نسبتين مختلفتين، ففارق - قُدِّس سرُّه - المعقول ولم يقيِّده العقل بل هو انتهى.

حقيقة الحق بما أشهده فيه، وهو فانٍ عن شهود نفسه، قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ [الأنفال: 17] فأثبت، ونفى، وعرى وكسا ما أسرع ما نفى! وما أسرع ما أثبت! فإن العين واحدة، والمقام يعطي ذلك.

فلهذا سُمِّيت هذه المنازلة بالمسلك السيَّال تشبيهًا بسيلان الماء الذي لا يلبث على شيء بعينه، وذلك ليس بمحال عند أرباب الكشف، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 148] وجمع الأضداد من الشيء، فعلمنا أن العقول قاصرة عن إطلاق هذه الآية، وأنه قادر على جميع الأضداد وخلق المحالات، بل هو جامع الأضداد بل هو عين الأضداد، فإذا علمت نهاية أمر العقل من حيث النظر والفكر، وقلة جدواه وثمرته وغايته، فلتعلم أنه لم يبقَ العلم الكامل إلا في التجلِّي الإلهي، وكشف ما يكشف الحق تعالى عن أعين البصائر والبصيرة، فيدرك الأمر قديمه وحادثه، وعدمه ووجوده، وواجبه وجائزه، ومحاله على ما هو عليه في حقائقه وأعيانه، فافهم.

فقد نبهتك على أمرٍ عظيم؛ لتعرف لماذا يرجع علم العقلاء من حيث أفكارهم ويتبيَّن لك أن العلم الصحيح الذي هو الكشف الصريح، والنص الصحيح لا يعطيه الفكر والنظر، بل هو نورٌ يقذفه الله تعالى في قلب أي عبدٍ شاء، فلا تتَّكل على عقلك الأبتر الأجذم.

أما ترى في قياس العقل، بل في واضح القياسات في المعتقدين موت المجاهدين المقتولين في سبيل الله إنهم أمواتٌ بالعلة الجامعة، فافهم.

قاسوا وأخطأوا في القياس حتى كذَّبهم الله تعالى، ونفى العلم عمن ألحقهم بالأموات، وقال تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: 169] وقال تعالى: ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 154] فلا قياس للعقل أحلى من ذلك ولا أوضح ولا أصرح، ومع هذا كذَّبهم الله تعالى في قياسهم، فافهم.

فما فوق ذلك البيان بيان، وما بعد هذا إلا التعسُّف والحرمان، والتعصُّب والخسران وعلى الله قصد السبيل.

اعلم - أيَّدك الله وإيانا بروحٍ منه - أن العلوم على ثلاثة أنواع:

الأول: علم العقل وهو كل علم حصل لك ضرورة، أو عقيب نظر وفكر في دليل بشرط العثور على وجه ذلك الدليل، وشبهه من جنسه.

والعلم الثاني: علم الأحوال ولا سبيل إليها بالعقل، فلا يقدر عاقل أن يحدَّها ولا أن يُقم على معرفتها دليلاً يعلمها البتة، كالعلم بحلاوة العسل والسكر، ومرارة الحنظل، وشبهه كوجدان الحلو مرًّا، والمر حلوًا كما يقع في بعض الأمر.

والعلم الثالث: علوم الأسرار وهو علمٌ فوق طور العقل، أي العقل لا يستقل بإدراكه وهو نفث روح القدس في الروع يختصُّ به النبي والولي.

قال ﷺ من هذا المقام: «**إن روح القدس نفثَ في روعي: إن نفسًا لن تموت حتى تستكمل رزقها**»[1].

وهو على نوعين: نوعٌ يُدرك بالعقل كالعقل كالعلم الأول، لكن لا بالنظر والفكر، بل بالوجه الخاص الذي عرفته في الوصل الأول، والنوع الآخر على ضربين:

ضربٌ منه: يلحق بالعلم الثاني الذي هو علم الأحوال، لكن حاله أشرف.

والضرب الآخر: من علوم الأخبار، وهي التي يدخلها الصدق والكذب إلا أن يكون المخبر به قد ثبت صدقه عنده وعصمته فيما يخبر به، وبقوله كخبر الأنبياء - عليهم السلام - عن الله تعالى كإخبارهم بالجنة والنار وما فيهما، فقوله: إن ثمة جنة،

---

(1) أخرجه أبو نعيم في الحلية (27/10)، والدارقطني في العلل (273/5).

من علم الخبر إذا كان غير تعريف.

وقوله في الجنة: «**إن فيها نهرٌ أحلى من العسل**»[1] من علم الأحوال إن كان عن ذوق كما ذكر ﷺ أنه عُرضت له الجنة فأراد قطف عُنقود من شجرها[2] الحديث مشهور.

وهو علم الذوق وقوله: «**كان الله ولا شيء معه**»[3] والآن كما كان وشبهه من العلوم السريَّة المذكورة بالنظر، والفكر الصادر عن العقول القدسيَّة بنور قوَّته فتكون قياساته مركَّبة من المعلومات الإيمانية كما نقول: رؤية الله بالعين جائزة بأن يكون الحق عين البصر بقرب النوافل، فرمى الحق بالمحق وهو ليس بمحال.

وهذا الصنف الثالث هو علم الأسرار، والعالم به يعلم بعلم المعلوم كلها ويستغرقها، وليس صاحب العلمين كذلك فلا علم أشرف من هذا العلم الثالث الحاوي المحيط على جميع المعلومات، وما بقي إلا أن يكون المخبر به صادقًا عند السامع معصومًا، هذا شرطه عند العامة.

وأما العاقل اللبيب الناصح نفسه فلا يرضى به، ولكن يقول: هذا جائزٌ أن يكون صدقًا فيتوقف، وأن صدقه لم يضرَّه؛ لأنه أتى في خبره بما لا يحيله ولا يهدُّ ركنًا من أركان الدين، ولا يبطل أصلاً من أصوله، فإن كل ما يؤدي إلى هدم قاعدة من قواعده فإنه مهدومٌ ومذمومٌ، فصاحب الدعوى إن كان بِدعيًا صفعنا قفاه، وضربنا وجهه بدعواه، فإن كل كرامةٍ لا تكون من نتيجة التقوى ردٌّ واستدراكٌ ومكرٌ وخداعٌ.

قال تعالى: ﴿**فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ [الأعراف: 99] - عصمنا الله وإيَّاكم منه - قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ**﴾ [آل عمران: 31] فاتِّباع السُّنة السنيَّة صحت المحبة، وحصلت السعادة، فالزم الاقتداء والاتِّباع، واجتنب الأهواء والابتداع، ولا تطأ موطأ لا ترى فيها قدم نبيِّك ﷺ، وضع قدمك على قدمه، وقف على حدوده؛ لتفوز بالدرجات العُلا، والمكانة الزلفى ﴿**وَلاَ يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ**﴾

(1) أخرجه الترمذي (604/4).

(2) أخرجه ابن عدي في الكامل (165/2) بنحوه.

(3) أخرجه الحكيم الترمذي في النوادر (104/4).

[التوبة: 120].

قال أبو سليمان الداراني - قَدَّس الله سرّه -: ربما تَنْكُتُ الحقيقة في قلبي أربعين يومًا فلا آذن لها في أن تدخل قلبي إلا بشاهدي الكتاب والسُّنة.

قال ﷺ في كتاب الحج في «الفتوحات»: لا شك أن مَنْ ترك شيئًا من الاتّباع مما لم يفرض عليه، فإنه ينقص من محبته الله إياه على قدر ما نقص من اتّباع السُّنة، فإنه قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: 31] ما خصَّ الله تعالى في شيء دون شيء، وأمَّا عند أهل الطريقة لو اتَّبعه في جميع أموره، وأخلَّ بالاتّباع في أمرٍ واحدٍ مما لم يُفرض عليه فما اتَّبعه قط، وإنما اتَّبع هوى نفسه هذا مقرر عندهم؛ وذلك لأن الله جعل الاتّباع دليل صدقهم في المحبة لله تعالى، وأمَّا العذر فحبسٌ إلهي عن الاتّباع في أمرٍ ما، فالحق تعالى ينوب عنه.

قال أبو يزيد - قَدَّس الله سرُّه - في هذا المقام:

«كنتُ في برِّي بأمي وأبي ما أقوم بحظ النفس، بل لتعظيم الشريعة، فقالت لي في ليلة باردة شديدة البرد: اسقني يا أبا يزيد، فثقل عليَّ التحرك والقيام، فتثاقلت فعرفت منه أن بري كان من حظ النفس لا بمحبة الأمر، والاتّباع من حيث لم أشعر، فقلت لنفسي: حَبطَ عملك وعرفت أن أعمالها كلها هكذا من حيث لم أشعر، ودخلت في حكم قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [التوبة: 38] هذه معاملاتهم ومحاسبتهم على أنفسهم، فافهم ولا تزنهم بميزانك بإبطال».

اعلم - أيَّدنا الله وإياك بروحٍ منه - أن كل علم إذا بسطته بالعبارة حَسُنَ وفهم معناه، أو قارب وعَذُبَ فحواه عند السامع الفهيم إلا علم الأسرار، فإنه إذا أخذته بالعبارة ربما سمح ونقل على الطباع الغليظة، والأفهام غير السليمة بل ربما مَجتهُ العقول الضعيفة، والطباع المتعصِّبة التي لم تتوفر لتصريف حقيقتها التي جعلها الله تعالى فيها من النظر والبحث، ولهذا صاحب العلم المؤدَّب كثيرًا ما يكتم ولا يتكلم عنه إلا بضرب الأمثال، والخطابات الشعريَّة كما كانت عادة السلف ﷺ.

ورد في الخبر أنه ﷺ قال: «أوتروا يا أهل القرآن إن الله وِتر يحب الوتر» فقال

أعرابي: ما تقول يا رسول الله؟ قال: «**ليست لك ولا لأصحابك**»[1] رواه أبو داود عن ابن مسعود، ورواه ابن أبي شيبة عن أبي عبيدة مرسلاً.

كان سيدنا علي ﷺ يقول: إن بين جنبي علمًا لو قلته: لخضبتم هذه من هذه، وقال سيدنا عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما: لو ذكرت ما أعلم في قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً﴾ [الطلاق: 12] لرجمتموني، أو - قلتم أني كافر - على شك الراوي.

وقال سيدنا زين العابدين ﷺ:

إنــي لأكــتمُ مِــنْ عِلْمِــي جَوَاهِــرهُ	كَــي لا يَـرَى الحـقَّ ذوا جهـلٍ فَيفْتَتِـنا
وقــد تَقــدَّمَ فــي هــذا أبــو حــسنٍ	إلــى الحــسين وأوصــى قَــبلهُ حَــسَنَا
يــا ربَّ جوهــرُ علــمٍ لــو أبــوحُ بــه	لَقِــيلَ لــي: أنــتَ ممــن يَعْــبدُ الوَثــنا
ولاسْــتحلَّ رجــالٌ مؤمــنون دَمــي	يــرونَ أقــبح مــا يأتــونهُ حــسنا

وهؤلاء كلُّهم سادات أبرارٍ قد عرفوا قدر هذا العلم، وسكتوا لعدم القابل، كان سيدنا علي ﷺ - وكرَّم الله وجهه - يضرب على صدره، ويقول: إن هاهنا لعلومًا جمة لو وُجدت لها حملة، أي: لأظهرتها.

قال الشيخ الحاتمي الخاتمي ﷺ في كتاب الياء وهو كتاب الهو: «وقد تمنيتُ أن يحصل بيدي مَن يترك النظر في الأشياء بحكم الفرض والوضع، وينظر فيها بما قلناه وما وجدناه حتى الآن، وأنا لا أزال متعوبًا بما يروه عليَّ، ولا أجد محلاً أضعه فيه من فهمٍ ثاقبٍ، ولا تسليم كامل وهذه نفثه مصدور» انتهى كلامه ﷺ.

وذلك لعزة هذا العلم وعزة طالبيه، فلهذا قيل: إذا رأيت مَن يؤمن به فهو من الصديقين وله النور لصدقه؛ إذ لولا النور لما عاين صدق المخبر والخبر من خلف حجاب هذا الهيكل، فـ ﴿طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَئَابٍ﴾ [الرعد: 29].

فإن قيل: فإذا كان الأمر على هذا الكتمان فلما أظهرت ما كتموه؟ قلنا: الزمان ما هو كالزمان، بل كثرت القابليات، وظهر العلم وقوي الإيمان، فكشف الحقائق من

(1) أخرجه أحمد (148/1)، وابن ماجه (307/1).

وجوهها قناع الاختفاء والحجاب؛ ليعبر بها أولو الأبصار والألباب.

بيتٌ للشيخ الكناني:

وما كنتُ ممن يظهر البرُّ إنما عروسُ هواها في ضميري تجلَّت

قال ﷺ في كتابه «الإسفار في نتائج الأسفار»: إن زماننا اليوم ليس هو كالزمان الماضي، وسبب ذلك قربه من الدار الآخرة دار الحياة[1]، فظهرت حياة العلم على أهله، وكثرت الكشوف، وصارت لوائح الأرواح تبدو وتظهر، فأهل زماننا اليوم أسرع كشفًا، وأكثر شهودًا وأقلُّ عملاً، والأمرُ في مزيدٍ إلى نزول عيسى ﷺ وعلى نبيّنا ﷺ، أما ترى ما قال ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يكلِّم الرجل فخذه بما فعل أهله، وتقول الشجرة: هذا يهودي خلفي اقتله**»[2].

وما هذا كله إلا خوارق العادات وظهور الكرامات، بل هذا مقتضى تردد العادات وظهور الكرامات، بل هذا تردد الحديث الذي ذكره أبو نُعيم الأصفهاني في «الحلية» وهو قوله ﷺ: «**مَثلُ أمتي كالغيث لا أدري الخير في أوله أو في آخره**»[3]، وفي آخر: «**مَثلُ أمتي كالمطر يجعل الله في أوله خيرًا وفي آخره خيرًا**»[4] رواه عمار، وهذا ما يناقض الحديث المشهور، وهو «**خير القرون قرني، ثم الذي يليه...** »[5] لوجوه:

منها: احتمال أن يكون هذا خيرًا من وجهٍ، والآخر خيرًا من وجهٍ فلا منافاة، أو يكون المراد من قَرْنِهِ ابتداء ظهوره إلى يوم القيامة هذه دورةً، فإنها كلها قرنه، ثم ما يليه من القرون مما يظهر بعدها، أما ترى إشارة قوله سبحانه أنه جعله أمةً وسطًا ﴿وَكَذَلِكَ

---

(1) والحياة: هي أحد المنازل العشرة التي يشتمل عليها قسم الحقائق، كما عرفت، ويعنون بها وصول السائر إلى المقام الذي فوق المعاينة، التي هي فوق المشاهدة المرتفعة عن المكاشفة كما نبين لك ذلك في أبوابه. وذلك بأن تتجلى الحقائق بأعيانها، وأوصافها، وخصوصياتها على وجه لا يحجب الوصف عن العين، فيسمى ذلك التجلي حياة، لأن صاحبه يأمن من موت الاعتلال في شيء من الأحوال، ومن موت الانفصال عن العين بهذا الاتصال، ومن موت الغيبة عن أزل الآزال، وعند ذلك يتحقق بالوصول إلى نهاية الآمال فيحيا بحياة الكبير المتعال، وإلى التحقق بهذه الحياة أشار من أُحييَ بها.

(2) أخرجه البخاري (1070/3)، ومسلم (2238/4).

(3) أخرجه أحمد في مسنده (319/4)، والترمذي (152/5).

(4) أورده العجلوني في كشف الخفا (258/2).

(5) أخرجه مسلم (1962/4).

جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: 143] وهذا من بعض محتملات الآية، فافهم فإن الحركة دوريَّة.

ومنها: ما قال ﷺ في كتاب «تلقيح الأذهان»: إن قرنه ﷺ الذي هو خير الناس لم يزل موجودًا، فخير الناس قرنه، أي الذين هم قرنه، ثم الذين يلونهم، ويقارنوهم وهم العلماء الآخذون من ذلك المعدن، فلذلك خصَّهم بالإخوة، فإنهم كأنبياء بني إسرائيل يأخذون من المعدن الذي أخذ منه ﷺ، فافهم.

فمن كان عنده من هذا العلم شيء فيظهر عليه في هذا الزمان الذي نحن فيه لما عرفته، فإن علمه غالبٌ عليه؛ لكثرته وقوته وكثرة المسامرين القائلين.

قال التلمساني - قَدَّس الله سرُّه -:

وما السرُّ في الأحرارِ إلا وَديعة ... ولكن إذا ذاقَ الشرابَ فَمَن يقوى

اعلم - أيَّدك الله وإيَّانا بروح منه - أن هذا العلم من حيث الذوق ولو كان لم يقع عليه اصطلاحًا أصلاً كما قال ﷺ:

وعزَّ الأمرُ أن يدري فيحكي ... وجلَّ فليس يضبطه اصطلاحُ

وكلامهم ﷺ ليس عين فتحهم؛ لأن فتحهم أذواق ومواجيد ومعاني مجرَّدة لا يقبل العبارة بل ما يذوق منه شخص غير ما يذوق منه شخصٌ آخر جملة واحدة، وذلك لوسع دائرة الأسماء، وعدم تكرار التجلِّي، ويشير إليه ما نقل عن أبي طالب المكي في معنى لا تكرار في التجلِّي، فإنه قال: لم يتجلَّ الواحد بتجلٍّ واحد مرتين، ولم يتجلَّ الاثنين بتجلٍّ واحد، فلا يقدر عارفٌ أن يضبط الأمر في قاعدة كلية.

ومن هذا المقام ما ورد عن سيد الطائفة الجنيد - قُدِّس سرُّه - أنه سُئل عن حقيقة الأمر فأجاب الجواب، ثم قال السائل: لم أفهمه أعد عليَّ، فأجابه بأمرٍ آخر، ثم قال له: هكذا الأمر، فقال السائل أمله عليَّ، فقال - قُدِّس سرُّه -: إن كنت أنا أجريه فأنا أمليه، يعني ذلك علم الله لا يدخل تحت فصول منحصرة، ولا يجري على قانون فكري، ولا يحكم عليه ميزان، ولكن لما رأى أهل الله ﷺ أنه تعالى قد اعتبر الإشارة والأمثال، فاستعملوها فيما بينهم، وبيَّنوا معناها، ومحلَّها ووقتها فلا يستعملونها فيما بينهم إلا عند مجالسة الأغيار، يقرِّبون المعاني بالوصف وضرب الأمثال للمريدين.

ومن أعجب العجائب وأغربه في هذه الطريقة المثلى أنه ما من طائفةٍ إلا ولهم

اصطلاحٌ لا يعلمه الدخيل فيهم إلا بالتعليم بخلاف طريقهم ﷺ فإن المريد الصادق لا يكون عنده خير من تلك الألفاظ الموضوعة للإشارة، فبمجرد أن فتح الله عين بصيرته، وأخذ عن ربِّه في أول ذوقه يشاركهم في الكلام به معهم على سندستهم ولا يستغرب ذلك من نفسه.

قال ﷺ: بل بهذا يعرف صدقه عندهم - قَدَّس الله سرُّهم - ويجد علم ذلك ضروريًا لا يقدر على رفعه، ولا يدري كيف حصل له ذلك، وأمَّا أول مَنْ تكلم في هذا العلم، فقال شيخ الإسلام أبو إسماعيل عبد الله الأنصاري - قُدِّس سرُّه -: إن أوَّل مَنْ عبَّر عن إشاراتهم - قُدِّس أسرارهم - «ذو النون» - قُدِّس سرُّه - ثم جاء الجنيد - قُدِّس سرُّه - في الطبعة الثانية كتب هذا العلم في الدفاتر ودوَّن ورتَّب وبسط لطائفهم وإشاراتهم.

ثم جاء الشبلي - قُدِّس سرُّه - وأظهره على المنابر في المحافل، ذكره سيدنا عبد الرحمن الجامي - رحمه الله - في كتابه: «**نفحات الأنس**» وكل ذلك إنما هو شفقة وتشويق يشوقون به همم المريدين، يأخذ ذلك بقبولٍ، ويتوجه توجهًا صحيحًا، ويفتقر إلى الله فتدركه النفحات الإلهية، أو لا مانع من فيض الفيَّاض إلا آباؤك وعدم قبولك، والسلام.

اعلم - أيَّدك الله وإيَّانا بروح القدس - وجعلنا من الذين سبقت لهم الحسنى بالصالحين الذين لهم الزيادة من الكمال الأسنى - أن جميع العلوم الرسميَّة لها مسائل مقرَّرة ثابتة عند أهلها يسمونها في الرياضات مثلاً الأصول الموضوعة يقبلها الخصم بلا طلب دليل، ثم يبنون عليها القواعد والعقائد، وإنما سميت بالأصول؛ لأنها يتفرَّع منها فروع الفن، وإنما سميت بالموضوعة؛ لأن أرباب الفنون وضعوها وأنزلوها منزلة المسائل المقررة المبرهنة المسلَّمة، فالناظر في نظره فيها يصدقها إمَّا لوضوح بداهتها، وإمَّا لحسن الظن بالواضع، أو يجعلها بمنزلة البديهة لضرورة البيان والتوصُّل إليه، ولو لم يفعلوا هكذا لتعسَّر عليهم إثبات مسألة من مسائل النظر والفكر، بل يتعذَّر إثباتها؛ لأنها تعطي التسلسل والدور.

وهكذا الأمر في هذا العلم الذي نحن بصدد بيانه، فإن له أصولاً موضوعة لو لم تصدقها بحسن الظن لا يمكنك إثبات فروعهم أصلاً، ولما هذه الأصول والأمهات مسألة وحدة الوجود فإنهم أنفقوا، أي المحمَّديون طائفة بالكشف الخاص بهم من دون

الأمم أن الوجود واحدٌ، والكثرة موهومة كالبحر إذا تنفَّس سمِّي بخارًا، فإذا تراكم سمِّي سحابًا، فإذا تقاطر سمِّي مطرًا، فإذا سال سمِّي سيلاً، فإذا اجتمع ورجع إلى البحر عاد له الاسم الأول.

فمن نظر إلى هذه الأمور غافلاً عن البحر حكم بالامتياز وأثبت الكثير، ومن نظر إلى البحر، وعرف أنها أحكامه حكم بأنها عين البحر لا أمر زائد إلا الشخص وهو أمرٌ عدمي نسبي لا وجود له.

البحرُ بحرٌ على ما كانَ مِنْ قدم ... إن الحوادثَ أمواجٌ وأنهارُ
لا يحجِبنَّك أشكالٌ تُشاكلها ... عمَّنْ تُشكلُ فيها فهي أستارُ

وقال الآخر:

هو الواحدُ الموجودُ في الكلِّ وحدهُ ... سوى أنه في الوهمِ سُمِّي بالسوي

فإن قيل وحدة الوجود على مذهب بعض الصوفيَّة الوجوديَّة لا كلِّهم، قلنا: ليس الأمر كما فهمت؛ لأن الأمر ما يتم إلا بهذا القول، وهو مخ التصوف، وملاَّك أمره بل كلهم على كلمةٍ سواءٍ بينهم.

قال تعالى: ﴿أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: 41] فلو كان في الوجود موجودان كيف تصحُّ ضميمة سير الطائفة - قُدِّس سرُّه - التي ضمَّها إلى الحديث وهو: «**كان الله ولم يكن معه شيء**»[1] وهو الآن كما كان فلم يصدق - قُدِّس سرُّه - في قوله: وهو صادق، وقال الله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ [البقرة: 115] وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: 10] وقال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ [الأنفال: 17] وقال: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ [النساء: 80] وقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: 88] وما قال: يهلك، فافهم.

وورد في الخبر الصحيح، والنص الصريح عند أهل الكشف، والشهود: «**لو دلَّى أحدكم حبله لهبط على الله**»[2].

---

(1) سبق تخريجه.

(2) أخرجه الطبري في تفسيره (216/27).

وورد في الحديث الصحيح فقال ﷺ: «**إن أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل**»[1] عن أبي هريرة، والباطل لا وجود له.

قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: 18] فالباطل زهوقٌ عدم لا وجود له، فافهم الإشارة النبويَّة إن كنت ذا لبٍ حتى يظهر لك وجه الموافقة مع الآية، فإن الآية تدل على أن العالم ليس بباطل، والحديث يدل على أنه باطل؛ لأنه سوى الله وكل شيء سوى الله باطل فلا يمكن الجمع بينهما إلا بالقول بوحدة الوجود، فإن الحق وجه كل شيء، ووجه الشيء عينه، وذاته تعالى الوجود، فالوجود في الكل واحد، ويفني النسب والاعتبارات.

كما أشار إلى هذا قوله سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 27.26] فإن الوجود من كل شيء ما ينعدم، بل الذي ينعدم نسبه وإضافاته، فمعنى الآية كل شيء من حيث النسب فانٍ، ومن حيث الذات باقٍ.

قال سيدنا علي ﷺ يشير إلى هذا المقام في خطبة من خطبه: لم يحلُّ في الأشياء فيقال: هو كائنٌ ولم ينأى عنها، فيقال هو منها بائنٌ، ويشير إلى وحدة العين أيضًا «**اللهم أنت الصاحب في السفر، وأنت الخليفة في الأهل ولا يجمعهما غيرك**»[2] لأن المستخلف لا يكون مستصحبًا لله، والمستصحب لا يكون مستخلفًا.

وفي خطبة أخرى قال ﷺ: مع كل شيء لا بمقارنة، وغير كل شيء لا بمزائلة من «نهج البلاغة».

قال سيد العشَّاق الشيخ ابن الفارض - قُدِّس سرُّه - في نظم السلوك حكايةً عن هذا المقام الأسنى[3]:

وأشـهدتني إيَّـاي أو لا سِـواي فِـي ... شُـهودي موجـودٌ فَيقـضِي بـرحمة

قال الشيخ أبو مدين قطب وقته - قُدِّس سرُّه - في هذا المقام: أي إشارةً إلى وحدة الوجود إذا ظهر الحق لم يبقَ معه غيره، وقال الجنيد - قُدِّس سرُّه -: إذا قورن

---

(1) أخرجه البخاري (2380/5)، وأحمد (470/2).

(2) أخرجه أحمد (83/5، رقم 20800)، ومسلم (979/2، رقم 1343).

(3) انظر: ديوان ابن الفارض قدس سره (ص68) وفيه: زحمة.

الحادث بالقديم لم يبقَ له أثر، وقال أبو عبد الله المغربي وهو من الطبقة الثانية يُشير إلى هذا المقام: يا مَنْ يعدُّ الوصال ذنبًا لأنها ثنويَّة، أي في إثبات الوصل، وقال الخرّاز - قُدِّس سرُّه -: كنت أطلبه، ولم أجد سوى نفسي والآن أطلب نفسي فلم أجدها إلا هو، وقال الجنيد - قُدِّس سرُّه -: التوحيد معنى يضمحل فيه الرسوم، وتندرج فيه العلوم ويكون الله كما لم يزل.

ومنه قال ممشاد الدينوري - قُدِّس سرُّه -: رؤية غير الحق شرك، ومن هذا قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: 17] وقال تعالى: ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: 91] انتهى.

وقال ذو النون المصري - قُدِّس سرُّه -: الإشارة عن المشير شرك، فإنها للاثنينيَّة فأين التوحيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطلُ[1]

والباطل لا وجود له، فكيف يشار إليه؟!. انتهى كلامه.

قال الشيخ عبد الله الأنصاري - قُدِّس سرُّه -: التوحيد نفي الحدث وإقامة الأزل.

والشيخ العارف عفيف الدين التلمساني - قُدِّس سرُّه - أشار إلى هذا المقام نظمًا، وقال:

شهدتُ نفسكَ فينا وهي واحدةٌ ... كثيرةٌ ذات أوصافٍ وأسما

ونحنُ فيكَ شهدنا بعض كثرتنا ... عينًا بها اتحد المرئي والرائي

قال الشيخ عبد الله الأنصاري - قُدِّس سرُّه - في بعض مناجاته: إلهي ما فعلت في أوليائك مَنْ طلبهم وجدك، ومَنْ لم يرك ما عرفهم صيرتني مرآة مَنْ يبغيك مَنْ يراني يراك، وأرباب الحجاب قلت فيهم: وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون إشاراتهم ﷺكلّهم إلى وحدة الوجود، فافهم.

عباراتنا شتَّى وحسنك واحدُ ... وكُلّ إلى ذاك الجمالِ يُشيرُ

إن هؤلاء كلّهم سادات الأبرار ومعادن الجود والكشف والأسرار، بل نقل عن قدماء الحكماء بإذعان هذه المسألة، وأن أفلاطون الإلهي صرَّح بتوحيد الوجود، وهكذا يظهر مما نقل عن أفلاطون في كتاب: «حكمة الإشراق في مبحث الأنوار» وفي

(1) شطر البيت منسوب للبيد.

غير ذلك الكتاب من مؤلفاته المقبولة، ورأيت في بعض تصانيف المتأخرين أن فيثاغورث الإلهي الذي هو أستاذ أفلاطون صرَّح بتوحيد الوجود وسريان وجوده الوحداني بذاته في جميع الموجودات، والمفهوم من كلامه أن فيثاغورث عبَّر عن الوجود المطلق الوحداني الساري في الكل بذاته بالوحدة المطلقة السارية في الكل.

وصرَّح بهذه المسألة ابن سينا في النمط التاسع من كتاب: «الإشارات في بيان مقامات العارفين» بل صرَّح به في أماكن كثيرة من كتبه كـ «الشفاء» و«النجاة» و«التعليقات» و«حكمة العلائي» وممن تتبَّع كلامه يظهر له ما قلناه فاعتبر بكلامهم، وكن من الذين يجتمعون على ذكر الله فينتقون أطايب الكلام كما ينتقي آكل الثمر أطايبه، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيله سواء السبيل.

واعلم أن أعظم الشُّبه أيضًا والحجب هو التعددات الواقعة في الوجود بموجب أحكام الأعيان الثابتة فيه، فتوهم أن الأعيان تعددت وتكثَّرت بالوجود وظهرت في الخارج به، وبرزت متصفة بالوجود، وليس كذلك، بل إنما هي آثارها في الوجود والوجود واحد، والأعيان ما شمَّت رائحة الوجود وأيضًا كما أن الوجود من حيث حقيقته واحدة غير منقسم، فكذلك من حيث الصورة هو واحد مصمت؛ لأنه أحد صمد؛ وذلك لأن العوالم كلها برازخ.

ومن أحكام النشأة البرزخية أن يرى واحدًا في صور كثيرة، وأماكن مختلفة في الآن الواحد الغير المنقسم، وتعلم أنه ليس غيره في كل صورة وبرزة، وهو مع كونه واحدًا عين كل صورة، ويسمَّى هذا الظهور في بعض البروز بروز الكمَّل لهم الاقتداء بهذا التحول، والتصور والتصرف فيهما كيف شاء، وفي هذه الدار دار الدنيا.

وفي هذا المقام قال الشيخ ابن الفارض - قُدِّس سرُّه - شعر:

وَمَا القَومُ غَيري في هَوَايَ وإِنَّما ظَهَرت بِهم لِلَّبس في كُل هَيئَة
تَجَلَّيت فِيهِم ظَاهِرًا واحتَجَبتُ بِـا طـنَابِهِم فَاَعجب الكَشف بِستْرِتهِ

وهكذا في النشأة الآخرة البرزخية، أما ترى أنَّ الناس يطلبون النبي ﷺ في مواطن القيامة وهم يجدونه في كل موطن بحسب الشخص، وأقرب من هذا ما ترى في منامك، فإنك ترى فيها العوالم ولا هنا غيرك فافهم الإشارة، فإنها أقرب تمثيل يضرب لرؤية الكثرة في الواحد، قال الشيخ ابن الفارض شعر:

أَتَحسبَ مَن جَارَاكَ في سِنَة الكَرى سِوَاكَ بِأَنواع العُلوم الجليَّة

تَجَمَّعت الأضدادُ فِيها بحكمٍ فَأشكَالها تَبدو وأعلَى كُل هيبَةٍ
وَكُل الذي شَاهدته فِعلٌ واحدٌ بمفردهِ لَكِن يحجُب الأكنَّة
إِذَا مَا أَزَالَ السترَ لَم تَرَ غيره ولم يَبقَ بِالأشكال أشكالُ ريبة

وإنما ذكرت هذه المسألة، أي مسألة وحدة الوجود من الأمهات بضميمة هذه الروايات تأنيسًا للمحجوبين وتسكينًا للمترددين، وتذكرة للمشاركين المؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: 55] فقبلة مخاطبتي هذه بالقصد الأول المؤمنون بكلام الشيخ ﷺ من أهل القلوب المنورة الصافية وأرباب النظر السليم والعقول الوافرة الغير المعتصبة الواقية، والفهوم الثاقبة الوافية، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: 28]

ورد في الحديث: «**في طائفة يغبطهم الأنبياء يجتمعون على ذكر الله فيتنقون أطايب الكلام كما يتقي آكل التمر أطايبه**»[1] رواه الطبراني عن عمرو بن عبسة ﷺ ذكره في «جمع الجوامع» فإنهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه؛ لصفاء طويَّة وحسن نيَّة، بصفاء تام وتوجُّه عام بعد تطهير محلهم عن صفتي الجدل والنزاع، متصفًا بنعتي التشويق والاتِّباع، متعرضين لنفحات جود الجوَّاد الكريم، مراقبين وازنين بميزان الحق والعدل القويم، فمن هذه صفاتهم هم المتأهلون للانتفاع بنتائج الأذواق الصحيحة وعلوم المكاشفات الصريحة:

يَعرِفُنَا مَن كَانَ مِن جِنسِنَا وسَائِرِ النَّاس لَنَا مُنكِرون

فصل شريف ونصٌ لطيف
في سبب الاختلافات الواقعة في الكشوف والأذواق

اعلم أن سبب الاختلافات التي وقعت في الكشوف والأذواق حتى طَعنوا فيهم وقالوا: لو كان كشفًا صريحًا وعلمًا صحيحًا لما وقع الاختلاف بينهم، فحملوا مسائلهم الكشفية على المسائل النظرية الفكرية التي هي تخطئ وتصيب، هو عدم الاستشراق

(1) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (77/10).

على أمهات الحقائق وأصول المقامات، بل يتكلمون على تفاصيل منتقلين من بعض الفروع إلى بعض آخر، فلذلك يقع الخلاف بينهم ويرد النقض عليهم، ويبدوا حكم الحيرة فيهم عند المحاققة، كما يقع بين المتوسطين وأهل البدايات من أهل الله أصحاب المكاشفات الظاهرة، الذين تبرز لهم الحقائق والحضَرات وغيرهما، مما لا يدرك إلا كشفًا، ولكن بحكم الطبيعة فإن لها حكمًا عليهم ما داموا في ربقة الطبيعة، فتختلف الكشوف باختلاف الطبائع فيخطئ ويصيب، بل الكشف لا يخطئ أبدًا، فإن المتكلم في مدلوله يخطئ ويصيب كالرؤيا، فإن كشفه صحيح فما يقع من الغلط إلا في التعبير.

ذكره ﵁ في باب إحدى وثلاثمائة من «الفتوحات» بخلاف المتمكنين من أهل الله ﵃ في علمهم الموهوب، وكشفهم التام المطلوب، يعرفون غاية ما أدرك كل بفكره، واطَّلع بحسبه ونظره، ويعرفون سبب تخطِّيه الناظرين بعضهم بعضًا، وما الذي أدركوه وأصيبوا ما الذي فالذي، فافهم ومن أي وجه أصابوا ومن أي وجه أخطأوا، وهكذا حالهم ﵃ مع أهل الأذواق والمكاشفين الذين لم يتحققوا بالذوق الجامع، ويعرفون أيضًا حال المتمكنين، ومن غلب عليهم من الأسماء والأحوال والمقامات، التي أوجب لهم تعشُّقهم وتقيدهم بما هم فيه، ومن الذي له أهلية الترقِّي من ذلك، ومن ليس له ذلك فيقيِّمون ﵃ أعذار الناس وهم لهم منكرون، وبمكانكم جاهلون، وعن مقامهم عمون.

ولهذا التحقق والإشراف لم يقع بين الرسل والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - خلاف في الأصول من أحكام الحضرات الأصلية الإلهية، وإن تفاضلوا في الاطلاع، وما نقل من خلاف عنهم - صلوات الله عليهم - إنما ذلك في جزئيات الأمور والأحكام الفرعية الشرعية؛ لكونها تابعة لأحوال المكلفين وأزمانهم، وما تواطؤوا عليه وما اقتضته مصالحهم، فتتعيَّن الأحكام الإلهية في كل زمان بواسطة رسول ذلك الزمان، بما هو الأنفع لأهله، وأما هم - صلوات الله عليهم - مما عدا الأحكام المذكورون فمتفقون، وكل تالٍ يقرر قول من تقدمه ويصدقه؛ لاتحاد أصل مآخذهم - صلوات الله عليهم أجمعين - وصفاء محلهم حال التلقي من الحق سبحانه عن أحكام العلوم المكتسبة والعقائد المقيَّدة، والتعلقات الطبيعية ونحو ذلك.

أما ترى قوله تعالى يشير إلى هذا المقام: ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا

نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64].

فليس بين القوم بحمد الله خلاف فيما يتحققون به، بل هم في شغلهم أحقّ وأصح من أهل الحسّ فيما يدركونه بحواسهم، بل ولا نقول: إن الحق مع أحد القولين أو مع إحدى الطائفتين، بل نقول: إن الحق مع كل طائفة، وكلهم صادقون في قولهم، ولكن باعتبار المواطن والمصارف، فإن كنت عارفًا بالمواطن وعرفت صدق كل من هذا، وعرفت أن كل مجتهد مصيب ما معناه فقم في كل موطن باستحقاقه تحمدك المواطن، والمواطن شهود حق عدل عند الله، فإنها لا تشهد إلا بصدق، فافهم فإني أدَّيتك الأمانة مع السلامة من البشاعة.

اعلم أنَّ الحق سبحانه وتعالى ربط العوالم والموجودات جليلها وحقيرها، كبيرها وصغيرها بعضها ببعض، وجعل بعضها مرائي ومظاهر للبعض، فالعالم السفلي بما فيه مرآة للعالم العلوي ومظهر لآثاره، وكذلك العالم العلوي مرآة تتعيَّن فيه أرواح أفعال العالم السفلي تارة وصورها تارة أخرى، والمجموع تارة أخرى، وعالم المثال الكلي من حيث تقيده في بعض المراتب، ومن حيث عموم حكمه وإطلاقه أيضًا مرآة لكل فعل وموجود، ومرتبته وانفراد الحق سبحانه بإظهار كل شيء على حد علمه به لا غير، وجعل ذلك الإظهار تابعًا لأحكام النكاحات الخمس التابعة للحضرات الخمس، فظهور الموجودات على اختلاف أنواعها وأشخاصها متوقف على سر الجميع النكاحي على اختلاف مراتبه المذكورة، وأحكامها المشار إليها، فإن قيل: ما الحضرات الخمس وما بيانها؟.

قلنا: اعلم أن الحضرات الكليَّة التي إليها الاستناد والمرجع هي الخمسة التي

أولها: «الغيب الإلهي» الذي هو معدن الحقائق والمعاني المجردة الإجمالية.

وثانيها: «الغيب الإضافي» وهو عالم الأرواح المجردة.

وثالثها: «عالم المثال» يتصور فيها الأرواح كالأشباح.

ورابعها: «عالم الشهادة» ولها الصور المركبة الطبيعية والبسيطة.

وخامسها: «الأمر الجامع».

وكل موجود لا بُدّ أن يستند إلى أحد هذه المراتب الخمس، أو يكون مظهر الحكم الجميع كالإنسان الكامل، ولها باعتبار آخر تفصيل آخر وهو هكذا غيب الغيب،

وهو التعين الأول الإجمالي، والغيب الثاني هو التعين الثاني حضرة حقائق الأسماء والأعيان الثانية، والشهادة الإضافية وهي عالم الأرواح والشهادة الحقيقية، وهي عالم الأشباح وعالم المثال ما بين الشهادتين، وهي عالم تنزل فيه الأرواح على صورة الأشباح، وتتروحن الأجسام إليه وتصير أجسادًا، فالأمر الجامع بهذا الاعتبار تصير المرتبة السادسة الجامعة للكل، فافهم.

ثم اعلم ثانيًا أن أوّل المراتب والاعتبارات العرفانية المحققة لغيب الهويَّة هو الاعتبار المسقط لسائر الاعتبارات، وهو الإطلاق الصرف عن القيد والإطلاق، وعن الحصر في أمر من الأمور الثبوتية والسلبية كالأسماء والصفات، وكلما يتصور ويعقل ويفرض بأي وجه تعقل وتصور وفرض فهو غير ذلك، وليس لهذا المقام لسان فغاية التنبيه عليه هذا، وأمثاله هذا هو حقيقة الحق التي لا تدرك ولا تعلم ولا يحكم عليها، لا بسلب ولا بإيجاب، وتسمى هذه المرتبة مرتبة لا تعين، وإنما سموها بهذا الاسم لضرورة البيان والتواصل إلى الإفهام، وإلا فهي منزَّهة عن الإحاطة علمًا وشهودًا ووجودًا سيَّما عن التسمية، وكيف لا والمسمى مدرك، وقد قررنا أنها ما تدرك، فإن قيل: فكيف اتَّصل علمنا بهذا المشهد الأنزه الغريب والمقام الأنوه العجيب؟.

قلنا: ذكر صدر الدين القونوي - قُدِّس سرُّه - في شرح الفاتحة: إن هذا القدر من المعرفة المتعلقة بهذا الغيب ولا غيب إنما هي معرفة إجمالية حاصلة بالتعريف الإلهي الأجلى الأعلى، أو بالكشف الأجلى الذي لا واسطة فيه غير نفس التجلي المتعين من هذه الحضرة الغير المتعيِّنة، وكوشف صاحب الكشف الأوسع الأتم أن كل تعيّن مسبوق بلا تعيّن، ثم الاستدلال عليه ثانيًا بما ظهر منه وامتاز عنه من الأسماء والآثار الوجودية والتجليات النوريَّة فإنه أصل كل غيب، فافهم واستخلص المقصود من الكلام غير متقيّد بالألفاظ وأدوات التوصيل، فإن المقام ما هو مقام المحاققة فافهم فإذا فهمت هذا فلنرجع ونقول: أول الاعتبار اعتبار علمه نفسه بنفسه، وكونه هو بنفسه هو فحسب من غير تعقُّل تعلق، أو اعتبار حكم، أو تعين أمر ثبوتي أو سلبي كان ما كان مما يقبله غيره بوجه من الوجوه ما عدا هذا الاعتبار الواحد المنفي حكمه عن سواه، وهو مستند الغنى والكمال الوجودي الذاتي، والوحدة الحقيقية الصرفة وقوله: «**كان الله ولا شيء معه**»[1] ونحو ذلك وهو أول ما يصح أن يعلم المسمَّى بالتعين الأول، فعلم

---

(1) سبق تخريجه.

نفسه بنفسه غنيٌّ عن العالمين، فافهم.

والاعتبار الثاني: شهوده نفسه في مرتبته سواه من غير أن يدرك ذلك الغير نفسه؛ لقرب نسبته وعهده ممن امتاز عنه، ولغلبته حكم الغيب المطلق والتجلي الوحداني، ثم ظهر حكم تعلق الإرادة بنسبتي التفضيل والتدبير؛ لاتحاد عالم التدوين والتسطير، وإبراز الكلمات الإلهية التي هي مظاهر نوره وملابس نسب علمه ومرائي أسمائه وتعيناتها في رقٍّ مسطور.

فكانت ثمرته شهود الظاهر نفسه في مرتبة الغير والسوي الممتاز عنه في الشهادة الأولى المسمّى بها خلقًا، وسوى هذا غاية الخلق وحكمه الإيجاد وهي قوله ﷺ: «أحببت أن أُعرف فخلقت الخلق لأُعرف»[1].

وهذا معنى قوله ﷺ في أوّل الكتاب: إن رؤية الشيء نفسه بنفسه ليس مثل رؤية نفسه في أمر آخر يكون كالمرآة، فشاء أن يخلق الخلق حتى يكون مرآة يرى فيها، فافهم.

ونص متم لأمر وحدة الوجود، والذي هو العين المقصود:

واعلم - أيّدك الله وإيّانا بروح منه - أن كل ما ظهر في الوجود، وامتاز من الغيب على اختلاف الظهور، والامتياز في التحقيق الأتم، ليس إلا تجلٍ واحد يظهر له بحسب القوابل ومراتبها واستعداداتها تعينات، فيلحقه لذلك التعدد، والنعوت المختلفة والأسماء والصفات؛ لأن الأمر في نفسه متعدد، ووروده طارئ ومتجدد، هذا حقيقة معنى مقول القوم: لا تكرار في التجلّي.

ذكر الشيخ ﷺ في «الفتوحات» هذه الكلمة عن أبي طالب المكّي - قُدِّس سرُّه -: وإنما التقدم والتأخر وغيرهما من أحوال الممكنات يوهم التجدد والطرئان والتقيُّد والتغيُّر ونحو ذلك كالحال في التعدد، وإلا فالأمر أجلّ أن ينحصر في إطلاق أو تقييد أو اسم أو صفة أو نقصان أو مزيد، وهذا التجلِّي الأحدي المشار إليه ليس غير النور الوجودي، ولا يصل من الحق تعالى إلى الممكنات بعد الاتصاف بالوجود، ولا قبله غير ذلك، وما سوى ذلك فإنه أحكام الممكنات وآثارها تتصل من بعضها بالبعض حال الظهور بالتجلي الوجودي الوحداني المذكور، ولما لم يكن الوجود ذاتيًا لسوى الحق سبحانه بل مستفاد من تجلّيه اقتضى العالم في بقائه إلى الإمداد الوجودي الأحدي مع

(1) أورده العجلوني في كشف الخفا (173/2).

الأنات دون فترة ولا انقطاع؛ إذ لو انقطع الإمداد المذكور طرفة عين لفني العالم دفعة واحدة، فإن الحكم العدمي أمر لازم للممكن، والوجود عارض له من موجده، فافهم لتفهم سر وحدة الوجود، وهذا هو الأصل في كل موجود، فإذا أشرق نور التجلِّي الوحداني على القلب الوحداني توحَّدت أحكام الأحديات، واختفت آثار الكثرات فيها، وشهد أن التجلِّي هو التجلِّي الذاتي والفيض فيض الأقدس دون المقدس، وأن ما في العالم سواه، بل هو المتجلى والمتجلِّي له، والتجلِّي هذا هو المعتمد والمعتني والمعوَّل عليه، وغير هذا الذوق لا تمل إليه ولا تحول لديه، فافهم واشكر هذه النعم، حيث جعلك الله ممن قرع سمعك أسرار الله المخبوءة في خلقه، يخص الله بها من يشاء من عباده، واثبت لما يلق، قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ [المزمل: 5] فتبتَّل إلى إصغائه وإذعانه تبتيلاً جميلاً، وكن له من القابلين المؤمنين القائلين بها، ولا تحرم التصديق بها فتحرم خيرها، وتجمع بين الحرمانين عدم الاتصاف وعدم الإيمان والإنصاف، قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة 11].

ورد في الحديث الصحيح: «**إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله، فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرة بالله**»[1] ذكره الديلمي عن أبي هريرة ﷺ، وهو من العلم الذي يكون تحت النطق والبيان، فما ظنك بما عندهم مما هو خارج عن حكم الدخول تحت النطق والبيان، فما كل علمٍ يدخل تحت السيارة وهو علوم الأذواق كلها، فإذا رأيت فيك شعرة من قابلية قبول كلامهم، فأبشر فإنك سعيد فإنهم قومٌ لا يشقى جليسهم فكيف من يجد في نفسه رائحة ذوقهم وبارقة فهم كلامه؟! وما ذلك إلا لمناسبة موجودة، وأنت ما تدري كما قيل: إن المناسبة علة الضم.

قال الشيخ الإمام خواجة عبد الله الأنصاري - قُدِّس سرُّه -: إن أول علامة القبول قبول كلامهم وعدم الإنكار عليهم.

وقال ﷺ في «الفتوحات»: إذا حسن عندك كلامهم وقبلته، وآمنت به فأبشر فإنك على كشف منه ضرورة، وأنت لا تدري لا سبيل إلا هذا؛ إذ لا يثلج الصدور إلا بما يقطع بصحته وليس للعقل هنا مدخل؛ لأنه ليس من دركه إلا إن أتى بذلك معصوم

(1) أخرجه الديلمي (210/1).

حينئذٍ يثلج صدر العاقل، وأمَّا المعصوم فلا يلتذ بكلامه إلا صاحب ذوق؛ فلهذا قال سيد الطائفة الجنيد - قُدِّس سرُّه -: «الإيمان بعلمنا ولاية».

وقال ﷺفي «الفتوحات» في الباب الثالث والسبعين عن أبي يزيد البسطامي - قُدِّس سرُّه - أنه قال لأبي موسى الديبلي: يا أبا موسى إذا رأيت مَنْ يؤمن بكلام هذه الطائفة، فقل له يدعو لك فإنه يجاب الدعوة وهو أبو يزيد من أحد النوَّاب.

ثم قال ﷺ: وكيف لا والمسلم في بحبوحة الحضرة، ولكن لا يدري أنه فيها لجهله بها ولا يغرُّك أيُّها الناظر قول العموم: إن كل علم لا يكون عن حال فليس بشيء كما يتخيله الجهَّال والعوَّام، فإنه ﷺ ذكر في الفصل الرابع في المنازل من «الفتوحات»: إن الرجولية ليست فيما يتخيله الجهَّال من عامة الطريق بطريق الله، فيتحجَّبون بالحال عمَّا يقتضيه العلم والمقام يقولون: كل علمٍ لا يكون بالحال فليس بشيء، فقل له: لا تقل ذلك يا أخي فإنه خلاف الأمر، وإنما الصحيح أن تقول: كل علم لا يكون عن ذوق فليس بعلم أهل الله، فأراك لا تفرِّق بين الحال والذوق، وما تم علمٌ قط إلا عن ذوقٍ لا يكون غير هذا، والمتمكِّن في العبودية لا حال له البتة مخرجه عن عبوديته، فلو لم يكن في الأحوال من النقص إلا أن يخرج من مقامه إلى ما لا يستحقه، وهو لا حق له حتى أنه لو مات في حال الحال لما مات صاحب نقصٍ وحُشر صاحب نقص، فليست الأحوال من مطالب الرجال لكن الأذواق من مطالبهم، وهي لهم فيها من العلوم بمنزلة الأدلَّة لأصحاب النظر فيها، انتهى كلامه ﷺ، فلا يصرفنكم صارف عما تلوته عليكم ولو شاء الله ما فعلته.

قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: 29].

قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: 9] ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: 19].

شرح خطبة الشيخ

قال الشيخ الأكبر الحاتمي ﷺ:

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة بسم الله من الإلهيين بمنزلة كلمة الحضرة، فلما أراد ﷺ ظهور عين

الكتاب المسطور في الرقِّ المنشور، قال: بسم الله الرحمن الرحيم، فالأديب خلاق في هذه الدار ببسم الله الرحمن الرحيم؛ ليعصم في معاملته من مشاركة الشيطان حيث أمره بالمشاركة في الأموال والأولاد، فهو ممثل هذا الأمر الإلهي وحريص عليه، ونحن مأمورون بألقابه في هذه المشاركة، فطُلبنا وطَلبنا ما نتقيَّد به لكونه نجيًا عنًا لا نراه فأعطانا الله اسمه تعالى، فلمَّا سمينا الله تعالى أعمالنا عند الشروع فيها توحدنا بها، وعصمنا الله من مشاركة الشيطان، فإن الاسم الإلهي هو الذي يباشرها، ويحول بيننا وبينه حتى أن بعض أهل الكشف يشهدون هذه المدافعة التي بين الاسم الإلهي من العبد في حال الشروع وبين الشيطان، وإذا كان العبد بهذه الصفة كان على بيِّنة من ربِّه، وفاز ونجا من هذه المشاركة، وكان له البقاء في الحفظ والعصمة في جميع أعماله وأحواله، ذكره ﷺ في الباب الثالث والخمسين وثلاثمائة من «الفتوحات».

وإنما عدل ﷺ عن قوله: كن أدبًا مع الله تعالى ورسوله ﷺ، فإنه إذا أراد شيئًا يقول له: كن وحيث صدر منه ﷺ في غزوة تبوك: «كن أبا ذر»[1].

قال ﷺ في «الفتوحات»: مَنْ أراد التكوين، فليقل: بسم الله، فإن الأدب مع الله لا يشارك فيما أنت فيه مشارك، فافهم.

قال الشيخ الأكبر ﷺ في آخر الرسالة المسمَّاة بلا يعول عليه: إن التأثير بالآلهة لا يعول عليه إلا إن صحبهُ بسم الله الذي هو بمنزلة كن منه.

ثم نرجع ونقول في بعض أسرار بسم الله على العموم لا باعتبار خصوص المقام:

اعلم أنه لما ثبت أن الأسماء الإلهية سبب وجود العالم، وأنها المسلِّطة عليه والمؤثِّرة لذلك قال: بسم الله خبر مبتدأ مضمر، وهو ابتداء العالم وظهوره كأنه يقول: ظهور العالم بسم الله الرحمن الرحيم، فظهر به العالم، واختصَّت به ثلاثة من الأسماء؛ لأن الحقائق تعطي ذلك، فالله هو الاسم الجامع للأسماء كلِّها، والرحمة صفة عامة فهو رحمن الدنيا بها رحم كل شيء من العالم في الدنيا، ولما كانت الرحمة في الآخرة لا تختص إلا بقبضة السعادة، فانفرد عن أخيه في الآخرة، فتمَّ العالم بهذه الثلاثة الأسماء جملة في الاسم الله، وتفصيلاً في الإسمين الرحمن الرحيم.

---

(1) أخرجه ابن حبان في الثقات (2/94)، والطبري (2/184).

قوله: (بسم الله): بالباء ظهر الوجود، وبالنقطة تميّز العابد من المعبود، قيل للشبلي - قُدِّس سرُّه -: أنت الشبلي، قال: «أنا النقطة التي تحت الباء»وهو إشارةٌ إلى وجود العبد بما تقتضيه حقيقة العبودية.

ونقل الشيخ ﷺ عن الشيخ أبي مدين - قُدِّس سرُّه - أنه قال: «ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الباء عليه مكتوبة»، فالباء المصاحبة للموجودات من حضرة الحق في مقام كل شيء، فظهر في كل موجود وهذا سرُّ ابتداء القرآن بالباء، بل ابتداء كل سورة بالبسملة، فافهم.

فالباء ملكوتيّة، والنقطة جبروتيّة، والحركة شهاديّة، وأمّا الألف المضمرة في بسم الله فهي إشارة إلى الحقيقة القائمة بالكل، واحتجب رحمه منها بالنقطة التي تحت الباء، ثم وجدنا الألف المحذوفة في: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: 1] قد ظهرت، ولو لم تظهر ما علم المثل حقيقته ولا رأى صورته وسؤدته؛ وذلك لأنه تعالى أمر بتنزيه المجلى بتجلِّي المثل فقيل له: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ [الأعلى: 1] الذي هو مُغذِّيك من المواد الإلهية، فهو ربك ولا طاقة لها على ذلك إلا بالباء [...].

ولا بُدّ من امتثال الأمر، فلا بُدّ له من ظهور الألف التي هو الفاعل القديم فيتيقَّظ عن سِنة الغفلة، وافهم فإني أدرجت لك إن كنت ذا لبٍ لب المعارف فيه.

وأمّا الألف التي في بسم الله فكان خفاؤها عنهم رحمة بهم، فخفف الله عنهم حيث عَلم أن فيهم ضعفًا إذا كان الإخفاء سبب إبقاء الوجود عليهم، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: 51] وأشار إلى هذا المقر الصحيح وهو: «إن لله سبعين ألف حجاب لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[1].

أمّا قوله ﷺ: المضاف إليه الاسم من بسم الله ينبغي لك يا أخي - رزقك الله وإيّانا فهم الأسرار. أن تعرف أولاً ما يحصل في هذه الكلمة الطيبة من الحروف، وحينئذٍ يقع الكلام عليها فحروفها (اللاه) فلمّا تعلق الألف باللام أحب الظهور فأظهرتها اللام، فصحَّ الظهور، وتمَّ به السرور وانتشر النور، ولما أفنتها اللام الثابتة بعدم شهود الألف التي بعدها فناء لم يبقَ منه باقية فظهرت اللام ورجعت بخلعة

(1) أخرجه ابن ماجه (71/1)، وأبو يعلى في مسنده (245/13) بنحوه.

الوجود والفناء، ثم جاءت الهاء آخر إشارة إلى بقاء وجوده آخرًا عند محو الرسوم، وهذا هو المقام الذي يضمحل فيه أحوال السائرين، وتنعدم فيه مقامات السالكين حتى يفنى ما لم يكن، ويبقى مَنْ لم يزل لا غير؛ ليثبت لظهوره ولا ظلام يبقى لنوره، ويشير إلى هذا المقام قوله تعالى: ﴿لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ﴾ [المدثر: 28]، وقوله ﷺ: «**فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1].

فالألف الموصولة بالإضافة - أعني ألف الله - إشارة إلى تحقيق اتصال الوحدانية، وتمحيق انفصال الغيرية وهو تحقيق المتصل بتمحيق المنفصل، فافهم.

والألف الثانية في اللام الثانية تمحو آثار الغير المتحصِّل، أي: من الوهم المكتسب وظهور اللام بالاستقلال، وأما الهاء للهوية السارية إشارة إلى أنه منها بدأ وبها ختم وملَّكها الأمر في الوجود والعدم، وجعلها دالة على الحدوث والقدم، والله بكل شيء محيط، وصيَّر الكل اسمًا ومسمًى، وأرسله مكشوفًا ومُعمًّا الله هو الولي الأعلى.

أما ترى أن اللام الثانية لما كانت مراده الكل مجتباه كيف أعربت واتصلت بألف الوحدانية اتصالاً شافيًا حتى صار وجودها نطقًا يدل على الألف دلالة صحيحة، وإن كانت الذات خُفيت فإن لفظك باللام تحقيق الاتصال، ويُشير إلى هذا قول أعلم الخلق بالله ﷺ: «مَن عرف نفسه فقد عَرف ربه»[2] فمَن عَرف اللام الثانية عَرف اللام بخلاف اللام الأُول، فإنه مع الهمزة ولا يظهر الألف.

أما ترى تعانق اللام مع الألف تعانقًا حبيبًا عشيقًا لا يفارقها أبدًا، بل في ظهور الأول ثابت الهمزة عنها، أي: عن الألف، وهي في حجاب غرة البطون لا تقبل الحركة والخروج ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً﴾ [الفرقان: 45]، قال الله تعالى: ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ [الأنعام: 13] فافهم ولا تكن غليظ الطبع قدمًا أصم أعمى أبكم وعلى الله قصد السبيل.

وأمّا قوله ﷺ عن (الرحمن) فاعتبر فيه وجهان:

* فمَن أعربه بدلاً جعله ذاتًا، قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا

---

(1) أخرجه البخاري (27/1)، ومسلم (37/1)، والترمذي (6/5)، وابن حبان (375/1).

(2) أخرجه أبو نعيم في الحلية (208/10)، وذكره المناوي في فيض القدير (225/1).

تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى﴾ [الإسراء: 110].

* ومن أعربه نعتًا فقد اعتبره صفة قال ﷺ: «إن الله خلق آدم على صورته»[1] وفي رواية: «على صورة الرحمن»[2] وهذه الرواية ذكرها ؓ في الباب الخامس من «الفتوحات» وقال: إنها صحيحة من طريق الكشف، فمَن أعربه بدلاً أشار إلى التحقيق بمقام الجمع الذاتي وفناء الصفات، كما قيل: التوحيد إسقاط الإضافات وهو مقام أن الله خلق آدم على صورته، وذلك وجود العبد في مقام قُرب الحق في حد الخلافة، فافهم.

وأمَّا من أعربه نعتًا فإنه أشار إلى رتبة الجمع الصفاتي، وهو من مقام خلق آدم على صورة الرحمن وهذا مقام الوراثة ولا يكون إلا بالحجاب، وهو المعبَّر عنه بالمثل، وفيما قررناه دلَّ على ما أضمرناه لمن له قلب، قال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: 25] فكن المعمي ولا تكن ممن هو أضلُّ وأعمى.

وأمَّا (الرحيم) من البسملة صفة محمد ﷺ بلا شبهة ولا مراء، كما شهد الله له بقوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128] ﴿وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً﴾ [النساء: 79] تَمَّت البسملة وبتمامها تمَّ العالم خلقًا وإبداعًا، وكان ﷺ مبدأ الوجود عقلاً ونفسًا.

ورد: «كنت نبيًا وآدم بين الماء والطين»[3] أي: العلم والعين وصار به ختمًا، وبه ﷺ ختم المقام روحًا وجسمًا كل آدم أبو البشر حامل الأسماء وهو ﷺ حامل الاسم والمعنى.

قال ﷺ: «مثلت لي أمتي في الماء والطين وعلمت الأسماء كلها كما علم آدم الأسماء كلها»[4] ذكره الديلمي عن أبي رافع، فالشهود في الماء والطين أتمّ وأعمّ من الشهود في عالم الأرواح أو المثال، فافهم فإني ما ذكرت لك في مقام البسملة سوى

---

(1) أخرجه البخاري (5873)، ومسلم (2612)، وأحمد في المسند (244/2).

(2) أخرجه الطبراني في الكبير (430/2)، (13580)، والدارقطني في جزء الصفات (45)، (48)، (49)، وابن أبي عاصم في السنة (517).

(3) أورده القاري في المصنوع (142/1)، والعجلوني في كشف الخفا (169/2).

(4) أخرجه الديلمي (166/4).

قشور ما فهمته من معارفه ﷺ وذلك لأن الفائدة في المحاورة والتعريف لا يكون إلا إفهام المخاطب، وإلا ما يقع في التعريف فائدة، ولما كان فهم المخاطبين بحسب إدراكهم فيما خوطبوا به مما ظهر منا إلا بحكم الحكيم، وإلا قال ﷺ: إنه وجدت البسملة أنها تتضمن ألف معنى كل معنى منها لا يحصل إلا بعد انقضاء حول، ولا بُدّ من حصول هذه المعاني؛ لأنه ما ظهر إلا ليعطي معناه، فلا بد من كمال ألف سنة لهذه الأمة، وهي أوّل دورة الميزان ومدتها ستة آلاف سنة روحانية محققة، ولهذا ظهر في هذه الأمة من العلوم الإلهية ما لم يظهر لغير هذه الأمة، فإن هذه الدورة التي انقضت كانت ترابية فغاية سعيهم علمًا وعملاً بالطبائع، والإلهيون فيهم غربًا قليلون جدًا، يكاد ألا يظهر لهم عين، ثم أن المقالة منهم أيضًا ممتزج بالطبيعة، ولا بُدّ منّا صرف خالص سائغ للشاربين، ولا سبيل لحكم الطبع عليه أصلاً، هذا هو مال اليتيم الذي لا يقربه أحد إلا بالتي هي أحسن، أي باستحقاق الوراثة المحمدية ﷺ، فافهم.

• • •

نكتة

اعلم أن البسملة أربعة ألفاظ لها أربعة معانٍ فتلك ثمانية:

وهم العرش المحيط، وهم الحملة، فهم حملة من وجه وعرش من وجه، ذكره ﷺ في «الفتوحات» ثم قال: فانظر واستخرج من ذاتك لذاتك، فقلت إطاعة لخطابه المستطاب: إنهم من حيث الصور حملة، ومن حيث المعاني عرش؛ لأن الصور يصح أن يقال فيها أنها حافلة الأرواح، فلهذا تظهر في الآخر ثمانية؛ لأن المعاني فيها تظهر صورًا قائمة بنفسها والله أعلم.

بشارة في البسملة وهي: إنه تعالى لكمال العناية بالعباد كما أبطن اسم المنتقم في الجلالة، وأظهر اسما الرحمة العامة والخاصة في الوجودين الكتابة والقراءة، كذلك أظهر حكمها في وجودي الدنيا والآخرة، وأبطن حكم المنتقم فيها إشارة إلى سريان حكم الرحمن في الوجود، فافهم.

إن هذا معنى ما قاله ﷺ في «الفتوحات»: إن من كرمه سبحانه أن جعل تعالى في مقابلة الوعيد مانعًا وهو العفو والتجاوز وأمرنا به، ولم يجعل للوعد مانعًا، قال مخلوق من مخاليقه:

وإِنــــي إِذَا أَوعَدتُـــــهُ أَو وَعَدتُـــــهُ   لِمُخلفُــا مِــيعَادي وَمُنجــز مَــوعِدي

هذا وهو محتاج فقير يتيم، قال تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ﴾ [الانفطار: 6].

قال الشيخ الأكبر: «**الحمد لله منزل الحِكَم على قلوب الكَلِم بأحدية الطريق الأمَم من المقام الأقدم، وإن اختلف النحل والملل لاختلاف الأمم، وصلى الله على ممد الهمم، من خزائن الجود والكرم، بالقيل الأقوم، محمد وعلى آله وسلم**».

قال الشيخ الكيلاني الشارح:

(الحَمْدُ لله) حقيقة الحمد هو العبد المقدَّس المنزَّه قدمت الذَّات تنويهًا وتشريفًا وتعريفًا بأن النفس قد عرفت، وتصديقًا واقتداءً لنبي.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل: 30] كأنك ما فهمت ما ذكره لك بلسان آخر من ألسنته ﷺ؛ لاتساع الرحمة وإطاعة الأمر حيث نهي لا تمتعوا هذه الرحمة التي وسعتكم.

فاعلم - أيَّدك الله وإيَّانا بروح منه - أنَّ الحمد هو ثناءٌ وله ثلاث مراتب: حمد الحمد وحمد المحمود لنفسه، وحمد غيره له وما ثم مرتبة رابعة، ثم في الحمد الذي يحمد الشيء نفسه، أو بحمده غيره تقسيمات، إمَّا أن يحمده بصفة فعل، وإمَّا بصفة تنزيه، وما ثم حمد ثالث بهذا التقسيم.

وأما حمد الحمد له فهو في الحمدين بذاته لو لم يكن لما صح أن يكون لها حمد، ثم أن الحمد على المحمود قسمان، منه أن يحمد بما هو عليه وهو الحمد الأعم، ومنه أن يحمد على ما يكون منه وهو الشكر العرفي الأخص، فانحصرت الأطراف واجتمعت المحامد، وإما تعيين الكمالات التي تدل على ما ذكره لا يتناهى كما أخبر أعلم الخلق بالله ﷺ حيث قال في بيان المقام المحمود: «**فأحمده بمحامد لا أعلمها الآن**»[1] وقال ﷺ: «**لا أحصي ثناء عليك**»[2]؛ لأن ما يتناهى لا يدخل في حيطة الإحصاء والوجود، ولما كان كل عين حامدة ومحمودة في العالم كلمات الحق الظاهرة من نفس الرحمن بفتح الفاء ونفس الرحمن ظهور الاسم الباطن، والحكم الغيب فهو الظاهر والباطن فرجعت إليه عواقب الثناء كله بل إليك، فافهم.

---

(1) أخرجه مسلم (183/1)، وذكره السيوطي في شرحه (103/1).

(2) أخرجه مسلم (352/1)، والنسائي (231/1)، ومالك (214/1)، والترمذي (524/5)، وأبو داود (232/1)، والبيهقي في الكبرى (127/1).

فلا حامد ولا محمود بل ولا الحمد إلا الله، ولا الحمد إلا العبد، فإن من هذا المشرب ما قلناه: إن حقيقة الحمد هو العبد المقدس فلا تقف مع ساحل الألفاظ، وخُض بحر المعاني مجرَّد عن لباس الصور والأواني، لعلك تهدي بهذا فإن صعب عليك المرام من حيث إنه إلغاز وإيهام قل: إن الحمد في العرف إظهار كمال المحمود في ظهور العبد الكامل على صورة إظهار الكمال، بل كمال الإظهار، فإن ما في الإمكان أبدع مما كان، هل يكون شيء أبدع من صورة المبدع والله هو البديع؟! فاقنع بهذا ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 144] فإن المقام مقام الحيرة والكيل كيل السندرة لله.

الاسم (الله) اسم مرتبة أزليَّة قديمة، وهو مقام انفصال وجود من وجود الإله، ثم غيبه عن وجوده بوجوده سبحانه الأزلي الأبدي، فلمَّا جمع الأبد[1] والأزل جمع الحرفين، ولفَّ الطرفين، وطيَّ البردين في اعتدال البردين فأوصل اللام باسم الجلالة؛ لكمال الاتصاف وغاية العدل والإنصاف.

وقال: (لله) لتحقق الاتصال التام وتمكنه في ذلك المقام، فخرج من مضمون مجموع ما ذكرته إن فهمته أنَّ غاية الأمر أنه حمد نفسه التي رآها وهذا من محتملات الآية، إذا كانت الكاف غير زائدة وصار الموجود مرآة، فلمَّا تجلَّت صور المثل في مرآة الذات قال لها تعالى حين أبصرت الذات وعطست وميَّزت نفسها: احمدي مَن رأيت فحمدت نفسه التي رأت في المرآة، فقالت: الحمد لله، فقال لها: «يرحمك ربُّك يا آدم

---

(1) الأبد: عبارة عن مدة الزمان الممتد الذى لا يتجزأ كما يتجزأ الزمان، وذلك أنه يقال: زمان كذا، ولا يقال: أبد كذا، قال تعالى: ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ [التوبة: 84]، وقال سبحانه: ﴿وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: 4].

والأبد في اصطلاح الصوفية، هو ما لا نهاية له، أو ما ليس له آخر، وهو اصطلاح قرآني في لفظه ومعناه، ومن ألفظ الصوفية الدالة على ذلك، ما روى عن أبي بكر الواسطي (ت: بعد320هـ) أنه سئل عن الأبد فقال: (إشارة إلى ترك انقطاع في العدد، ومحو الأوقات في السرمد)، والأبدية ثابتة عندهم على معنيين:

1 - نعت من نعوت اللهِ تعالى: كما ذكر السراج الطوسي (ت: 387هـ) والفرق بين الأزلية والأبدية أن الأزلية لا بداية لها ولا أولية، والأبدية لا نهاية لها ولا آخرية، وعن عمرو بن عثمان المكي (ت: 291هـ)، قال: (سبحان الصمد، القديم في أزل، لم يزل في سرمد الأبد).

2 - أبدية أهل الخلدين: قال عبد اللهِ بن خفيف (ت: 371هـ): (ويعتقدون أن نعيم أهل الجنة، باق مع بقاء اللهِ تعالى، وعذاب أهل الكفر باق، مع بقاء اللهِ تعالى).

لهذا خَلقتك»[1] فسبقت بهذا القدم رحمته غضبه، وإنما قلت: إن (الله) اسم للمرتبة لا للذات لقوله ﷺ في أجوبة الترمذي - رحمه الله -: إن مدلول الله يطلب العالم بجميع ما فيه فهو له كاسم الملك والسلطان، فهو اسم للمرتبة لا للذات، انتهى كلامه ﷺ، وكيف لا؟! والحمد ما يقع إلا على الأسماء للذات البحت؛ لأنها لا تدرك.

قال صدر الدين القونوي في شرح الفاتحة: إن الحمد هو الثناء في الحقيقة تعريف، والتعريف لا يصح بدون معرفة المعرف بالفتح، فافهم فكيف تقبل الحمد.

وأيضًا: إن الحمد من مقام التفصيل والجمع لا الأحدية الذاتية، فافهم فإذا فهمت هذا فاعلم أن الشارح الذي شرح الله صدر الخطبة بالذات المطلقة المعرّاة عن جميع النسب حتى عن نسبة التجرُّد والإطلاق ما اتَّصف، وكيف يصدر من العارف ما يخرج عن ميزان القسط والعدل؟! فافهم.

فإن قيل: لما قال ﷺ: (الحمد لله) ولم يقل: بالله كما يقول العارف؟.

قلنا: لشرف مقام اللام، فإن الحمد لله أعلى من الحمد بالله؛ لأن الحمد بالله أبقى الحامد وهو مقام قرب النوافل، والحمد لله أفنى الحامد وهو من مقام قرب الفرائض، فإذا قال: الحمد لله، أي: لا حامد لله إلا هو فأجري ألا يكون محمودًا سواه، وقال الجاهل: الحمد لله، أي: لا محمود إلا الله فاشتركا في اللفظ، وافترقا في المعنى فالعالم أفنى الحامدين والمحمودين من الخلق، والمحجوب أفنى المحمود من الخلق فقط.

وأما العارفون هم البائنون فلا يتمكن لهم أن يقولوا: الحمد لله إلا مثل العامة، وإنما مقامهم الحمد بالله؛ لبقاء نفوسهم عندهم وغاية الأمرين ونهايته أنها قائمة بالله وهم أهل مشهد لا حول ولا قوة إلا بالله، فلمّا كان له ﷺ رتبة العلم فقال: الحمد لله وما قال: الحمد بالله فإنه دون رتبته.

قال ﷺ في «الفتوحات» نقلاً عن أبي العباس العرّيف أنه قال: العلماء لي والعارفون بي يشير إلى ما ذكرناه.

فأثبت المقام العالي للام؛ لأن اللام ﴿لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ﴾ [المدثر: 28] فالعلماء هم اللاميون، والعرفاء هم البائيون، فافهم.

(مُنَزِّلُ الحِكَمِ): مخففة من باب الأفعال يشير ﷺ إلى مرتبة الإنزال الإجمالي إلى حضرة النفس الكلِّي التي عبَّر عنها بلسان الشرع أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ

(1) لم أعثر على من خرجه.

من المحو والإثبات.

كما أشار إلى هذا الإنزال الإجمالي قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: 1] وهو إنزال إجمالي إلى النفس المحمّدية المعبّر عنها بلسان العموم السماء الدنيا.

قال بعض المفسّرين: إنه تعالى أنزل القرآن جملةً واحدة من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا في ليلة القدر والشرف.

أو نقول: (منزّل) بالتشديد من باب التفعيل، أي: منزل الحكم على سبيل التدريج بحسب المصالح كما قال تعالى في القرآن: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: 21] اقتضته حكمة الحكيم، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ [الإسراء: 106] أي: مرتبًا بحسب المصالح، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 97]؛ لأنه محل التفصيل بخلاف النفس إنها إجمال بالنسبة إلى قلب القلب، وفيه تفصيل كل أمرٍ فهكذا نزول الحكم على الكلم على النفوس مرةً، وعلى القلوب تارةً أخرى، فالأول أشرف وأعلى، والثاني أتم وأولى؛ ولهذا خوطب ﷺ حين كان يعجّل بالقرآن قبل الفرقان، فقال تعالى: ﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ﴾ [طه: 114] أي: بالإجمال قبل التفصيل إشارةً إلى أن الفرقان بعد القرآن أتم وأولى، فافهم.

وأمّا (الحكم) وهي جمع حكمة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ [البقرة: 269] وما كثره الله تعالى لا يدخله قلة، وأمتن على نبيّه وخليفته داود عليه السلام، وعلى نبيّنا ﷺ بأن أتاه الحكمة وفصل الخطاب، وهو من ثمرة الحكمة أو الحكمة نفسها، وهو إيجاز البيان في موطن الإطناب والإسهاب في الآخر على ما يقتضيه المقام والحال، وأوتي صاحب جمع الجمع ﷺ ما لم يؤتوا وهو صدق قوله: «أُوتيت جوامع الكلم»[1] وهو من أكبر فصول الخطاب جزء من أجزاء هذا الكتاب.

وعلى لسان رتبته ﷺ قال وليّ من أوليائه: «يا معشر الأنبياء أوتيتم اللقب، وأوتينا ما لم تؤتوا» ذكره رضي الله عنه في «الفتوحات» عن قطب وقته وفرد عصره عبد القادر

(1) أخرجه البخاري (2573/6) بنحوه، ومسلم (372/1)، وابن حبان (311/14).

الجيلاني - قُدِّس سرُّه -.

والحكمة علمٌ خاص، والفرق بين الحكمة والعلم المطلق أن لها الجعل والتحكم بخلاف العلم فإنه تابع المعلوم، فالحكيم مَنْ قامت به الحكمة فكان الحكم لها، قال تعالى إشارةً إلى هذا المقام: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: 12]؛ لأنها مقتضى الحكمة.

قال ﷺ في الاسم (الحكيم): إنَّ العارف يقدم الحكيم على العليم، فالحكيم خصوص والعليم عموم؛ ولذلك ما كل عليم، انتهى كلامه ﷺ.

وذلك لأنه ثبت عند أهل الكشف الأتم والتحقيق الأوسع الأعم أن الترتيب ثابت في الأعيان الثابتة في الحال بثبوتها في معدتها، وتعلق العلم الإلهي بحسب ما هي مرتبته، وما ترتبت إلا بالحكمة؛ لأنه ما من ممكن مضاف إلى ممكن أحوالاً ويمكن إضافته إلى ممكن آخر لنفسه مع قطع النظر عن أمرٍ آخر، لكن الحكمة اقتضت هكذا وهو ذاتيٌّ لها، والظاهر في العالم الشهادي ظلّ ذلك العالم المعنوي على ترتيبه، قال ﷺ: هذا هو العلم الذي انفرد به الحق وجهل منه فافهم.

فظهرت به الحكم في الوجود بالوجود على ترتيب أعيان الممكنات في حال ثبوتها قبل وجودها روحًا وصورةً، فبان لك الفرقان بين العلمَين العلم والحكمة وكلاهما.

قال الحكيم العليم: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق: 29]؛ لأنه مخالف الحكمة وهي تأبى التبدُّل الخارج بخلاف النسخ فإنه من الحكمة البالغة.

قال تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: 106] فافهم فالعلم بالحكمة المنزلة تخفيفًا أو تثقيلاً إمَّا بكشف سبحات الوجه حتى يرى ما في العين الثابتة، فإنها حكم مرتبة من حكيمٍ عليمٍ، هذا الإنسان عين صفاء خلاصة الخاصة، وإمَّا بكشف الغطاء عن البصر والبصيرة، أو بتعريفٍ إلهي حتى يرى أو يعلم ما في الوجود من الحكم المرتبة ترتيب عليمٍ حكيمٍ.

أمَّا قوله ﷺ: بالإنزال أو التنزيل المشير إلى التنزُّل من العلو؛ فلأن الأمر نزول من علو أحديَّة الذات إلى أحديَّة الجمع باعتبار الإنزال أو التنزيل الذي من المقام الأقدم الذي هو الولاية المطلقة التي هي باطن النبوة، أو من أحديَّة إلى ساحة الفرق باعتبار التنزيل والتفصيل في مرتبتي النبوَّة والرسالة المطلقة العامة والخاصة، فإذا

فهمت ما سردته لك فهم منصف ظهر لك أنَّ القول بأن التنزيل أولى من الإنزال كما ذهب عليه الشارحان القيصري والجامي - قُدِّس سرُّهما - ترجيح بلا مرجح، بل بالعكس أولى وأحرى؛ لأن الشيخ ﷺ قال: إن الحكم من المقام الأقدم بأحديَّة الطريق الأعم، وهما بالإجمال أقرب من التفصيل، بل هما عينا الإجمال ومحلا الإهمال، فافهم فإنها من فيض الأقدس لا المقدس.

كما صرَّح به ﷺ بعد هذا في قوله: ما بقي إلا قابل، والقابل لا يكون إلا من فيضه الأقدس، ثم الاستدلال بأنه لا يكن ظهور الحكم على القلوب بالفعل، إلا على سبيل التدرج إدخال الزمان على الإلهيات والخروج عن الموطن المبحوث فيه، فإن المقام مقام الأقدم.

قال ﷺ في الباب السادس والسبعين في فصل من «الفتوحات»:

ليس في حق الحق ماضٍ ولا آتٍ وآنٍ، وإنه ما زال ولا يزال لا يتَّصف بأنه لم يكن ثم كان، ولأمر القضاء بعد ما كان وربما يعطي الله تعالى هذه القوة لمن يشاء من عباده، وقد ظهر منها نفحة على النبي ﷺ علم الأولين والآخرين فعَلِمَ الماضي والمستقبل في الآن، فلولا حضور المعلومات له في حضرة الآن لما وصف بالعلم بها في حضرة الآن، فافهم.

مع أن شيخنا نور الدين عبد الرحمن الجامي - قُدِّس سرُّه - اعترف في خطبة كتابه أن من عجائب هذا النوع ما فاض من قلبه إلا نور وروحه إلا طهر كتاب «فصوص الحكم والأسرار» دفعةً واحدة على قلب المصنِّف ﷺ، انتهى كلامه.

وأما قول الشارح القيصري - قُدِّس سرُّه -: إنَّ التنزيل أولى ثم الاستدلال بأن نزول الحكم على كتاب استعدادات الأنبياء - عليهم السلام - ولو كانت دفعة واحدة، ولكن ظهورها بالفعل لا يمكن إلا على سبيل التدريج، فخروج عن المقصود؛ لأن المراد من المبحث كيفيَّة النزول لا كيفيَّة ظهور المنزَّل، فافهم ولا تنظر إلى مَنْ قال، وانظر إلى ما قال؛ لتكون من الرجال، ولا تحرم من حقيقة صدق المقال، وتكن من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

(عَلَى قُلُوْبِ) اعلم - أيَّدك الله وإيَّانا بروح منه - أنَّ القلب عبارة عن النشأة الجامعة بين الحقائق الجسمانيَّة والقوى المزاجيَّة، وبين الحقائق الروحانيَّة والخصائص النفسيَّة، وهو جوهر برزخي له وجه إلى جميع الأطراف وله مقام المضاهات، وأن

يتّسع لانطباع التجلِّي الذاتي الذي ضاق عنه العالم الأعلى والأسفل بما اشتملا عليه.

كما ورد به الإخبار الإلهي من مشكاة النبوَّة، وهو قوله سبحانه: «**ما وسعني أرضي وسمائي ويسعني قلب عبدي**»(1) وأن يكون مستوي له وظاهرًا بصورته، فالقلوب أبدًا لم تزل مفطورة على الجلاء مصقولة صافية، وكل قلبٍ تجلَّت فيه الحضرة الإلهيَّة من حيث هي هو الياقوت الأحمر، وهذا هو التجلِّي الذاتي فذلك قلب المشاهد الكامل المكمَّل العالم الذي لا أحد فوقه في تجلٍّ من التجليات، قال سبحانه: ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ**﴾ [ق: 37]؛ لأن التقليب والتقلُّب في القلب نظير التحوُّل الإلهي في الصور، فلا يقابل التحول الغير المتناهي إلا التقلُّب الغير المتناهي فلا تكون معرفة الحق إلا بالقلب، ثم يقبلها العقل القدسي من القلب كما يقبل من الفكر، فمن لم يشهد التجليَّات بقلبه ينكرها بالعقل؛ لأنه يقيِّد والأمر مطلق غير مقيد، بل القلب بين الإصبعين يقلبها كيف يشاء العبد أو الحق فهو متقلِّب بتقلُّب التجليَّات، والتجليَّات بحسب الشؤون ﴿**كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾ [الرحمن: 29].

أو نقول: إنه يتقلَّب بتقلب التجليَّات، والتجليَّات بحسب استعدادات الأعيان، فالقلب مرآة مصقولة كلها وجه لا تصدأ، وإن أطلق عليه يومًا ما الصدأ.

كما ورد في الحديث: «**إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد**»(2) ليس المراد بهذا الصدأ أنه طفا وطلع على وجه القلب، بل لما تعلق واشتغل بعلم الأسباب عن العلم بالمسبب، فكان تعلقه بغير الله هو الصدأ، فهذه المرآة المصقولة التي هي القلب مقابلة للوجه المطلق، فتظهر فيها صور الشؤون، قال الله تعالى: «**لا يسعني أرضي وسمائي...** »(3) يشير إلى العلويَّات والسفليَّات فإنه تعالى عرض عليها الأمانة، فأبين إباءً استعداديًا، ثم قال: «**ويسعني قلب عبدي المؤمن التَّقي النقي**»(4) وذلك لوسعة دائرته، بل لعدم تناهيه وحسن المقابلة وكمال الموطأة والمواجهة، فأين هذه السعة من سعة

---

(1) أورده المناوي في فيض القدير (496/2)، والقاري في المصنوع (164/1)، والعجلوني في كشف الخفا (431/2).

(2) أخرجه البيهقي في الشعب (353/2)، وأبو نعيم في الحلية (197/8)، وابن عدي في الكامل (1/ 259).

(3) سبق تخريجه.

(4) أخرجه الديلمي في الفردوس (174/3)، وذكره العجلوني (255/2).

العارف القابل؟! لو أبقيت العرش وما حوله ألف ألف مرةٍ في زاوية قلب العارف ما أحسَّ به، وأين المتناهي من غير المتناهي؟!.

فقلب العبد العبدُ الخصوصي بيت الله سبحانه وموضع نظره ومعدن علومه وحضرة أسراره ومهبط ملائكته وخزانة أنواره وكعبته المقصودة وعرفانه المشهودة رئيس الجسم ومليكه ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: 82] مع السلامة من الآفات وزوال الموانع، بل بصلاحه صلاح البدن وبفساده فساده هو الموصوف بالسُكر، والصحو في الإثبات والمحو، وله الأسرار والتنزُّل هو ذو الجلال والجمال والأنس والهيبة، هو قابل المعاني ومدبِّر الأواني، وهو صاحب الجهل والغفلة والكفر والشرك إمَّا مضل وإمَّا هادٍ بل هو مضلٍ هادٍ.

(الْكَلِم) جمع كلمة وهي ليست سوى صبور الممكنات، فالمراد هنا من الكلم أعيان الكمَّل من الأنبياء والرسل - صلوات الله عليهم أجمعين -.

قال تعالى في عيسى عليه السلام: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾ [النساء: 171] إنما سميت كلمة؛ لأنها مجتمعة من الحروف العاليات.

قال رضي الله عنه في بعض أشعاره:

كنا حروفًا عالياتٌ لم نقل ... متعلقات في ذرى أعلى القلل

وهي كالكلمة الحرفيَّة المركبة من حروف النفس بفتح الفاء؛ وذلك لأن كل معلومٍ في عرضه الإلهي له رتبة الحرفية فبالانصياع بنور الوجود بحركة معنويَّة ذاتيَّة يظهر مجموع من الحروف العاليات المسماة بالأعيان الثابتة في مرآة الوجود، فيسمَّى ذلك الظاهر المجموع بالكلمة، فكل نبي وولي كلمة، ونبيُّنا ﷺ جامع الكلم.

ومن هذا المقام قال: «أُوتيت جوامع الكلم»[1] وكذا الوارث من أمته ﷺ فإن لهم فيه ﷺ أوتي هذه الأمة التي هي مجموع الكلمات؛ لأنه من بعض محتملات الحديث المذكور.

---

(1) سبق تخريجه.

قال ﷺ: «**أُوتيت جوامع الكلم**»[1] أي: أعيان أوليائه، وأرواح وارثيه، بل كل واحدٍ منهم جامع الكلم بقدر الاتّباع والوسع، ومَنْ وفَّى حقَّ اتِّباعه كان له حكمة.

كما قال ﷺ: ﴿**أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ [يوسف: 108] وهذا الاتباع أنتج المحبة، والمحبة أثمرت أن يكون الحق سمعه وبصره وجميع قواه صحَّ له أن يكون جوامع الكلمات ومجامع الخيرات، فافهم.

ومن هذا المقام ما ورد: «**علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل**»[2] ويخبر ﷺ في أحاديث كثيرة بأخوة الأنبياء عليهم السلام.

وفي حديث الأخوة حين قالوا: نحن إخوانك يا رسول الله، قال: «**لا أنتم أصحابي، وإخواني الذين يأتون بعدي آمنوا بي ولم يروني....** »[3] والأخوة هي الأسوة الحسنة فيما أخذوا من المعدن، فافهم.

(**بِأَحَدِيَّةِ الطَّرِيْقِ الأمم**) والأمم بفتح الهمزة هو: المستقيم وفيه تقديمٌ وتأخير، أي: بطريق الأحديَّة الذاتية الحاصلة من الفناء الذاتي فإنه أقرب طريق إلى البقاء، وأقومها للوصول إليه لا الأحدية الأسمائيَّة؛ لأن الأول من المقام الأقدم وفيضه الأقدس، والثاني من المقام القديم وفيضه المقدس، والأمر في نفس الأمر أقدس من أن يكون مقدَّسًا، ومعرفةُ هذا موقوف على معرفة الأحديَّة والواحديَّة؛ لتعلم مراتب الفيضين، أي: الأقدس والمقدَّس المرتبين على المرتبتين.

فاعلم أن الأحديَّة والواحديَّة ولو كانتا ذاتين لوحدة الذات، ولكن أحديتها مقام انقطاع الكثرة الوهمية، والنسب العلمية جملةً واحدةً، وفيضها بذاتها لذاتها أقدس من أن يتوهم فيها الغير.

وأمَّا واحديتها وإن انتفت الكثرة الوجوديَّة، ولكن الكثرة العلمية والنسب الوهميَّة حاصلة لا محالة، وفيضها بذاتها لذاتها لكن بتوهم الغير فهو مُقدَّس عن وجود الغير لا عن توهمه، فافهم بل الواحد أول العدد في تفصيل مراتب الأعداد فحضرة الأحدية هي حضرة الذات وحضرة الواحديَّة هي الأسماء، فإذا عرفت هذا فاعلم أنه

---

(1) سبق تخريجه.

(2) أورده القاري في المصنوع (123/1)، والعجلوني في كشف الخفا (83/2)، والمناوي في فيض القدير (384/4).

(3) أخرجه الطبري في الرياض النضرة (154/2).

ﷺ يقول: تنزُّلي بالحكم بطريق أحديّة الذات ولها المقام الأقدم فهي عين الذات لا بطريق الواحديّة القديمة؛ لأنه صرّح بعده وقال: من المقام الأقدم، فإن قيل: إن التجلِّي من الأحدية لا يصح؛ لأن الأحدية لا تقبل المثاني.

قلنا: صدقت إن الأحدية لا تقبل المثاني، أي: الثاني الذي غيره، ونحن ذهبنا إلى أن القابل في الأحدية إنما هو نور الحق، فقبل التجلِّي الحق بالحق لا غير ولا ثاني، فافهم.

فالتجلي الذي من الأحدية بقبل الفيض الأقدس لكمال قُدسه عن شائبة الكثرة كما فهمته، بل هو أقدس من المقدس، والتجلِّي الذي هو من الواحديّة بقبل الفيض المقدس وفيه الكثرة الوهمية الاعتبارية العلمية، أو نقول بأحدية طريق الأمم أنه أشار ﷺ إلى الصراط المستقيم الأسد الأقوم الأقرب، والأحسن الأسهل الأنسب.

أمّا صراط الله الذي هو عليه، وهو الصراط العام فيدخل فيه كل شرعٍ وموضوعٍ عقلي، فهو يصل إلى الله، فيعم الشقي في شقاوته، والسعيد في سعادته، قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ [الإنسان: 3]، وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: 50] فأثبت الهداية في الكل وهو صراط الله الذي ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلاَ إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ [الشورى: 53] أي: على صراطه.

وقال تعالى: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: 56] فهو أحدية الطريق الجامع لجميع الطرق الواقعة لكل اسمٍ اسم، فمَنْ عرف الحق عين الطريق، فقد عرف الأمر على ما هو عليه، فافهم.

وأمّا صراط الذين أنعم عليهم من النبيّين والصدِّيقين - صلوات الله عليهم أجمعين - وهو أحدية الصراط المستقيم المحمّدي، فإنه جامع الطرق كلها مع كثرتها، وله أحدية تستهلك فيها الطرق كلها؛ لأن شرعته ﷺ عامة تتضمن جميع الشرائع، بل شرعه عين جميع ما تقدَّم من الشرائع بالزمان، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ [الشورى: 13]، وذكر الأنبياء في آية أخرى، وقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: 90] وهو الصراط الجامع إقامة الدين، وألا يتفرَّق فيه، وما قال وبهم اقتده؛

لأن الصراط له ﷺ مساوٍ لجميع الأنبياء الذين ذكرهم الله - عليهم السلام - فإن لكل نبيٍ شرعة ومنهاجًا كما ذُكر فهو سبحانه نَصَبَ الشرائع، وأوضح المناهج وذلك كله فيه ﷺ وفي شرعه:

وليسَ عَلَى اللهِ بمستنكرٍ أن يجمعَ العالم في وَاحِدِ

ومن هذا المقام قوله سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: 120].

(مِنَ المَقَامِ الْأَقْدَمِ): أي أقدم من القديم، وهو أحديَّة الذات التي هي منبع فيضان الفيض الأقدس على الأعيان الثابتة.

وإنما قال ﷺ: من المقام الأقدم؛ لأن أحدية الذات أقدم من أحدية الأسماء المسمَّاة بالواحديَّة القديمة التي هي مرتبة الألوهية، فافهم.

(وَإِنْ اخْتَلَفَتْ المِلَلُ والنِحَلُ لِاخْتِلافِ الأُمَمِ) قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: 118] فما زلنا من الخلاف؛ لأنهم، أي: أهل التحقيق قد خالفوا المختلفين، ولذلك خلقهم فما تعدَّى كل خلقٍ ما خُلِقَ له، فالكل طائع في عين الخلاف، كما ورد الحديث الصحيح والنص الصريح: «كلٌّ ميسَّر لما خلق له»[1] فافهم.

فقال ﷺ: وإن اختلفت وبانت كثيرة ولكن لا تناقض الكثرة الموهومة الأحدية الحقيقية، كما أن كثرة الأعيان الثابتة، والمظاهر الخارجية لم تمنع وحدة الوجود والحال كالحال.

وأمَّا الاعوجاجات الوهميَّة لا تناقض الاستقامة؛ لأن الكل في أحدية صراط الله أخذ بناصيةِ كلِ دابةٍ ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: 76] فأين المفر؟ وهكذا الأمر؛ لأن استقامة القوس في اعوِجَاجِهِ، فافهم إذا كان الأمر هكذا.

قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَةُ﴾ [البينة: 4] فتفرَّقوا بعلمٍ وبينةٍ، قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: 61]، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: 4] ونحن معه بكونه

---

(1) أخرجه البخاري (2744/6)، ومسلم (2041/4)، والنسائي (517/6).

آخذًا بنواصينا وأنه على صراطٍ مستقيم، فافهم.

وهنا مسألة دوريَّة ذكرها الشيخ ﷺ في «الفتوحات» وهي:

إن الشرائع اختلفت لاختلاف النسب الإلهية.

واختلاف النسب لاختلاف الأحوال.

واختلاف الأحوال لاختلاف الأزمان.

واختلاف الأزمان لاختلاف الحركات الفلكيَّة.

واختلاف الحركات الفلكية لاختلاف التوجهات.

واختلاف التوجهات لاختلاف المقاصد.

واختلاف المقاصد لاختلاف التجلِّيات.

واختلاف التجلِّيات لاختلاف الشرائع.

واختلاف الشرائع لاختلاف النسب الإلهية، فدار الدور، وانتهى كلامه ﷺ.

ثم نرجع ونقول: إن اختلاف الأمم باختلاف الاستعدادات والقابليات المختلفة كالماء فإنها حقيقةٌ واحدة تختلف في الطعم باختلاف البقاع، فمنها عذبٌ فراتٌ ومنها ملحٌ أُجاجٌ، وهو ماءٌ واحدٌ في جميع الأحوال لا يتغيَّر عن حقيقته وإن اختلفت الطعوم، كذلك أحديَّة الطريق أنها حقيقةٌ واحدةٌ تختلف أحكامها باختلاف القوابل، يَعرفُ ما قلنا مَنْ عَرِفَ وحدة الوجود مع الكثرة المشهودة بالذوق، فافهم.

(وَصَلَّى اللهُ عَلَىَ): أي أفاض الاسم الجامع لجميع الكمالات رحمته لجامع جميع التجلِّيات ذاتًا واسمًا وصفةً، فلما كان المقامُ مقام الدعاء عدلَ من الجملة الاسمية إلى الجملة الفعلية؛ ليدل على التجدد والاستمرار، يشير إلى أن الصلاة من الله تعالى مجددة دائمًا أبدًا على ممد الهمم.

(الهِمَمِ) جمع همَّة، والهمة تجريد القصد كحصول المطلوب، وهِي ولو كانت كمالاً ولكن هي للمتوسطين العارفين للترقي؛ لأن كمال العلم يمنع التصرُّف بالهمة والتحكم بها وهما لأرباب الأحوال لا للمتمكنين، فإن كان الأكابر يرون التصرُّف مزاحمةً، ويتركون التصرف للحق في خلقه، فإن ظهر شيء فهو لا عن قصدٍ منهم، فالنبي ﷺ يرقِّيهم، ويمدهم بالتميز بين الخواطر المذمومة والمحمودة حتى لا تتعلق هممهم بدون الحق، ويرقِّيهم إلى طلب الأنفس بالمقام الأقدس، ويرغبهم في الله لا فيما عند الله، فإذا فُتحت العين بذلك المراد على فضاء الإطلاق، وشهود أحديَّة

المتصرِّف والمتصرَّف فيه فلا يرى الغير، فعلى مَنْ يُرسل الهمَّة، فلهذا يرى العارف التام المعرفة بغاية العجز والفقر والضعف.

قال ﷺ في «الفتوحات»: إن بعض الأبدال أرسل إلى أبي مدين - قُدِّس سرُّه - وهو يسأل لأي شيء لا يُعتاص علينا، وأنت تعتاص عليك الأشياء، ونحن راغبون في مقامك، وأنت غير راغب في مقامنا، انتهى كلامه.

أما ترى ﷺ كيف أمر بقول: «لا أدري ما يفعل بي ولا بكم»[1] وهو قائل: «بإني علمت علم الأولين والآخرين»[2] فكان الماضي والمستقبل في الآن، فلولا حضور المعلومات له في حضرة الآن لما وصف بالعلم بها في حضرة الآن، ومع هذا يتأدب، ويقول: «لا أدري ما يفعل بي ولا بكم».

أمَّا قوله ﷺ: «كُنْ أبا ذر»[3] ليس من مقام الهمَّة بل هذه كلمة حضرة مختصَّة بالإلهيين إذا أراد الله شيئًا أن يقول له كن فيكون، أو نقول: إن إمداد الهمم للترقِّي إلى ما لا يستقبل عقول الأمة بإدراكه دون التعريف الإلهي من طريق الكشف المحقق والوحي؛ لتسموا همم النفوس إلى طلبه، وتهتم في تحصيله من مظنَّته وتحصيل معرفة كيفيَّة التوجُّه إلى الحق بالقلوب والقوالب أيضًا من حيث تبعيتها لأحكام القلوب من خزائن الجود والكرم.

قال ﷺ في «مواقع النجوم»: الجود عطاء بغير سؤال، والكرم عطاء بسؤال بطيبة النفس.

وقال ﷺ في «الفتوحات»: الجود من الحق امتناني ذاتي، والجود من الأعيان ذاتي فهذا الفرق بين الجودين، وهذا معنى قول من قال في الجود: إنه العطاء قبل السؤال، انتهى كلامه ﷺ.

والخزائن ما سمِّيت خزائن إلا باعتبار ما يختزن فيها من نفائس الجواهر والأموال وهي نفائس مكارم الأخلاق والأحوال، ومن هذه الأخلاق خُلق الجمع الدال على الفرق، والفرق الدَّال على الجمع، وخلق الجمع بينهما، وهو خلق جمع الجمع، وهو من أكبر الأخلاق وأعلاها وأسناها، وبهذا خُوطب ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ

---

(1) وانظر: تفسير ابن كثير (156/4).

(2) أخرجه البيهقي في الشعب (332/2)، والطبراني في الكبير (136/9) بنحوه.

(3) سبق تخريجه.

عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4] وهو الخلق النور المستور، وهذا من أعزِّ المعارف إذ لا يمكن أن يكون النور مستورًا لذاته، فإنه لذاته يخرق الحجب ويهتك الأستار، فافهم.

وأمَّا أصول هذه النفائس فمتناهية، وهي الأخلاق التي منحت عطاءً وجودًا وكرمًا وهي ثلاثمائة كما ورد في الحديث الصحيح: «**إن لله تعالى ثلاثمائة خُلق مَنْ تخلَّق بواحدٍ منها دخل الجنة**»[1] ذكره ﷺ في «**الفتوحات**».

وهذه الأخلاق خارجة عن الكسب، روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنما هذه الأخلاق بيد الله فمَن شاء أن يمنحه الله خُلقًا حسنًا فعل**»[2] ذكره الخرائطي في «مكارم الأخلاق» عن أبي المنهال، ذكره في «جمع الجوامع».

فلهذا قال ﷺ: (**مِنْ خَزَائِنِ الجُوْدِ والكَرَمِ**): أي من الخزائن التي مُلئت من الجود والكرم، وهي خزائن المنن فلا يخرج إلا بالجود والكرم بسؤالٍ، وبغير سؤال فلمَّا كانت المنن كثيرة متعددة طلبت عين كل منَّة منها خزانة، فلهذا تعددت الخزائن بتعدد المنن الإلهية، فإذا كان هو عين المنَّة فأنت الخزانة، فالعالم خزائن المنن الإلهية، ففيك اختزنت منَّته تعالى، بل أنت الخازن، وأنت الخزانة، وأنت ما يختزن فيها فلا يجمعهما إلا أنت فمنك إليك، فافهم فليس الرجل مَنْ تحقَّق بربِّه، وإنما الرجل مَنْ تحقَّق بعينه.

قال ﷺ: وما فاز بهذه الدرجة ذوقًا إلا نبيِّنا ﷺ، وكشفًا إلا الرسل - عليهم السلام - وراسخوا هذه الأمة المحمَّدية الذين هم ورثته ومَنْ سواهم، فلا قَدَم لهم في هذا الأمر، فرفع بعضهم فوق بعض درجات اختصاصًا، ولا يصلح التكسُّب بها؛ لأنها لا أثر لها في الكون بل هي لرفيع الدرجات ذي العرش، وإنما هي إعدادات قابليَّات بأنفسها لتجلِّيات إلهيات على عددها للذين هم درجاتٌ عند ربهم، فقوله ﷺ: «**مَنْ تخلَّق بواحدٍ منها**»[3] كما سبق في لفظ الحديث، وسبق الكلام باعتباره أراد ﷺ مَنْ قام به، وظهر فيه آثار تلك الأخلاق، فافهم.

وأمَّا الخزائن على عدد أصناف الموجودات، واعتبار أشخاصها فغير متناهية، وما

---

(1) أخرجه الطبراني في الأوسط (215/7)، والحكيم الترمذي (350/1)، والديلمي في الفردوس (5/ 451).

(2) أخرجه البيهقي في الشعب (94/7)، وابن معْمَر في جامعه (145/11).

(3) سبق تخريجه.

سمّيت خزائن إلا باعتبار ما يختزن فيها من الأخلاق المخزونة، ولكن كل ما يدخل منه في الوجود متناهٍ، وأمّا من حيث الأنواع والأمهات فمتناهية الأصول، فافهم.

وأمّا الخزائن باعتبار ما تحوي، فثلث خزانة تحتوي على ما تقتضيه الذوات من حيث ما هي ذواتٍ، وخزانة تحوي على ما تقتضيه النِّسب الموجبة للأسماء من حيث أنها أفعال لا من حيث المفعولات ولا الانفعلات ولا الفاعلات.

وكل خزانة من هذه الخزائن تنفتح إلى خزائن، وتلك الخزائن إلى خزائن أخرى وهلمّ جرًا، فهي تدخل تحت الكم بوجهٍ ولا تدخل بوجهٍ آخر، فالحاصل أنه كل ما دخل منها في الوجود حصره الكم، فافهم.

فإذا انكشف للعالم المكاشف خزائن الأعيان لا يخشى من الإنفاق، أما ترى إشارة جوامع الكلم في خطاب المؤمنين وهو قوله سبحانه: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذاً لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ﴾ [الإسراء: 100] الممسوك عند العالم بالأعيان الثابتة، وعارفها هو خشية الإنفاق، أي: لا تخشون النفاد والقلة لا خزائن الرحمة، فإنه ينفق بلا خشية إملاق؛ لعلمه أن المخزون ينفد ﴿وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ﴾ [النحل: 96].

ومن هذا المقام ما ورد في الخبر عن بلال ﷺ أو عن غيره من الصحابة أنه قال له ﷺ: أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالاً، فتبسّم رسول الله ﷺ وقال: «بهذا أمرت»[1] ذكره القاضي عياض في «الشفاء» فافهم بالقيل الأقوم، أي: الأبين المتوسط بين إفراط التنزيه وتفريط التشبيه.

قال ﷺ: لو أتى نوح عليه السلام ما أتى به النبي ﷺ لأتته قومه؛ لأنه عليه السلام جادلهم بالتي هي أحسن بالقول الأسدّ الأقوم وهو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11] فإنه جَمعَ التنزيه والتشبيه في آيةٍ واحدة، بل في نصفها هذا من جوامع الكلم وفصل الخطاب جمع الأضداد، وقطع الخصومة والعناد بخلاف نوح عليه السلام، فإن دعوته تنزيه بحت فما قَبِلَ من الأمة إلا قليل، وقد انقطع بعده بخلاف المحمديين، فافهم.

في الزيادة إلى نزول عيسى عليه السلام بل إلى يوم الدين، فافهم؛ وذلك من اعتدالهم

---

(1) أخرجه الضياء في الأحاديث المختارة (181/1).

وكونهم وسطًا، أي لا إفراط فيهم ولا تفريط، قال الله تعالى: ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ [البقرة: 143] سيدنا محمد ﷺ جمع الله سبحانه لاسمه الأشرف بين حروف الاتصال والانفصال، ليدل الاسم على وصول المسمى به تعالى فبحرف الانفصال أشار بفصله عن العالم، وبحروف الاتصال[1] أشار باتصاله بالأصل إشارة إلى جمعه بين الحالين، وحيازته الأمرين التنزيه والتشبيه، ويتم له ﷺ الأمر من جميع جهاته اسمًا ومسمى، والحمد لله المنعم المفضل، وكذلك اسمه أحمد ﷺ بل العارفون يعرفون أخلاق الناس بحروف الأسماء، ويستدلون بها على أطوار المسمين، وذلك من علم المناسبات.

وإنه قال ﷺ: «لكل نبيّ آلٍ وعدة وآلي وعدتي المؤمن»[2]، وفي حديث أنس رضي الله عنه: «آل محمد كل تقيّ»[3].

(وَسَلَّمَ) قال رضي الله عنه: بعد الصلاة إطاعة أمره ورضا نفسه؛ حيث قال سبحانه: ﴿صَلُّوا

---

(1) الاتصال: ارتباط الأشياء بعضها ببعض، كاتحاد طرفي الدائرة، ويضاده الانفصال، ويستعمل الوصل على نوعين: 1 - الاتصال في الأعيان، 2 - الاتصال في المعاني، وهو الشاهد لمصطلح الاتصال.

ومصطلح الاتصال في عرف الصوفية أو الواصل، موضوع على معنى تجيزه الأصول القرآنية والنبوية، وإن لم يرد اللفظ في القرآن والسنة على المعنى الصوفي، فالواصل عندهم، هو من كان على صلة بربه، فلا يرى بسره معنى التعظيم غيره، ولا يسمع الأمر إلا منه، وهذا معنى شرعي محمود، ثابت بمجمل الأصول الداعية إلى صلة العبد بربه.

والاتصال بالمعنى الصوفي، وإن كان قائما في بدايته على أصول القرآن والسنة التي دعت إلى دوام مراقبة الله عز وجل، ومتانة الصلة بين العبد وربه، وأداء العبودية لله على وجه الكمال، إلا أنه أخذ بمعنى آخر، فعند الحلاج، الاتصال يؤدي إلى مفارقة الشريعة، واعتقادها هوسًا كما قال: (اعلم أن العبد قائم على بساط الشريعة ما لم يصل إلى التوحيد، فإذا وصل إليه سقطت من عينه وصارت عنده هوسًا)، والاتصال عند ابن عربي وتلاميذ مدرسته أخذ على معنى ملاحظة العبد عينه، متصلاً بالوجود الأحدي، بقطع النظر عن تقيد وجوده بعينه وإسقاط إضافته إليه، فيرى اتصال مدد الوجود ونفس الرحمن إليه على الدوام بلا انقطاع، حتى يبقى موجودا به، ويرى عبد الكريم الجيلي أن الاتصال في دوام الوصلة بلا انقطاع، ولا فتور حيث تتواتر تجليات الحق تعالى على العبد في هذا المشهد، من غير رجوع إلى النفس فالوصال هو لحوق العبد بالله تعالى.

(2) لم أعثر على من خرجه.

(3) أخرجه الديلمي في الفردوس (418/1).

عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [الأحزاب: 56] بالتأكيد يريد السلامة عن سطوات التجليّات الجلاليّة والانحرافات الطبيعية التي هي أسفل سافلين، وذلك من تجلِّي الاسم (السلام) المؤيِّد للسلامة عن كل ما يوجب النقصان في الكشف والعيان، وللناجي بين العيان والإيمان، قال تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: 17] فله حاق الوسط بلا إفراط ولا نقصان.

قال الشيخ الأكبر:

«أما بعد: فإني رأيت رسول الله ﷺ في مُبشِّرة أُرِيتُها في العشر الآخِر من محرم سنة سبع وعشرونَ وستمائة بمحروسة دمشق، وبيده ﷺ كتاب، فقال لي: هذا كتاب «فصوص الحكم» خذه واخرج به إلى الناس ينتفعون به، فقلت: السمع والطاعة لله ولرسوله وأولي الأمر منا كما أُمِرْنَا».

قال الشارح قوله: (**أما بعد... فإني رأيت**) أسند الرؤية إلى نفسه الكريمة مع تأكيد قوله: فإني، إشارة إلى بقائه وحضوره التام بعد الفناء العام وكمال الفرق بعد الجمع والفرقان بعد القرآن، كما هو حال العالم الوارث الباقي بنفسه، وهو أتم من أن يرى بالحق كالعارف الفاني عن نفسه، فالرائي هو العبد لا الحق.

قال ﷺ في الفصل التاسع والأربعين من «**الأسئلة**»: فليس الرجل مَنْ تحقَّق بربه، وإنما الرجل من تحقق بعينه، فالرؤية بالعين، وذلك عند اتحاد البصيرة بالبصر فيدرك في اليقظة ما يدرك في النوم وذلك نادر، وهو لأهل هذا الطريق من نبيّ ووليّ، والشيخ ﷺ من ذلك النوادر، بل هو نادر النوادر، ومن هذا المقام رأى جبريل عليه السلام بشرًا سويًّا محسوسًا بحس البصر.

قال ﷺ في الباب الرابع عشر من «**الفتوحات**»: إن المكاشف يعاين النبي ﷺ ويسأله عن الأحاديث وصحتها فينكرها أو يصدقها، ثم قال: إن الولي يشترك مع النبي في إدراك ما تدركه العامة في النوم في حال اليقظة سواء.

وقال ﷺ في الباب الثامن والثمانين ومائة من «**الفتوحات**»: وقد يتقوى الأمر على بعض الناس فيدركون في اليقظة ما كانوا يدركونه في النوم، ويُشير إلى هذا قوله ﷺ: «**ومَنْ رآني في المنام فسيراني في اليقظة، ولا يتمثل الشيطان بي**»[1] ذكره

---

(1) أخرجه البخاري (6/2567)، ومسلم (4/1775).

السيوطي في «جمع الجوامع»، ورواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة، والطبراني في «الكبير» عن مالك بن عبد الله الخثعمي.

وقال ﷺ: ذلك نادر وهو لأهل هذه الطريق من نبيٍ ووليٍ، هكذا عرفناه، انتهى كلامه.

وإنما قلنا: إنَّ الرؤية والأخذ كانتا في الحس لا في النوم للأصلين الثابتين عنه ﷺ أنَّ الحس لا غلط فيه، كما قال ﷺ في الباب الرابع والثلاثين: إنه ما غلط حسّ أبدًا، فإن قيل: إن الصفراوي يرى السُكَّر مرًا وليس هذا إلا من غلطه الحسي.

قلنا: هذا الغلط من الحاكم الذي هو العقل؛ وذلك لأن المنسوب إلى الحس إدراك المرارة، وهو واقع بلا شبهة، ولكن إسناد هذه المرارة إلى السكر غلط العقل، فإن الخلط الصفراوي حائل بين الذائقة وبين السكر، فما أدرك مما أدرك إلا الصفراء وهي مُرَّة بلا شك، وكذلك راكب السفينة يرى حركة ولكن قائمة على من في البر، فرؤية الحركة صحيحة من الحس ولكن نسبتها إلى الخارج من حكم العقل، وقد غلط في حكمه فلا ينسب الغلط أبدًا في الحقيقة إلا إلى الحاكم لا الشاهد، أما ترى في شرف الحواس أنه قال تعالى فيه: «كنت سمعه وبصره.... »[1]، وما ذكر فيه القوى العقلية والروحية، ولا أنزل نفسه تعالى منزلتها منزلة الافتقار إلى الحواس، والحق لا ينزل منزلة يفتقر إلى غيره.

وأمَّا الحواس فمفتقرة إلى الله لا إلى غيره، فنزل لمن هو يفتقر إليه ولم يشرك به أحدًا، فأعطاها الغنى فهو يأخذ منها وعنها، ولا تأخذ هي عن غيرها من القوى إلا من الله تعالى، فاعرف شرف الحس وقدره وأنه عين الحق، ولهذا لا تكمل النشأة إلا به، فالقوى الحسيَّة هم الخلفاء على الحقيقة في أرض هذه النشأة عن الله تعالى، أما ترى أنه سبحانه وصف نفسه بأنه سميعٌ بصيرٌ، ولم يصف بأنه عاقلٌ يفكر مخيِّل، وما أبقى له من القوى الروحانية إلا ما للحس مشاركة فيه، كالحافظ والمصور، فافهم حتى تعلم ترجيح جانب الحس عن الخيال، ووجه اختيارنا الحس من بين القوى - جعلنا الله وإيَّاكم ممن مشي على مدرجته، حتى يلحق بدرجته آمين -.

وثانيهما، أي: من الأصلين أنه لو كان يطلب التعبير، ومعنى التعبير الجواز من صورة ما رآه إلى أمرٍ آخر، فإن كان أخذ الكتاب من موطن الرؤيا لعبره ﷺ، فلما لم

---

(1) أخرجه البخاري (2384/5)، وابن حبان (58/2).

يعبره علمنا قطعًا أنه كان في الحس لا في الخيال، أما ترى ما يقوله ﷺ بطريق الذم: بقي بن مخلد حين رأى لبنًا سقاه النبي ﷺ فصدق الرؤيا، فاستقاه فقال: لبنًا، ولو عبَّر رؤياه لكان ذلك اللبن علمًا، فحرَمه الله علمًا كثيرًا على قدر ما شرب، فافهم.

وما كان الله ينهانا عن أخذ الربا وهو يأخذ منًّا، وما كان ﷺ يأمرنا بمكارم الأخلاق، ويكون جنابه العالي خالٍ منها، أما ترى في قوله في «الفصوص» في ذكر ابن مخلَّد: فإن خرج في الحس كما كان في الخيال، فتلك لا تعبير لها ولهذا اعتمد ابن مخلد فإنه ذكره في مقام التقصير لا من حيث المحمدة.

ذكر ابن سودكين وهو أبو الطاهر إسماعيل بن سودكين بن عبد الله النوري شارح كتاب «التجلِّيات» للشيخ ﷺ في شرحه: لقد قال لي إمامي وقدوتي إلى الله تعالى ذات يوم: يا والدي رأيت البارحة كأني أعطيتك هذه العمامة التي على رأسي، وأصبحت علي أن أعطيتكما، ثم أحببت أن يكون تأويله ذلك ما يقتضي باطن الرؤية، وحقيقتها فتركت إيصالها لك ظاهرًا يا والدي لهذا السرُّ، فانظر أي هذا المنع الذي قد ملأ عطاء، فافهم فإن خالفنا في هذا التأسيس والنمط الشرَّاح بأسرهم لهذين الأصلين المذكورين.

(رَسُوْلَ اللهِ ﷺ) أشار بقوله: رسول الله ولم يقل: نبي الله، إلا أن الأمر الإلهي بواسطة الرسول، فافهم.

(في مُبشِّرة) قال الشيخ الأكبر ﷺ في الباب العاشر وثلاثمائة من «الفتوحات»: إن المبشرات التي أبقيت علينا من آثار النبوَّة وهي الرؤيا يراها الرجل، أو تُرى له وهي حقّ ووحيٌ، ولا يشترط فيها النوم لكن قد يكون في النوم، وفي غير النوم وفي أي حال كانت، فهي رؤيا في الخيال بالحس لا في الحس والتخيل قد يكون من داخل القوة، وقد يكون من خارج بتمثيل روحاني أو التجلِّي المعروف عند القوم، ولكن هو خيالٌ حقيقي إذا كان المزاج المستقيم مُهيَّأ للحق سبحانه، انتهى كلامه ﷺ، أو يقول في بيان قوله ﷺ في مبشرة أو تصديق قوله ﷺ: «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»[1].

قال ﷺ: الأمر والله في غاية الأشكال، لأنَّا خُلِقنا في هذه الدنيا يتاما فلا تدري لليقظة طعمًا، فنبَّه بلفظ مبشرة أنَّ ما أدركتموه في هذه الدنيا هو مثل إدراك النائم، بل هو إدراك النائم في النوم فسماه مبشرة، أما ترى قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي

(1) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (207/2)، وأبو نعيم في الحلية (52/7).

أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَاناً كَبِيراً﴾ [الإسراء: 60] وأراد تعالى بالرؤيا العيان الذي رأى ﷺ ليلة المعراج، فسمَّاه الرؤيا وهو رؤية عيان لا منام بالاتفاق.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الروم: 23] ولم يذكر اليقظة وهي من جملة الآيات، فذَكرَ المنام دون اليقظة في حال الدنيا، فدلَّ على أن اليقظة لا تكون إلا عند الموت، وأن الإنسان في الدار الدنيا نائمٌ أبدًا، فإن لم يمت وإنه في منام بالليل والنهار في يقظته ونومه.

أما ترى عدم إعادة الباء في قوله: (والنهار) واكتفى بباء الليل يشير إلى التحقق بهذه المشاركة، ويقوى الوجه الذي أثر زيادة في هذه الآية؛ فلهذا جعل الدنيا عبرة وجسرًا ليعبر، أي: يعبر كما يعبر الرؤيا التي يراها الإنسان في المنام المعتاد، فلهذا قيل في المثل المضروب: الدنيا جسرٌ يعبر ولا يعمر، فكلما يرى العارف أو يسمع كان ما كان، أي: من كان بأي وجه كان يأخذ لنفسه حظًا منه، إن كان بشارةً فبشارةٌ وإن كان إنذارًا فإنذارٌ، كما يفعله صاحب الرؤيا المعتاد.

صحَّ عن النبي ﷺ كان يتفاءل ويقول بالتفاؤل حتى كان ﷺ إذا سيق له لبن في اليقظة تناوله كما رؤياه، أما سمعت أنه ﷺ لما أسري به أتاه الملك بإناء فيه لبن، وإناء فيه خمر، فشرب اللبن فقال له الملك: أصبت الفطرة أصاب الله بك أمتك، فجعله بمنزلة الرؤيا للنائم خيالاً لا بُدّ من تأويل، فافهم.

قال ﷺ في الباب الثاني والسبعين وثلاثمائة من «الفتوحات»: إن ما في الكون كلامًا لا يتأوّل ولا يعبَّر عنه ولذلك قال تعالى: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: 21] وكل كلام يصدق أنه حادث عند السامع فمن التأويل، ما يكون إصابة لما أراد المتكلم بحديثه، ومنه ما يكون خطأ عن مراده لا في نفس الأمر، فإن ما من أمر إلا وله وجه صواب فيعرفه من يعرف المواطن وأحكامها، والتأويل عبارة عما يؤوَّل إليه ذلك، والتعبير عبارة عن الحوز بما يتكلم به من حضرة نفسه إلى نفس السامع فهو ينقله من خيال إلى خيال؛ لأن السامع يتخيله على قدر فهم فقد يطابق الخيال، أي: خيال المتكلم خيال السامع وقد لا يطابق، فإذا طابق سُمِّي فهمًا منه، وإن لم يطابق فليس بفهمٍ، وإنما قصدنا بهذا الذكر أن يقرع أذنك ما أنت غافل عنه، وهو

معنى الحديث المشهور: «والناس نيام..... »[1].

وإنَّك خيال وكل ما تدركه خيال فالوجود كله خيال في خيال، والوجود الحق إنما هو لله خاصة من حيث ذاته لا من حيث أسمائه، فإن الأسماء نِسب والنِسب لا عين لها.

قال ﷺ: والكل بحمد الله خيالٌ في نفس الأمر؛ لأنه لا ثبات له دائمًا على حالٍ واحدٍ والناس نيام، وكل ما يراه النائم قد عرف ما يرى وفي حضرةٍ، «**فإذا ماتوا انتبهوا**»[2] من هذا النوم في النوم فما برحوا في رؤيا، فلم يزل الأمر كذلك، ولا يزال في الحياة الدنيا والآخرة فافهم ذكره ﷺ في الباب الرابع عشر وأربعمائة من «**الفتوحات**».

فإن قيل: فإذا كان الأمر هكذا فلما لم يأوِّل آخذ الكتاب؟! **قلنا**: إن التأويل الذي على مذهب الشيخ للرؤيا التي بالخيال لا الذي رآه بالحس، فافهم ولا تخلط المواطن بالمواطن لتكون عارفًا قابلاً للمحاورة والمكالمة، إن لكل موطن حكمًا لا يتغيَّر، وإنما سميِّت مبشرة لتأثيرها في بشرة الإنسان، فإن الصورة البشرية تتأثَّر بما يرد عليها فيظهر لذلك أثر في البشرة لا بُدّ من ذلك، فإنه حُكم الحضرة الطبيعية، وإن لم يكن وجه التسمية مطردًا.

(**أُرِيتُها**): يشير ﷺ إلى أن الرؤية كانت من أداة الحق لا بتعمُّله وقصده.

قال تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ [فصلت: 53] وهذا من مقام قوله ﷺ: «**أراني ليلة عند الكعبة فرأيت... »**[3] الحديث من الأحاديث المتَّفق عليه.

(**في العشر الأُخر من محرم سنة سبعٍ وعشرين وستمائة بمحروسة ودمشق وبيده ﷺ كتاب**) ﴿كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾ [المطففين: 9] ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: 21].

قال ﷺ في الباب الخامس والستين ومائة: إنَّ الكتاب ضمُّ حروف رقمية، أو ضمُّ معنى إلى صورة حروف تدل عليه، فكان مرتبة الحروف في مرتبة الأعيان، ثم نزل

---

(1) سبق تخريجه.

(2) سبق تخريجه.

(3) أخرجه مالك (920/2، رقم 1640)، وأحمد (144/2، رقم 6312)، والبخاري (2211/5، رقم 5562)، ومسلم (154/1، رقم 169). وأخرجه أيضًا: أبو عوانة (130/1، رقم 388).

من العلم إلى العيان، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: 1] ولا يعلم ما قلناه إلا من كان خُلقه القرآن، بل مَنْ كان قلبه القرآن فإنه يتقلَّب بتقلبه، ويدور حيثما دار.

رُوي أن النبي ﷺ خرج وفي يده كتابان مطويان قابض بكل يدٍ على كتاب فأخبر أنَّ في الكتاب الذي بيده اليمنى أسماء أهل الجنة، وأسماء آبائهم وقبائلهم وعشائرهم من أول خلقهم إلى يوم القيامة، والكتاب الآخر فيه أسماء أهل النار على الشرح المذكور، ولو كان بالكتاب الغير المعهود ما وسع ورقه المدينة، ذكره ﷺ في الباب السادس والسبعين من «الفتوحات».

وهكذا فيما نحن بصدد بيانه فلا يكون إلا مكتوبًا مقروءًا ملفوظًا، وإلا فلِما يسمَّ كتابًا؟! فافهم كما يفهم من الحديث الشريف.

فإن لخاتم الولاية أسوة حسنة في خاتم النبوَّة في الأخذ والعطاء، فافهم.

(فَقَالَ لِي: هَذَا كِتَابُ «فُصُوصُ الحِكَمِ») والمشار إليه هو المجموع المرتب الذي كان بيده ﷺ، فإن المشار إليه لا يكون إلا موجودًا.

وأما قوله: هذا كتاب «فصوص الحكم»، فيحتمل أن تكون التسمية من الحق تعالى، أو من النبي ﷺ فلما كان ظهور الحكم الختمية من يد الخاتم إلى يد الخاتم فناسب أن يكون فصوصًا وعلى الحكم الخاتميَّة نصوصًا.

(خُذْهُ وَاخْرُجْ بِهِ): أي خذ الكتاب حِسًّا واخرج به شهادةً.

قال الشارح القيصري - قُدِّس سرُّه -: واخرج به إلى الحسن بتعبيرك إيَّاه وتقريرك معناه بعبارة تناسبه وإشارة توافقه، انتهى كلامه.

وهذا خروج عن ظاهر منطوق العبارة بلا ضرورة، فإنه قال: خذ الكتاب واخرج به، والكتاب على رأي الشيخ ﷺ كما فهمته سابقًا ضمّ حروف رقميَّة، أو ضمّ معنى إلى صورة حروف، أو على الطريقين ليس الكتاب هو المعاني الصرفة وأيضًا على رأي القيصري - قُدِّس سرُّه - يلزم تنزيل مرتبة الشيخ ﷺ من الأكمل إلى الأدنى كما سيظهر لك إن شاء الله تعالى، فافهم.

(إِلَى النَّاسِ): الناس مشتق من النسيان، أي: خذه واخرج به إلى الناس تذكرة للناسين.

قال ﷺ في الباب السابع والسبعين ومائتين من «الفتوحات»:

إن علم الناس دائمًا إنما هو تذكُّر، فمنَّا من إذا ذكر تذكَّر أنه كان علم ذلك المعلوم ونسبه لذي النون المصري - قُدِّس سرُّه - ومنَّا مَنْ لم يتذكر مع إيمانه به أنه قد كان شهده كما أنساهم الله تعالى شهادتهم بالربوبيَّة في أخذ الميثاق، مع كونه قد وقع وعرفناه ذلك بتعريفٍ إلهي، فافهم.

فالمراد من الناس المطَّلعون على الكتاب المذكور، وأمَّا المتأهلون وهم أهل التذكرة فإذا ذكروا تذكَّروا، وأمَّا المتأهلون وهم أهل التقوى وأهل المغفرة وهم أهل الحجاب والستر القابلون للتعريفات الإلهية ينتفعون به بإثبات النون خبرًا عن الصادق وبشارةً منه يتحقق النفع به البتَّة، فمَن لم ينتفع به فليس من الناس، فافهم.

وعلى الجملة الناظر إليه والمطَّلع عليه إمَّا متحقق وإمَّا متوقِّف فيه، وإمَّا منكر له فالكل منتفع به، وإن كانت المنافع مختلفة باختلاف القوابل.

أمَّا انتفاع المتحقق والمؤمن فظاهر، وأمَّا المتوقف فيه فلولا إيمانه ما توقف، وأمَّا نفع المنكر، فقال ﷺ في «الفتوحات»: إن الكامل يعفو عمَّن سمع بذكره، أو رأى أثره فسبَّه وذمَّه، وهذا ذقته من نفسي وإعطاء نيَّة ربي بحمد الله، ووعدني بالشفاعة بهم يوم القيامة.

ونقل ﷺ فيها عن المشايخ أنهم أوَّل ما يشفعون يوم القيامة فيمن آذاهم، فقيل: المؤاخذة.

وقال هذا نص أبي يزيد - قُدِّس سرُّه - وهو مذهبنا، فإن المحسنين إليهم يكفيهم عين إحسانهم، والعافين عن الناس هم المحسنون، ومن هذا المشرب ما ورد عن النبي ﷺ أنه قال لربه ﷻ: **«يا رب إني بشرٌ أغضب كما يغضب البشر، اللهم مَنْ دَعوتَ عليه أو سبيته - يعني في وقت غضبه - فأجِل ذلك»**[1] حتى أنه يومًا دعا ﷺ على صبية صغيرة أضجرته فخافت من دعائه، فقال ﷺ: **«لا تخافي فقد سألت الله.... »**[2] وذكر هذا الخبر فكان دعاؤه بالشرِّ خيرًا في حق المدعو عليه.

ذكر الشيخ ﷺ في **«سرّ الألفاظ اليوسفيَّة»** فافهم، وأذن بالكتاب فانتفع كل مَنْ عليه اطَّلع.

---

(1) أخرجه أحمد (107/6، رقم 24808)، وابن عساكر (90/4).

(2) أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (200/2) بنحوه.

(فَقُلْتُ: السَّمْعُ والطَّاعَةُ للهِ وَلِرَسُوْلِهِ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنَّا كَمَا أُمِرْنَا).

أشار إلى امتثال قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: 59] وهم الأقطاب والخلفاء والولاة منّا ولهم لأمر فيما هو مباحٌ لهم ولنا، فإذا أمرونا بالمباح وأطعناهم في ذلك أجرنا في ذلك أجر مَنْ أطاع الله فيما أوجبه عليه؛ وذلك لأنه إذا أمر الإمام المفترض الطاعة بأمر مباح وجبت إطاعته، وارتفع حكم الإباحة، فافهم لتعلم ما منزلة الخلافة والإمامة وما أثمرت هذه المرتبة.

فكأنه قال ﷺ: السمع والطاعة للمتحقق بأحدية الجمع، والمتنزِّل إلى مرتبة الفرق بالرسالة، والمتلبِّس بخلعة الخلافة والنيابة آمرًا وناهيًا من نبي [....] وأطعته بالانقياد له مع تحقيقي بمرتبة الجمع لتحقيقي بجمع الجمع، فافهم.

وإنما أظهر ﷺ اللام في الرسول؛ ليفصل بين الحق والخلق بإعادة حروف الجر ولم يجمع بين الله والرسول فيه إشارة إلى بُعد الحقائق الخفيَّة والخلقيَّة.

ورد في الخبر الصحيح أنه ﷺ قال لخطيبٍ: «بئس الخطيب أنت»[1] لما سمعه قد جمع بين الله تعالى ورسوله في ضميرٍ واحدٍ لا يوحي من الله تعالى ومن يعصمها، وفي قول الرسول ﷺ كفاية لمن أنار الله بصيرته.

أما ترى عدم إظهار اللام في قوله ﷺ: وأولي الأمر منّا بلا إعادة لقرب المناسبة والدلالة على أنهم منه ﷺ، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [التوبة: 128].

فمن شدة الملابسة حذف اللام في الثاني، ولبعد المناسبة أثبت في الأول؛ ليكون أدل على الفصل، فافهم.

قال الشيخ - قُدِّسَ سِرُّهُ -: «فَحَقَّقْتُ الأُمْنِيَةُ، وَأَخْلَصْتُ النِّيَّةَ وَجَرَّدْتُ الْقَصْدَ وَالهِمَّةَ إِلَى إِبْرَازِ هَذَا الْكِتَابُ كَمَا حَدَّهُ لِي رَسُوْلُ اللهِ ﷺ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ؛ وَسَأَلْتُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنِي فِيْهِ وَفِي جَمِيْعِ أَحْوَالِي مِنْ عِبَادِهِ الَّذِيْنَ لَيْسَ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِم سُلْطَانٌ، وَأَنْ يَخُصَّنِي فِي جَمِيعِ مَا يرقُمُه بَنَانِي وَيَنْطِقُ بِهِ لِسَانِي وَيَنْطَوِي عَلَيْهِ جَنَانِي بالإلقاء السُّبُوحي والنَّفْث الروحي في الرُّوعِ النفسي بالتَّأْيِيدِ الاعْتِصَامِي؛ حَتَّى أَكُوْنَ مُتَرْجِمًا لَا مُتَحَكِمًا، لِيَتَحقق مَنْ يَقِفُ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ اللهِ أَصْحَاب القلوبِ أَنَّهُ مِنْ

(1) أخرجه مسلم (594/2)، وأبو داود (288/1) والنسائي (322/3).

مَقَامِ التَّقْدِيسِ الْمُنَزَّهِ عَنْ الْأَغْرَاضِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي يَدْخُلُهَا التَّلْبِيسِ].

قال الشارح: قوله ﷺ: (فَحَقَّقْتُ الأُمْنِيَةُ): أي جعلت مواد رسول الله ﷺ حقًا، وأظهرت عتبة في الخارج إخراجًا محققًا.

قال الشارح القيصري - قُدِّس سرُّه - أي جعلتها حقًا محققًا، أي: ثابتًا في الخارج وظاهرًا في الحس بتعبيري إياه، وإظهاري فحواه.

كما قال تعالى حكايةً عن يوسف ﷺ: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: 100] أي: أخرجها في الحس، انتهى كلامه.

اعلم - أيَّدكَ الله وإيَّانا بروحٍ منه - أن تعبير الرؤيا عند المصنف ﷺ هو الجواز عن صورة ما رآه إلى صورةٍ أخرى، والتأويل عبارة عما يؤوَّل إليه تلك الرؤيا ويراد منها، والرؤيا موطن التعبير والتأويل كان ما كان، والرأي كان من يكون هذا مذهبه ﷺ، فالتعبير جواز من صورة المرئي إلى صورة تناسبها؛ فلهذا قال الشيخ ﷺ: إن التجلِّي الصوري في حضرة الخيال يحتاج إلى علم آخر وهو علم المناسبات تدرك به ما أراد الله بهذا مثلاً أن المعاني التي رؤيت في الرؤيا يأخذها ويكسبها ألفاظ ويعبِّر بها عن المعاني التي رآها كما يفعل لإخبار معناها وإعلام فحواها، وذلك وإن كان تعبيرًا ولكن ليس هو التعبير المصطلح الذي نحن بصدد بيانه وما ذلك إلا مغالطةً واشتباهًا.

وأما قوله - قُدِّس سرُّه -: إن هذه الحكاية كحكاية يوسف ﷺ، قال تعالى: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: 100].

فليست الحكاية كالحكاية ولا الرؤيا كالرؤيا، وكيف لا؟ ورؤية يوسف ﷺ هي المثل المضروب، وهي رؤية الإخوة، والأبوين ساجدين له على صورة الكواكب، والشمس والقمر فصدق في قوله ﷺ: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ﴾ [يوسف: 100] فإنه جاوز، وعبر من صورة إلى صورة أخرى أريد منها قد جعلها حقًّا في الخارج، فعرف أن الذي رآه أريد منها هذه إلا ما رأى من الكواكب، والشمس والقمر فأين صورة رؤياه ﷺ؟ فإنها مثلٌ مضروبٌ وجسرٌ يُعبر، وصورة مسألتنا فإنه ﷺ أمر بإبراز عين الكتاب بلا تأويل ولا تعبير سيَّما إن كانت صورة واقعته ﷺ في الرؤيا كما قررناه، فيكون في اليقظة عند اتخاذ المدارك، فيرى في اليقظة ما يرى في المنام، ولا يسمَّى ذلك رؤيا المنام؛ لأنه في اليقظة، فافهم.

(وَأَخْلَصْتُ النِّيَةَ): أي جعلتها للإطاعة خالصة، فجرَّدت القصد.

(الهِمَّةَ) المراد من الهِمَّةِ الهِمَّةُ الحقيقية التي هي جمع الهمم بصفاء الإلهام، فتلك همم الشيوخ الأكابر من أهل الله، فتجريدها جمع الهمم، وتفريدها بأُحديَّة الهِمَّة وجعلها همَّة واحدة لأُحديَّة المتعلق كما أن تجريد القصد أن تجعل المقاصد المتكثِّرة مقصدًا واحدًا هربًا من الكثرة لتوحيد الكثرة أو للتوحيد، فافهم.

إلى إبراز هذا الكتاب قوله ﷺ: هذا الكتاب مشير إلى أنه كان بالألفاظ والحروف المرتبة؛ وذلك لأن مخدرات المعاني من حيث إنها معانٍ صِرفة قاصرات الطرف ما تبرَّجن عن خيام المراتب، ولا تبرزن إلى مراتب الصون إلا مبرقعات بحجاب صور الألفاظ، والحروف والقوالب فلهذا ما أمر ﷺ إلا ليبرز ما كان مستورًا وهو كتاب فصوص الحكم، حيث كان في أمر الكتاب مسطورًا كما حدَّه لي رسول الله ﷺ، يشير إلى ما صرَّح ﷺ في آخر الخطبة بأن ما وقف عليه لا يسعه كتاب ولكن ما أظهر.

(كَمَا حَدَّهُ لِي رَسُوْلُ اللهِ ﷺ): أي بحدود الألفاظ، ورسوم قوالب العبارات المدوَّنة المبوَّبة المسمَّاة بـ «فصوص الحكم» فإنه ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ [فصلت: 3] وخطابٍ بُيِّنت متشابهاته، فمحكماته متشابهات، ومتشابهاته محكمات من غير زيادة ولا نقصان، ولو رام ﷺ زيادة على ذلك ما استطاع؛ لأنه غير مختار بل هو فيه مجبورٌ مقهورٌ، فإنه الحضرة حضرة الأمانة، فكما لا تقبل النقصان كذلك لم تقبل الزيادة، فإن التصرُّف بغير الإذن خيانة مع أن الزيادة في غير محلِّها نقصان وجناية، أما ترى أن الأصابع خمسة فإن زادت فالزائد منها نقص.

(وَسَأَلْتُ اللهَ تَعَالَى) فسأل الكل من الكل، قال تعالى: ﴿وَآتَاكُم مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: 34].

قال ﷺ في الباب السابع والستين وثلاثمائة من «الفتوحات»: إن من ينزل عن سؤال أعظم لذة من النزول عن غير سؤال، فإن في ذلك إدراك البغيَّة، وذلة الافتقار، وإعطاء الربوبيَّة حقِّها، والعبودية حقها، فإن العبد مأمورٌ أن يعطي كل شيء حقه كما أعطي الله كل شيء خلقه.

وفي العلم المنزل عن السؤال من علو المنزلة ما لا يقدِّر قدره إلا الله، وأما تعيين السؤال إذا كان فيما يرجع إلى أمر الدارين، فليعين ما شاء ولا مكر فيه، ولا تمايله هكذا ذكره الشيخ ﷺ.

(أَنْ يَجْعَلَنِي فِيْهِ): أي في الإبراز المذكور، وفي جميع أحواله (مِنْ عِبَادِهِ) إنما قال: من عباده رغبة منه إلى مرتبة العبودية المحضة الخالصة، فإنها أعلى مراتب العبد.

قال ﷺ: إذا أقامك الحق في مقام العبودية المطلقة التي ما فيها ربوبيّة فأنت خليفة له حقًا، فإنه لا حكم للمستخلف فيما ولي فيها خليفة عنه جملة واحدة والخليفة استقل بها استقلالاً ذاتيًا.

قال تعالى في معرض المدح: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: 1] فجعله عبدًا محضًا، وجرَّده من كل شيء حتى يكون له كل شيء فأسري به؛ ليكون يسري به فما أضاف إليه شيئًا، بل جعله مجبورًا لا حظ له في الربوبيّة، فافهم.

(الَّذِيْنَ لَيْسَ لِلشَيطَانِ عَلَيهم سُلْطَانٌ)، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء: 65].

قال ﷺ في «الفتوحات»: اعلم يا أخي أني اتبعت ما حكي عن إبليس من الحجج فما رأيت أقصر منه حجة، ولا أجهل منه بين العلماء.

(وَأَنْ يَخُصَّنِي فِي جَمِيعِ مَا يرقُمُه بَنَانِي وَيَنْطِقُ بِهِ لِسَانِي وَيَنْطَوِي عَلَيْهِ جَنانِي بالإلقاء السُبُوحي والنَّفْث الروحي).

(السبُوح) كالقدوس بمعنى: المسبّح كالمقدّس أسماء المفعول، أي: الإلقاء المطهر عن التغيير في ذاته، و(النفْث) لغة بسكون الفاء والثاء المثلثة إرسال النفس بفتح الفاء رخوًا وهنا عبارة عن إفاضة النفس الروحاني الذي يحيى بنفخة، ومن عادة الروح ما يمر على محل إلا قد أحياه.

في (الروع والورع) بضم الراء المهملة هو القلب وهو القوة التي طورها وراء طور العقل، ينقلب بتقلب التجلّيات، وهو برزخ بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء من رحمةٍ إلى رحمة، فافهم.

(النفسي) قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: 7، 8] فجعل النفس برزخًا وسطًا وحلاً قابلاً لما يلهم من الفجور والتقوى، فتميز الفجور فتجتنبه، والتقوى فتسلك طريقه ومن وجه آخر تطلبه الآية، وهو أنه إنما ألهمها عراها عن الكسب، أي: عن أن يكون لها فيها كسب وتعمُّل، بل إنما هي محل ظهورهما، فهي برزخ بين هذين الحكمين، وأما الخاطر المباح مندرج في قوله: ﴿وَمَا سَوَّاهَا﴾ لأن المباح ذاتي لها فبنفس ما خلق عينها ظهر عين المباح فهو من صفاتها

النفسية التي لا تعقل النفس إلا به.

فالخاطر المباح على الحقيقة نعت خاص للإنسان، وإن لم يكن من الفصول المقوِّمة فهو حدٌ لازم رسمي فإنه من خاصية النفس جلب المنافع، ودفع المضار، وإنها هي المحرِّكة بما يغلب عليها إمَّا من ذاتها، أو مما يقبله فيما يلهمها به الملهم مِنْ ملكٍ أو شيطان، فافهم.

فالقلب النفسي هو القلب البرزخي المتقلِّب بإحكام النفس المحركة المميزة بين الفجور والتقوى، فافهم.

أو تقول: إن النفس بسكون الفاء هي النفس الكلي التي هي اللوح المحفوظ ذكر الشيخ ﷺ في «رسالة القدس» من هذا المقام عن عبد الله بن سهل أنه قال: سمعت أبا يزيد، وسُئِل عن اللوح المحفوظ، فقال: أنا اللوح المحفوظ، وإنما أضاف هنا القلب إلى النفس؛ لأنها أصلٌ وإجمالٌ لما فُصِّل في القلب.

(بالتأييد الاعتصامي) قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: 101] والاعتصام بالله هو الترقِّي عن كل موهومٍ والتخلُّص عن كل تردد، وهو شهود الحق تفريدًا لا شيء معه، وذلك لفناء الشاهد في المشهود.

(حَتَّى أَكُوْن): أي في جميع أحوالي وفي جميع ما يرقمه بناني، وينطق به لساني (مُتَرْجِمًا).

اعلم أن العارف التام المعرفة بالمقامات والمواطن والآداب والحكم تُرجمان لسان الحقائق إن ادُّعِي إلى الحق يشهد مَنْ يسمع، ومَنْ يرد فيتنغَّم بالقبول والرد لصدق مشهده أحكام الأسماء الإلهية هو الدَّاعي، واسم وهو القابل، واسم وهو الرادّ، وهذا العارف متفرِّج بحياة طيبة بهذا الكشف والشهود إلى هذا المقام حرض الله حبيبه ﷺ إلى هذا الشهود الأتم.

قوله ﷺ (حَتَّى أَكُوْن): يتعلق بـ (سَأَلْتُ) فإن قيل: قوله ﷺ: (حَتَّى أَكُوْن) متن بما يدل على أنه كان أخذ المعاني وترجمها بألفاظ وعبارات مناسبة من عنده كما هو عادة الترجمان، قلنا: ليس الأمر هكذا بل الترجمة تطلق أيضًا على إبعاد الكلام من الأصل.

كما قال الشيخ ﷺ في الباب التاسع والعشرين وثلاثمائة في القرآن: إنه كلام الله بلا شك، والترجمة للمتكلم به كان ممن كان، انتهى كلامه ﷺ.

فما تُرجم في القرآن إلا أنه قرأ مثل ما سمع، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ عَلَّمَهُ

البَيَانَ﴾ [الرحمن: 4.3] فنزل عليه القرآن؛ ليترجم عنه كما علمه الحق من البيان الذي لم يقبله إلا هذا الإنسان، فافهم.

أو يقول: بل هو سؤال مستأنف وإضراب عن الأول، ويطلب هذا الحال في جميع الأحوال والأقوال، إلا أنه كان ترجمان لهذا الكتاب وأراد ثبوته وتحققه كما فهمه الشارح القيصري، وحكم به - رحمة الله - ببادئ الرأي، فافهم.

(لا متحكِّمًا) التحكم: التصرف لإظهار الخصوصية بلسان الانبساط في الدعاوى، وهذا ضرب من الشطح، أو قريب منه لما يتوهَّم من دخول حظ النفس فيه إلا أن يكون عن أمر إلهي.

قال ﷺ:

مَهمَا تَحَكَّم عَارِفٍ فِي خَلقِهِ ... مِن غَيرِ أمرٍ فَالرعُونَة قَائمَه

تَركِ التحكُّم نَعت كُل مُحَقِّق ... لَزم الحيَاء وَلَو أتَتْهُ رَاغِمه

(ليتحقَّق): أي أبرزت الكتاب على الوفق المشروح (ليتحقق من يقف عليه من أهل الله) الذين لهم أحديَّة الأسماء الإلهية، لا المقيِّدون بالأذواق، والمشارب، ولا المتوسطون من أرباب الأحوال.

(أصحاب القلوب): أي أعني من أهل أصحاب القلوب ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ [ق: 37] فينقلب مع الحق حيث يتجلَّى، ولا يتقيَّد فيعلم أنه، أي: الكتاب بألفاظه وحروفه ونظمه وترتيبه، فإنه ما يسمى الكتاب كتابًا إلا بهذه الأشياء من مقام التقديس المنزَّه عن الأغراض النفيسة، والمقدَّس عن لوث شرب الحدوث، فإذا عرف صاحب قلب من أهل الله هذا التحقيق من الشيخ ﷺ أقرَّ بكماله، وأثنى عليه، وسبَّحه بحمده.

ورد في الحديث الصحيح: «ليس شيء أحب إلى الله من أن يمدح»[1] ذكر ﷺ هذا الحديث في الفصل السابع والأربعين من باب النفس من «الفتوحات».

ورد في الحديث: «أما إن ربك يحب المدح»[2] وفي لفظ الحمد رواه الأسود بن سريع ذكره في «جمع الجوامع» وهكذا الإنسان الكامل حبَّب إليه ما أحبه الله تعالى، ثم

(1) أورده المناوي في فيض القدير (296/2).

(2) أورده المناوي في فيض القدير (162/2)، والحسيني في البيان والتعريف (154/1).

نرجع ونقول: إن مقام التقديس هو حظيرة القدس هو الطهارة والطهارة ذاتية وعرضية، فالذّاتية كتقديس الحضرة الإلهية التي أعطاها الاسم القدوس وهي المقدَّس عن أن يقبل التأثير من حيث ذاتها، فإن قبول الأثر تعبير في القابل والحضرة مقدسة عنه، فالقدس الذاتي لا يقبل التغيير جملة واحدة.

وأمّا القدس العرضي فيقبل التغيير وهو النقيض، وتفاوت الناس في هذا فتقديس النفوس بالرياضات وهي تهذيب الأخلاق، وتقديس المزاج بالمجاهدات، وتقديس العقول بالمكاشفات والمطالعات، وتقديس الجوارح بالوقوف عند الحدود المشروعات، ونقيض هذا القدس قبول ما يناقضها، ومهما لم يمنع فلا يكون حظيرة قدس فإن الحظر المنيع كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ [الإسراء: 20] أي: ممنوعًا والأرواح المدبّرة للأجسام العصرية لا يمكن أن تدخل أبدًا حظيرة القدس؛ لأن ظلمة الطبع لا تزال تصحب الأرواح المدبرة في الدنيا والآخرة، إذا فهمت هذا فاعلم أن الشيخ الأكبر ﷺ نبّه بعلمه على مكانته من الله تعالى وقدره مكانه من ظهور مكنون سره، وأشار إلى أن الكتاب من مقام التقديس الذاتي الذي هو حظيرة القدس المقدسة، عن التغيير والتبديل حين الانسلاخ عن أحكام البشرية، والإعراض عن الأغراض النفسية، التي يدخلها التلبيس، والتلبيس ستر الحقيقة وإظهارها بخلاف ما هي عليها يقال: لبس فلان على فلان إذا ستر عنه الشيء وأراه بخلاف ما ستر، فالأغراض النفسية هي التي تلبس الحقّ بالباطل، والباطل بالحق فهو مقام المشابهات، ومأخذ الشيخ ﷺ أم الكتاب، حيث لا كذب ولا تدنيس، ولا جهل ولا تدليس، ولا شبهة ولا تلبيس، فافهم.

واعتمد على هذا القول أنه من المحكمات حتى لا يفوتك علم، وارجو لسان أدب مع الله تعالى واقتداء بالسنة السنيّة.

قال الشيخ ﷺ: «**وأرجو أن يكون الحق لمّا سمع دعائي قد أجاب ندائي؛ فما أُلقي إلا ما يُلْقِي إليَّ، ولا أُنزل في هذا المسطور إلاَّ ما ينزِّل به عليَّ. ولست بنبيّ رسول ولكنّي وارث ولآخرتي حارث:**

فمن الله فاسمعوا	**وإلى الله فارجعوا**
فإذا ما سمعتم ما	**أتيت به فعُوا**
ثم بالفهم فصلوا	**مجمل القول واجمعوا**

ثـــم مـــنوا بـــه علـــى طالبـــيه لا تمـــنعوا
هـــذه الـــرحمة التـــي وسِـــعتكم فوســـعوا

ومن الله أرجو أن أكون ممن أُيِّد فتأيد، وقُيِّد بالشرع المحمدي المطهَّر فتقيد وقيَّد، وحشرنا في زمرته كما جعلنا من أمته، فأول ما ألقاه المالك على العبد من ذلك».

حيث قال ﷺ: «وأرجو أن أكون أنا ذلك العبد»[1] مع تحققه ﷺ أنه هو، فأرجو من العامل بمنزلة عيسى عليه السلام ولعلَّ من الحق تعالى فإن لأمر المحقق، ولا يخفى على الله خافية فإن المحقق قد علم وشهد وما عند الله، بل علم نفسه بمنزلة علم الله به؛ لأن الأخذ من معدن واحد، فافهم أنه رضي الله عنه من الذين سبقت لهم منَّا الحسنى وزيادة.

(أن يكون الحق) إنما قال: الحق ولم يقل اسمًا آخر؛ إذ لا يطلب الحق ولا يعطي إلا بالحق؛ لأنه أعطى كل شيء خلقه وهو ما يستحقه، فالسائل لو لم يكن مستحقًّا استحقاقًا ذاتيًا ما أعطاه.

(لما سمع دعائي قد أجاب ندائي) إنه سميع الدعاء يقال: دعوت فلانًا، أي: صحت به نداء ودعوت الله له وعليه دعاء، والنداء الصوت وناداه مناداة ونادى، أي: صاح به، ذكره في «الصحاح».

دعا رضي الله عنه امتثالاً بقوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60]، قال تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186] وما دعاؤه رضي الله عنه إيَّاه تعالى إلا عين قوله: يا الله وهو لله وجوابه لبيك، فهو الدعوة وبه يسمَّى داعيًا.

قال رضي الله عنه: هذا لا بُدّ من الله في حق كل سائل، ثم ما يأتي بعد هذا النداء فهو خارج عن الدعاء وقد وقعت الإجابة، وأمَّا ما طُلب من الحوائج فلم يضمن إجابتها عناية ورحمة بهم؛ لأنه قد يسأل مما لا خير فيه، قال تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ [الإسراء: 11] أما ترى بلعام بن باعوراء قد أتاه الله العلم بخاصة آية من آياته، ودعا على موسى عليه السلام فأجاب تعالى دعاءه فشقي الدَّاعي شقاوة وانسلخ، وجعل مثله كمثل الكلب، فقضاء ما طلب من الحوائج بالمشيئة.

قال الله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ

(1) أورده المناوي في فيض القدير (384/1).

الرَّاحِمِينَ*فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ [الأنبياء: 84.83]، وقال تعالى في عبده الصالح يونس ﷺ: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنبياء: 87] فاستجاب له فإن المريض أو المضرور إذا قال: يا الله يعني يا شافي اشفني، ويا مغيث أغثني، وهكذا هنا أجاب تعالى ندائه ﷺ بلبيك ودعائه وطلبه بالسمع والقبول، فافهم.

ثم اعلم أن الدعاء والطلب والسؤال لا يقتضي المنازعة كما ذهب إليه سهل، والفضيل بن عياض - قُدِّس سرُّهما - حيثما أراد الله، فإن الدعاء ذلّة وافتقار، والنزاع رئاسة وسلطنة فمن لم ينازع فما هو مقهورٌ، ولا الملك عليه بقهار.

قال ﷺ: إنه ما تجلَّى له الحق تعالى بحمد الله من نفسه في اسمه (القهار) وإنما رأى في مرآة غيره؛ لأن الله تعالى عصمه منه في حال الاختيار(1) والاضطرار فلم ينازع

---

(1) الاختيار: طلب ما هو خير وفعله، قال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: 20]، والاختيار يقال لكل فعل يفعله الإنسان لا على سبيل الإكراه، كقوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ [الواقعة: 20].

والاختيار في الاصطلاح الصوفي يرد على معنيين، أحدهما له أصول قرآنية ونبوية، والثاني لا أصل له:

الأول: الاختيار الذى يعني اختيار العبد لما أراده الله شرعًا، فليس للعبد إرادة مخالفة لإرادة الله الشرعية، وللصوفية في هذا المعنى، ما روي عن يحيى بن معاذ (ت: 258هـ) أنه قال: (ما دام العبد يتعرف يقال له لا تختر، فإنك لست بأمين في اختيارك حتى تعرف، فإذا عرفت، يقال له: إن شئت فاختر وإن شئت فلا تختر، فإنك إن اخترت فبنا، فيما تختار وفيما لا تختار).

والمعنى: ما دام العبد في طريق المعرفة بالله، فهو مأمور أن يختار اختيار الله له بالمجاهدة في اتباع الشرع، ومن ثم إذا داوم على ذلك سوف تتكيف إرادته على مراد الله واختياره، وعند ذلك يسمع بسمع الله، ويرى بنور الله، فأي شيء يختاره وقتها، سيكون اختيارًا من الله؛ لأنه صديق يدور في دائرة المجال الشرعي والكوني معًا، أو بمعنى آخر تتفق إرادة العبد مع الإرادة الشرعية والكونية معًا، وهذا المعنى يشهد له أيضًا ما روي عن أبي يزيد البسطامي (ت: 261هـ) لما سئل من هو الأمير؟ فقال: (من لم يبق له اختيار وصار اختيار الحق له اختيارا)، وقوله أيضًا لما سئل ماذا تريد؟ قال: (أريد ألا أريد)، فالاختيار في اصطلاح الأوائل منهم، إشارة إلى ما يختاره الله للعبد في دنياه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، والعبد يختار ذلك بعناية الله له، حتى يختار باختيار الله له، لا باختيار نفسه، وهذا العبد الذى يختار اختيار الله الشرعى على الدوام، يجتمع فيه نوعان من اختيار الله، الأول هو الاختيار الشرعي، والثاني هو الاختيار الكوني.

الثاني: وهو المعنى المخالف للأصول القرآنية والنبوية ويرد على وجهين:

1 - اختيار الله للعبد الاختيار الكوني مع تجاهل العبد العمل بالأسباب، وهو باب التواكل =

قط، وكلما يظهر منه من صورة النزاع فهي تعليم لا نزاع، ولا ذاق من نفسه صورة القدر الإلهي قط لمناسبة ذكر بعض الأخبار والآثار حتى يقرع سمعك مثل هذه الأسرار.

اعلم أن من النزاع الخفي الصبر على البلاء، وعدم البلاء إذا لم يرفع إزالته إلى الله تعالى كما فعل سيدنا أيوب عليه السلام، وقد أثنى الله تعالى عليه بفعله مع شكواه فقال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: 44] ولهذا قلنا: إن الدعاء لا يقدح ولا يقتضي المنازعة بل هو أعلى، وأثبت لقدم العبودية من تركه.

ورد في الحديث عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يرد القدر إلا الدعاء... »[1] رواه ابن ماجه، وأما الرضا والتسليم فهما نزاع خفي لا يشعر به إلا أهلٍ

=

والاحتجاج بالقدر على نفي الأسباب، ومن ذلك ما روي عن الجنيد بن محمد (ت: 297هـ) أنه أصابته الحمى فقال: يا إلهي عافني، فسمع من قال له في قلبه: من أنت حتى تتدخل في ملكي، وتجعل لك خيرة، إنني أدبر ملكي خيرًا منك، فاختر ما اخترت بدلاً من أن تتقدم إلى باختيارك.

وقد استدل الهجويري (ت: 465هـ) بذلك على أن الاختيار عند الصوفية يعني أنهم يختاروا اختيار الحق على اختيارهم، أي: أنهم في سلبية تامة تجاه ما يبتليهم به الحق من الخير والشر من صحة ومرض وغنى وفقر، ومعلوم أن ذلك مخالف للأصول القرآنية والنبوية، فالدعاء من الأسباب العظيمة في جلب الخير ودفع الشر، وقد أمرنا الله به، فقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60]، وفي حديث أبي مالك الأشجعي رضي الله عنه كان الرجل إذا أسلم علمه النبي ﷺ الصلاة، ثم أمره أن يدعو بهؤلاء الكلمات: «اللهم اغفر لي وارحمني، واهدني وعافني وارزقني»، ومن حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه، قال ﷺ: «أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف، ثم قال: اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب، وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم»، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ أمر إذا أخذ الرجل مضجعه أن يقول: «اللهم خلقت نفسي وأنت توفاها لك مماتها ومحياها إن أحييتها فاحفظها، وإن أمتها فاغفر لها اللهم إني أسألك العافية».

2 - المعنى الثاني للاختيار المخالف للأصول القرآنية والنبوية، هو كون اختيار العبد، عين اختيار الرب، كما ذكر الجيلي (ت: 829هـ) أن اختيار العبد المخلوق فينا بالإرادة، هو عين اختيار الحق وإرادته، فإرادة العبد واختياره، هو عين الإرادة القديمة.

ومن ثم سواء كان العبد مؤمنًا أو كافرًا، على شاكلة موسى عليه السلام أو فرعون فالجميع عند هؤلاء الصوفية على صراط مستقيم، واختيار الجميع هو بعينه اختيار الله، ولا شك ان ذلك هدم لدين الله، وضياع لمعاني التكليف، وتبديد للعلة التي خلق الله من أجلها الدنيا والآخرة.

(1) أخرجه الترمذي (448/4)، وأحمد في مسنده (280/5)، والطبراني في الكبير (100/2).

[الله] وخاصته؛ وذلك لأن متعلق الرضا ميزان شرعي خاص لا يدرك إلا بالكشف، فافهم.

هكذا أبانه في «الفتوحات» فما ألقي إليكم إلا ما يلقى، ولا أنزل هذا المسطور إلا ما ينزل به عليّ، ألقي إليه كتابٌ كريم، فألقي إليكم الكتاب القويم، وهو مرتب مسموع مقروء، وأنزله في هذا المسطور كما نزل عليه ﷺ في الرقِّ المنشور، وبلغ ما أنزل إليه فلم يعدل عن سورة ما أمره رسول الله ﷺ، وأبقى صورته كما أُنزل عليه فإنه ما نزلت المعاني الصرفة عليه من غير تركيب، بل بتركيب الحروف وترتيب الكلمات ونظم الحكايات وإنشاء الفصوص من كل فص باسم صاحب ذلك الفص المسمَّى مجموعة بـ «فصوص الحكم».

فلمَّا أقام ﷺ نشأة هذا الكتاب «الفصوص» وأظهره بين أظهر الناس فأبصرته الأبصار، وسمعته الآذان من التائبين، وقرأته الألسنة عند التلاوة وليس الكتاب إلا هذا المجموع والمسموع المبصر المقروء وذلك تبليغًا منه وتنبيهًا للناسين، فلا ينبغي لأحدٍ أن يعترض على ما تضمنه الكتاب، ويعترض لأحكامه بسوء الخطاب فيحكم عليه بأحكام يقتضيها الحجاب ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: 124] ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ﴾ [النور: 54] وسدد هذا الكلام منه ﷺ كله لتأنيس الناسين الذَّاهلين، وتنبيه الغافلين الساهين بأنه كتابٌ ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2] بل في بعض كتبه يحلف ﷺ بالإيمان تحريضًا وتحريضًا على القبول والإذعان لأهل الإيمان، كما في «الفتوحات» في الباب الثالث وثلاثمائة فإنه يقول: فوالله ما كتبنا حرفًا إلا من إملاء إلهي أو إلقاءٍ رباني أو نفثٍ روحاني في روع كياني.

وهذا مثل ما قال صاحب موسى - عليهما السلام - ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: 82] حتى يرد الأمر وثبت الحاس، فالعمل في هذا الإقعاد ومشوا على سُنن سيدهم، حيث يقول تعالى: ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة: 1]، والشمس والليل والضحى، وكل ذلك شفقة ورحمة من الله ومن عباده الأمناء العارفين على عباده الضعفاء المترددين.

(ولست بنبيّ ولا رسول): أي نبي مكلَّف، ورسول مشرِّع فإنهما انقطعا برسول الله ﷺ، فلا رسول بعده ولا نبي.

قال ﷺ: إنما قلت لئلا يتوهم متوهم، فلا رسول بعده، أني ادَّعيت النبوة والرسالة لا والله ما بقي إلا ميراث وسلوك على مدرجة الرسول، والاقتداء به ﷺخاصة، وأمَّا النبوَّة والرسالة اللتان ليستا بتكليفٍ ولا تشريعٍ جديد فأبقى الله تعالى أحكامها في الورثة.

وأشار ﷺ إليه في قوله: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»[1] ويشير إلى هذين المقامين الشيخ ابن الفارض - قُدِّس سرُّه - في شعرٍ:

وَعَالِمُنَا منهم نبيٌّ وَمَنْ دُعِيَ مِنَّا إلى الحقِ قَامَ بالرسليّة

جعل الله ورثته ﷺ في منازل الأنبياء والرسل، فأباح لهم الاجتهاد في الأحكام فهو تشريعٌ محقق من خبر الشارع الصادق المحقق فكل مجتهد مصيب، كما أن كل نبيٍّ معصوم عن الغلط والسهو؛ ليحصل لهم نصيبٌ وافرٌ من التشريع.

ورد في الخبر: «إن لله عبادًا ليسوا بأنبياء»[2] أي: أنبياء التشريع والتكليف، ولكن أنبياء علمٍ وسلوكٍ اهتدوا فيه بهدى أنبياء التشريع غير أنهم لا يقبلون الاتّباع لوجهين:

* وجه لسواد وجوههم في الدنيا والآخرة فهم أصحاب راحة عامة لا يدرون أحد، ولا يدريهم أحد.

* الوجه الآخر أنهم يريدون راحة يوم الفزع الأكبر يوم يحزن الأنبياء على أُممهم لا على أنفسهم، وفيهم قال تعالى: ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ﴾ [الأنبياء: 103] المهيمون في جلال الله، العارفون الذين لم تُفرض عليهم الدعوة إلى الله تعالى، وهم في البُشرة بمنزلة الأرواح الهائمة في الملك، فافهم.

قال ﷺ في الفصل الثالث والثمانين في الأجوبة في «الفتوحات»:

قد حدَّثني أبو البدر البغدادي عن الشيخ بشير من ساداتنا بباب الأزج، عن إمام العصر عن عبد القادر الكيلاني - قُدِّس سرُّه - أنه قال:

«معاشر الأنبياء أوتيتم اللَّقب وأوتينا ما لم تؤتوا» فأمَّا قوله: أوتيتم اللقب، أي: حجر علينا إطلاق لفظ النبي، وإن كانت النبوَّة العامة سارية في أكابر الرجال.

وأما قوله: وأوتينا ما لم تؤتوا، هو عين قول الخضر عليه السلام الذي شهد الله بعدالته

---

(1) سبق تخريجه.

(2) أخرجه البيهقي في الشعب (487/6)، والطبراني في الكبير (290/3)، والحكيم الترمذي (82/4).

وتقدمه في العلم، وأتعب الكليم المصطفى المقرَّب موسى عليه السلام في طلبه.

إن العلماء أجمعوا على أنه أفضل من الخضر عليه السلام، فقال له: أنا على علمٍ علمنيه الله لا تعلم أنت، فهذا عينُ ما قال السيد عبد القادر - قُدِّس سرُّه - فافهم أن هذه النبوة العامة غير منقطعة دائمًا أبدًا.

وقال رضي الله عنه في «الفتوحات»: وهذه ما أدري عن قصدٍ منهم كان ذلك، أو لم يوفِّقهم الله عليها، أو ذكروها وما وصل ذلك إلينا؟ والله أعلم بما هو الأمر عليه.

(ولكني وارث) اعلم أن الوارث اسمٌ إلهي، والوراثة نعتٌ إلهي، فإنه قال تعالى عن نفسه أنه خير الوارثين: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: 89].

وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [مريم: 40] فورثها؛ ليورِّثها مَنْ يشاءُ مِنْ عِبادِه، فالولي الوارث لا يأخذ وِرْثَ النبوّة إلا بعد أن يرثها الحق منه، ثم يلقيها إلى الولي ليكون ذلك أتم في حقه حتى ينسب في ذلك إلى الله تعالى لا إلى غيره، وبعض الأولياء يأخذونه وراثة عن النبي ﷺ وهم الصحابة رضي الله عنهم الذين شاهدوه، أو مَنْ رآه في النوم، ذكره رضي الله عنه في الباب الخامس والخمسين ومائة من «الفتوحات».

ولهذا قيل: إن كنت وارثًا فلا ترث إلا الحق، فإن قيل: ولا يصح الميراث لأحدٍ كان ممن كان إلا بعد انتقال المورث، وأمَّا ما حصل لك من غير انتقال فليس يورث، وإنما ذلك وهبٌ وأُعطية ومنحة أنت فيها نائبٌ وخليفةٌ لا وارث.

وأيضًا إن المورث لا يكون إلا بتملك قهري على المورث كان ما كان، أراد المورث أو لم يُرد وكان مَنْ كان، فكيف حكم هذين الحكمين في الإلهيات التي أثبت فيها الميراث؟.

قلنا: صَدَقت، ولكن إذا أشهدك الحق غناه عن العالمين فقد ترك العالمين، فهم تِرِكَة إلهية لا يرثها إلا أنت إن كنت صاحب هذا الكشف والشهود، فافهم.

وأيضًا أن جميع ما نحن عليه من الصفات وصفَ نفسه بها، ثم نزَّه نفسه عنها.

فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: 180]، فأخذنا هذه الصفات التي كنا نَصِفُهُ بها بعد تنزيهه عنها بحكم الوارث؛ لأنه قد وصف نفسه، ووصفناه بها، فقام التنزيه بعد ذلك مقام الموت لنا، فهو يرثنا بالموت، ونحن نرثه بالتنزيه، فافهم.

وأيضًا أن الله تعالى قال: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة:

7]، فإذا جاء الرابع منَّا انتقل إلى المرتبة الخامسة، وخلي له المرتبة، فورثها هذا وارث العموم، وأمَّا في ميراث الخصوص، فإنه رابعٌ أربعة في حال كونك أنت رابع أربعة؛ لأنك على الصورة، فورث الخاص الوجود، وبطن المورث بورث الظاهر الوجود.

قال ﷺ: إن أطيب ما يورَّث من العلم ما يرثه العالم من الأسماء الإلهيَّة.

ويشير إلى هذا قوله ﷺ: «تخلَّقوا بأخلاق الله»[1]، وظهور الأخلاق لا يكون إلا في عالم التشبيه للخليفة، فاسْتخلفَ الخليفة واستعان بذاته وتحجَّب بحجاب العزَّة لاستحالة جمع المستخلِف والمستخلَف، ولا يُجمع المورث والوارث، فافهم.

وأمَّا قولك: إن الميراث من تمليك قهري؛ فذلك لأن الإرث بحكم الاستعداد وبتحكُّم القابليَّة، والاستحقاق الذاتي.

ومن هذا المقام قال سبحانه في طائفة: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الانشقاق: 25] إلا منه روع؛ لأنه اقتضاءٌ ذاتي.

وقال في الآخرين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: 118] وكما أن المال الموروث من غير كسبٍ، وتصنع من الوارث، كذلك هنا أن علومه آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم من غير كسبٍ واستفادة.

وهنا مشربٌ آخر دون ذلك وهو أن تعلم أن الورث ورثان، ورث نبوَّة أن العلماء ورثة الأنبياء - عليهم السلام -.

وقال ﷺ: «الأنبياء ما ورثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورثوا العلم»[2].

فمن أخذه بحظٍ وافر، فلم يبق الميراث إلا في العلم والحال والعبارة عمَّا قصدوه من الله تعالى في كشفهم، وهو على نوعين صوري ومعنوي.

أمَّا الصوري: منه ما يتعلَّق بالألفاظ والأفعال وما يظهر من الأحوال، فإن الوارث ينظر إلى ما كان يفعله النبي ﷺ ما أبيح للوارث الاقتداء به فيه، فيأتيها على حد ما وُردت لا نزيد ولا يزيد ولا ينقص منها، وإن اختلفت الروايات فليفعل بكل رواية وقتًا بهذا ووقتًا بهذا ولو مرة واحدة، ويدوم على الرواية القويَّة إذا أمكن له ولا ينقص أصلاً ثابتًا.

---

(1) أخرجه أبو نعيم في الحلية (351/9)، وذكره المناوي في فيض القدير (170/5) بنحوه.

(2) أخرجه الترمذي (48/5)، وابن ماجه (81/1)، والديلمي في الفردوس (74/3).

ومن هذا الذوق رُوي عن الإمام أحمد بن حنبل ﷺ أنه ما أكل البطيخ حتى مات؛ لأنه ما بلغه كيف أكل رسول الله ﷺ.

وأما المعنوي: فكان ما يتعلّق بباطن الأحوال من تطهير النفس، والتخلُّق بمكارم الأخلاق، فإنه قال ﷺ: «**بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[1].

وهذا الإتمام على نوعين:

الأول: للعامة بتبديل المذام بالمكارم.

والنوع الثاني: بخصوص وهذا إلحاق السفساف بالمكارم، فإن الأخلاق كلها مكارم وليس في الوجود إلا الله، فافهم.

وأما الوارث الثاني هو الموروث الإلهي، فهو ما يحصل لك في ذاتك من صور التجلِّي الإلهي عندما يتجلّى لك فيها فإنك لا تراه إلا به، فإن الحق بصرك في ذلك الموطن، فإن لم يتكرر عليك صورة التجلِّي فقد انتقل عنها، وورثك أمرٌ تظهر به في ذاتك وفي ملكك، فإذا أردت شيئًا تقول له: كن فيكون، فمثل هذا من الورث الإلهي هو الورث النبوي، فإنه ما حصل هذا إلا بالاتباع والاقتداء والمحبة.

والأنبياء لا يُورثون - عليهم السلام - حتى ينقلبوا إلى الله تعالى من هذا الدار وكل ما له من نبي انتقل، فذلك علم موروث.

أما ترى قوله تعالى عن زكريا ﷺ: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾ [مريم: 5]: أي بعد موتي، وانتقالي إلى البرزخ فطلب من لدنه وليًا يرثه من بعده حتى لا يضيع الذين بعده، وهل كان ذلك الإرث إلا بعد الانتقال؟.

ثم اعلم أن كل وارث علم في زمان يرث مَنْ تقدمه من الأنبياء - عليهم السلام - وهذه الأمة لما كان نبيُّها آخر الأنبياء - عليهم السلام - صحّ للوارث منهم أن يرث الجميع ولا يكون ذلك بغير هذه الأمة، فلهذا خير أمة أُخرجت للناس، وكل علم لا يكون عن ورث فإنه ليس بعلم اختصاص كعلم الحكماء وأصحاب الفترات، فافهم.

ولو كانوا علماء ولم يكونوا متبعين لنبي، فنزلوا عن درجة الاختصاص والتفاوت بين العلمين بون عظيم، وتميز ذوقي مشهود، جعلنا الله وإيّاكم من الوارثين،

---

(1) أخرجه البيهقي في الكبرى (191/10)، والحكيم في النوادر (312/2)، والقضاعي في المسند الشهاب (192/2).

ولآخرتنا حارثين ولآخرتي حارث.

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نزدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: 20].

والزيادة في الحرث هو التوفيق للعمل الصالح، فلا يزال ينتقل من حسنة إلى حسنة، فإذا كسب نال ما اقتضاه العمل والزيادة ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وهو ذوق، فهذه زيادة الحرث في الآخرة، فينال به في الآخرة جميع الأغراض وزيادة لم يبلِّغه أمله؛ لعدم توجهه إليه.

وأما قول الشارح القيصري - قُدِّس سرُّه -: إنه لا يريد أجر الآخرة من دخول الجنة وغيرها، فإن الكمَّل لا يعبدون الله للجنة، انتهى كلامه.

فكأنه اشتبه عليه الفرقان بين مَنْ يعبد الله للجنة، وبين مَنْ يشتهي الجنة وأجرها مع أنه ﷺ ذكر في «الفتوحات»: إن النفس الناطقة تلتذ بجميع ما تعطيه القوة الحسيَّة، فتشتهي اللذات الجنانيَّة.

والناس على أربع مراتب في هذا الاشتهاء:

* فمنهم: من يشتهي الجنة ولذاتها وتشتهيه الجنة.

كما ورد في الخبر: «إن الجنة اشتاقت إلى علي، وبلال، وعمار ﷺ»[1] وهم من أكابر رجال الله من رسولٍ ونبيٍ ووليٍ كامل مكمِّل.

* ومنهم: من يُشتهى بالضم ولا يَشتهي بالفتح، وهم أصحاب الأحوال من رجال الله الهائمين في جلال الله الذين غلب معناهم على حسبهم، وهم دون الطبقة الأولى، فإنهم أصحاب أحوال.

* ومنهم: مَنْ يَشتهي بالفتح ولا يُشتهى بالضم وهم عصاة المؤمنين.

* ومنهم: مَنْ لا يشتهي وهم المكذِّبون بيوم الدين، والقائلون بنفي الجنة المحسوسة، ولا خامس لهؤلاء الأربعة أصناف.

قال ﷺ في الباب السابع والسبعين وأربعمائة من «الفتوحات»: إن العالم لا يرى شيئًا من الأحوال، ويعظِّم ما عظَّمه الله، ويحقِّر ما حقَّره الله، ولا يغلب عليه الحال، فإن أكثر الناس لا يعلمون، بل هم بهذا القدر جاهلون وعنه عمون، وهذا هو الذي أدَّاهم

(1) أخرجه أبو نعيم في الحلية (190/1)، وابن عبد البر في الاستيعاب (1138/3)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (284/1).

إلى ذم الدنيا وما فيها، والزهد في الآخرة وما فيها من النعيم واللذات، وانتقدوا على مَنْ شغل نفسه بمسمَّى هذه اللذات كلها، وجعلوا في ذلك ما حُكي عن الأكابر في هذا النوع متأولاً، وحملوا ألفاظهم على غير وجه تعطيه الحقيقة، وأرادوا أن كل ما سوى الله حجاب، وكيف لا تكون شهوة الجنة وهي دار القربة ومحل الرؤية، وهي دار الشهوة وعموم اللذات؟! ولو كانت حجابًا لكان الزهد والحجاب فيها، فالرجل كل الرجل من ظهر بالصورة وهو وراء أحكام العبودية الطبيعية، فافهم انتهى كلامه ﷺ.

قال ﷺ في الباب الخامس والثمانين وثلاثمائة من «الفتوحات»: إن احتقار شيء من العالم لا يصدر من تقي يتَّقي الله، فكيف من العالم بالله علم دليل أو علم ذوق؟! فإنه ليس في العالم عين إلا وهو من شعائر الله من حيث ما وضعه الحق دليلاً عليه، ووصف ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: 32] فمن حقَّر الوجود واستهانه، فإنما حقَّر واستهان خالقه ومظهره، فافهم.

فقوله ﷺ: ولآخرتي حارث: أي أطلب الأجر؛ لأنه ظهر على الصورة، وأوَّل أجر ظهر طلبه في الوجود أجر إيجاد الممكن.

فقال: الممكن للواجب في حال عدمه أُريد منك عمل الإيجاد، فقال: الواجب فلي عليك حقّ إذا علمته لك ما طلبت من العمل، وأظهرتك في الوجود.

فقال: لك أن أعبدك ولا أشرك بك شيئًا، فلما أظهره ولم يجعل نفسه في إيجاده متبرعًا فقال: اعبدني، وسبّح بحمدي، فسبَّحه وعبَده.

فسرى حكم طلب هذا الأجر في جميع الممكنات، بل هو ذاتي للأعمال؛ لأن الأعمال تطلب الأجر بذاتها.

ورد في الخبر الصحيح أنه ﷺ قال: «**حق الله على العباد أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا، ثم قال: أتدرون ما حقهم عليه سبحانه وتعالى إذا فعلوا ذلك؟ أن يدخلهم الجنة**»[1] ذكره ﷺ في الباب السادس والسبعين وثلاثمائة من «الفتوحات».

ولهذا السرُّ قالت الأنبياء - عليهم السلام -: إن أجرنا إلا على الله، فأُخبروا أن لهم الأجور، وأمر سبحانه لسيدنا ونبيّنا ﷺ.

حيث قال تعالى: ﴿قُل لا أَسألُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى:

---

(1) أخرجه أحمد في مسنده (260/3).

23] باستثناءٍ متصل، فما عمل عامد كان مَنْ كان إلا بالهجر، فافهم.

(فَمِنَ اللهِ فَاسْمَعُوا) قدَّم المعمول على العامل للحصر والاهتمام به في أن القابل هو الله سبحانه لا غير يشير إلى مقامه ﷺ قُرب الفرائض، قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ [الأنفال: 17]، قال الله سبحانه: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: 24] أما ترى أنه تعالى وجد الدَّاعي مع ذكر الاثنين، فعلمنا أن الأمر واحدٌ وما سمعنا متكلمًا سماع الحس إلا الرسول، وما سمعنا كلام الحق يسمع الحس إلا بالسمع المعنوي، فالله والرسول اسمان للمتكلم، فإن الكلام لله سواء كان في الجمع والفرقان.

كما قال تعالى والمتكلم المشهود عين لسان النبي ﷺ: «فأجره حتى يسمع كلام الله»[1] فافهم.

قال ﷺ حكاية عن تحققه بهذا المقام الأطهر الأقدس بل أشار إلى العينيّة كما نصَّ على نفسه في «الفتوحات» في الباب السابع والستين وثلاثمائة يحكي عن التجلّي الإسرائي ويقول في أثناء حكايته بعد ما حصل ذلك قلت: حسبي حسبي قد ملأ أركاني، وأزال به عني إمكاني، فحصلت في هذا الإسراء معاني الأسماء كلها، فرأيتها ترجع إلى مُسمًى واحد وعين واحدة وكان ذلك المسمَّى شهودي، وتلك العين وجودي، انتهى كلامه ﷺ.

وأما قوله ﷺ: (فَاسْمَعُوْا) ولا يسمع إلا مَنْ يكون على استعداد يكون معه الفهم عند سماعه بما أُريد له ذلك المسموع، ولا يكون ذلك إلا لمن يكون له الحق سمعه خاصة، وقد سمع ضرورة بربِّه، ومَنْ ادَّعى هذا السماع، ولم يكن سمعه عين فهمه فدعواه لا تصح ﴿كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: 21] وروح السماع الفهم الذي جاء به السمع، وأما الذين أعرضوا عنه فما أنت بمسمع الصم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: 23] فافهم.

(وَإِلَى اللهِ فَارْجِعُوْا): أي بالتوبة فإنها تنتج المحبة، قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222] والمحبة تثمر مقام قرب النوافل وهو أن

---

(1) أخرجه البخاري (2733/6)، والبيهقي في الكبرى (31/8).

يكون الحق سمعه الذي يسمع به.

كما رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «**ولا يزال العبد يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به....** »[1].

فإذا كان هو سمعه سمع الحق بالحق حقًا من الحق فانجلت المشكلات، وانكشفت المعضلات في المواضع التي تسمح فيها العبارات وتسمح بها الإشارات.

(وَإِذَا مَا سَمِعْتِم): أي سماع فهمٍ وقبول ما أتيت به وهو كتاب «فصوص الحكم».

(فَعُوْا) من وعى يعي إذا حفظ ما سمع، وهو واعٍ، أي: إذا سمعتم سمع فهمٍ فعوا فإنها تذكرة وتعيها أذن واعية.

(ثم بالفهم فصِلوا) فلولا الإيهام ما كان الإبهام، ولولا الإبهام ما احتيج إلى الإفهام، فإن الفهم قوة لا تصرف لها إلا في المبهمات وغوامض الأمور، ويحتاج صاحب الفهم إلى معرفة المواطن، ومع هذا لا يأمن من مكر الله؛ لأن نشأة الإنسان تقبل الشهوات والغفلات والنسيان، فما كل مَنْ أوتي العلم أوتي الفهم، قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ [البقرة: 269] قيل: هي الفهم.

أما ترى في قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾ [الأنبياء: 79] إنه خصَّ سليمان عليه السلام بالفهم، وإن أوتي داود عليه السلام فصل الخطاب فسليمان أوتي الفهم وبالفهم اجتهد، وأصاب في حكم الحرث: ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القَوْمِ﴾ [الأنبياء: 78]، فافهم.

فإن ما كل مَنْ رُزق علمًا كان صاحب فهم، فالفهم درجة عليا بحسب ما يقتضي استعمال ذلك المعقول المعلوم، فأرباب الفهم أصحاب لب، وبالفهم عن الله تعالى يقع التفاضل بين العلماء بالله.

ورد عن سيد الأولياء علي المرتضى رضي الله عنه أنه قال: إن الوحي قد انقطع فما بقي منه إلا الفهم في القرآن وهو فتح عين فهمه في القرآن وذلك ليس بشرع جديد، بل هو فهمٌ جديدٌ في الكتاب والسنَّة، ولم يكن غيره فهم هذا منهما، فللرسل - صلوات الله

---

(1) أخرجه البخاري (2384/5)، والبيهقي (346/3)، وابن حبان (58/2)، وأبو نعيم في الحلية (10/ 99).

عليهم - العلم ولنا الفهم وهو علمٌ خاص ذكره ﷺ في الباب الثالث عشر وثلاثمائة من «الفتوحات».

(مُجْمَل القولِ) فما عند الله إجمال كما أنه ليس في الأعيان الممكنات إجمال، بل الأمر كله في نفسه وفي علم الله مفصَّل، وإنما وقع الإجمال عندنا وفي حقِّنا وفينا ظهر، فمن كشف التفصيل في عين الإجمال علمًا أو عينًا أو حقًّا فذلك الذي أعطاه الحكم وفصل الخطاب، وليس ذلك إلا للرسل والورثة خاصة، وأمَّا حكماء الرسوم فإن اسم الحكم لهم عارية فإنهم لا يعلمون التفصيل في الإجمال ولا يضعون الأمور مواضعها، وأمَّا صاحب الكشف يرى في المداد الذي في الدواة جميع ما فيه من الحروف والكلمات، وما يتضمنه من صور ما يصور به الكاتب والرسام وكل ذلك كتاب فيكتب بذلك المداد، ويرسم على حسب ما رأى المكاشف بحيث لا يزيد ولا ينقص ولا يدرك ذلك إلا هذا المسمَّى حكمًا، كذا ذكره الشيخ ﷺ في الباب الثالث والسبعين وثلاثمائة من «الفتوحات».

(واجمعوا): أي لاحظوه مجموعًا، وهو تفصيلٌ في عين الجمع، وإجمالٌ وجمع في عين التفصيل هكذا الأمر، فإن الأديب العليم الحكيم ظاهر بالصورة في العالم يفصِّل إجماله بصورة، وتجمّل تفصيله بذاته، ومتى لم تكن هذه الصفة والقوة في رجل، فليس برجلٍ أديبٍ.

(ثم منُّوا به على طالبيه) يشير ﷺ إلى التخلُّق بأخلاق الله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: 17]، فإن مِنْ أسمائه المنان، فمعنى منُّوا: أي تحققوا به، ثم أظهروا بهذه الصفة على المستعدين والقائلين المستحقين له، أو منُّوا، أي: أنعموا على الطالبين ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾[الطلاق: 7] لتكونوا من الذين قال تعالى فيهم: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: 3].

(ولا تمنعوا) أشار ﷺ إلى ما ورد في الخبر: «إن مانع الحديث أهله كمحدثه لغير أهله»[1] ذكره الديلمي عن ابن مسعود ﷺ.

(هذه الرحمة التي وسعتكم فوسِّعوا) وذلك العلم بالله المستفاد من كتاب «الفصوص» لأن العلم من معدن الرحمة وهو صفة إحاطيَّة إلهيَّة أشرف ما فضَّل الله به

---

(1) أخرجه الديلمي (154/4).

أحدٍ، أو أكمل ما منح على عباده، قال المنَّان سبحانه: ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ [الكهف: 65] رحمةً مِنَّا، وما أمر الله نبيَّه ﷺ أن يطلب الزيادة في شيء غير العلم؛ لأنه أثنى تحفة وأعظم كرامة؛ بل هو الخير كله، وقال ﷺ: البطالة مع العلم أحسن من الجهل مع العمل، وما أغنى بالعلم إلا العلم بالله.

قال ﷺ: «مَنْ تعلَّم بابًا من العلم علم به، أو لم يعلم به كان أفضل من صلاة ألف ركعة، فإن عمل به أو علَّمه كان له ثوابه، وثواب مَنْ يعمل به إلى يوم القيامة»[1] ذكره الخطيب، وابن النجار عن ابن عباس ذكره في «جمع الجوامع».

وورد في الخبر: «إن أفضل الأعمال العلم بالله إن العلم بالله ينفعك معه قليل من العمل وكثيره، وإن الجهل لا ينفعك معه قليل العمل ولا كثيره»[2] رواه الحكيم عن أنس ﷺ.

وفي رواية: «أفضل العمل العلم بالله، قليل العمل ينفع مع العلم، وكثير العمل لا ينفع مع الجهل[3]» رواه الديلمي عن مؤمل بن عبد الرحمن الثقفي عن عبادة.

ومن الله قدَّم المعمول على العامل اهتمامًا بذكره كما يقال: قدِّم الجار على الدار، هكذا فعلت آسيا امرأة فرعون، وذكرها الحق في كتابه وهو قوله: ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم: 11]، هذا ذكر الجار قبل الدار.

(أرجو أن أكون) وهذا لسان الأدب مع الله ورسوله، وإلا وقوع المرجو ثابت لا محالة، فإنه علي كشفٍ منه.

(ممن أيَّد بتأييد الله) فتأيَّد بقبوله إياه، وأيَّد غيره به، وقيَّد بالشرع المطهَّر عن لوث.

(حدوث النسخ المحمدي ﷺ) الجامع لجميع الشرائع والأحكام، كما قيل في المثل: كل صيدٍ في الفراء، فتقيد: أي قبل القيد، وقيد: أي غير به.

(وحشرنا في زمرته): أي جعل الله، حشرنا في زمرته التي هي جماعة الأنبياء

---

(1) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (50/6).

(2) أخرجه الحكيم (101/4)، وذكره الحسيني في البيان والتعريف (118/1).

(3) أخرجه الديلمي (154/4)، وذكره العجلوني في كشف الخفا (111/2).

والرسل لا الأمم، فتحشر كمّل هذه الأمة في صفوف الأنبياء والرسل لا في صفوف الأمم، فما من رسولٍ إلا ولجانبه عالمٌ وارثٌ من علماء هذه الأمة أو أكثر، ومن أعجب ما عندنا من العناية الإلهيَّة أن كل رسولٍ يحشر جزئي الحكم لاقترانه بطائفة مخصوصة، والقطب منَّا، أي: من المحمديين ليس كذلك، فإنه عامٌ جامعٌ لكل مَنْ في زمانه مِنْ برٍ وفاجرٍ وصالحٍ وطالحٍ.

ومن هذه النفخة قال القطب عبد القادر الكيلاني - قُدِّس سرُّه -: أوتيتم اللَّقب، وأوتينا ما لم تؤتوا.

(**كما جعلنا من أمته**) ورد في الخبر الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَثلُ أُمتي كحديقةٍ قام عليها صاحبها، فاحتذر رواكيها، وهيأ مساكنها، وحلق سعفها فأطعم عامًا فوجًا، وعامًا فوجًا، فلعل آخرها طعمًا أن يكون أجودهما قنوانًا وأطولهما شمراخًا، والذي بعثني بالحق نبيًا؛ ليجدن عيسى ابن مريم في أمتي خلفاء من حواريه**»[1] ذكره أبو نعيم عن عبد الرحمن بن سمرة ﷺ، وأمته خير أمة أخرجت للناس لما كان نبيُّنا آخر الأنبياء وكانت آخر الأمم، صحَّ للوارث منهم أن يرث نبيَّه ويرث جميع الأنبياء، ولا يكون هذه الأمة غير هذه الأمة أبدًا، بل هم شهداء على سائر الأمم، وهي مرتبة النبوَّة، فافهم.

(**شهداء على أممهم**) قال تعالى في الأنبياء - عليهم السلام -: ﴿**وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ وَنزلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾ [النحل: 89].

وقيل فينا: ﴿**لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾ [البقرة: 143] فقد شُوركنا مع الأنبياء في هذا، فهذه مواطن تحشر مع الأنبياء - عليهم السلام -.

قال ﷺ في أسئلة الترمذي - قُدِّس سرُّه - من «الفتوحات»: إن اثني عشر نبيًا - صلوات الله عليهم - صاموا نهارهم، وقاموا ليلهم مع طول أعمارهم سؤالاً، ورغبةً ورجاءً أن يكونوا من أمته ﷺ وهم مع مَنْ أحبوه يوم القيامة، فافهم.

فإذا تفطَّنت لهذه الكلمات التي أوردناها، عَرفت قدر المحمدي وقدر ملته، أي: ما ترى أن أقرب النوافل مقامٌ لا يحصل إلا عن فروع الأعمار وهي النوافل للمحمَّدي،

---

(1) أخرجه الديلمي في الفردوس (130/4).

وهي تنتج المحبة الإلهيَّة، والمحبة تورث العبد أن يكون الحق عين قواه فهذا القرب له فرع، عن فرع عن فرع، وهو خلقٌ مكتسبٌ للمحمَّدي من هذه الفروع، وهو لخضر عليه السلام كان أصلاً من عناية إلهيَّة بالرحمة التي أتاه الله وعن تلك كان له هذا العلم، فإذا عرفت هذا التفصيل عرفت التفضيل والسبق لهذه الأمة المحمديَّة، والملة الأحمديَّة أي فرع فرعِ فرعهم أصلٌ لخضر عليه السلام، ومثل موسى عليه السلام يطلب منه ولم يصبر عليه.

قيل: إن إبراهيم الخوَّاص - قُدِّس سرُّه - لاقى خضر عليه السلام في البادية وطلب عليه السلام المرافقة في الطريق فأبى - قُدِّس سرُّه - فسئل - قُدِّس سرُّه - عن الآباء.

فقال إنه عليه السلام حلو الكلام: خفت أن يشغلني عما أنا فيه، فانظر منزلة المحمَّدي أين تميزت؟ وكيف تميزت؟ فلهذا كانوا يتمنون أن يكونوا محمَّديِّين، فافهم.

(فأول ما ألقاه) ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: 15] فكأن الروح هو الملقي إلى قلوب العباد من أمره، ويكون ذلك الروح عين الرسالة وعين الرسول، وعين المرسل، فارتفعت الوسائط إن كان عين الوحي هو عين الروح، وكان الملقي هو الله لا غيره، فهذا الروح ليس الملك، بل عين المالكة هي الرسالة، فافهم.

(المالك على العبد من ذلك) الملك هو القوة والشدة، ويطلق على القدرة والتصرُّف، وملك الدابة هاديها، والملكوت مبالغة؛ لكونها تشتمل على الظاهر والباطن، وهذه المعاني التي تضمُّها هذه الكلمات كلُّها صادقة في حق الحق تعالى فإنه سبحانه: ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: 58] ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: 12] والهادي يهدي من يشاء، والقادر على كل شيء، والفاعل ما يشاء وبيده ملكوت كل شيء، فيكون المراد من المالك مالك الملك.

قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 26] وملكه عبده، وهو ﷺ أشرف عباده.

قال تعالى في مقام الامتنان والاقتناء به والاعتناء عليه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: 1] فهو أشرف أسمائه، فكما أن المالك يملك عبده على كل حالٍ، وبعد الوفاة له الولاء، كذلك الحق مع عبده، فإنه تعالى يرثه ليورثه من يشاء من عباده، وكما أن المالك في ملكه يتصرف من يشاء، ويفعل ما يريد كذلك الحق سبحانه يفعل

فيه ما يشاء، ويحكم ما يريد ولا يسأل عمَّا يفعل في ملكه، وكما أن الملك لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، كذلك العبد مأمورٌ مملوكٌ لمالك، سيّد يقضي فيه ما يشاء ولا يمتنع عن تصرف مالكه أصلاً.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ [الرعد: 15] أي: جبرًا واختيارًا، فلا يملك لنفسه شيئًا بل لا يملك نفسه؛ لأن العبد وما له لمولاه فهو عبد الله لا عبد بالله، فافهم.

أو يكون المراد من المالك هو النبي ﷺ؛ لأنه الخليفة فله التصرُّف والتملُّك فيما استخلف عليه العبد الكامل، فالمراد من العبد نفسه رضا الله عنه، فألقاه ﷺ حيث حدَّه له ﷺ، فكان النصر الآدمي، وإنما قال على العبد إشارةً إلى أن الأمر جبري قهري مِنْ ولي الأمر ولا يمكن الخروج عن الطاعة، فإنه خروج عن الأصل وهو العبوديَّة والعبد مأجورٌ، وفي امتثال أمر مالكه معذورٌ.

قال ﷺ في «الفتوحات»: أنا العبد المحض الخالص لا أعرف للربوبيَّة طعمًا وإنه في كل زمانٍ واحدٍ، ومنحني الله ذلك هبةً، أنعمَ بها عليَّ لم أنلها بعمل، بل باختصاص إلهي أرجو من الله أن يمسك هذه العبودية علينا، ولا يحول بيننا وبينها إلى أن نلقاه بها﴿ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: 58] انتهى كلامه ﷺ.

ورد في الخبر: إنه لما أُلقي إبراهيم ﷺ في النار، قال: «اللهم إنَّك واحدٌ في السماء وأنا في الأرض واحدٌ عبدك»[1] ذكره أبو نعيم في «الحلية» عن أبي هريرة.

فكما أن لا إله إلا هو في أحديته، كذلك لا عبد إلا المصمت في عبوديته، فإن حاد العبد عن هذه المرتبة بوصفٍ ما رباني، وإن كان محمودٌ كصفة رحمانيَّة وأمثالها، فقد زال عن المرتبة التي خُلق لها، وحرم من الكمال والمعرفة بالله على قدر ما اتَّصف به من صفات الحق، فيقل أو يكثر، فافهم هكذا ذكره ﷺ في باب واحد وثمانين من «الفتوحات».

وقال ﷺ في «رسالة القدس»: فالقوي منَّا المتمكِّن هو الذي يخرق حجاب الجمعية الكبرى العامة بينه وبين ربِّه حتى يشاهد ألوهيَّة ربِّه دون ألوهية نفسه فيتعبَّد، فيعرف عبوديته، فيكون أقوى الأقوياء حينئذٍ، وأشهدها لرفعه ذلك الحجاب الأقوى،

(1) أخرجه أبو نعيم في الحلية (19/1).

وهو التحقق بالمرتبة الألوهيَّة، فيكون منزلته أعلى وقوَّته أعظم، وهناك يتميَّز فيتجارى مع العالم في الرفعة والانحطاط، وهنالك رأيت مبلغ العارفين، والعالمين وأما المدرك الذي أومأنا إليه، فبعيد أن تسمعه من أحدٍ، أو تراه في غير هذه الرسالة على درج هذا التحقيق لكن تجده مبدَّدًا في أشياء كثيرة يومئ إليه، ولا يوضح مثل هذا الإيضاح، فافهم فإن الحرف أثمر النتيجة، وكان بالمؤمنين رءوفٌ رحيمٌ، وأمَّا مَنْ أخرق هذا الحجاب، فهو في معرض عتاب.

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: 36] وختم عليه بالشقاء كفرعون، وكل من ادَّعى الربوبيَّة بحق، فافهم حجبهم الربانيَّة عن استيفاء الخدمة، فافهم.

وأما مَنْ خرق حجاب الجمع العام الذي مستودع عنده، فنفذ من ورائه إلى عبوديته، وعاين ألوهيَّة الحق المقدَّسة، ووحَّدها أولئك هم أهلُ التقوى وأهل المغفرة، فإذا عرفت هذا اعلم أن الشارح القيصري - قُدِّس سرُّه - قال: ولا يجوز أن يقال المراد بالمالك هو الحق، وبالعبد النبي ﷺ لما يلزم من إساءة الأدب، انتهى كلامه.

وإني أظن أن عين ما نقول في الصلاة وفي غيرها، وما أنكرها أحدٌ مِنْ السلف ولا الخلف، وهي: اللهم صلِّ على محمد عبدك ورسولك.

وقال ﷺ حديث أبي هريرة: «كلا إني عبد الله ورسوله... »[1] مع من تقدم في العبودية.

وقال تعالى عن عيسى عليه السلام وعلى نبيِّنا ﷺ: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: 30].

وقال تعالى في اعتنائه ﷺ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: 1].

ورد أن الله قد خيَّره إن شاء عبدًا، وإن شاء نبيًّا ملكًا، فأشار إليه جبريل عليه السلام أن تواضع، فجلس ﷺ جلوسه للأكل جلسة المستوقر، وقال: «إنما أنا عبدٌ آكل ما يأكل

---

(1) أخرجه مسلم (1407/3)، وابن حبان (75/11).

العبد، وأجلس كما يجلس العبد»[1] ذكره القاضي عيّاض في «الشفاء» بل هذا عند العالم هو الأدب.

فلهذا عرض شيخنا عبد الرحمن الجامي - قُدِّس سرُّه - عن هذا في شرحه مع أن مأخذه كله منه، بل قال في الخطبة: إنه اختصارٌ منه وانتخاب.

وقال: المالك هو الحق مطلقًا، أو باعتبار ظهوره في المظهر المحمَّدي ولكن، ثم قال - قُدِّس سرُّه -: أراد الشيخ ﷺ من العبد نفسه، فإذا كان الأمر هكذا كيف يصحُّ أن يكون المراد بالملك هو الحق مطلقًا؛ إذ الحكم ما نزلت إلا بواسطة المظهر المحمَّدي، فتأمَّل - جعلني الله وإيَّاكم عبدًا محضًا خالصًا لا شبهة ولا تشبيه -.

* * *

الفصُّ الآدمي
فصُّ حكمة إلهية في كلمة آدمية

قال الشيخ الأكبر - قُدِّسَ سِرُّه -:

«لمّا شاءَ الحقُّ سُبحانَهُ مِنْ حَيثُ أسمائِهِ الحُسْنى الّتي لا يَبْلُغُها الإحصاءُ أن يَرى أعيانَها وإنْ شِئتَ قُلت أن يَرى عَيْنَهُ في كونٍ جامعٍ يَحْصُر الأمْرَ كلَّه، لكَوْنه مُتَّصفًا بالوجودِ، ويَظهَرَ بِهِ سِرُّهُ إلَيه؛ فإنَّ رُؤيَةَ الشَّيءِ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ ما هِي مَثل رؤْيته نَفْسَهُ في أمرٍ آخرٍ يَكُونُ لَهُ كَالمِرآة؛ فإنّه تَظْهَرُ لَهُ نَفْسُهُ في صورةٍ يُعطيها المحلُّ المَنْظُورُ فيهِ مِمَا لَمْ يَكُنْ يظهَرُ لَهُ مِن غَيْرِ وُجُودِ هذا المَحَلِّ وَلا تَجلِّيهِ لَهُ».

قال الشارح: (فص حكمة إلهيَّة في كلمة آدميَّة كل ملتقى العظمين).

فص هكذا في اللغة، فهو عبارة عن ملتقى الحكم الإلهيَّة المشتملة على قوسي الأحديَّة والواحديَّة، فالملتقى هو الوحدة الصرفة التي هي القلب المحمَّدي وقلب كل نبي قبله، والحكمة هي العلم بوضع الأشياء موضعها، والإلهيَّة هي مرتبة جامعة لجميع الأشياء، والكلمة هي العين الفاضلة الجامعة الفاصلة المانعة كأعيان الأنبياء عليهم السلام، والآدميَّة هي المنسوبة إلى آدم حقيقة الحقائق الإنسانية، وأراد ﷺ بآدم وجود العالم الإنساني.

---

(1) أخرجه ابن عدي في الكامل (334/5).

قال في الفصوص:

(**لما شاء الحق من حيث أسمائه الحسنى التي لا يبلغها الإحصاء أن يرى أعيانها، وإن شئت قلت أن يرى عينه في كون جامع لما شاء الحق**): أي لما نظر الحق سبحانه في حضرة غيب الذات، نظر تنزه في الكمال الذاتي المطلق الذي لا يتوقف ثبوته له على أمرٍ خارجي؛ إذ ما ثم يخرج عنه، وبهذا صحَّ الفناء الذاتي، فشاهد تعالى بالنظر المذكور على النحو المذكور، كمالا أخر مستجبًا في غيب هويته غير الكمال الأول، وإذًا رقيقة متَّصلة بين الكمالين اتصال تحبب تام، فكان ذلك الكمال الثاني هو الكمال الأسمائي من حيث النسبة الشهوديّة كمال الجلاء واستجلاءٍ وعلمٍ.

إن هذا الكمال الأسمائي لا يظهر بدون الغير، فشاء ما شاء، وفعل ما أراد فالمشيئة عرش الذات، وإنما قلنا بالمشيئة؛ لأنه لو كان العالم أعني وجوده لذات الحق لا للمشيئة؛ لكان العالم مشاركًا للحق في الوجود، وليس كذلك فالمشيئة حكم لذات الحق أزلاً وهي تطلب تأخر وجود العالم عن وجود الحق، فيصح حدوث العالم وليس ذلك إلا بنسبة المشيئة وسبق العلم بوجوده، فكان وجود العالم مرجَّحًا على عدمه، والوجود والمرجح ساوق الوجود الذاتي الذي لا يتَّصف بالترجيح في مرتبة العلم، فافهم.

وإنما قال ﷺ: شاء، ولم يقل: أراد إشارةً إلى أن التوجُّه كان من مرتبة الذات من الفيض الأقدس، فإن المشيئة توجّه الذات نحو حقيقة الشيء كان ما كان، والإرادة تعلق بتخصيص تخصيص أحد الجائزين من طرفي الممكن أعني: وجوده في مقام الألوهيّة، فالمشيئة عين الذات وعرشها، وقد يكون متعلقها الإرادة إذا شاء أراد، والإرادة من الصفات الموجبة للاسم المريد المقتضي للوجود وهي عرش الألوهيّة، فالمشيئة أقدم وأعم من الإرادة، فقد تتعلق المشيئة بالإرادة التي تقتضي الوجود فتتعلق بالإيجاد، وقد تعلَّق بالمعدوم لبقائه على أصله، فمتعلق المشيئة العدم والوجود بخلاف الإرادة، فإن متعلِّقها الوجود، قال الله تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللهُ عَلَى ذَٰلِكَ قَدِيراً﴾ [النساء: 133].

وقال تعالى في الإرادة: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: 82]، فلمَّا كان المقام مقام الأقدم لا القديم، وتعلُّق التوجُّه بالأمر المعدوم، فقال ﷺ: لما شاء، فافهم.

وهنا مسألة في المشيئة في غرائب «الفتوحات» فأذكرها: فإنه ﷺ ما كتب شيئًا

ولا ذكره إلا للاستمتاع والانتفاع.

فاعلم أن العدم يحكم على صور الممكنات بالذهاب والرجوع إليه رجوعًا ذاتيًا، فالممكنات بين إعدام من العدم وإيجاد من الواجب الموجود، فحكم العدم يتوجه على ما وجد من الصور، وحكم الإيجاد من واجب الوجود، يعطي الوجود.

فلمَّا قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: 19] من باب الإشارة إلى غوامض الأسرار لأولي الأفهام وهو أنه عين كل منعوت بحكمٍ من وجودٍ، وعدمٍ ووجوبٍ وإمكانٍ ومحالٍ فما ثمة عين توصف بوصف، أو تحكم بحكم إلا وهو ذلك العين، وهذه مسألة تضمنها هذا المقام ولولا ذلك ما ذكرنا.

قال ﷺ في الباب الثالث والسبعين وثلاثمائة، وما تقدَّم لهذا ذكر في كتاب «الفتوحات» غير هذا الموضع، ولن تراها في غيره إلا في الكتب المنزَّلة من عند الله كالقرآن وغيره، ومنها أخذناها بما رزقنا الله من الفهم في كلامه، انتهى كلامه ﷺ.

وهنا مسألة أخرى أذكرها لك فإنها من الغرائب وهي أنه ﷺ ذكر في الوصل الخامس من الخزائن من «الفتوحات»: إنه لو كانت المشيئة تقتضي الاختيار لجوزنا رجوع الحق إلى نفسه، وليس الحق بمحلٍ للجواز لما يطلبه الجواز من الترجيح من المرجح، فمحالٌ على الله الاختيار في المشيئة؛ لأنه محال عليه الجواز؛ لأنه محالٌ أن يكون لله مرجح يرجح له أمرًا دون أمرٍ، فهذا المرجح لذاته، فالمشيئة أحديَّة التعلُّق فافهم.

فإذا قلنا: إن العلم تابع المعلوم ولا أثر للعلم في المعلوم، والمشيئة تابع للعلم، والإرادة تابع المشيئة، بل عين المشيئة في الخارج، فيظهر رائحة الخير.

قال تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ [ق: 29] ما شاء الله كان، والمحال ليس بمشاء، فكم يكن هذا القدير العزيز الحكيم، والحكمة تمنع الحكيم أن يفعل بغير حكمة وإلا لم يكن حكيمًا وهو حكيمٌ عالمٌ، فافهم الحق إنما قال ﷺ: الحق، ولم يقل الله؛ لأن المشيئة عرش الذات الحق من المقام الأقدم، والله اسم المرتبة من مقام القديم وهي الألوهيَّة، وعرشها الإرادة، قال تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: 107]

(من حيث أسمائه الحسنى) يعني: لما شاء من حيث الأسماء واقتضائها يرى أنوار أسمائه المصونة، وآثار أسراره المكنونة المخزونة في المظهر الجامع كما سيجيء لا من حيث الذات البحت، فإنها لا يضاف إليها شيء سوى الغنى عن العالمين، وكان

ذلك: أي ما شاء بحركة حبيَّة، وتنفس رحماني: «**كنتُ كنزًا مخفيًا، فأحببتُ أن أُعرف، فخلقت الخلق لأعرف فتعرَّفت بهم، فعرفوني**»[1].

أما الاسم في التحقيق، فهو التجلِّي المظهر لعين الممكن الثابتة في العلم، ولكن من حيث تعين ذلك التجلِّي المنبعث من الغيب المطلق في مرتبته، والتجلِّي من حيث تعيُّنه اسمٌ دالٌ على الغيب المطلق الغير المتعين، والتسمية عبارة عن نفس دلالة الاسم على الأصل الذي تعيَّن منه، ودلَّ عليه، فافهم، إنه أصلٌ عزيزٌ شريفٌ.

(**التي لا يبلغها الإحصاء**): أي باعتبار الجزيئات الظاهرة في كل آنٍ، فإنها غير متناهية دنيا أو آخرة أو فيهما، وأمَّا باعتبار الكليَّات والأمهات، فهي محصورة كما في الخبر الصحيح: «**ومَنْ أحصاها....** »[2] خبر من صادق عن إمكان الإحصاء.

وهكذا إذا نظرت إلى العالم مفصِّلاً بحقائقه، ونسبه وجدته محصور الحقائق والنسب، معلوم المنازل والرتب متناهي الأجناس بين متماثلٍ ومختلف؛ وذلك لأن الأسماء هكذا وهي صور الأسماء، فافهم.

(**أن يرى أعيانها**): أي أعيان الأسماء الخارجية من العلم إلى العين وهي تعيناتها، وأمَّا حقائقها التي عين كل فرد من أفراد العالم منها، فمظهر اسم من الأسماء، وعين من الأعيان، وأفرادها غير متناهية كالأسماء التي لا تحصى.

وأمَّا قول الشارح القيصري - رحمه الله -: إن المراد من الأعيانِ الأعيان الثابتة، فليس بظاهر لأمرين أحدهما: أن الأعيان الثابتة كانت مربية له تعالى قبل مشيئة الخلق بلا أمر.

والثاني: أنه ما مضى ذكر الأعيان الثابتة حتى يرجع الضمير إليه لا لفظًا، ولا حكمًا، بل الصحيح الظاهر أن الضمير إلى الأسماء، فافهم.

(**وإن شئت قلت**): أي إن شئت الترقي قلت: (**أن يرى عينه**): أي ذاته فالأولى رؤية الكامل، والثانية رؤية الأكمل (**في كون جامع**).

والجامع نعتٌ إلهي، وهو الذي لم يخرج عنه معلومٌ أصلاً لا حق، ولا خلق، ولا يمكن، ولا واجب، ولا محال، وهو حضرة لها الدوام والبقاء، ولا تعقل إلا جامعة وما لها أثر إلا الجمع، وما تفرق إلا ليجتمع.

---

(1) أورده العجلوني في كشف الخفا (173/2)، والمناوي في التعاريف (568/1).

(2) أخرجه البخاري (2691/6)، ومسلم (2063/4)، والنسائي (393/4)، والترمذي (530/5).

قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البيّنة: 4]: أي الكتاب الجمعي.

بينة الفرق على الجمع الشاهد على عين العيان، فذلك هو عين الجمع والوجود، ومقام السكوت والخمود، فافهم.

فالكون الجامع هو جامع الضدين: أي العدم والوجود، والجمع والفرق، والقدم والحدوث، والحقيّة والخلقية وهو الإنسان الكلِّي الكامل؛ لأنه برزخٌ بين الحق والعالم، فجمع طرفي الأضداد.

ومن هذا المقام قال الخراز - قُدِّس سرُّه -: عَرفت الله بجمع الأضداد، أي: ذوقًا ووجدانًا، يشير إلى التحقيق بالصورة، بل الكون الجامع هو عين الضدين.

كما ذكر الشيخ ﷺ عن شخص من أصحابه اسمه تاج الدين الأخلاطي أنه قال له حين سمع منه ﷺ هذه الرواية: أي رواية الخراز، فقال: هو عين الضدين معًا وقول الخراز يوهم أن ثمة عينًا ليست هي عين الضدين، لكنها تقبل الضدين معًا والأمر في نفسه ليس كذلك، بل هو عين الضدين؛ إذ لا عين زائدة، فالظاهر عين الباطن، والأول عين الأخر، وكذلك الرّاد فيما نحن فيه أن الكامل كون جامع هو عين المجموع لا عين جامع للمجموع؛ إذ لا عين زائدة قابلة جامعة، فافهم.

(**يحصر الأمر كله**): أي أمر الأسماء الإلهيّة كلها، أو الأمر الإلهي ذاتًا، واسمًا، وصفةً وإنابةً، والأولى باعتبار العبارة الأولى، وهي أن يرى أعيانها، والثانية باعتبار العبارة الثانية وهي أن يرى عينه لكونه متعلِّق بقوله يحصر: أي يحصر الأمر؛ (**لكونه**) الكون الجامع (**متَّصفًا**) بالوجود، وكل ما اتَّصف بالوجود دخل تحت حيطة الحصر، فانحصر الوجود الجامع كان ما كان، فافهم.

قال الشارح الشيخ عبد الرازق الكاشي - قُدِّس سرُّه -: إن قوله: (لكونه) علّة لرؤيته تعالى عينه في الكون الجامع.

وقال الشيخ عبد الرحمن الجامي: إن قوله: لكونه متعلِّق بقوله: يرى، على أنه علّة مصححة للرؤية، فإن الشيء ما لم يكن موجودًا لم يصح رؤيته، أطلق الكلام ولم يقيداه مع أن الشيخ الأكبر ﷺ ذكر في هذه المسألة: إن شرط الرؤية إمكان الوجود لا الوجود.

وصرَّح ﷺ بهذه المسألة في الباب السادس والأربعين من «**الفتوحات**»، وقال:

فإنَّا لا نعلل الرؤية للأشياء أن يكون المرئي مستعدًا لقبول تعلُّق الرؤية سواء كان معدومًا، أو موجودًا، أو كل ممكن مستعد للرؤيَة والممكنات، وإن لم يتناهى فهي مرئيَّة لله تعالى لا من حيث نسبة العلم، بل من نسبة أخرى تسمَّى رؤية كانت ما كانت، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى﴾ [العلق: 14] انتهى كلامه ﷺ.

فصــــل

اعلم أن العالم مدرك الله تعالى في حال عدمه، فهو معدوم العين، مدركٌ لله تعالى، يراه فيوجد لنفوذ الاقتدار الإلهي فيه، ففيض الوجود العيني إنما وقع على تلك المربيات لله في حال عدمها، وإنها رؤية حقيقيَّة لا شك فيها، ولا يتَّصف الحق بأنه لم يكن يراه، بل لم يزل يراه، فمَن قال بقدم العالم، قال بهذا الاعتبار، ومَن قال بحدوثه نظر إلى تغير العالم بعينه كنفسه في كلٍ إن لم يكن له هذا الحال قبله، ثم كان فقال بالحدوث.

ومن هنا تعلم أن علة رؤية الرأي الأشياء ليست كونها موجودة كما رأى العقلاء، فافهم، ذكره ﷺ في «الفتوحات».

(ويظهر به) من باب الأفعال منصوبًا بالعطف على قوله: إن يرى عينه: أي يظهر به: أي بعين العبد لا بالحق، فإنه من مقام قرب الفرائض، والثاني مقام قرب النوافل فالأول للعالمين، والثاني للعارفين.

(سرُّه): أي سرُّه وحقيقته، فإنه سرُّ الأسماء، (إليه) إلى الكون الجامع الذي هو العبد الظاهر بصورة السيِّد وهو سرٌ أن الله خلق آدم على صورته، فإن أراد أن يظهر ﷺ حكمة المشيئة.

وقال: إن رؤية الشيء نفسه بنفسه ما هي مثل رؤية نفسه في أمرٍ آخر، هذا دفع اعتراض متوهم، وهو أن الله تعالى أزلي الذات، وأزلي الصفات، فكان بصيرًا بذاته في الأزل ولا شيء معه، فكان يرى الأعيان في العدم في القدم.

فأجاب ﷺ بأن له تعالى الرؤية، ولكن رؤية الشيء بنفسه كرؤية الحق الأعيان الثابتة في نفسه وذاته في حضرة اتحاد العالم، والمعلوم، والعلم ليس كرؤية نفسه في أمرٍ آخر: أي الذي يرى نفسه بنفسه في نفسه ليس مثل ما يرى نفسه في أمرٍ آخر، وإنما قال ﷺ في أمر آخر، وما قال في الغير؛ لأنه لا غير عنده، ولكن كأنه غيره من بعض الوجوه والتجلِّي ما خرج عن الأقدس الذاتي.

فحاصل كلامه ﷺ: إن الرؤية قد تتعلّق بالمعدوم في الخارج، وقد تتعلق بالموجود فيه، فإذا تعلّقت بالموجود في الخارج تعلّقت بحسبه، فإنها تابعة للمرئي كالعلم فإنه تابعٌ للمعلوم مطلقًا حقًا أو خلقًا، فافهم.

(يكون له): أي أمرٍ آخر يكون لذلك الشيء في الرؤية كالمرآة المصقولة الصحيحة المقابلة، فإنه يرى فيها بحسبها لا بحسب الرائي، فإنه تظهر له: أي للشيء نفسه في صورة يعطيها: أي استعداد المرآة وهي المحل المنظور فيه وهو العالم، أو الإنسان الكامل، كالوجه يرى في المرآة بحسبها مختلفة كالاستطالة والاستدارة وغيرهما مع وحدة الوجه الناظر فيها، وما ذلك إلا لاختلاف الاستعدادات والقابليات في ذات المرآة.

(مما لم يكن يظهر له من غير وجود هذا المحل) الذي بمنزلة المرآة والمجلي، (ولا تجليه) عطف على (يظهر): أي لا يظهر له ولا تجلّى من غير هذا المحل، فلمّا كان الرائي هو الحق عبّر عن التقابل والتواجه بالتجلِّي لاستلزامه العلم، والشعور بالمتجلِّي كما هو المصطلح: أي ولا يظهر تجلّيه: أي تجلِّي الحق له: أي للمحل من غير هذا الوجه، وهو الوجود الخارجي.

ذكر الشيخ عين القضاة - قُدِّس سرُّه - في بعض تصانيفه عن شيخه الشيخ أحمد الغزالي: إن شيخه أبا بكر النسّاج قال في مناجاته: إلهي ما الحكمة في خلقي؟ فقال له: الحكمة في خلقك رؤيتي في مرآتك روحك، ومحبتي في قلبك، ذكره الشيخ عبد الرحمن الجامي - قُدِّس سرُّه - في «النفحات».

قال الشيخ الأكبر - قُدِّس سرُّه -: «وَقَد كانَ الحَقُّ أوجَدَ العالَم كُلَّهُ وُجودَ شَبحٍ مُستوٍ لا رُوحَ فِيهِ، فَكَانَ كَمِرآةٍ غَيرِ مَجلوّةٍ ومن شأن الحُكمِ الإلهي أنَّهُ ما سوَّى مَحَلاً إلاّ ولا بدَّ أن يَقْبَلَ رُوحاً إلهيًّا عُبِّرَ عَنْهُ بِالنَّفْخِ فيه، وَما هُوَ إلاّ حُصولُ الاستعدادِ مِنْ تلكَ الصُّورةِ المسوّاة لِقبولِ الفيض التَّجَلِّيّ الدائم الَّذي لَمْ يَزَلْ ولا يَزالُ، وما بَقِيَ ثَمَّةَ إلاّ قابِلٌ، والقابِلُ لا يَكُونُ إلاّ مِنْ فَيْضِهِ الأقدس»

(وقد كان) اعلم أن لفظ كان يعطي التقييد الزماني، وليس المراد هنا به ذلك ولا في الإلهيات، كما قال سبحانه: ﴿وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [الفرقان: 70]، وإنما المراد به: الكون الذي هو الوجود، فتحقيق كان أنه حرفٌ وجودي لا لفعل بطلب الزمان، ولهذا لم يرد ما يعتقدون علماء الرسوم، ولا كما قيل في قوله ﷺ: «كان الله ولا شيء

معه.. »[1]وهو الآن كما كان زيادة مدرجة في الحديث ممن لا يلاحظ معنى كان في الإلهيات، ولا سيما في أمثال هذه المواضع، فلهذا أسماها وأخواتها بعض النحاة حروفًا تعمل على الأفعال، وهي عند سيبويه حرفٌ وجودي، ولو تخيل فيه الزمان لوجود التصرف من كان يكون، فهو كائنٌ.

هذا الذي سقناه إنما هو على قول الولي إذا قال مثل هذا اللفظ، أو نطق به من مقام ولايته؛ لأن مقام المرتبة التي منها بعث رسولاً، فإن الرسول إذا قال مثل هذا اللفظ في المعرفة بالله من مقامه الاختصاصي فلا كلام لنا فيه، ولا ينبغي لنا أن نشرع فيما ليس بذوقٍ لنا.

وأمّا بلسان الولاية فنحن نترجم عنه بأعلى وجهٍ يقتضيه حالها هذا غاية الولي في ذلك، فإذا عرفت أنه ليس المراد من لفظ كان معنى القبليّة الزمانيّة، بل إنه أداة توصيل تدل على نسبة يحصل بها المقصود في نفس السامع.

فاعلم أنه ﷺ يُشير بقوله: قد كان إلى المساوقة لمن وقف عليها ألا يتقيَّد وجود الحق مع وجود العالم بين الإيجاد والمشيئة الأزليّة، وإن كانت العبارة توهم بالمسابقة، ولكن ما يقول بها عقل، ولا يقدر على إقامة البرهان على ما ادَّعاه، وإنما قلنا بالمساوقة؛ لأن الحقائق أعطت لمن وقف عليها أن لا يتقيَّد وجود الحق تعالى مع وجود العالم بقبلية، ولا معيّة ولا بعديّة.

فإن هذه كلها أحكام الزمان، وأحكام الزمان في الإلهيات قد رمت به الحقائق في وجه القائل بها: اللهم إلا أن يقول للتوصيل والتعميم؛ إذ ليس كل أحد أعطي الكشف على حقائق الأمور، فلا نقول من لسان الحقائق على ما هو الأمر عليه في نفسه أن العالم موجود بعد الحق، كما لا نقول أنه موجود قبل الحق، ولا مع الحق فإن الحق هو الذي أوجده من العدم هو فاعله وموجده ومخترعه، فلا قدم له مع الحق بجميع الوجوه من الوجوه، ولكن نقول الحق موجود بذاته، والعالم موجود به تعالى في حال لا قبل، ولا بعد، ولا مع؛ لأنها كلها علل، والمقام مقام التنزُّه عن الآفات والعلل، وأين أنت من أن الزمان مقدر حركة الفلك؟ ومتى كان الفلك؟ ومتى كان حركته حتى يعتبر مقدارها زمانًا؟ وهو من عالم الحق، وكلامنا من فوق عالم الأمر.

فإن قال متوهِّم، فمتى كان وجود العالم من وجود الحق؟ قلنا: السؤال عن متى

---

(1) سبق تخريجه.

سؤال عن زمان، وهو من عالم النسب، وعالم النسب من عالم الخلق، وهو مخلوقٌ لله تعالى، فلا نحكم على ما فوقه.

فانظر كيف تسأل، وإيّاك أن تحجبك آلات التوصيل، وأدوات التفصيل عن تحقيق المعاني الصرفة التي لا يحتملها، أو إلى الحروف والاصطلاحات، ولا تسعها قوالب الألفاظ، وظروف العبارات.

وهكذا الأمر هنا في نفس الأمر، فإنه قال ﷺ: لما شاء الحق تعالى، ثم قال: وكان الحق أُوجد، وهما يطلبان التقدُّم، والتأخُّر، أو المعيَّة، ومثل هذه وقع في التنزيل، وهو قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: 7].

حتى فهموا من هذا السوق قدمهما، فإذا تقرَّر هذا، فقد تبيَّن أن هذه الألفاظ الموهمة هي من الآيات المتشابهة الواجبة التأويل، ومن أدوات التعليم والتفهيم والتوصيل، وينبغي لكل عالم على حسب فهمه، وقوة نفوذه، وحدة بصيرته وبصره أن يفهم المعاني من وراء حجاب الألفاظ، ويغالط نفسه، ولا يغالط نفسه، فافهم.

فإن الأمر أنزه أن يعبَّر، وأعزّ من أن يُشار إليه ويفسَّر، وهنا سرّ آخر وهو من بعض محتملاته، وهو أنه ورد في الخبر الصحيح: «كان الله ولا شيء معه»[1] ثم أدرج فيه العارف، وقال: الآن كما كان: أي لم ترجع إليه من إيجاده العالم صفة لم يكن عليها أزلاً، بل كان موصوفًا لنفسه، ومسمًى قبل خلقه بالأسماء التي يدعونه بها، فلما أراد وجود العالم، فانفعلت الحقيقة الكليَّة المسمَّاة بالهباء التي هي بمنزلة طرح الجص للبناء؛ ليفتح فيها ما يشاء من الصور والأشكال، وهي أول موجود العالم، فتمددت تلك الحقيقة الجصيَّة المطروحة بمدد وممدد ذاتي واقتضاء أصلي أشباحًا وأشكالاً وصورًا بلا أرواح على الحسب التقدير السابق، وتفصيله القائم بنفس الموجد الحق سبحانه، فإن عِلم العَالم وقَدْرِه بعلمه، وعلمه تابع للمعلوم، والمعلوم عين ذاته؛ لأنه في مقام وحدة العلم والعالم والمعلوم، فافهم هذا المبهم، ولا تخف إن ما في الوجود غيره، وكل ما في الوجود مراتب التنزلات الإلهيَّة.

أما ترى إشارة قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: 40] إنه تعالى أثبت له نحو وجوده؛ ليسمع، ويطيع خطاب كن فيكون، فالقول

(1) سبق تخريجه.

قديم، وثبوت الشيء باعتبار عينه الثابتة أقدم، فافهم.

وتحقيق هذه المسألة للأعيان الثابتة في حال عدمها وجوديًا علمًا بالنسبة إلى الحق، وخاليًا بالنسبة إلى الإنسان الكامل المتحقق بالحق: أي بمرتبته، فيقول الحق تعالى له: كن فيكون لسامع هذا الأمر الإلهي وجودًا حسيًا: أي يتعلّق به الحس في الوجود الحسي كما يتعلّق به الخيال في الوجود الخيالي.

وهنا حارت الألباب هل الموصوف (بالوجود) المدرك بهذه الحواس هو العين الثابتة؟ أم لا؟ فافهم، ذكره ﷺ في حضرة الخالق من «الفتوحات».

وأيضًا أن للممكن حضريّة العدم، والوجود عارضٍ له، قال تعالى إشارة إلى هذه النكتة: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ [يس: 37]، فقدَّم رتبة الليل الذي هو صورة العدم على رتبة النهار الذي هو صورة الوجود، فَحُكم العدم يتوجَّه على ما وجد من الصور العلمئة في ثبوتها، وحكم الإيجاد من واجب الوجود ما كان ما يكون بحسب اقتضاء الأعيان، فالذي برز في الوجود من الصور هو علمه بالعالم، وعلمه بالعالم عين علمه بنفسه، وعلمه بنفسه كان أزلاً أبدًا لا عن عدمٍ نعلمه بالعالم كذلك، فالعالم كذلك، ولكن تقدَّم الحق تعالى؛ لأنه صفة له وصفات الحق قديمة بقِدَمِهِ، فافهم.

فإني أدرجت لك في هذا ملاك التصوف إن كنت صافيًا، وفهمت في ضمن هذا السوق أن المسابقة على وزن المساوقة، وحكمها سواء؛ وذلك لأن الأشياء لها مواطن وأحكامها بحسبها، وليست هذه المسألة من مدركات العقل.

ومن أغرب أحكام هذا العالم، وأعجبها أن العقل بحكمه ضرورة على العلة، أنها لا تكون معلولة لمن هي علة له، ولا المعلول سابق العلة، هذا حكم العقل السليم المستقيم لا خفاء فيه، بخلاف العلم التجلِّي فإنه يحكم أن العلة تكون معلولة لمن هي علةٌ له، والمعلول سابق العلة، وذلك لوحدة العين، وصاحب العقل يرمي هذا الذوق، وأرباب الوهم بالذوق منه فيه.

هذا هو جمع الأضداد الذي أشار إليه، وإلى تحققه وجهٌ من وجوه الحق بقوله: عرفت الله بجميع الأضداد، ثم تلا: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: 3].

ولا نقول بالاعتبارين؛ لأنه سائغٌ في كل الأمور، بل باعتبار واحدٍ من عينٍ واحدة، ونسبةٍ واحدة، هذا هو الذوق الذي ذاقه أرباب الكشف والشهود والمعتني الذي اعتنى بالقول بوحدة الوجود، هؤلاء القوم قد فارقوا المعقول، ولم تقيّدهم

العقول، هم الإلهيون حقًا المحقِّقون الذين حقَّقهم الله بما أشهدهم صدقًا، قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ [الأنفال: 17] فأثبت ونفى، وعزًا وكسا حسبنا الله وكفى.

فإذا فهمت ما قلناه إن شئت قلت بالإيجاد، والخلوة والتأثير، أو بالظهور والبروز والإبراز، والإظهار فلا مناقشة في الألفاظ.

قال تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: 68]، ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: 9].

(الحق تعالى) إنما قال: الحق، ولم يقل: الله إذ لا يُطلب الحق إلا بالحق، فالأعيان لولا ما تستحق أن تكون مظاهرًا لما ظهر الحق فيها.

(أوجد): أي أظهر العالم من العلم إلى العين.

اعلم أن الخلق خلقان، خلق تقدير وهو الذي يتقدَّم الأمر الإلهي كما قدَّمه في قوله تعالى: ﴿أَلاَ لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف: 54].

وخلقٌ آخر بمعنى الإيجاد، وهو الذي يساوق الأمر الإلهي بالتكوين بين خلقين خلق تقدير، وخلق إيجاد، فمتعلق الأمر خلق الإيجاد، ومتعلق خلق التقدير تعيين الوقت لإظهار عين الممكن، فيتوقف الأمر الإلهي عليه، وهكذا تعلق علم الباري بها أزلاً، فلا يوجدها إلا بصورة ما علمه في ثبوتها في حال الثبوت، فالأمر الإلهي يساوي الخلق الإيجادي في الوجود، فعين قوله: كن عين قبول الكائن للتكوين فكان فالفاء للتعقيب، وليس هنا تعقيب إلا في الرتبة، فافهم.

(العالم كله) العالم مأخوذ من العلامة، وهو عبارة عن كل ما سوى الله، والعوالم كثيرة جدًا، وأمهاتها هي الحضرات الوجوديّة، وأول العوالم المتعيّنة من العماء عالم المثال المطلق، ثم عالم الرسم، ثم عالم القلم واللوح، ثم عالم الطبيعة من حيث ظهور حكمها في الأجسام تحقيقي الهيولي والجسم الكل، ثم العرش، ثم هكذا على الترتيب إلى أن ينتهي الأمر إلى الإنسان في عالم الدنيا، ثم عالم البرزخ، ثم عالم الحشر، ثم عالم جهنم، ثم عالم الجنان، ثم عالم الكثيب، ثم حضرة أحديّة الجمع والوجود الذي هو ينبوع جميع العوالم كلها، هكذا كاشفه صاحب الكشف الأتم، فافهم والله الهادي والمفهم.

(وجود شيخ): أي كوجود جسم مسوى التسوية غير التعديل، لعل التسوية اعتبار

كمية الأجزاء والتعديل باعتبار كيفيّة الأعضاء؛ لتحصيل المزاج وهو كيفية مشابهة لا كما تبادر لبعض الأفهام، حتى أنه فسَّر التسوية بالتعديل.

أما ترى قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: 7، 8] جعل التعديل بعد التسوية لا عينها.

وقال ﷺ: إن الله ما جمع التسوية والتعديل والنفخ، وقوله: كن إلا في الإنسان، فجعل التعديل غير التسوية، بل جعل الخلق رباعيًا، فافهم.

(لا روح فيه) لفقد عين الإنسان الذي هو إنسان العين، ولم يكن شيئًا مذكورًا (فكان كمرآة غير مجلوّة): أي كان العالم كله أعلاه، وأسفله كمرآة مسودَّة غير مجلوَّة إشارة إلى الجسم الكل الظاهر من وجود الهيولي، والطبيعة الكل ظلمًا مسودًا يسمَّى شبحة سوداء لهذه الظلمة الطبيعية التي فيه؛ لأن الطبيعة ظل نفس الكل المعبّر عنها بلسان الشرع باللوح المحفوظ، فإذا احتدَّ إلى ذات الهيولي الكل يظهر من جوهر الهيولي، والطبيعة جسم مظلم سمِّي الجسم الكل، تتوجَّه إليه النفس بإنارته فتنتشر الحياة في جميع أعضائه، فتلك عبارة عن نفخ الروح في عالم الأجسام العلوي والسفلي، فافهم، فإن هذا ملَّخص كلام الشيخ الإمام ﷺ في «الفتوحات» وفي غيره.

قال ﷺ: غير مجلوَّة أراد بعدم جلائها احتجابها بذاتها، فلا ترى نفسها إلا بعين الاتحاد[1] لا بعين الامتياز، فأوجد آدم على صورة الكون، أي: جميع الكائنات غيبًا

---

(1) الاتحاد: يطلق ويراد به عدة معانٍ:

منها: تصيير الذاتين ذاتًا واحدة، وذلك محال، فإن كان فهو حالٌ، أما كونه محالاً فلأنه: إن كان عين كل واحد منهما موجودًا في حال الاتحاد، فهما اثنان لا واحد.

وإن عدمت العين الواحدة فقط، فليس ذلك باتحاد بين شيئين، بل عدم أحدهما، وإن عدما كان عدم الاتحاد أظهر، وأما أنه حال فلما يعرض لأصحاب المواجيد حالة الاستغراق في حضرة المحبوب، بحيث لا يجد غير محبوبه كما قد جرب ذلك مَنْ وَجَدَهُ، فقال: أنا من أهوى ومن أهوى أنا

ولا يخفى معنى انمحاق ظلية العبد عند انفهاق تجلي نور الرب على من شاهد محو ضوء أدنى ذبالة في صحو شمس الظهيرة، ويوم أوجها في الموضع المسمى بقبة أرْيَنْ، ويكفيه هذا مع علمه بأنه لا يصح أن يتعقل بين العبد والرب، كما بين ضوء الفتيلة ونور الشمس؛ لأنه إن كان النور الحق إنما هو الله وحده لم يصح في الظل أن يقاس به أصلاً.

ومنها: أن يراد بالاتحاد ظهور الواحد في مراتب العدد فيظهر الواحد كثيرًا.

ومنها: أن يراد بالاتحاد اتحاد جميع الموجودات في الوجود الواحد من غير أن يلزم من ذلك ما =

=

يظن من انقلاب الحقائق أو حلول شيء في شيء، بل المراد من ذلك أن كل ما سوى الحق سبحانه لا حقيقة له إلا بالحق سبحانه.

بمعنى أن وجود الحق الذي به صار كل موجودٍ موجودًا، إنما هو الوجود الواجبي. وهو غير منكر عند أرباب القلوب المنورة بنور وجهه المقدس، المشاهدين له في كل شيء بخلاف أرباب العقول المحجوبة بظلمة الأكوان، فإنهم لا يشاهدون وجهه تعالى في الأشياء، لوقوفهم معه، وإلى وحدة الوجود المشترك بين جميع الماهيات المتكثرة، هو إشارة الأكابر بقولهم: «الوحدة للوجود، والكثرة للعلم»، أي: للمعلومات فإنها هي التي كثّرت الوجود الواحد المظهر لها، والظاهر بها.

ومنها: أنهم يطلقون الاتحاد على رؤية الأشياء بعين التوحيد في مثل ما إذا شوهد بالبصر أن الكتابة أو غيرها من الأفاعيل، إنما هي عن عين حركة اليد مع أن الدليل أثبت أن الله خالقها، وإنها أثر قدرته سبحانه، فمتى حصل الوقوف على هذا القدر من المعرفة بطريق الكشف والشهود، لا بطريق الاستدلال بالمعقول؟ سمي ذلك في اصطلاح القوم اتحادًا.

ومنها: أن هذه الطائفة تعبر بالاتحاد عن حصول العبد في مقام الانفعال عنه بهمته، وتوجه إرادته، لا بمباشرة، ولا بمعالجة، وظهوره بصفة هي للحق حقيقة يسمى اتحادًا لظهور حق في صورة عبد، ولظهور عبد في صورة حق.

ومنها: أنهم يطلقون الاتحاد ويريدون به حالة من كان الحق سمعه وبصره ولسانه ويده، بحيث تعم جميع قواه وجوارحه هويته تعالى على المعنى الذي يليق به سبحانه. وذلك نتيجة التقرب إليه بالنوافل المشار إليه بقوله ﷺ حكاية عن ربه أنه يقول: «لا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه» الحديث، وهو الاتحاد المشار إليه بقول سيدي عمر:

وَجَاءَ حديثٌ في اتِّحَادِي ثَابتٌ ... روايتُه في النَّقْلِ غيرُ ضعيفَةِ
يُشيرُ بحُبِّ الحَقِّ بعدَ تَقَرُّبٍ ... إليهِ بنَفْلٍ أو أداءِ فَرِيضَةِ
ومَوْضِعُ تَنْبيهِ الإشارَةِ ظَاهِرٌ ... بكُنْتُ لَهُ سَمْعاً كَنُورِ الظَّهِيرَةِ

ومنها: أنهم يطلقون الاتحاد ويريدون به حالة العبد عند انمحاق خلقيته في نور حقِّيته، بحيث تزول عنه أحكام الكثرة، ويتحقق بالوحدة المشار إلى المتحقق بذلك بكونه مظهر أحدية الجمع، ومنصة التجلي الأول كما ستعرف ذلك، وهذا هو الاتحاد الذي أشار إليه سيدي «عمر» بقوله:

ولَمَّا شَعَبْتُ الصَّدْعَ والتَأَمَتْ فُطُو ... رُ شَمْلٍ بِفَرْقِ الوَصْفِ غيرَ مُشَتَّتِ
تَحَقَّقْتُ أنَا في الحَقِيقَةِ واحِدٌ ... وأثْبَتَ صَحْوُ الجَمْعِ مَحْوَ التَّشَتُّتِ

فقوله: ولما شعبت الصدع، يعني: ولما رجعت في سرب نازلاً، ثم صاعدًا بتقلباتي في أغوار الحب، وتنقلاتي في أطوار القرب، عارجًا عن جميع مراتب التفرقة، وعن رؤيتها إلى حضرة أحدية الجمع، بحيث لم تبق تفرقة بيني من حيث عيني وبيني من حيث حقيقة الحقائق، وبيني من حيث التجلي الأول، تحققت من أني وحضرة محبوبي عين ذات واحدة.

وأثبت صحو مقام أحدية الجمع عن سكر رؤية الغير. والغربة محو تشتت الغيرية بيني وبين

=

باطنًا وظاهرًا شهادة؛ ليقابل بغيبة الغيب، وبشهادته الشهادة ليتجلّى له بجميع الأسماء، فافهم.

(ومن شأن الحكم الإلهي) وهو قول: (كن) أنه ما سوى محلاً إلا ولا بُدّ أن يقبل روحًا، فما من صورةٍ محسوسة، أو خياليّة، أو معنويّة إلا ولها قبول التسوية والتعديل كما يليق بها وبمقامها، فإذا ساداها وعدلها، يسلمها إلى الرحمن، فوجّه عليها نفسه بالقبح، وروحه وهو روح الحق تعالى المشار إليه في قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: 29]، وهو عين هذا النفس بفتح الفاء، فقبلته الصورة على حسب استعدادها، وقابليتها.

وأمّا الروح، فيطلق علي معانٍ مختلفة عند أهل الطريق، فالروح الذي نحن بصدد بيانه بمعنى ما ينفخ فيه عند كمال التسوية، وهي نفس رحماني من عالم الأمر كما قال تعال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: 85]، وإنما قال ﷺ: ولا بد أن يقبل الروح، ولم يقل لا بد أن يفيض روحًا؛ لأن الأمر من القابل وما بقي إلا قابل، فافهم فإن الأمر قبولٌ واقتضاء كما سبق، ولا تنس الأسلوب والساق إلهيًا.

إنما قال ﷺ: إلهيًا؛ لأن الحكم صدر من مرتبة الألوهية كما قال ﷺ، ومن شأن الحكم الإلهي، فما ظهر ما ظهر إلا باعتبار اسمه النور، وهو عين الوجود.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [النور: 35].

(عبَّر عنه): أي عن القَبول بالنفخ فيه: أي في المحل، (وما هو): أي القبول إلا حصول الاستعداد، أراد ﷺ التوطئة لقوله: وما يطئ الأقابل، فنفى التأثيرات الخارجية، فقال أولاً، فكان الحق تعالى أوجد إشارة إلى مساوقة الإيجاد بالمشيئة الأزليّة، فصار أزليًا.

قال: ومن شأن الحكم الإلهي أن مسواه يقبل الروح، ثم قال: قبول الروح من

=

محبوبي، فكما أن ذاتي في المرتبة الأولى منفي عنها التفرقة والغيرية بينها وبين جميع نسبها وشؤونها، فكذلك حكم صورتي ومعناي، فكان ذاتي كل شيء على التحقيق.

ومنها: أنهم يطلقون الاتحاد على حال من كان مرآة للحق، وهو المظهر الذي لا يكسب الظاهر وصفًا قادحًا في نزاهته، كما تحقق ذلك في باب المرآة. وهذا هو المتحقق بالوصول إلى كمال القبول، إذ لا أكمل من قبوله.

حصول الاستعداد للفيض الأزلي الأبدي، فالأمر كله قبول وتأثر واستعداد.

فقال: وما بقي إلا قابل، والقابل لا يكون إلا من الفيض الأقدس المنزّه عن جعل الجاعل، فالقابل من الفيض الأقدس، والقبول من الأقدس لا بإفاضة المفيض من الخارج، والتسوية من مقتضى أحكام الأعيان باقتضاءِ ذاتي بلا جعل، فالقابل غير مجعول، والقبول غير مجعول، والتسوية غير مجعول، والنفخ الذي هو القبول غير مجعول، فافهم حتى تعرف الأمر إلى أن يؤول يزيد ﷺ من هذه المقدمات أن الأمر ما يخرج عنه بل منه فيه باقتضاءات ذاتيّة، وهو مذهب الشيخ ﷺ كما فهمناه من كتبه، وكتاب «الفتوحات» وغيرها، ويخالف هذا كلام مموّه لا يعتمد عليه حتى لا ينقص عليك أصل من الأصول، وأنت ما تدري من أين جاءك؟ فافهم، فـ ﷺ عبَّر عن حسن القبول، والمطاوعة بالنفخ، وإفاضة الروح.

قال الشارح الجامي ﷺ في قوله: عبَّر عنه: أي عن ذلك القبول وفيه مسامحة؛ لأن قبول الروح لازم النفخ لا عينه، فاللائق أن يجعل عبارة عن إفاضة الروح لا عن قبوله؛ لأن النفخ صفة النافخ لا المنفوخ فيه.

ثم جعل - قُدِّس سرُّه - ضمير وما هو أيضًا راجعًا إلى الروح، ثم قال: وفيه مسامحة أخرى، فإذا رددت الضمائر إلى القبول سومحت هذه المسامحات بلا إشكال ولا مسامحة، وهو أوفق على ظاهر عبارة الشيخ ﷺ حيث قال: عبَّر عنه بالنفخ، وما هو إلا حصول الاستعداد، فإن استعارة القبول بالحصول أنسب من الإفاضة، وغيرها، بل إن القبول هو الحصول فقط بلا أمرٍ زائد، وهذا الواقع في نفس الأمر، فافهم.

وأما قول الشارح - قُدِّس سرُّه -: فاللائق أن يجعل عبارة عن إفاضة الروح، فكيف يرجع الضمير إلى ما مضى ذكره، فإن لفظة الإفاضة ما مضى ذكرها لا لفظًا ولا معنى مع أن الإفاضة لفظ مؤنث، وضمير مذكر مع أن جل مراد الشيخ ﷺ في هذا المقام منع الإفاضة الخارجيَّة في هذا المبحث، ومَنْ تتبع كلام الشيخ علم ما قلنا.

وهذه من أمهات المسائل، فإن الأمر ليس من الخارج بل في نفسه بنفسه فيه المؤثر وفيه المتأثِّر وفيه الأثر، فافهم.

(من تلك الصورة) لا من أمرٍ خارج، (المسواة) الظاهرة بالتسوية، (لقبول الفيض) يتعلق بحصول: أي حصول الاستعداد؛ لقبول الفيض التجلِّي الدائم.

(الذي لم يزل): أي لا أول له من الأزل، (ولا يزال): أي إلى الأبد، (وما بقي)

بهذه التوطية التي مضت إن فهمتها.

(ثمة إلا قابل) وذلك لأن جميع مراتب التنزلات تنزلات ذاتيّة باقتضاءِ ذاتي، والقابل له مزاج الانفعال فأطفأ بالنفس وأشعل وأمات وأحيى، فهو الذي أضحك وأبكى، فينسب الفعل إليه وإن لم يعول عليه، وذلك لعدم الإنصاف في تحقيق الأوصاف، فهو المجهول المعلوم، وعليه صاحب الذوق يحوم، فافهم.

قال ﷺ في «الفتوحات»: فما ثم مستقل بالتأثير إلا القابل لأثر إن له أثر بالقبول في نفسه كما للقادر على التأثير فيه، ومن حيث إنَّ المنفعل يطلب أن يفعل فيه ما هو طالبٌ له، ففعل المطلوب منه ما طلبه هذا الممكن، فهو تأثير.

هذا عين ما قال ﷺ: إن الفاعل منفعل للفعل الممكن المنفعل في الواجب الفاعل، فإنه جعله أن يفعل ففعل، كما قال: أجيب دعوة الداعي إذا دعاني، فالدعاء أثر الإجابة، والإجابة التأثير.

وقال في الفص الزكريوي، وقد ذكرنا في «الفتوحات» أن الأثر لا يكون إلا للمعدوم، وسواء كان المتأثر موجود، أو معلومًا وهو غريب، ومسألة نادرة، وشيء مهيب بل هي درة يتيمة ما لها من أخت؛ وذلك لأن الأثر للأسماء، والأسماء ليست بأعيان موجودة، وإنما هي نسب، وهي مستند الآثار، وهو أمرٌ عدمي ذكره ﷺ في الباب الثالث والتسعين وثلاثمائة، فإن كنت خفت من هذه الكلمة السهلة الصعبة المنورة المظلمة، فأرجع، وأقول بلسان من يفري الحقائق، ويغزل الغزل الدقائق ويحاك الحلل الدقائق، بحيث لم يكن لأحد في مهمز، ولا لقائل في مغمز.

إنه قال ﷺ في الفص الإلياسي: إن الأمر ينقسم إلى مؤثر، ومؤثر فيه ولهما عبارتان، فالمؤثر بكل وجهٍ وعلى كل حالٍ، وفي كل حال هو الله، والمؤثر فيه بكل وجهٍ هو العالم، فإذا ورد عليك أمثال هذا الكلام من الشيخ ﷺ، فألحق كل شيء بأصله الذي يناسب مذهبه، فإن الوارد لا بد أن يكون فرعًا لأصله أبدًا.

وهذا المذهب: أي تأثير العدم في الوجود سائغ في الكلمات النبوَّات، وشائع بين الناس أما ترى أن النوافل أثر المحبة والدعاء أثر الإجابة، فافهم أن هذا مقرَّر من الشارع لا يمكن إنكاره إن كنت ذا فهمٍ، فافهم أني أديت الأمانة بالإشارة والعبارة بالصريح والكتابة، فلا تخف من القابلة، فإن الحق واحد في أسمائه وذاته، فما في الوجود من جميع الوجوه إلا واحد، فأين التأثير؟ وأين المؤثر؟ والمؤثر فيه؟ بل ما ظهر

العالم إلا بالنسب، ولا حصل القبول من العالم لما يقبله من العالم أيضًا إلا بالنسب، فالموجد بالنسب، والقابل بالنسب فالحكم لها، وقد علمت نسبة النسب وهي أمرٌ عدمي ما لها عين، فافهم.

ذكر الشيخ ﷺ هذه المسألة في الباب الثالث والتسعين وثلاثمائة من «الفتوحات» فافهم.

وذلك لأن (القابل): أي للتجلّيات الذاتية المنزهة عن الكثرة (**لا يكون إلا من فيضه الأقدس**) المنزَّه عن الجعل والتأثير؛ وذلك لأن المراتب كلها إلهية بالأصالة، وظهرت أحكامها باقتضاء ذاتي، فالأمر قبول ذاتي، وحصول استعدادي، وظهور، وبروزٍ له تعالى لذاته بذاته لا غير، وقبول هذا من لوازم قبول وحدة الوجود وفروعها، فافهم أن هذه المسألة من أساس معارف الشيخ ﷺ ولا تمل عنها، ولا تأخذ عنها بدلاً فإنها كشف أوسع الكشوف، وإن اعترضوا علينا بذكر هذه المسألة، فليس بأقل منعٍ جرى على طللٍ، وأن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم، والله المستعان، فافهم.

قال المصنف:

«فالأمرُ كُلُّهُ مِنْهُ ابتداؤهُ وانتِهاؤهُ: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود: آية 123] كما ابتدأ مِنْه، فَاقْتَضَى الأمرُ جلاءَ مرآة العالَم، فكان آدمُ عينَ جَلاءِ تلكَ المِرآة وَرُوحَ تلكَ الصُّورَةِ.

وكانت الملائكةُ مِنْ بَعْضِ قُوى تِلكَ الصُّورَةِ الّتي هِيَ صُورَةُ العالَمِ المُعبَّرِ عنه في اصطلاحِ القَوم بـ«الإنسانِ الكَبيرِ»»

قال الشارح:

(**فالأمر**): أي إذا كان الأمر على هذا المنوال، وما شيء من خارج بل منه فيه فقال ﷺ: أمر الوجود.

(**كله منه**): أي ظهور أم الوجود كله من القائل وليس في الوجود من يسع الحق سوى القابل، وما وسعه إلا بقبول الصورة، فهو مجلى الحق، والحق مجلي حقائق العالم بروحه الذي هو القابل.

قال ﷺ في الباب الأربعين وأربعمائة من «الفتوحات»: وعندي أن العالم هو عين العلة، والمعلول ما أقول أن الحق علة له كما يقول بعض النظّار، فإن ذلك غاية الجهل بالأمر، فإن القابل بذلك ما عرف الوجود ولا مَنْ هو الموجود، فلا بد أن ينتهي

الأمر إلى واجب الوجود الذي هو نهاية العلل، فافهم انتهى كلامه ﷺ.

وذلك لأن الذات المقدَّسة من حيث أحديَّتها ليست مصدر الشيء ولا متَّصفة بصفات، ولا مسمَّاة باسم البتة، هذا ذوق سيدي الإمامي ﷺ وعدم التصديق لهذه المسألة هو المصيبة الآزفة التي ليس لها من دون الله كاشفة، فافهم.

إني شرحت لهذا الذكر صدرًا، ورفعت لأعلام المعارف قدرًا، وإياك والمغالطة! فإن الناقد يصير وإليه الأمور تصير، فافهم.

(**فمنه ابتداؤه**) حقيقةً وروحًا، قال ﷺ: «**كنت نبيًا وآدم بين الماء والطين**»[1].

وقال ﷺ: «**أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فقال: يا رب ما أكتب؟ قال: أكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة مَنْ مات على غير هذا فليس مني**»[2] رواه عبادة بن الصامت.

وفي رواية: «**فأمره أن يكتب كل شيء يكون**»[3] رواه ابن عباس ﷺ هذا معنى كنت نبيًا وآدم بين الماء والطين؛ لأنه كان عين القلم الأعلى، والعقل الأول بعلمٍ وشعور، فافهم.

(**وانتهاؤه إليه**): أي إلى القابل، فإنه أول الخلق حقيقةً، وآخر الخلق صورةً وجسمًا، وأعطاه الله: أي هذا القابل التجلِّي الآخريَّة؛ لأنه آخر نوع ظهر فهو الأول من حيث الصورة الإلهيَّة، والآخر من حيث الصورة الكونيَّة.

(**وإليه يرجع الأمر كله**): أي الوجود كله ذاتًا واسمًا وصفةً؛ لأنه الظاهر بالصورتين.

قد علمنا بالخبر الصحيح أن أعمالنا ترد علينا، فإليه يرجع الأمر كله، فالعبد بحسب ما عمل فهو المقدس إن كان عمله التقديس والتنزيه والمعظم إن كان عمله التعظيم.

ولما لاحظ من أصل الكشف هذه الرجعة، قال: سبحاني، فأعاد التنزيه عليه لفظًا، كما عاد حكمًا، هكذا من مقام سبح اسم ربك.

---

(1) سبق تخريجه.

(2) أخرجه أبو داود (225/4)، والترمذي (457/4)، وأبو نعيم في الحلية (248/5)، وابن عدي في الكامل (269/6).

(3) أخرجه النسائي (288/6) بنحوه.

وكما قال الآخر في هذا: أنا الله، فإنه ما عبد إلا ما اعتقده، وما اعتقده إلا ما أوجده في نفسه، فما عبد إلا مجعولاً مثله، فظهر لك بهذا السرد إن كنت ذا لبٍ، أن أمر الوجود كله يرجع إلى العبد؛ لأنه ظاهر بالصورتين، وباطن عن الصورة الكونيّة بما عنده من الصورة الإلهيّة أن الله خلق آدم على صورته، فمن هنا يظهر رجوع الحق إلى العباد من نفسه مع غنائه عن العاملين، فلمّا خلقهم لا يمكن إلا الرجوع إليهم، والاشتغال بهم، سنفرغ لكم وهو عين الحفظ الإلهي، فإنه ما أوجده عبثًا، فيرجع إليه سبحانه أنه توابٌ: أي رجّاع.

يشير إلى مبالغة في الرجوع، وحكم عموم الرجوع الإلهي إلى العباد، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: 118] أقدم وأكثر رجوعًا إلى العباد من العباد إليه، فإن العبد تارة يرجع إلى نفسه، وتارة إليه سبحانه بخلاف الحق فما كانت له رجعة إلى نفسه إلا الرجعة الأولى المعبّر عن ذلك بابتداء العالم فما له رجوع إلا إلى عباده فافهم ذكره ﷺ في «الخزائن» ويحتمل أن يكون المراد بقوله ﷺ: (وإليه يرجع الأمر كله) إشارةً إلى أن هذا القائل يجمع كل حقيقة في العالم، كما أن كل اسمٍ إلهي يجمع كل اسمٍ إلهي: أي باعتبار الذات، فالثاني كشف إلى القاسم القسي صاحب «خلع النعلين» والأول كشف شيخنا.

قال ﷺ في «الفتوحات» في الباب السابع والتسعين والمائتين: بهذا الكشف انفردت من دون الجماعة الإلهيين، فلا أدري هل عثر عليه أحد غيره، وكوشف به أم لا من جنس المؤمنين من أهل الولاية، لا من جنس الأنبياء عليهم السلام أهل الاختصاص.

فرحم الله عبدًا بلغه أن أحدًا، قال بهذا عن نفسه وعن غيره، فيلحقها في كتابي هذا استشهادٌ إلى فيما أدّعيته، فإني لا أحب المخالفة، بل أحب الموافقة لا أنفرد بشيء دون أصحابي، والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل كما ابتدأ منه.

ورد في الخبر الصحيح أنه قال ﷺ: «أول ما خلق الله روح نبيّك يا جابر... »[1]

---

(1) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (18) عن معمر عن ابن المنكدر عن جابر قال: سألت رسول الله ﷺ عن أول شيء خلقه الله تعالى؟ فقال: هو نور نبيك يا جابر خلقه الله، ثم خلق فيه كل خير، وخلق بعده كل شيء.. الحديث، وانظر: الجزء المفقود من الجزء الأول من مصنف عبد الرزاق (ص63)، وشرف المصطفى للخركوشي (703/1)، وكشف الخفاء للعجلوني (311/1).

فيكون للآخر الأول الباطن الظاهر بجمع الأضداد، بل عين الأضداد ووجد مع الحق تعالى هؤلاء هو قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ [الأنفال: 17]، فختم بما بدأ فيا ليت شعري! فمن بينهما فالأمر كله منك وفيك.

قال الشيخ ﷺ في الفص الشيثي: فما في أحدٍ من الله شيء، وما في أحدٍ من سوى نفسه شيء، وإن تنوّعت عليه الصور انتهى كلامه ﷺ فما ثم أمر خارج عنك، فلا ترجو أن تعرف نفسك بسواك، فإنه ما ثم سوى، فأنت دليل عليك، ودليل عليه من عرف نفسه، فقد عرف ربّه، وما ثم سوى من هو دليلٌ عليك، فافهم.

قال ﷺ: إن الولاية لها الأوليّة، ثم تسحب وتثبت ولا تزول ولها حكم الأول، والآخر، والظاهر، والباطن ولا ينقطع، فإن الاسم الولي يحفظه، فافهم.

(فاقتضى الأمر) يعني: لما شاء الحق ما شاء، والعالم القابل كمرآة غير مجلوّة، فاقتضى أمر القابل اقتضاءً ذاتيا؛ وذلك لأنه لما أوجد الله تعالى القابل، واقتضت ذات القابل الاقتضاءات الذاتية بما ركبه الله عليه من الحقائق، والاستعدادات لقبول تلك الاقتضاءات، طلب بذاته العوارض الإمكانيّة التي تراها في القابل، فمن القابل من له قصد في ذلك الطلب، وهو تعين عارض، خاص كقائم يطلب القعود ممن يعقل، ومنهم مَنْ يطلبه من غير قصدٍ كالشجرة تطلب السقي لأجل الثمر التي خلقت لها، وطلبها لذلك ذاتي على مِقدارٍ معلومٍ، إن زاد على ذلك لحالٍ كان حكمه، حكم نقصانه في الهلاك، فلا بد من حافظ يحفظ عليه القدر المعلوم، وهو الخالق فهذه الاقتضاءات الذاتيّة من القابل منها، وما يقابل فيه صلاح، ومنها فساد بحسب الحكمة الواقعة الحاكمة عليها.

وأمّا الأحوال كالأحمر لمن قامت به الحمرة للمعاني، فإنها أحكامها وليس لها وجود ولا هي معدومة هذا حكمٌ لا يتّصف بالخلق؛ لأنه معقول لا عين له في الوجود العيني، بل المعاني كلها التي أوجبت أحكامها لمن اتّصف بها نسب عدميّة لا عين لها في الوجود، ولها الحكم والحال ولا عين لحكمها وحالها في الوجود، فصار الحاكم والمحكوم به في الحقيقة أمورًا عدميّة مع أنها معقولة فعل الحقيقة لا أثر الموجود في موجود، وإنما الأثر للمعدوم في المعدوم، وتأثير العدم إنما يظهر بالبديهة في أحكام المراتب، فإن الآثار للمراتب لا للأعيان كمرتبة السلطنة في النوع الإنساني مثلاً يحكم بما يريد لرتبة السلطنة، وليس للسلطنة وجود عين، وكل غافل يرى، ويعلم أن المتحكِّم

في المملكة إنما هي المراتب لا عين صاحب الرتبة، إذ لو كان ذلك لكونه إنسانًا، فلا فرق بينه وبين كل إنسان، بل إذا عزل عن المرتبة، فلا له الحكم، ولا التحكم كما كان في السلطنة، والمرتبة أمرٌ اعتباري لا عين لها في الوجود، فلا أثر لموجود في موجود، إنما الأثر لمعدوم في معدوم أو لا أثر، ولا تأثير أصلاً بل اقتضاءات ذاتيّة ظهرت من البطون إلى الظهور، ومن الغيب إلى الشهادة هذا مخ التصوف، والمعارف للإمامي ﷺ الذي هو المقتدي والمعتني.

(جلاء مرآة العالم) لأن المرآة المجلوّة هي التي ترى صورة الرأي دون غيرها مما لا صقاء له فيه، ولا صفاء.

(فكان آدم) مشتق من الأديم، وهو الجلد الظاهر من الحيوان، وإنما سمِّي آدم لحكم ظاهرة عليه، فإنه ما عرف منه إلا ظاهره، كما أن الحق ما عرف منه إلا الاسم الظاهر وهو المرتبة الإلهيّة والذات مجهولة، وكذلك آدم كان مجهول الذات والحقيقة عند العالم.

فلهذا حكمت الملائكة عليه الفساد: أي بالإفساد بظاهر نشأته لمّا رأوها قامت من طبائع مختلفة متنافرة، عقلت أن هذا الإفساد، والسفك لا يقعان إلا ممن له حكم، ولا حكم إلا لمن له التقدم، والرئاسة، وإنفاذ الأوامر، فافهم. والمراد من آدم: وجود العالم الإنساني بأسره، كما صرَّح ﷺ في نقش الفصوص.

(عين جلاء تلك المرآة) فالمرآة حضرة الإمكان، والحق الرائي فيها، وصورة الكامل فيها وجلاؤها، وهي عينه لا غيره، فافهم؛ لأن كل ما يتصور التصور فهو عينه، ولا بد للعالم أن يكون متصورًا للحق على ما يظهر عينه، فخرج آدم على الصورة، فظهر فيها كل شيء كظهور الصور في المرائي، فما هو عين الرأي لما فيها من حكم المجلي، ولا عين الجلي لما فيها فما يخالف حكم المجلي وما ثم أمر ثالث من خارج يقع عليه الإدراك، وقد وقع.

فما هو هذا المدرك؟ ومَنْ الخلق؟ ومَنْ الظاهر؟ ومَنْ المظهر؟ فإن كان النسب فهي معدومة إلا أن علة الرؤية استعداد المرئي بقبول الإدراك فيرى المعدوم، سلَّمنا أن المعدوم يرى فَمَنْ الرائي؟ فإن كان نسبة فكما في المرئي بالشرح، وإن لم يكن نسبة وكان وجوديًا، فكان هو الرائي وهو المرئي أن الله نراه ويرانا، فافهم، فإن الأمر بينهم فلا تهتم.

(وروح تلك الصورة)، فكمال العالم بالإنسان ككمال المرآة بالصقالة وكمال الجسد بالروح، فالإنسان روح منفوخ في جسم العالم، وهو العين المقصود لله تعالى وهو المحل لظهور الأسماء الإلهيّة والكونيّة، وهو مرآة جامعة لصور حقائق العالم كله من ملكٍ، وفلكٍ، وروحٍ، وجسمٍ، وطبيعةٍ، وجمادٍ، ونباتٍ، وحيوانٍ إلى ما خصّ به من علم الأسماء الإلهيّة مع صغر حجمه وجرمه، بل العالم كله تفصيل آدم، وآدم هو الكتاب الجامع، فالإنسان روح العالم، والعالم جسده، فبالمجموع يكون العالم كله، فإذا نظرت إلى العالم بلا هذا الإنسان وجدته كالجسم المستوي بغير روحٍ.

قال ﷺ: كما أن الإنسان جسمٌ صغيرٌ، كذلك ملكٌ حقيرٌ من جهة الحدوث وصحَّ له التألُّه؛ لأنه خليفته في العالم، والعالم مسخَّر له مألوه كما أن الإنسان مألوه لله تعالى، وهو روح العالم.

اعلم أن الذاتي الحق لما ظهرت أعيان الممكنات في مرآة ذاته أدركها في نفسه بنوره، فلحقه المرئي بالرأي؛ حيث أدركه في ذاته، وهو واحدٌ في الوجود؛ لأن الممكنات المربية في هذه الحالة منعوتة بالعدم، فلا وجود لها مع ظهورها للرأي، كما ذكرناه.

فسمّي هذا الظهور توحيد إلحاق: أي ألحق الممكن بالواجب، فأوجب للممكن ما هو عليه الواجب لنفسه من النسب الأسمائيّة حتى الوجوب، ولا نقول بالغير؛ لأنه قلة الإيجاد على الإطلاق ما عدا نفسه تعالى، فالخيال موجد لله تعالى في حضرة الوجود والحق موجود للخيال في حضرة الانفعال الممثل، فإذا ثبت إلحاق الخيال في قوة الإيجاد بالحق ما عدا نفسه فهو على الحقيقة المعبر عنه بالإنسان الكامل الذي هو جلاء المرآة وروح تلك الصورة، فإنه ما ثَّم على الصورة الحقيقية مثله فإنه يوجد في نفسه كل معلوم ما عدا نفسه، ويسمى هذا توحيد الوصلة والاتصال وتوحيد الإلحاق، فإن توحيد الخيال مع كونه من الموجودات الحادثة صعب التصور إلا هذا الاختصاص الإلهي الذي أعطته حقيقته، فما قبل شيء من المحدثات صورة الحق سوى الخيال، فإذا تحققت ما قلناه علمت أنه في غاية الوصلة.

ومن هذا الذوق قال العارف:

رَقَّ الزُّجَاجُ وَرَقَّت الخمرُ ... فَتَشَاكَلا فَتَشَابَه الأمرُ

فَكأنما خَمرٌ ولا قَدحٌ ... وكأنما قَدحٌ وَلا خَمرُ

فهذه أنوار مندرجة بعضها في بعض مثل اندراج المثل في المثل، واندراج الظل في الظل، والنور في النور، فافهم.

(فكانت الملائكة) فاتخذ الله الملائكة رسلاً إليه، ولهذا سماهم ملائكة: أي رسلاً وهو من المقلوب، وأصله مألكه، والألوه هي الرسالة والمالكة الرسالة، ذكره ﷺ في «الفتوحات».

ثم اعلم أن الأرواح على ثلاثة أصناف: مهيمون لما أوجدهم الله تعالى، وتجلى لهم بالاسم الجميل.

فهيَّمهم فلا يعرفون نفوسهم ولا من هاموا فيه، وهم الذين أوجدهم من أبنية السماء، وهم أعلى الأرواح العُلويَّة.

قال تعالى لإبليس: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: 75]، وليسوا بملائكة من حيث الاسم، فإنها موضوعة لرسالة خاصة، وما هم برسلٍ.

قال ﷺ في الباب التاسع والأربعين وثلاثمائة من «الفتوحات»: إن كل روح مما هو تحت العقل وحيطته صاحب الكلمة هو ملكٌ، وما فوقه هو روحٌ لا ملك.

والصنف الثاني: الملائكة المسخَّرة، ورأسهم القلم الأعلى وهو العقل الأول سلطان عالم التدوين والتسطير، وكان وجودهم مع المهيمة، ولكن حجبهم الله تعالى عن التجلِّي الذي يهيمهم لما أراد الله تعالى أن يعطيهم رتبة الإمامة في العالم ويستغفرون للذين آمنوا.

والصنف الثالث: ملائكة التدبير وهي الأرواح المدبِّرة للأجسام كلها الطبيعية النوريَّة، والهَبائيَّة والفلكيَّة والعنصريَّة، فالمراد من الملائكة في المتن هذان الصنفان لا الأول.

(من بعض قوى تلك الصورة التي هي صورة العالم المعبر عنه في اصطلاح القوم) هم عقلاء الصوفية وحكماؤهم: (بالإنسان الكبير).

قال المصنف:

«فَكانَتِ الملائكةُ لَهُ كالقُوى الرُّوحانيَّةِ والحِسّيَّةِ الّتي هي النَّشأةُ الإنسانيَّةُ، وكُلُّ قوةٍ مَحجُوبَةٌ بِنفْسِها لا تَرى أفْضَلَ مِنْ ذاتِها، وَأنَّ فِيها فيما تَزْعَمُ، الأهْلِيَّةَ لِكُلِّ مَنْصِبٍ عالٍ ومَرتَبَةٍ رَفِيعَةٍ عنْدَ اللهِ لِما عِنْدَها مِنَ الجَمْعيَّةِ الإلهيَّةِ، بَينَ ما يَرجِعُ مِنْ ذلك إلى الجَنابِ الإلهيّ، وإلى جانب حَقيقَةِ الحقائق، وفي النشأةِ الحامِلَةِ لهذهِ الأوصافِ إلى ما

تَقْتَضيهِ الطَّبيعَةُ الكُلِّيَةُ الّتي حَصَرتْ قَوابِلَ العالَم كُلِّهِ أعلاهُ وأسفَله».

قال الشارح ﷺ:

ولم يبقَ في الإمكان معنى إلا وقد ظهر في العالم بأتم ما يكون.

(فكانت الملائكة): أي المسخَّرة للإنسان الكبير **(كالقوى الروحانية)**.

والملائكة المدبِّرة كالقوى النفسانيّة، والحسيّة **(التي في النشأة الإنسانية)**: أي النشأة الإنسانية الصغرى، فإنها مقابلة للإنسانية الكبرى كل ما فيه نظيره فيه. **(وكل قوة منها)**: أي من الملائكة.

(محجوبة بنفسها) معجبة بها؛ لتقديسها الذاتي، وهم الذين يسبحون الليل والنهار، ولا يفترون: أي ما ينزِّهون ذواتهم عن التقديس العرضي بمشهود ذاته وهذا مقام ما ناله أحدٌ من البشر إلا من استصحب حقيقته من حين خلقت شهود الاسم الإلهي الذي هي عنه تكونت، فهي مقدَّسة الذات عن الغفلات، فلم تشغله نشأته النوريّة الطبيعية عن تسبيح خالقها على الدوام مع كونهم يختصمون من حيث النشأة؛ وبهذا القدر تبيَّن فضل الملائكة على الإنسان في العبادة؛ لكونها لا تفتر، فإن نشأتها تعطي ألا تفتر؛ لأن تقديسها ذاتي، وشهودها دائم.

قال ﷺ: ما عندي خبر من جانب الحق أنه هل نال هذا المقام أحدٌ من البشر أم لا؟ إن نال أحدٌ قال محمد ﷺ: **«كنت نبيًا وآدم بين الماء والطين»**[1].

فاستصحبه إلى أن وجد اسمه الشريف، وفي حياته كان يقول: **«تنام عيناي ولا ينام قلبي»**[2].

فكذلك موته ﷺ إنما مات حسًا لا حقيقةً، فاستصحبه حياة المشاهدة من الأزل إلى الأبد.

وأما قول ذي النون حين سئل عن قوله: بلى في أخذ الميثاق فقال: إلا في أذني يشير إلى علمه بتلك الحالة، فإن كان عن استصحاب، فلم أنكره ولم أشهد له؛ لأن الله تعالى لم يعلمني بذلك، انتهى كلامه.

وأظن والله أعلم أن خاتم الولاية له في هذا المقام قدمٌ راسخ بحسن الاتباع، وله أسوة حسنة في خاتم النبوة، مفهوم أنه خير وارث، فافهم.

(1) سبق تخريجه.

(2) [illegible] (3548)، وأحمد في مسنده [illegible]

(لا ترى أفضل من ذاتها) فإن أخذ الأفضل من فضل الله تعالى بقوله: هذا أفضل عندي فلا تحجبن عليه تعالى بفضل من يشاء من عباده، وإن أخذ التفضيل من حيث الكمال، فيجادلهم بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: 4] وهو تعديله على الصورة التي خصَّه بها، وهي التي أعطته هذه المنزلة، فكان أحسن تقويم في حقِّه لا عن مفاضلة مثل قوله: الله أكبر لا عن مفاضلة، بل الحسن المطلق للعبد الكامل كالكبرياء المطلق الذي للحق سبحانه، فهو أحسن تقويم لا عن كذا فافهم.

وإن قال تعالى فيهم: ﴿العَالِينَ﴾ [ص: 75]، قال فينا: ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾ [محمد: 35]، ورد في الحديث: «المؤمن أكرم على الله من الملائكة المقرَّبين[1]».

رواه ابن النجار عن حكامة عن أبيها عن أخيه مالك بن دينار عن أنس ﷺ، رواه في «جمع الجوامع».

وفي هذا التفضيل، أي: تفضيل الملك على البشر، أو بالعكس، اختلف آراء الناس، واضطربت أفكارهم، وكثر الخلاف والعويل بما لا طائل تحته، فأذكر هنا ما يغني للمستبصر الرشيد.

اعلم - أيَّدك الله تعالى بروحٍ منه - أن الملك جزء من الإنسان الكامل كما سيجيء بيانه، فالجزء من الكل ولا يقول العاقل: إن الجزء أشرف من الكل، فإن كان ولا بد يقال: إن أشرف أجزائه الجزء الفلاني، فإذا علمت هذا علمت مقام الملك من الإنسان، فلم يخرج عنك، وأصبت الأمر على ما هو عليه وأنصفت، وعرفت من أين أتى على مَنْ أتى عليه في باب المفاضلة.

قال ﷺ في «رسالة القدس»: لا تقل إنك أرفع من الملك، ولا أحط منه، فإنك في طورٍ آخر مفردًا يخصُّك، وذلك أن الله تعالى قد وهبك سر الجمعيَّة العامة الكبريائيَّة وهو الذي حجبك عن عبوديتك، وبه ترأست حين قيل للملائكة: بل عبادٌ مكرمون، فافهم ما ترأسوا قط لعدم سرِّ الجمعية العامة الكبريائية من حقائقهم فكانوا عبيدًا.

وبهذا صحَّ لك مقام الخلاف على العامة، وبه طلبت التقدم والرئاسة، واحتجبت

---

(1) أخرجه الحكيم الترمذي (100/1)، وذكره الديلمي في الفردوس (183/4).

عن الله، فلست من نمط العالم في شيء، ولا تتميز معهم البتة، فإنك انفصلت عنهم بسر الألوهية، فإذا تميز الإنسان مع العالم بسر الجمعية الكبريائية، فلا يقال من أشرف الملك، أو الإنسان، فإن التفاضل ما يقع إلا من جنسٍ واحدٍ والإنسان قد خرج عن أن يكون جنس العالم، بل يزاحم الألوهيَّة لوقوفه على الأسماء كلها من جهة سرِّ الجمع العام الكبريائي المثبوت فيه.

وذكر ﷺ في «الفتوحات» في فضل الغني والفقير: إن الغنى صفة إلهيَّة، والفقر صفة العبد، ولا يُقال أن هذا أفضل من هذا العدم المناسبة بينها، وهكذا الأمر هنا فافهم.

وأيضًا لما كان الوجود كله فاضلاً مفضولاً لا أدري ذلك المساواة، وإن يقال لا فاضل ولا مفضول، بل وجود شريف كامل تام لا نقص فيه، كما قال الإمام الغزالي رحمه الله: إنه أبدع ما يكون، وذلك لأنه ليس في المخلوقات بأسرها على اختلاف ضروبها أمرٌ إلا هو مستندٌ إلى حقيقة ونسبة إلهيَّة ولا تفاضل في الله؛ لأن الأمر لا يفضل نفسه، فلا مفاضلة بين العالم في هذا الباب هو الذي يرجع إليه الأمر من قبل، ومن بعد، وعليه عول أهل الجمع والوجود وبهذا سمُّوا أهل الجمع؛ لأنهم أهل عين واحدة.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ﴾ [القمر: 50] فافهم، فإذا فهمت فهم ذوق، ظهر لك ما قلته أنه بحث لا طائل تحته، فافهم ثم تنزل.

ونقول: إن للشيخ ﷺ نصوصًا في «الفتوحات» وفي غيرها، بعضها يفهم بتفضيل البشر إلى الملك، وبعضها يوهم تفضيل الملك على البشر، والجامع بين التفضيلين ما نصَّ ﷺ في «الفتوحات» في وصل في فصل عزر الشهر من كتاب «الصوم»: إن الإنسان أكمل نشأة والملك أكمل منزلة، كذا قال ﷺ في مشهد واقعة أبصرته فيه، انتهى كلامه.

وقال ﷺ في «الفتوحات»: إن الجماعة من أصحابنا غلطوا في هذا التفضيل فإنهم فضَّلوا على الإطلاق، ولم يقيِّدوا لعدم الكشف والاعتناء بالنظر والفكر، انتهى كلامه ﷺ فافهم، فليت لك قلبًا ما ورائه قلبًا وبيانًا.

(وأن فيها): أي ترى أن فيها، (فيما تزعم) واعتذر لهم؛ حيث جعلهم ﷺ بمنزلة المجتهدين الذين لهم أجر الاجتهاد، والأهليَّة أهلية الشيء لأمرٍ إنما هو نعتٌ ذاتي فلا

يقع فيه مشاركة لغيره إلا بنسبة بعيدة، كما يقال أهل النار وأهل الجنة وهم الذين لا يخرجون منها رأسًا؛ لأنهم أهلٌ لها، فافهم.

(لكل منصب عالٍ): أي حمل الأمانة والإمامة (ومنزلة رفيعة): أي الخلافة، إنما قلنا الخلافة؛ لأن الملائكة حين قالت ما قالت.

قال الله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ [البقرة: 33]: أي من التخريج والتزكية وما كنتم تكتمون من طلب الخلافة، يعني: أنا أعلم بمطلوبكم منكم، وحملتهم عليهم السلام على هذه الغيرة التي فطروا عليها عند الله: أي عند الاسم الجمع لجميع الأسماء مع أنه قال تعالى عنهم: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ [الصافات: 164] فأين المقيَّد عن المطلق، فافهم.

(لما عندهم) يريد ﷺ أن يعرف بوجه الاشتباه الذي حصل لها، وهو أنها زعمت أن عندها الجمعيَّة التي هي علة الأهليَّة لما عندها (من الجمعية الإلهية) وهي أحديَّة جمع الأسماء والصفات الوجوبيَّة والحقائق المظهرية الإمكانية، والحقيقة الثابتة الطبيعيَّة الإنسانية الدائرة بين ما يرجع كذا ويرجع كذا بين ما يرجع من ذلك الجناب الإلهي وجانب حقيقة الحقائق وفي النشأة الطبيعية، والعنصريَّة الحاملة لهذه الأوصاف.

فالحاصل أن الجمعية الإلهية دائرة بين ما يرجع إلى الأسماء الإلهية المؤثِّرة الفعَّالة وبين ما يرجع إلى حقيقة الحقائق الكليَّة المنفعلة المؤثرة، وبين ما يرجع إلى ما يقتضيه الطبيعة الكل في النشأة الطبيعيَّة والعنصريَّة الحاملة لهذه الأوصاف والحقائق الإمكانيَّة الراجعة إلى الجناب الإلهي، وفي أصل العبارة تقديم وتأخير وهذا تقديره وتقريره، فافهم.

فهذه ثلاث حضرات حضرة الحقيقة المطلقة الفعالة، وهي حضرة الوجوب، وحضرة الحقيقة المقيَّدة المنفعلة القابلة للوجود من الواجب وهي حضرة الإمكان، وحضرة أحديَّة جامعة بين الإطلاق والتقييد والفعل والانفعال والتأثير والتأثُّر، فهي مطلقة من وجهٍ، ومقيَّدة من وجهٍ ومؤثِّرة من وجهٍ ومتأثِّرة من وجهٍ.

وهذه النشأة أحديَّة جمع الحقيقتين، ولها مرتبة الأوليَّة الكبرى، والآخريَّة العظمى وهي النشأة الطبيعية الجامعة لجميع النشآت.

(إلى ما تقتضيه الطبيعة الكل) وهي عبارة عن أمور أربعة إذا تألَّفت تألُّفًا خاصًا

حدث عنه ما يناسب تلك الألفة بتقدير العزيز العليم.

قوله ﷺ: الكل بدل أو عطف بيان، وفي بعض النسخ بدل الكل الكليّة.

قال الشيخ ﷺ في الباب الثامن والتسعين من «الفتوحات»: إن الطبيعة مرتبّة معقولة لا عين لها في الوجود، فلكل معدوم العين ظاهر الحكم والأثر، فهو على الحقيقة المعبَّر عنه بالغيب، فإنه مَنْ غاب في عينه فهو الغيب، والطبيعة غائبة العين عن الوجود وعن الثبوت، فليس لها عين فيهما فهي العالم الغيب المحقق وهي معلومة لنا، كما أن المحال معلومٌ غير أن الطبيعة كانت مثل المحال في رفع الثبوت والوجود عنها، فلها أثر وتظهر عنها صور، والمحال ليس كذلك، ومفاتح هذا الغيب هي الأسماء الإلهيَّة التي لا يعلمها إلا هو، والأسماء الإلهية نِسب غيبيَّة لا عين لها، والغيب لا يكون مفتاحه إلا الغيب، فبالمشيئة ظهر أثر الطبيعة وهي غيب، والمشيئة نسبة إلهيَّة لا عين لها فالمفتاح غيب، فهذا المعلوم هو القابل الذي قبل جمع الأضداد والتأثير والتأثُّر بمقتضى ذاتي وهو الغيب، وهو النور الساطع العام الذي به ظهر الوجود وما له في عينه نور ولا ظهور كالضوء فإنه به ظهر كل شيء وليس له عين ظاهرة في الظاهر ممتازة في المرئيات فافهم، فإنه من أم الكتاب وعليه الاعتماد في جميع الفصول والأبواب؛ بل هو فصل الخطاب.

قال ﷺ في الباب التاسع والثمانين ومائتين من «الفتوحات»: ولو لم تكن الطبيعة نورًا في أصلها من النور لما وجدت بين النفس الكل وبين الهباء الذي هو الهيولي الكل، وبما هي في أصلها من النور قبلت جميع الصور النوريَّة للمناسبة فانتَّفت ظلمتها بنور صورها، فنسب إلى الطبع الظلمة في اصطلاح العقلاء وعندنا ليس كذلك، ولولا أن الظلمة نورٌ ما صحَّ أن يدرك، والظلمة هي الغيب.

فلهذا لا يدركه إلا الحق، والطبيعة الكل قد خلقها الله تعالى دون النفس الكل وفوق الهباء وهو رأي الإمام الغزالي رحمه الله ولا يمكن أن تكون مرتبتها إلا هنالك، فكل جسم قبل الهباء إلى آخر موجود من الأجسام هو الطبيعي، وما ثم عندنا إلا جسم طبيعي أو عنصري لا غير، والعناصر أجسام طبيعية وأن تولد عنها أجزاء أُخر، وأمَّا الهباء فجوهر مظلم ملأ الخلاء بذاته ثم تجلَّى له الحق تعالى باسم النور فانصبغ به ذلك الجوهر، وزال عنه حكم الظلمة هو العدم، فاتَّصف بالوجود فظهر لنفسه بنفسه بذلك النور وكان ظهوره به على صورة الإنسان، وبهذا يسمِّيه أهل الله الإنسان الكبير

ويسمَّى مختصر الإنسان الصغير؛ لأنه فيه جميع ما في العالم بالإجماع، فخرج على صورة العالم مع صغر حجمه والعالم على صورة الحق:

وَتَـزْعُم أَنَّـكَ جُـرمٌ صَـغِيرٌ وَفِـيكَ انْطَـوَى العَـالَمُ الكَبِيـرُ

فالإنسان على صورة الحق وهو قوله: إن خلق آدم على صورته فكل ذلك من آثار الله تعالى فيما خلق عليها الطبيعة.

(**التي حصرت قوابل العالم كله أعلاه وأسفله**) فكل ما تولد من الأجسام والأرواح، والملائكة، والأنوار كلها للطبيعة عليه حكم، ولكن حكم الطبيعة ظاهر من الهباء إلى ما دونه، وأمّا ما فوق النفس الكل فلا يظهر حكم للطبيعة فيه أصلاً، فالطبيعة الكل محيطة بالكل حاصرة لقوابلها من أطباع أنواع الأجسام الطبيعية الفلكيّة والملكيّة والعنصرية من الأجسام.

قال ﷺ: إن للطبيعة أنوارًا يكشف بها صاحبها ما تعطيه الطبيعة من الصور في الهباء، وما تعطيه من الصورة العامة التي هي صور الجسم الكل، وهذه الأنوار إذا حصلت على الكمال تعلق علم صاحبها بما لا يتناهى وهو عزيز الوقوع عندنا، وأمّا عند غيرنا فممنوع عقلاً حتى إن ذلك في الإلهيات مختلفة فيه عندهم.

وقال أيضًا ﷺ في «الفتوحات»: وما رأينا أحدًا حصل له هذا العلم على الكمال ولا سمعنا عنه ولا حصل لنا وإن ادّعاها إنسان فهي دعوى لا يقوم عليها الدليل أصلاً مع إمكان حصول ذلك، انتهى كلامه ﷺ.

فإن من عباد الله مَنْ يحصل لنفسه في بعض الأحيان عند هبوب النفحات الجوديّة الإلهيّة أحوالٌ توجب لها الأعراض عما سوى الله، والإقبال بوجود قلوبها بعد التفريغ التام على حضرة الغيب الإلهي المطلق في أسرع لمح البصر، فيدرك من الأسرار الإلهية والكونية ما شاء الحق.

وقد تعرف تلك النفس هذه المراتب والتفاصيل أو بعضها، وقد لا تعرف مع تحققها بما حصل لها من العلم، وهذا تصديق قوله ﷺ:

«علمت بها علم الأولين والآخرين»[1] ولو لم يكن هذا في آنٍ واحدٍ فما فائدة إخباره بقوله ﷺ فهمت، فافهم فإنهم عباد الله المكرمون المتحققون بمعرفته دون

(1) أخرجه البيهقي في الشعب (332/20)، والطبراني في الكبير (136/9).

واسطة، لعلمه تعالى أن هممهم قد خرقت حجب الكون، وأنفت الأخذ عن سواه فتجلَّى لهم تجلِّي الكل في الكل.

كما ورد في الخبر عنه ﷺ أنه قال في حديث طويل: «**وضع كفَّه بين كتفي فوجدت برد أنامله بين ثديي فتجلَّى لي كل شيء عرفته...** »[1] رواه الترمذي وقال: حسن صحيح عن معاذ بن جبل، ذكره السيوطي في «**جمع الجوامع**» وهذا من الذوق الذي ذكرناه فافهم فإنه مهم.

وأنوار الطبيعة مندرجة في كل ما سوى الحق وهي نفس الرحمن الذي نفس الله به عن الأسماء الإلهيَّة، وأدرجها في الأفلاك والأركان وما يتولَّد منها من الأشخاص الغير المتناهية.

قال المصنف ﷺ:

«**وهذا لا يَعْرِفُهُ عقلٌ بطريق نظرٍ فكريٍّ، بل هذا الفَنُّ مِنَ الإدراكِ لا يَكُونُ إلاَّ عَن كَشْف إلهيّ منهُ يُعرفُ ما أصل صُورِ العالمِ القابِلةِ لأرواحِهِ؛ فَسُمِّيَ هذا المذكُورُ إنساناً وخليفةً، فأمّا إنسانِيَّتُهُ فَلِعُمومِ نشأتِهِ وحَصْرِهِ الحقائقَ كُلَّها وَهُو لِلْحَقِّ بِمَنزلَةِ إنسانِ العَيْنِ من العَينِ الَّذي بِهِ يَكُونَ النَّظَرُ وَهُو المعبَّرُ عَنهُ بِالبَصَرِ، فإنَّهُ بِهِ نَظَر الحَقُّ تعالى إلى خلقِهِ فَرَحِمَهُم، فَهُوَ الإنسانُ الحادِثُ الأزَليّ والنَّشْؤُ الدَّائِمُ الأبَديُّ، والكَلِمَةُ الفاصِلَةُ الجامِعَةُ، فَتَمَّ العالَمُ بِوُجُودِهِ**».

قال الشارح ﷺ:

(**وهذا لا يعرفه عقل**) لأن هذه المعرفة تحتاج إلى معرفة الطبيعة، ومعرفتها على ما يؤدي إليه النظر والفكر لا يتجاوز عمَّا هو موهوم علماء الرسوم من اختصاصها بالأجسام السفليَّة والعلويَّة، وهذا ما هو معرفة الطبيعة من حيث الحقيقة؛ بل هي نهاية نظرهم، وغاية معرفتهم معرفة خواصها ولوازمها وعوارضها الذاتية؛ لأن اللوازم الذاتيَّة، وعوارضها لا تُعرف إلا بمعرفة الذات؛ لأنها نِسبٌ لها، فافهم.

فما ذلك إلا الظن وهو لا يغني من الحق شيئًا، وأن الشيء كان ما كان ما يدركه بما يغايره في الحقيقة، وقد بسطت لك في هذا العلم قبل هذا في الفصول.

أما ترى أن العقول اضطربت آراؤهم في الطبيعة حتى قالوا بتأثيرها، بل

---

(1) أخرجه الطبراني في الكبير (141/20)، والحكيم الترمذي في النوادر (120/3).

الطبيعيون اعتقدوا وحدانية الطبيعة، فكل ما ظهر من الموجودات الطبيعة، قالوا: هذا من الطبيعية، فوحّدوا الأمر وحصروه في الطبيعة كما وجدنا الإله في خلقه وكذلك الدهريّة، وما لهم بذلك من علمٍ، بل يظنون بالله الظنون.

وهنا مسألة أخرى وهي: إن الله تعالى تسمَّى لنا بالدهر، وما تسمَّى بالطبيعة؛ لأنها ليست بغير مَنْ وجد عنها عينًا، فهي عين كل موجود، وطبيعي بخلاف الدهر ما هو عين الكون، ورأينا الطبيعة عين الكون، فتسمَّى بالدهر للمغايرة المفهومة منه فافهم، فإن هذا من غرائب «الفتوحات المكيّة».

(بطريق نظر فكري)؛ لأن علوم النبوَّة والولاية الصرفة، وراء طور العقل بمعنى أنه ليس للعقل فيه دخول بفكر، ونظر لكن له القبول خاصةً عند تسليم العقل الذي لم يغلب عليه شبه خياليّة فكريّة، يكون من ذلك فساد نظره؛ لأن الله تعالى ما خلق للنفس آلة للإدراك غير العقل.

(بل هذا الفن): أي هذا الضرب من (الإدراك) وهو إدراك الجمعيّة المذكورة في النشأة الطبيعية العنصريّة، وإدراك حقائقها لا يكون إلا عن كشفٍ إلهي: أي لا عن كشفِ صوريٍ رحماني، ولا عن تعريفٍ رباني، لهن كشفٌ ذاتي بارتفاع حُكم النسب الجزئيّة والصفات الكونيّة التقليديّة عن العارف حال تحققه بمقام قُرب النوافل وبالمرتبة التي فوقها المجاوزة لها وهي مقام قرب الفرائض، وبقرب المقامين أو أدنى تنقلب كل صفةٍ وقوةٍ من صفات العبد وقواه إلى أخلاق إلهيّة، ويبقى العبدُ مستورًا خلف حجاب عين ربه، فينشد لسان حقيقةً لا مجازًا كما قيل:

تَستَّرت عَنْ دَهْرِي بِظلِ جِنَاحِهِ ... فَعينِي تَرَى دَهْرِي وَلَيسَ يَرَانِي

فَلو تَسْأَلِ الأَيَامُ مَا اسمِي مَا دَرت ... وَأَيْنَ مَكَانِي مَا دَرِيْن مَكَانِي

لأنه عين الزمان والوقت ولا وقت ولا مكان له ولا زمان، فانكشف الأمر كله له بهذا الكشف الذاتي الإلهي، (منه): أي من هذا الكشف تعرف (ما أصل صور العالم).

قال ﷺ:

انْظُر إلى الكَوْنِ في تَفْصِيلِهِ عَجبًا ... وَمُرجِع الكل في العقبى إلى اللهِ

في الأَصلِ مُتَّفِقٌ في الصورِ مختلفٌ ... ولا تَرَى الكَونَ إلا الله بِاللهِ

فمن الكشف الإلهي تعرف صور العالم من الأعلى إلى الأدنى إنها تطورات

الفيض الأقدس وتجلِّيات الذات المقدَّسة تجلَّت بصور العالم، وظهرت بصور المظاهر؛ وذلك لأن الطبيعة قابل للأمر الإلهي ومحل ظهور الأعيان جسمًا وجسدًا والصور فيها تتكون، وعنها تظهر فالأمر الإلهي بلا طبيعة لا يكون والطبيعة بلا أمر لا تكون، فالأمر في نفس الأمر متوقف على الأمرين، وظهوره في الأمر بالأمر هو عين ظهوره في المأمور لا بأمرٍ زائدٍ، ولكن باختلاف الصور، واختلافها باختلاف القوابل، فافهم.

فإن التجلِّي ما زال في الأحديّة[1] والفيض فيض الأقدس، وما بقي إلا حكم القابل، فإن قيل: إن الله قادرٌ على إيجاد الأشياء من غير أن ينفعل شيء آخر كالطبيعة، وغيرها قلنا: ردّ الله عليك هذا النبأ.

وقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: 40].

فإذا ظهرت الطبيعة به، ظهرت الأجسام والأجساد، وظهرت بها الصور والأشكال والأعراض فالأبعاد وجميع القوى والروحانيّة والجسمانيّة وهو غير المعبر عنه بلسان الشرع العماء الذي هو للحق قبل الخلق ما تحته هواء، وما فوقه هواء، فافهم.

فمن عرف الله بهذه المعرفة عرف نعم الله التي أسبغها عليه الظاهرة والباطنة، فتبرأ من المجادلة في الله بغير علم، وهي ما أعطاه الدليل النظري لا كتاب منير، ولا تعريف إلهي مستنير، قال تعالى عنهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الحج: 3] بمجرد الفكر المخالف للكشف، والتجلِّي الإلهي، ولا مرتبة أنزل من هذا في الجهل، فافهم.

وأمَّا الصور التي في العالم كلها نِسب وإضافات وأحوال لا موجودة ولا معدومة، وإن كانت مشهودة من وجهٍ فليست بمشهورة من وجهٍ آخر، وعين زمان فناء تلك الصورة عين زمان وجود الأخرى لا أنه بعد الفساد تحدث الأخرى.

---

(1) الأحدية: هي اعتبار الذات من حيث لا نسبة بينها وبين شيء أصلاً ولا شيء إلى الذات نسبة أصلاً، ولهذا الاعتبار المسمى بالأحدية تقتضي الذات الغني عن العالمين؛ لأنها من هذه الحيثية لا نسبة بينها وبين شيء أصلاً. ومن هذا الوجه المسمى بالأحدية يقتضي أن لا تُدرَك الذاتُ ولا يحاط بها بوجه من الوجوه لسقوط الاعتبارات عنها بالكلية. وهذا هو الاعتبار الذي به تسمى الذات أحدًا كما عرفت، ومتعلقه بطون الذات وإطلاقها وأزليتها.

هكذا ذكر صاحب الكشف الأتم الأوفى الذي هو أولى بالتحقيق وأحرى، فماذا يرجع ما يدركه المدرك من تحول العين الواحدة في الصور في نظر الناظر؟ هل هي في نفسها على ما يدركها البصر؟ أو هي على ما هي عليه في نفسها لم تتقلب عينها؟.

وهذا راجعٌ إلى ما يرى من الأعيان، ويحكم عليها أنها أعيان هل تكثَّرت بأعراضٍ، أو بجواهرٍ؟ فإن الصور تختلف في النظر دائمًا وكل منظورٍ إليه بالبصر من الأجسام جسم، فالجسميَّة حكمٌ عام ويرى فيها صورًا مختلفة منها ما يكون سريع الزوال، ومنها ما يعطي البطء في النظر والجسم لا يتبدل، وليس الموصوف بما ظهر إلا الجسم، وكذلك الصور الروحانيَّة والتجلي الإلهي.

قال ﷺ في الباب الرابع والستين وثلاثمائة من «الفتوحات»: إن هذا علم فيه إشكال عظيم والتخلص منه بطريق النظر الفكري عسير جدًا.

وأمَّا بطريق الكشف وعلم التجلِّي، فإن العارف يرى ما أنكره العاقل بنظره، وفكره كدخول الجمل في سمِّ الخياط، فإن الكاشف يراه بنظر الحس والشهادة القابلة لأرواحه اختلفوا في مسألة روح صورة هذا العالم الذي هو الإنسان الكبير، وأرواح صور العالم العلوي والسفلي، فها أنا أبسطها لك من كلامه ﷺ وعلى الله قصد السبيل.

اعلم - أيَّدك الله وإيَّانا بروح منه - أن روح العالم الكبير هو الغيب الذي خرج عنه، فافهم، ويكفيك أنه المظهر الأكبر الأعلى إن عقلت، وعرفت قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان: 45].

وبعد أن بان لك روح العالم الكبير، فبقي لك أن تعلم أرواح صور الأعضاء للإنسان الصغير كالقدرة وهي روح اليد والسمع روح الأذن والبصر روح العين، فاعلم أن التحقيق في ذلك عند الشيخ الأكبر ﷺ أن الأرواح المدبِّرة للصور كانت الموجودة في حضرة الإجمال كالحروف الموجودة بالقوة في المداد، فلم يتميزه لأنفسها، فإذا كتب القلم في اللوح ظهرت صورة الحروف مفصَّلة بعد ما كانت مجملة متصلة في الدواة والمداد، فقيل: هذه ألف، وهذه باء وهي أرواح البسائط وقيل في أرواح الأجسام المركبة: هذا زيدٌ، وهذا قائمٌ.

ويشير إلى هذه المراتب قوله تعالى: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: 1].

فإن النون: هي مرتبة الإجمال، والقلم: هو الكاتب، وما يسطرون: مراتب الأرواح البسيطة المسطرة، ولما سوَّى الله تعالى صور العالم: أي عالم شاء كان الروح

الكل كالقلم، واليمين الكاتبة، والأرواح كالمداد في القلم، والصور كمنازل الحروف في اللوح، فنفخ الروح في صورة مميزة بصورها، فقيل: هذا زيدٌ، وهذا عمرٌ، وهذا فرسٌ فمن الناس من منع ذلك، ولكل واحدٍ وجهٌ يستند إليه في ذلك، والطريقة الوسطى ما ذهبت إليه أمة وسطا كالشيخ الأكبر ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ﴾ [المؤمنون: 14] فإنه قال فيه: وإذا سوَّى الله الصورة الجسمية، فأي صورة شاء من الصور الروحية ركّبها.

قال الله تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: 8] إن شاء في صورة إنسان أو حيوان أو نبات على ما قدَّره العزيز الحكيم القوي العليم، فثَمَّ شخص الغالب عليه البلادة، فروحه تقرب إلى روح الحمار في أصل المزاج، وهكذا الأمر كله فامتازت الأرواح بصورها فمن عرف كشفًا أو تعريفًا أن الصور المختلفة الظاهرة في الوجود هي أحكام استعدادات أعيان الممكنات، عَرف كشفًا وشهودًا أو تعريفًا أنه عين مظاهره لا غير، وبيان ذلك أنه لما أراد الله تعالى وجود الممكنات، وأمرها بالتكوين، ولم يوجد وجود يتصف به، إذا لم يكن ثمة إلا وجود الحق تعالى، فظهرت صورًا في الوجود الحق، فتداخلت الصفات الإلهيّة والكونيّة، فوصف الحق بصفات الكون، ووصف الحق بصفات الحق، فَمَنْ قال: ما رأيت إلا الله صدق، ومَنْ قال: ما رأيت إلا العالم ما كذب، ومَنْ قال: ما رأيت العالم إلا ورأيت الله قبله، أو بعده، أو معه صدق، ومَنْ قال: ما رأيت شيئًا صدق؛ لسرعة الاستحالة، وعدم الثبات، وعين الوجود، وهو عين الفساد لا أنه بعد الفساد يوجد العين.

هذه المسألة رباعيّة من مسائل اجتماع الضدين فافهم، فإذا عرفت جميع ما ذكرته، عرفت أن الذات الأحدية هي السارية في الكل بالكل.

قال ﷺ مُشيرًا إلى هذا المقام: «لو دلي أحدكم دَلوه لهبط على الله»[1].

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ﴾ [الزخرف: 84] وكيف يدرك العقل المعقول هذا المطلق المجهول، بل إن الله قد أودع اللوح المحفوظ علمه في خلقه بما يكون منهم إلى يوم القيامة، ولو سُئل اللوح ما فيك؟ أو ما خَطَّ فيكَ القلم؟ ما عَلِمَ.

---

(1) أخرجه الطبري في تفسيره (216/27).

قال الصدِّيق الأكبر ﷺ: والعجز عن دركِ الإدراكِ إدراكٌ.

وقال الشيخ ﷺ في بعض قصائده الإلهيّة وهو يناجي ربه تعالى:

وَلستُ أُدْرِكُ مِنْ شيءٍ حقيقته ... وَكيفَ أُدْرِكَهُ وَأَنتم فِيهِ

فسمِّي هذا المذكور: أي آدم، فإنه ذكر ولم يكن شيئًا مذكورًا، أو الجلاء، أو الكون الجامع، وكلها ترجع إلى معنى واحدٍ كما قيل:

عِبَارَاتنا شَتَّى وَحُسْنُكَ وَاحدٌ ... وَكلٌّ إلى ذَاكَ الجمَالُ يُشِيرُ

اعلم أنه لم يكن في الأزل شيء يقدر به ما يكون في الأبد إلا الهو، فأراد الهو أن يرى نفسه رؤية كماليَّة أسمائيَّة كانت لهو، وتزول في حقه حكم الهو، فنظر في الأعيان الثابتة فلم يرَ عينًا يعطي النظر إليها هذه الرتبة الإنابيَّة إلا عين الإنسان الكامل، فإنه كان إنسان العين، وعين الإنسان فقدرها وقابلها به، فوفت له الحقائق إلا حقيقةً واحدة نقصت عنه وهو أن يكون وجوده لنفسه، فتطابقت الصورتان من جميع الوجوه، وقد كان قدر تلك العين على كل ما أوجده قبل وجود الإنسان من عقلٍ ونفسٍ وهباءٍ وجسمٍ وفلكٍ، وملكٍ وعنصرٍ ومولدٍ، فلم يعطِ شيء منها رتبة كماليَّة أسمائيَّة إلا الوجود الإنساني، فأعطاه مرتبة العقل الأول، وعلَّمه ما لم يعلم العقل الأول من الحقيقة الحقيَّة التي هي الوجه الخاص له من جانب الحق، وبها زاد على جميع المخلوقات، فلم تظهر الصور الحقيَّة إلا به، فالعقل مع عظمته جزء من الصورة وهكذا كل موجود إنما هو في البعضيَّة، فافهم.

(إنسانًا) من أنست الشيء إذا أبصرته، قال سبحانه عن نبيه ﷺ أنه: ﴿آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَاراً﴾ [القصص: 29]: أي أبصر، وإنما قلنا: أنس بمعنى: أبصر؛ لأنه كان به بصيرًا، وهو المثال الذي في العين لغة، ذكره في «القاموس».

فسمِّي الإنسان إنسانًا لكونه مثال ما في العين الوجود، أو مثال ما في العين الثابت، أو مثال ما في العلم فافهم، أو من الإنس؛ لأنه أنس الرتبة الكماليَّة الأسمائيَّة، وإنما قدمت الوجه الأول؛ لأنه أَوْجَه بمراد المصنف ﷺ.

ثم اعلم أنه تعالى قال: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ [الإنسان: 1] فإنه أحد الموجود، وأول المقصود، وأمَّا تأخيره؛ لأنه في الحقيقة حضرة التصوير، وحضرة التصوير هي آخر حضرة الخلق، وليس ورائها حضرة

للخلق، والإبداع جملة واحدة، أما ترى قوله تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: 24] أخَّر درجة التصوير عن درجة الخلق والإبداع فهي المنتهي والعلم أولها، والهويَّة هي المنعوتة بهذا كله، فابتدأ بقوله: هو في العلم ثم ختم بها، وقال: إن الله خلق آدم على صورته فتنبّه، وعلى الله قصد السبيل، وهو على التحقيق.

ألا إن التقدُّم والتأخُّر من مقتضى ذات الكون، وأن الأمر الإلهي الذي هو القول له وحدة العين، والكثرة الموهومة من أعمال الوهم في عين الخيال، والأمر في نفس الأمر ليس كما يتوهم في الحق تعالى أنه لا يقول لشيء كُنْ إلا إذا أراده ورأيت الموجود، ويتأخر وجود بعضها عن بعض، وكل موجود لا بُدّ أن يكون مرادًا بالوجود، ولا يتكون إلا بأن يقول له: كن على جهة الأمر، فيتوهم الإنسان، أو ذو القوة الوهمية أن الأوامر كثيرة لكل كون أمر إلهي، ولم نقل الحق إلا عند إرادة تكوينه، فبهذا الوهم عينه بتقدم الأمر الإلهي الإيجابي: أي الوجود؛ لأن الخطاب الإلهي على لسان الرسول ﷺ يقتضي ذلك العموم، فيصوِّره مقدمًا وإن كان الدليل العقلي لا يتصوره ولا يقول به، ولكن الوهم يحصره، ويصوره كما يصور المحال، ويتوهم صورة وجودية ما لا يقع في الوجود الحسِّي أبدًا، وهكذا الأعيان مفصَّلة في الثبوت الإمكاني، فافهم.

فالتقديم والتأخير في قبول الوجود باعتبار السماع من العين لا باعتبار القول؛ لأنه واحد العين، قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: 50] فيتعلَّق بالعين الحس في الوجود الحسِّي، كما تعلَّق به الخيال في الوجود الخيالي، وهنا حارت الألباب هل الموصوف بالوجود المدرك بهذه الإدراكات الحسيَّة هو العين الثابتة انتقلت من حال العدم إلى حال الوجود؟ أو حكمها تعلَّق تعلقًا خاصًا ظهوريًّا تعلُّق ظهور المرائي في المرآة بعين الوجود الحق، وهي في حال عدمها، كما هي ثابتة بنعوته بتلك الصفة، فتدرك أعيان الممكنات بعضها بعضًا في عين مرآة وجود الحق، أو الأعيان الثابتة على ترتيبها الواقع عندنا في الإدراك على ما هو عليه من العدم كالمرائي، ويكون الحق الوجودي ظاهرًا في تلك الأعيان، وهي له مظاهر فيدرك بعضها بعضًا عند ظهور الحق تعالى فيها، فيقال قد استفادت الوجود، وليس إلا ظهور الحق، فصاحب الكشف الأتم الأوسع يرى الاثنين صحيحين، ومَنْ يكون دونه ينكشف واحد دون واحد، وليس هذا الكشف إلا لأهل هذه الطريقة المثلى وأمَّا علماء الرسوم في هذه المسألة على قسمين:

طائفة تقول: لا عين للممكن في حال العدم، وإنما عينه عين وجوده كالأشاعرة رحمهم الله تعالى.

وطائفة أخرى قالت: إن لها أعيانًا ثبوتيّة هي التي توجد بعد إن لم يكن، وما لا يمكن وجوده كالمحال، ولا عين له ثابتة، وهم كالمعتزلة عفا الله عنهم.

والمحققون من أهل الله يجمعون بينهما كما سبق آنفًا بيانه، يرون الأعيان في المرآة الموجود في المرائي الأعيان، فافهم.

(وخليفة) ورد في الخبر الصحيح: «**أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل**»[1]

وهما اسمان من أسماء الله تعالى.

قال تعالى: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: 30]، جعل آدم خليفة، وأعطاه حكم الخلافة، والخليفة لفظة مؤنثة؛ لأنها محل التكوين، وبها ظهر الكون، ومن هذا قال ﷺ في بعض أشعاره:

نَحْـنُ إِنَـاثٌ لمـا فِيـنا نـولده ... فَلْيحمد الله مـا فـي الكَوْنِ مِـنْ رَجُـلِ

وهي زبدة مخضة الطبيعة التي ظهرت بتحريك الأفلاك وهي روح اللبن، فإذا خرج من العالم، فالعالم يكون كالنفل لا عبرة به، فافهم.

(وأمّا إنسانيته) فلعموم نشأته وحضرة الحقائق كلها، وهو عين كل شيء فبعمومه، وحصره جميع الأشياء وبه كل شيء، فأنس به كل شيء من مقام كل شيء، كما ذكر خاتم النبوة إشارةً إلى المقام الأسنى في حديث طويل: «**فتجلّى لي كل شيء وعرفت.... **»[2] الحديث رواه الترمذي وقال: حديث صحيح عن معاذ بن جبل ذكره السيوطي في «جمع الجوامع».

وهذا حكم الولاية المحمدية من الأسوة، فإنه ذكر ﷺ في «الفتوحات».

وقال: لأنا توحدتُ بهذا المشهد دون إخواني، وبيان ذلك أن الإنسان نسخة جامعة مختصرة من الحضرة الإلهيّة والكونية، فكل شيء فيها؛ لأن التجلّي وحداني في

(1) أخرجه مسلم (978/2)، والترمذي (497/5)، والدارمي (373/2).

(2) أخرجه الترمذي (368/5)، وأحمد (243/5).

جميع المواطن، وهو بكليته يتجلّى لكل شيء، وإن لم يكن مدركًا لكل أحد للقرب المفرط، والإدماج الذي توجبه غلبة حكم الوحدة على الكثرة، فإذا قام شيء لشيء في مقام المحاذاة المعنويّة، والروحانيّة كالمرآة، صار ذلك سببًا لظهور صورة الشيء ومعناه المحاذي، ولا يظهر هذا إلا في الإنسان الكامل، وكماله لخاتم النبوة أصالة، ولخاتم الولاية المحمّدية كمالة وارثة، فافهم.

(**وهو للحق تعالى بمنزلة إنسان العين من العين الذي به يكون النظر، وهو**): أي الإنسان المذكور المعبر عنه بالبصر، فيبصر بالإنسان الكامل الكمالات الأسمائيّة بجملتها هذا من مقام قُرب الفرائض، كما أنه بقُرب النوافل يكون الحق تعالى بصره الذي به يبصر، كذلك في هذا المقام القرب الفرائض، يبصر الحق تعالى بالإنسان الكامل، وفي الأول كان الحق بصر العبد، وفي الثاني العبد بصره، وبه يبصر ويرحم، يشير إلى هذا المقام قوله تعالى حكايةً عن أعلم الخلق بالله تعالى: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً﴾ [طه: 35]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً﴾ [الانشقاق: 15].

فهذا من إشكال المسائل كيف يوجب المعنى حكمه لغير مَنْ قام به، فتشبه هذه المسألة مسألة قُرب النوافل، والوجه الجامع بين المسألتين وجود الحكم المضاف إلى المعنى في غير المحل الذي قام به ذلك المعنى، وهل البصر يختلف حكمه باختلاف المبصرين؟ أم هل يستويان؟ مثلاً يقوم زيد، ويبصر به عمرو، وهذا محال عقلاً. ولكن أذكر لك مسألة متّفق عليها، وهي ما ورد في الخبر الصحيح بالتنبيه عليها، وشهد الكشف الصريح.

فاعلم أن الحق سبحانه منزّه عن الحلول والحدوث، وأن الإنسان يبصر ببصره، ويسمع بسمعه لا بسمع غيره، وهذه قوى قائمة بجوارحه، ثم أن هذا الشخص يعمل بعملٍ زائد عن الفرض الذي افترض الله تعالى عليه من نوافل الخيرات، فينتج له هذا العمل نفي بصره، وسمعه، وجميع قواه التي كانت توجب له أحكامها، فكان ينطلق عليه من أحكامها أنه بصيرٌ إلى هذا: أنه بصيرٌ سميع إلى ذلك، فصار يسمع بالله بعد ما كان يسمع بسمعه، ويبصر بالله بعد ما كان يبصر ببصره مع العلم بأن الله تعالى تقدّس أن تكون الأشياء محلاً له أو يكون هو تعالى محلاً لها، فقد بصر العبد بما لم يقم به، وسمع بما لم يقم به فكان الحق سمعه، وبصره وهكذا في مسألتنا قُرب الفرائض، والمناسبة بين القُربين ظاهرة، وهي منشأ القياس بلا فارق، فافهم.

(فلهذا سمِّي إنسانًا): أي لهذا الإبصار سُمِّي الإنسان إنسانًا، وهو فعلان صيغة مبالغة للمبالغة فيه، فما كل عين ناظر لهذه المرتبة إلا عين الإنسان، ولولا إنسان العين ما نظرت عين الإنسان، فبالإنسان نظر إلى الإنسان، كما أن المرآة إن كانت تامة الخلق مجليَّة، فلا تكمل إلا بتجلِّي صورة الإنسان الناظر الذي هو العلة الغائية فافهم.

قال ﷺ في «الفتوحات»: إن الأناسيَّ ثلاثة: الإنسان الأول الكل الأقدم، والإنسان العالم وهو الإنسان الكبير والإنسان الآدمي، فانظر ما هو أتم من هذه الثلاثة، انتهى كلامه.

(فإنه به نظر إلى خلقه فرحمهم): أي الحق بالإنسان نظر إلى خلقه، فرحمهم كما جاء في الخبر الصحيح: «فبهم يرحمون والله الرحمن الرحيم»[1].

أما ترى أن موسى ﷺ وعلى نبيِّنا ﷺ كيف طلب شرح الصدر، ووزارة الأخ وهو رحمة، ثم أعقبه بقوله: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً﴾ [طه: 35] فما رحمهما إلا بعد أن بصرهما بهما، فالعبد آله الرب للإبصار، وهذا من مقام قُرب الفرائض، فأوجب المعنى كلمة لغير مَنْ قام به، ومن هنا برقت بارقة لمن قال من أهل النظر: إن البارئ مريد بإرادة حادثة لم تقم به تعالى؛ لأنه ليس محل الحوادث، فخلق الإرادة لا في محلٍ، فأراد بها، فأوجبت الإرادة حكمها لمن لم يقم به، كما ظنَّت المعتزلة في الكلام، وأمَّا الذي يرى أن المعاني لا توجب إلا لمن قامت به، طرأ عليه الغلط لكونه أثبت الصفات أعيانًا متعددة وجودية، لا تقوم بنفسها، بل تستدعي موصوفًا بها، تقوم به فيوصف بها فلو علم أن ذلك كله نسب وإضافات لا عين لها في عين واحدة، تكون تلك بالنسبة إلى كذا عالمة وإلى كذا قادرة، وإلى كذا غنيَّة، وإلى كذا عزيزة، هكذا سائر الصفات والأسماء، فيهون أمثال هذا عليه.

أما سمعت خبر: «كنت سمعه وبصره»[2]، فالعبد هو الرائي ببصره، والبصر هوية الحق، وكذلك السمع لا حال ولا محل، فإنه تعالى لا يحل في شيء، ولا يحل فيه شيء، ولا بُدّ من عين العبد، ولا بُدّ من عين هوية الحق، فرأى بغير ما قام به فافهم، فإنه من مشكلات هذا الفن، ذكرتها بالتقريب.

(فهو الحادث): أي من حيث صورته، وتعينه (الأزلي): أي من حيث عينه وذاته.

---

(1) لم أعثر عليه.

(2) سبق تخريجه.

أمّا الأزل نفي الأوليّة، ونسبة الأزل للحق كنسبة الزمان الماضي للخلق، فلهذا يقال: كان ذلك في الأزل، فحدوثه باعتبار نشأته الظاهرة الجسمانيّة، وأزليته باعتبار الحقيقة والروحانيّة قال ﷺ:

حقق بعقلك إن فكرت مصدرنا ... نفيًا لنفي وإثباتًا لإثبات

مِنْ أعجب الأمر أني لم أزل أزلاً ... وإنني مع هذا محدث الذات

وسرُّ ذلك أن الإنسان الكامل منخلعًا عن نفسه، مختلعًا بخلعة الصور الإلهيّة وهو كالظل للشخص الذي لا يفارقه على كل حالٍ غير أنه يُظهر الحس تارةً ويخفى تارةً أخرى، فإذا خفي فهو معقولٌ فيه، وإذا ظهر فهو مشهودٌ بالبصر لمن يراه، فالإنسان الكامل في الحق معقول فيه كالظل إذا خفي في الشخص، فلا يظهر فلم يزل الإنسان أزلاً، فلهذا كان مشهودًا للحق من كونه موصوفًا بأن له بصرًا وهو الإنسان، فإنه معبر عنه كما ذُكر في المتن.

وعلى الجملة إن في العلم الأول لما تميزت عنده الحقائق المعنوية فهي: أي تلك الحقائق المجرَّدة للحق معلومات وللخلق معقولات ولا وجود لها في الوجوب الوجودي ولا في الوجوب الإمكاني، فيظهر حكمها في الحق، فتنسب إليه، وسمِّيت أسماء إلهية، فينسب إليها من نعوت الأزل ما ينسب إلى الحق تعالى، ويُنسب أيضًا إلى الخلق ما يظهر من حكمها فيه، فينسب إليها من نعوت الحدوث ما ينسب إلى الخلق فهي: أي الحقائق المذكورة هي الحادثة القديمة، والأبديّة الأزليّة فافهم.

قال ﷺ في الباب السادس والأربعين وثلاثمائة: إن الإنسان الكل الكامل الكلي لم يزل مع الله، فلا يزال مع الله، فهو باقٍ ببقاء الله، وما عدا الإنسان الكامل، فهو باقٍ بإبقاء الله تعالى.

وهنا مسألة أخرى أذكرها لتعريف الفرق بين الأزلين وهي: إن الموصوفين بالأزل نفيًا، أو إثباتًا لا بتقدم أحدهما على الآخر؛ لأن الأزل لا يصح فيه التقدُّم والتأخُّر، ولكن الفرق بينهما أن أزلية الأعيان هي دوام وجودها بدوام الحق مع افتتاح الوجود عن العدم بكونها من غيرها، وأزلية المبدع نعت سببي ينفي الأوليّة بمعنى افتتاح الوجود عن العين؛ لأنه عين الوجود، فافهم.

(والنَّشْؤ الدائم الأبدي) والأبد نفي الآخريّة وعدم انتهائها، وكل أزلي أبدي ولا بالعكس، وأمّا النَّشْؤ هو إنما أعم من أن يكون من النشأة الدنيويّة، أو الأخرويّة.

أمَّا في النشأة الدنيويَّة فنشؤه ظاهر بدنًا وروحًا، إمَّا بدنًا في النشأة الدنيوية؛ فلأنه دائم التحليل، فدائم الغذاء لبدل ما تحلل منه، فدائم الزيادة والنشأ والنمو.

أمَّا باعتبار الروح في النشأة الدنيويَّة، فلأن غذاؤها العلوم والمعارف، وهما على الدوام وإن لم يظهر لكل أحد.

قال ﷺ: إن الإنسان في زيادة علم أبدًا دائمًا من جهة ما تعطيه حواسه وتقلبات أحواله في نفسه وخواطره، فهو مزيد علوم، وأمَّا النمو البدني من جهة الآخرة، فإن الغذاء قد ثبت بالأخبار الصحيحة والغذاء هو ما يصير جزءًا للمتغذي.

وأمَّا ما سمِّي غذاء أما ترى أن الخبر الصادق كيف عين مخارج الفضلات في النشأة الأخروية إنما تخرج عرقًا، ولولا الغذاء المعتاد في دار الآخرة ما عين هذا فافهم.

وإنما نموُّه وزيادته في الآخرة من حيث الروحانيَّة والعلم، فقد ورد في الأخبار ما يدل عليه كحديث الرؤية: **«وإن لنا في الآخرة ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت.... »**[1]، ويحصل هذا من غير تقدم علم به، هذا زيادة في العلم.

وقوله ﷺ: **«إنه يحمد الله في يوم القيامة عند سؤاله في الشفاعة بمحامد لم يعلمها الآن»**[2]؛ لأنها يقتضيها الموطن، وهذا كله نشأ ونما، وزيادة في الباطن والظاهر في الدنيا والآخرة، فافهم.

(والكلمة) وهي مجموع من الحروف العاليات، وهي روح الكامل تسمَّى كلمة؛ لأثرها في العالم، سمِّي بذلك عيسى عليه السلام كلمة الله الفاصلة بين الحق والباطل، يتميز الفرق بينهما تارة بنظر الجمع، وتارة برؤية الفرق، وتارة بالجمع بينهما.

فلهذا قال ﷺ: **(الجامعة)** بين الحق والباطل برؤية الجمع في الكل، وهو جمع الجمع.

ومن هذا الذوق ما حكي عن بعض المشايخ، أو الشيخ أبي مدين - قُدِّس سرُّه - قال ﷺ:

لا تُنْكِــــر الـــبَاطلَ فــــي طُـــورِهِ فإنَّـــــه بعـــــض ظهـــــوراته

---

(1) أخرجه البخاري (1185/3)، ومسلم (2174/4).

(2) لم أعثر عليه.

فسدُّ جفاء الفرق، والفصل بلطف الجمع والوصل، فافهم.

(فتمّ العالم بوجوده) بأتم ما يكون إذ لا أكمل من صورته.

قال الإمام الغزالي - رحمه الله - من هذا المشهد: ما في الإمكان أبدع ما كان، فدار العالم، وظهر الوجود الإمكاني بين نورٍ وظلمةٍ، وطبيعةٍ وروحٍ، وغيبٍ، وشهادةٍ، وسنن، ونفيٍ، وإثباتٍ.

فما وَلِيَ من الوجود المحض كان نورًا، وروحًا، وما وَلِي من العدم المحض، كان ظلمةً، وجسمًا، وبالمجموع تكون الصورة، وبه تحقق الكون الجامع، والمجلى المجلو الساطع، ولا ينظر الله إلا إليه وهو الحجاب الأعلى، والستر الأزهى، والقوام الأبهى فلما حذاه حذوًا معنويًا على حضرة الأسماء الإلهية بعد ما حصلت فيه قواها، فظهر بها في روحه، وباطنه، فظاهر الإنسان خلق، وباطنه حق.

قال المصنف ﷺ:

[فهو من العالم كفص الخاتم من الخاتم، الذي هو محل النقش والعلامة التي بها يختم الملك على خزانته، وسماه خليفة من أجل هذا.

لأنه تعالى الحافظ به خلقه كما يحفظ الختم الخزائن فما دام ختم الملك عليها لا يجسر أحد على فتحها إلا بإذنه، فاستخلفه في حفظ العالم فلا يزال العالم محفوظاً ما دام فيه هذا الإنسان الكامل.

ألا تراه إذا زال وفك من خزانه الدنيا لم يبق فيها ما اختزنه الحق تعالى فيها وخرج ما كان فيها والتحق بعضه ببعضه، وانتقل الأمر إلى الآخرة فكان ختما على خزانة الآخرة ختماً أبديًا].

قال الشارح ﷺ:

(**فهو من العالم**) لما وجَّه وجه كونه إنسانًا، أراد ﷺ أن يُوجِّه كونه خليفة وقال: إن الإنسان الكامل من العالم (**كفص الخاتم للخاتم وهو محل النقش والعلامة**).

كما أن الفص محل النقش، كذلك الإنسان الكامل محل ظهور صور الأسماء الإلهية، وكما أن في الفص علامة تدل على صاحب الخاتم، كذلك العالم بمنزلة الخاتم، وفصِّه الإنسان الكامل، وفيه علامة تدل على الحق تعالى؛ لظهور جميع أسمائه فيه الدَّالة عليه.

فمن هذا ورد في الخبر «**مَنْ عَرِفَ نفسه فقد عَرِفَ ربَّه**»[1].

قال ﷺ في الفصل الثامن ومائة من «**الفتوحات**»: إن الإنسان الكامل يدل بذاته من أول البديهة على ربِّه؛ لأنه على الصورة، انتهى كلامه ﷺ.

وقال أبو يزيد - قُدِّس سرُّه -: من هذا الذوق إما دلَّ على هويته من كلمة الله عليها، وكذلك سمَّاني كلمة، انتهى كلامه ﷺ.

وقال ﷺ: «**إن أولياء الله الذين إذا رأوا ذكر الله**»[2] فالكامل من أعلى العلامات التي تدل عليه.

(**التي بها يختم الملك على خزائنه**): أي العلامة التي تحفظ الملك بالختم بها ما في الخزائن من نفائس الجواهر، والعروض.

يُريد ﷺ أن يمثِّل تمثيلاً يناسب الإنسان الكامل، بل الأكمل الفرد الختم مع العالم، ويتبين فيه نسبته معه:

وَعَنِّي بالتَّلْوِيحِ مُفْهِمٌ ذَائِقٍ غِنَى عَنْ التَّصرِيحِ لِلمُتَعَنِّتِ

فإن نسبته الأكمل الكل مع العالم نسبة الختم على الخزانة، فكما تختم الخزانة المشحونة بنفائس الجواهر التي فيها عن تناول أيدي النفود والفناء، ولا يجسر كل أحد أن يتصرف فيها، كذلك الإنسان الكامل الكل، فإنه ختم به على خزائن العالم على النفاد، ولا تجسر أيدي الحوادث، وأيدي الزمان على فكِّ هذا الختم بالتغير والإنسان.

(**وسمَّاه خليفة من أجل هذا**): أي من أجل أنه استخلفه، يحفظ ما في خزائن العالم والوجود أنه حفيظٌ عليمٌ، سمَّاه خليفة، والخليفة صورة مستخلفة، فما حفظ إلا بنفسه، فاحتفظت نفسه بنفسه، فبنفسه عين العلامة على نفسه، فافهم.

(**لأنه سبحانه الحافظ**) خلقه من حفظ الشيء نفسه؛ لأن الوجود عينه، وما في العالم سواه.

(**كما يحفظ الختم الخزائن**) بالعلامة التي في الختم، وهي صورة اسمه، والاسم عين المسمَّى، وبالعين يحرس العالم.

والختم ثلاث:

* ختم الولاية العامة الظاهرة في هذه الأمة، وهو المهدي.

---

(1) أخرجه أبو نعيم في الحلية (208/10).

(2) أخرجه الحكيم الترمذي في النوادر (80/4).

* وختم الولاية المطلقة وهو عيسى عليه السلام.

* وختم الولاية المحمَّدية، فأمَّا ختم الولاية المحمَّدية، وهو الختم الخاص، فيدخل في ضمنه الختمان السابقان، وإن كان مطلقين وعامين، فهما مختومان، وتحت الختم المحمَّدي، وله التحقق بالبرزخيَّة الثابتة بين الذات والألوهيَّة؛ لأن ختميَّة النبوَّة تختص بحضرة الألوهيَّة، وله جمع الجمع لا جامع بعده مثله ولا حائز لكل الموارث غيره، وله كمال الآخريَّة المستوعبة، فله حكم الكل دون سواه، فلهذا لا يعرفه غير مولاه، وهو أعلم الخلق بالله، لا يكون في زمانه، ولا بعد زمانه، أعلم بالله، وبمواقع الحكم منه، فهو والقرآن إخوان، كما أن المهدي والسيف إخوان.

قال رضي الله عنه: علمت حديث هذا الختم المحمَّدي بـ «فاس» من بلاد المغرب، وهو شعرةً واحدةً من جسده ﷺ، ولهذا يشعر به إجمالاً، ولا يعلم تفصيلاً إلا مَنْ أعلمه الله، أو مَنْ صدَّقه أن عرَّفه بنفسه دعواه، ذكره رضي الله عنه في الباب الثاني والثمانين وثلاثمائة من «الفتوحات».

(**فما دام ختم الملك عليها لا يجسر أحد على فتحها إلا بإذنه**) فالختم دائمًا أبدًا دنيا وآخرة، فإن الختميَّة ثابتة غير مزالة، فافهم الإشارة تكن من أولي الألباب فإن هذا التمثيل خلاصة الخلاصة، ولباب هذا الباب فإن توهَّمت فرض الإزالة في النشأة الدنيويَّة فهي ثابتة من وجه آخر لا محالة وهو النشأة الأخرويَّة، فالختم دائمًا أبدًا، فافهم.

(**فاستخلفه في حفظ العالم فلا يزال العالم محفوظًا فيه ما دام فيه هذا الإنسان**) الذي هو الختم الدائم الجامع السرمدي، وذلك العبد هو المقصود من العالم النائب عن العالم كله الذي لو غفل العالم كلُّه أعلاهُ، وأسفلهُ زمنًا عن ذِكر الله، وذكره هذا العبد، قام في ذلك الذكر عن العالم كله، وحفظ به على العالم وجوده، ولو غفل العبد الإنساني المذكور عن الذكر زمنًا فردًا لم يقم العالم مقامه في ذلك وخرب منه، وقال ﷺ: «**لا تقوم الساعة وفي الأرض مَنْ يقول الله الله**»[1] إشارةً إلى ذلك الذكر، قال رضي الله عنه في الباب الثالث والسبعين من «**الفتوحات**»: إن في العالم قطبًا ينظر الحق تعالى إليه، فيبقى به هذا النوع الإنساني في هذا الدار، ولو كفر الجميع وهو ذا جسم طبيعي،

(1) أورده ابن رجب في جامع العلوم والحكم (343/1).

وروح موجود يجسِّده، وحقيقته يتغذى بجسمه وروحه، وهو مجلى الحق من آدم إلى يوم القيامة.

كما أبقى الله بعد الرسول ﷺ أربعة من الرسل أحياء في هذه الدار الدنيا، وهو عيسى، وإدريس، وإلياس، وخضر عليهم السلام، وهذه المعرفة التي أبرزنا عينها للناظرين لا يعرفها من أهل طريقتنا إلا منَّا، فيبقى الأمرُ محفوظًا بهؤلاء الأحياء وثبت الدين قائمًا بحمد الله ما انهدم منه ركن إذا كان له حافظ يحفظه، وإن ظهر الفساد في العالم إلى أن يرث الأرض ومن عليها، وهذه نكتة فاعرف قدرها، فإنك لست تراها في كلام أحدٍ أبدًا، ولولا ما ألقى عندي في إظهارها ما أظهرتها لسرّ يعلمه الله ما أعلمنا به، ولا يعرف ما ذكرناه إلا نُوَّابهم خاصة لا غيرهم من الأولياء، فاحمدوا الله يا إخواننا حيث جعلكم الله ممن قرع سمعه أسرار الله المخبوءة في خلقه التي اختصَّ الله بها مَنْ يشاء من عباده، انتهى كلامه.

(**ألا ترى إذا زال**) وجود الموضوع ليس بشرط في القضايا الشرطيات، فافهم.

(**وفك من خزانة الدنيا لم يبقَ فيها ما اختزنه الحق فيها، والتحقَ بعضه ببعضٍ وانتقل الأمر إلى الآخرة، فكان ختمًا على خزانة الآخرة ختمًا أبديًا**)، فالختميَّة ثابتة مزالة دائمًا أبدًا، فافهم.

قال ﷺ في الأجوبة من «**الفتوحات**»: فأقبل ما سبب الختم، ومعناه المنع والحجز، فافهم فكان الختم أزلاً فيكون أبدًا.

اعلم أنه ما ثم أمر من الأمور يفرض بين الأمرين، أو ينسب إليه بذاته، أو غاية إلا ولا بُدّ أن يكون له فاتحة هي مرتبة أوليته، وخاتمة هي مرتبة آخريَّته، وأمر ثالث يكون مرجع الحكمين إليه بجمعهما، ويتعيَّن بهما وهكذا الإنسان والعالَم.

ورد في الخبر عن الفاتح الخاتم ﷺ أنه قال: «**أُعطيت فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه**»[1] عن أبي موسى ﷺ ذكره في «**جمع الجوامع**» فإذا تقرر هذا، فاعلم أنه سبحانه فتح خزانة غيبه، وذاته، وهويَّته التي لا يعلمها سواه باسمه الجامع بين صفات الجمع، والتصرُّف والإطلاق، والتقييد، والأوليَّة والآخريَّة، والظاهريَّة والباطنيَّة، وفَتَح باب معرفة ذاته وحضرة جمعه وإشهاده وتجلّيه الكمالي المعتلي على سائر الأسماء

---

(1) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (261/1).

والصفات بمن أظهره آخرًا، وقدَّره على صورته وحباه سره وسورته، وجعله خزانة مختومة حاوية على كل الخزائن ومفتاحًا وهو أصل المفاتيح الأول وينبوع الأنوار والمصابيح لا يعرفه سوى مَنْ هو مفتاحه، ويعلم هو المفاتيح التي حوتها ذاته، واشتملت عليها عوالمه، ونشأته وأحاطت بها مراتبه، ومقاماته ما شاربه أن يراه منها، ويكشف له عنها، فإن متعلق النفي الوارد في قوله تعالى:

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ [الأنعام: 59] نفى أن يعرف مجموعها أو أن تعرف من حيث كونها مفاتيح، وأن يعرف لا بتعريفه وتعليمه سبحانه.

وأما كون المفاتيح لا تعلم نفسها، أو لا تعرف بعضها بعضًا، أو لا تُعرف بتعريف، فلا نص فيه، فافهم.

فلكل فاتحة خاتمة، وهي عينها هو الأول، الآخر، الظاهر، الباطن جمع النقيضين وانختم الختم على العالمين، فافهم.

سُئل خاتم النبوة ﷺ متى كنت نبيًا؟ قال ﷺ: «كنت نبيًا وآدم بين الماء والطين»[1].

وأشار إلى الأزل، فلو سُئل خاتم الولاية المحمَّدية متى كنت وليًا خاتمًا؟ فكان يقول في جوابه: كنت وليًا وآدم بين الماء والطين: أي أزلاً، وكل أزلي أبدي فيكون الختم أبدًا، فافهم الإشارة، فكل ولي ونبي كان ظهور نبوَّته وولايته مشروطًا بشروطٍ كالظهور بالبدن العنصري بخلاف خاتم النبوَّة وخاتم الولاية المحمَّدية، فإنهما كانا في الأزل نبيًا ووليًا، ولم يكن آدم شيئًا مذكورًا.

فكما أن الله تعالى ختم بمحمد ﷺ نبوَّة الشرائع، كذلك ختم الله بالختم المحمَّدي بالولاية المحمديَّة، بحيث لا يحصل للمحمَّدي فيض إلا من مشكاته ﷺ وله أمر الولاية المحمديَّة من قبل ومن بعد، كما أن أمر النبوَّة من قبل ومن بعد سواء كان قبل الوجود العنصري، أو بعده، فلا يأخذ ولي إلا من مشكاته، كما لا يأخذ نبي إلا من مشكاته ﷺ وهذه هي الأسوة الحسنة.

قال ﷺ إشارة إلى هذه الأسوة: «أما لكم فيَّ أسوة.... »[2] الحديث رواه أبو

---

(1) سبق تخريجه.

(2) أخرجه مسلم (473/1).

قتادة ﷺ.

والختم المحمَّدي عبارة عن خاتم يكون على حرف قدم محمد ﷺ، وأما المحمَّديون بعد هذا الختم يكون على قلوب الأنبياء عليهم السلام، فلا بعده مَنْ يكون على قدمه يطأ أثره، كما لا يكون أحدٍ على قلبه: أي على قلب محمد ﷺ أبدًا، هذا معنى ختم الولاية المحمَّديَّة، وهو أعلم الخلق بالله، ولا يكون في زمانه، ولا بعد زمانه أعلم بالله، وبمواقع الحكم منه، فهو والقرآن إخوان، كما أن المهدي والسيف إخوان، وكما أن لا نبي بعد محمد ﷺ، كذلك لا ولي بعد هذا الختم سلام الله عليه، فإنه خاتم أولياء الذات، وروح الكلمات التَّامات، ولا بُدّ أن يرى في كشفيه ما ينبئك عن وصفه إن سلكت هذه الطريقة، وبلغت إلى هذه الحقيقة فافهم.

قال ﷺ في «الفتوحات» في أصل أسئلة الترمذي: أمَّا ختم الولاية المحمَّديَّة فهي لرجلٍ من العرب مِنْ أكرمها أصلاً ونسبًا، وهو في زماننا اليوم موجود، عرفت به سنة خمس وتسعين وخمسمائة، ورأيت العلامة التي قد أخفاها الحق سبحانه فيه في عيون عباده، وكشفها لي بمدينة «فاس» حتى رأيت خاتم الولاية النبوَّة المطلقة لا يعلمه كثير من الناس، وقد ابتلاه الله بأهل الإنكار عليه فيما يتحقق به من الحق تعالى في سرِّه من العلم به، انتهى كلامه ﷺ.

وما رأيت بتصريحه بهذا المعنى لنفسه أصلاً إلا في مواضع قليلة منها في بيتٍ في الباب الثالث والأربعين من «الفتوحات» فإنه ﷺ قال:

أنــا خِــتم الــولاية دُونَ شــك   كــورث الهاشــمي مــع المــسيح

وفي محلٍ من «الفتوحات» قال ﷺ يشير إلى مقام الخاتمي: خصَّني الله بخاتمة أمرٍ لم يخطر لي ببال، فشكرت الله بالفجر عن شكره مع توفيقي في الشكر حقه، فافهم، انتهى كلامه، فإن قيل: بأي صفةٍ استحقَّ بها أن يكون خاتمًا للولاية المحمدية، قلنا: بتمام مكارم الأخلاق[1] مع الله، إنما قلنا: مع الله؛ لأن أغراض الخلق مختلفة، ولم يمكن تعميم موافقة العالم بالجميل فنظر نظر الحكيم، فلم يجد صاحبًا مثل الحق، ولا صحبة أحسن من صحبته، ورأى أن السعادة في معاملته، فنظر إليه فرأى أنه شرع

---

(1) الأخلاق عشرة منازل ينزل فيها السائرون إلى الله تعالى، وهي: الصبر، والرضا، والشكر، والحياء، والصدق، والإيثار، والخلق، والتواضع، والفتوة، والانبساط.

أحكامًا، وحدَّ حدودًا فوقف عندها، فما صرف الأخلاق إلا مع سيده، فلما كان بهذه المثابة قيل فيه ما قيل في خاتم النبوة: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4].

قال ﷺ في الباب الرابع والثلاثين وخمسمائة من «الفتوحات»: إن هذه الآية تُليت علينا تلاوة تنزُّل إلهي من أول السورة إلى قوله: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: 13] انتهى كلامه.

ومكارم الأخلاق معلومة عقلاً، وعرفًا، والتصرف فيها وبها معلومٌ شرعًا، فمَنْ اتَّصف بها على الوجه المشروع.

وزاد تتميم: مكارم الأخلاق، وهو إلحاق سفسافها بها، فتكون كلُّها مكارم الأخلاق بالتصرُّف المشروع والمعقول، فقد اتَّصف بكل ثناءٍ إلهي، واتَّصف فلا يزال محسودًا، وبالعداوة مقصودًا، فافهم.

قال المصنف ﷺ:

«فَظهرَ جَميعُ ما في الصُّورَةِ الإلهيَّةِ مِنَ الأسماء في هذِهِ النشأة الإنسانِيَّةِ فحازَتْ رُتبَةَ الإحاطَةِ والجَمْعِ بهذا الوُجودِ، وبِهِ قامتِ الحُجَّةُ للهِ تعالى عَلَى الملائكَةِ، فَتَحَفَّظْ فَقَدْ وَعَظكَ اللهُ بِغَيرِكَ، وانظُر من أينَ أُتِيَ عَلى مَن أُتِيَ عَليه، فإنَّ الملائكَةَ، لَم تَقِفْ مَعَ ما تُعْطِيهِ نشأةُ هذا الخَلِيفَةِ ولا وقَفَتْ مع ما تَقْتَضِيهِ حَضرَةُ الحَقّ مِنَ العِبَادَةِ الذّاتِيَةِ، فَإنَّهُ ما يَعْرِفُ أحدٌ مِن الحَقّ إلاّ ما تُعْطِيهِ ذاتُهُ، وَلَيْس لِلْمَلائكة جَمْعِيَّةُ آدَمَ»

قال الشارح ﷺ:

(فظهر جميع ما في الصورة الإلهيَّة من الأسماء في هذه النشأة الإنسانيَّة) هذا هو التخلُّق بجميع الأسماء، وهو أحسن تقويم.

وقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31] ولم يقل: بعضها، وقال ﷺ: **«إن الله خلق آدم على صورته»**[1] رواه الشيخان البخاري، ومسلم.

وفي رواية: **«صورة على صورة الرحمن»**[2].

(فجازت رتبة الإحاطة والجمع)، فجمع بين الصورة الحقيَّة، وصورة العالم وكان برزخًا بين الحق، والخلق مرآةً منصوبة يرى الحق فيها، ويرى الخلق فيها، فمن حصَل

---

(1) سبق تخريجه.

(2) سبق تخريجه.

هذه المرتبة، حصَّل رتبة الكمال الذي لا أكمل منه في الإمكان.

كما قال الإمام الغزالي - رحمه الله -: ما في الإمكان أبدع ما كان، ومعنى رؤية الحق: فيها إطلاق جميع الأسماء الإلهيَّة عليه، كما جاء في الخبر: «**فبهم تُنصرون والله الناصر، وبهم تُرزقون والله الرزاق، وبهم تُرحمون والله الرحمن الرحيم**»[1].

وقد ورد في القرآن: ﴿**بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ [التوبة: 128]، ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء: 107]: أي لنرحمهم بك؛ لأنه اسم الله الأعظم، فافهم.

(**بهذا الوجود**)؛ لأن صاحب هذا الوجود لا يرى في الوجود إلا الله، ويرى أحكام أعيان الممكنات في عين وجوده، وهذا هو النظر التام الذي لا ينال بالنظر ولكن ينال بالشهود، وهو قوله ﷺ: «**مَنْ عَرِفَ نفسه فقد عَرِفَ ربه، فمَنْ عَرِفَ أنه لم تزل عينه في إمكانه عَرِفَ ربه بأنه الموجود والوجود**»[2].

وبه (**قامت الحجة لله على الملائكة**): أي بهذا الجمع والوجود وهو حجة الله على الملائكة.

قال تعالى: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا**﴾ [البقرة: 31] يعني: الأسماء التي هي مبادئ لإيجاد العالم، ومؤثرات في حقائق الأكوان، ومن جملتها الأسماء الإلهيَّة التي توجَّهت على إيجاد الملائكة وهي لا تعرفها، ثم أقام المسمِّين بهذه الأسماء، وهم مظاهر التجلِّيات الإلهيَّة التي هي الأسماء كالمواد الصوريَّة للأرواح.

فقال: ﴿**أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [البقرة: 31]، يعني: الصور التي تجلَّى فيها الحق إن كنتم صادقين في قولكم: ﴿**نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ**﴾ [البقرة: 31]، كأنه قال لهم: وهل سبَّحتموني بهذه الأسماء التي تقتضيها هذه التجلِّيات التي أتجلاَّها لعبادي؟ وإن كنتم صادقين في قولكم: ونقدِّس ذواتنا عن الجهل بك، فهل قدَّستم ذواتكم لنا من جهلكم بهذه التجلِّيات وما لها من الأسماء التي ينبغي أن تسبِّحوني بها؟.

فقامت عليهم الحجة في ادِّعائهم الإلهيَّة، فقالت بعد العلم: ﴿**لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا**﴾ [البقرة: 32]، واعترفت بالكمال الذي غاب عنها هذا، وقد قال تعالى لها: إنه

---

(1) لم أعثر عليه.

(2) سبق تخريجه.

خليفة، فكيف بها لو لم يقل لها ذلك، فلم يكن ذلك إلا لبطونه على الملائكة.

(**فتحفظ، فقد وعظك الله بغيرك**) من أكبر العناية أن يعظك بغيرك، أن السعيد مَنْ وعظ بغيره وذلك لرتبة المحبوبيَّة وكمال السعادة.

(**وانظر من أين أتى على مَنْ أُتي عليه**) مبني للمفعول، يقال: أتاه، وأتى به وأُتي عليه، وهي لا تستعمل مجهولاً إلا في المكاره.

(**فإن الملائكة لم تقف مع ما تعطيه نشأة هذه الخليقة**): أي ما وقفت مع اقتضاء حقيقة هذه الخليقة؛ لعدم علمها بها.

(**ولا وقفت مع ما تقتضيه حضرة الحق تعالى من العباد الذاتية**) وهي الانقياد الذاتي.

حيث قال تعالى لهم: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: 30].

فكان ينبغي لها السمع والطاعة، فالتبست عليها صورة الإخبار بصورة الشهود، فما وفقت على حد الإطاعة والإنصات، والانقياد حتى قالت ما قالت.

فإنه (**ما يعرف أحدٌ من الحق إلا ما تُعطيه ذاته**) تعريفًا، أو تجليًا والمعرفة الإلهيَّة للملائكة بالتعريف لا بالتجلِّي كما اعترفوا بذلك، وقالوا: ﴿**لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا**﴾ [البقرة: 32].

(**وليس للملائكة جمعية آدم**) حتى يعلم مقتضى الذات، فلهذا فاتها الانقياد الذاتي بخلاف الإنسان.

أما ترى أنه عَبَدَ الحجر، والمدر، والجماد وما ذلك إلا من المعرفة بالاقتضاء الذاتي، والإدراك الذوقي، وليس للملائكة تلك المعرفة الذاتية، بل ما لها إلا تنزيه بحت، فافهم.

(**ولا وقفت مع الأسماء الإلهية التي تخصُّها، وسبَّحت الحق بها، وقدَّسته**):

أي ما وقفت مع الأسماء التنزيهيَّة المخصوصة بهم أيضًا؛ لأنها لو وقفت ما اعترضت. حاصل مجموع الكلام: إنهم ما وقفوا مع مقتضى ذواتهم، ولم يقفوا مع مقتضى ذات الخليقة، ولا مقتضى عبادة ذاتيَّة إلهيَّة؛ لعدم وقوفهم، واطِّلاعهم بالذاتيات وذلك لعدم علمهم بذات الحق تعالى، فإنها ما تدرك أصلاً، فإذا لم تدرك فلا تدرك

ذاتياتها؛ لأنها فرعها، فافهم.

قال المصنف ﷺ:

«وَلا وَقَفَتْ مَعَ الأسماءِ الإلهيَّةِ الّتي تَخُصُّها وَسَبَّحَتِ الحَقَّ بِها وقَدَّسَتْهُ، وما عَلِمَتْ أن لله أسماءً ما وَصَلَ عِلمُها إلَيها، فَما سَبَّحَتْه بِها ولا قدَّسَتْهُ فغَلب عَلَيها ما ذَكرنَاهُ، وحَكَمَ عَلَيها هذا الحالُ فَقالَتْ مِنْ حيثُ النَّشأةِ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: الآية30]، وَلَيْس إلاّ النّزاعَ وَهُوَ عَينُ ما وَقَعَ مِنْهم فَما قَالُوهُ فِي حقّ آدمَ هُوَ عَيْنُ ما هُمْ فِيه مَعَ الحقِّ، فَلَوْلا أنَّ نشْأتَهُم تعطي ذلِكَ ما قالُوا في حَقّ آدمَ ما قالوه وهُمْ لا يَشْعُرُونَ، فَلَو عَرَفُوا نُفُوسَهُم لَعَلِمُوا، ولو عَلِمُوا لَعُصِمُوا».

قال الشارح ﷺ:

(**وما علمت أن لله تعالى أسماء ما وَصَلَ علمها إليها، وما سبَّحته بها، ولا قدَّسته**)، وهي الأسماء التشبيهيَّة المؤثِّرة في الكون، فغلب عليها ما ذكرناه وهو عدم العلم والوقوف بالأسماء والمراتب والمواطن.

(**وحكم عليها هذا الحال**) وهو الغلبة المذكورة، فقالت من حيث النشأة: أي باقتضائها؛ لأنها طبيعية تعطي التشاجر، والتخاصم، والتحالف.

فقوله: النشأة يحتمل أن يريد بها نشأة آدم: أي حين عرفت أن نشأته ﷺ مركبة من الأضداد من الحقائق المختلفة، والطبائع المتنافرة، فحكمت بوقوع الفساد من ذلك؛ لعلمها بالحقائق، وكذا وقع الأمر، ولكن فاتهم أن الفساد قد يكون عين الصلاح، والإفساد عين الإصلاح، وكيف لا؟! والفاعل ربٌّ حكيمٌ عليمٌ.

وقد قال تعال: **﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾** [البقرة: 30] والرب هو المصلح لغةً، فما وقفوا على مقصود الحق من خلق الخليقة، ولو لم يكن الأمر كما وقع؛ لتعطَّلت من الحضرة الإلهية أسماء كثيرة لا يظهر لها حكم.

قال ﷺ: «**لو لم تذنبوا لجاء الله بقومٍ يذنبون فيستغفرون، فيغفر لهم**»[1] فنبَّه فيه أن كل أمرٍ في العالم إنما هو لإظهار حكم اسم إلهي، وإذا كان هكذا الأمر: أي كما

---

(1) أخرجه مسلم (2106/4)، وأحمد (309/2).

وقع فلم يبقى في الإمكان أبدع من هذا العالم ولا أكمل، وفساده عين الصلاح، وإفساده عين الإصلاح مع أن السفك يدل على الغلبة، والعزَّة التي لصاحب المرتبة ذي المنعة، والقوة، والشوكة، قال تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: 103].

قالوا: الخلافة العامة والعزَّة التامة، حتى قيل فيهم: ﴿وَلِلَّهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقين: 8]، مع أن العزّة لله، فإن عزَّتهم عزة الحق من مقام وحدة الوجود لله جميعًا، فافهم الإشارة: أي إلى أنهم عين الحق، يُستفاد من مجموع الآيتين، فإن كنت مِن أهلها أقل من هذا يكفيك، وإن لم تكن من أهلها، فكل الموجود ولو كان لسانًا ما يكفيك، فافهم.

وإنما وقع الغلط من استعجالهم بهذا القول من قبل أن يعلموا حكمة الله تعالى فيه، وما حملهم على ذلك إلا الغيرة التي فطرت عليها في جناب الله سبحانه ويحتمل أن يراد من النشأة لنشأتها: أي أنها قالت: من حيث نشأتها ومقتضائها؛ لأنها طبيعية: أي مخلوقة من الطينة، ولولا أن الملأ الأعلى له جزء من طبيعة، ويدخل من حيث هيكلها النوريَّة المادية التشاجر، والخصام لما اختصمت، فإن الخصام من التنافر، والتنافر من التركيب، فإذا تجرَّد لا خصام، ولا نزاع.

قال ﷺ في «الفتوحات»: لا بد في نشأتها من المنازعة، ولاسيما المولد من الإمكان فإنها مُولَدة من مولدِ، فلو وقفوا مع روحانيتهم وتجرُّدهم، فلم يقولوا ما قالوا؛ بل يقولون: ذلك إليك تفعل ما تريد، انتهى كلامه ﷺ.

وذلك لأن أول جسم خلقه الله تعالى الأرواح المهيمة ومنهم: العقل الأول، وأمَّا النفس الكل التي هي اللوح المحفوظ، فهي بواسطة العقل، فكل ملكِ خُلِقَ بعد هؤلاء، فداخلون تحت حكم الطبيعة، فهم من جنس أفلاكها التي خلقوا منها، وهم عمارها إلى أن ينتهي إلى ملائكة خلقت من العناصر إلى أن ينتهي إلى ما خلقت من أعمال العباد وأنفاسهم، قال تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: 31]، وهذه الأداة لا تكون إلا من الأعلى إلى الأدنى، كما قال تعالى: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: 116] استفهام التقرير بما هو به عالمٌ؛ ليقيم الشهادة على نفسه بما ينطق به مع أنها

ذات عيوب الغير، وهي بعينها فيها، ولم ترها في نفسها التي اتَّصفت بها في الوقت شيئًا، وبعدها شيء من حيث لم يشعر، فافهم.

(وليس إلا النزاع) قال ﷺ: المنازعة هي المخالفة، والمخالفة هي الخصام والخصام من الطبيعة، ولا يكون إلا بين الضدين، ومن هذه قالت ما قالت ورجُحت تدابيرًا كونيًا على تدبيرِ إلهي وهو من أكبر الفسادات مع أنه تعالى وصف نفسه الكريمة بأنه: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ [السجدة: 5]، وما وصف نفسه إلا أن يعرِّف أنه ما يعمل شيئًا إلا ما يقتضيه حكمة الوجود وأنه أنزله موضعه الذي لو لم ينزله فيه لم يُوفَ الحكمة حقها، وهو الذي أعطي كل شيء خلقه، ثم هدى.

قال ﷺ: أي يبين أن الله تعالى أعطى كل شيء خلقه، حتى لا يقول أحدٌ ينبغي كذا، يقتضي كذا، قال تعالى: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: 46].

قال ﷺ من هذا المقام: إن الله عصمني من القهر، فلم أنازع قط، وكل مخالفة تبدوا مني كمنازع، فهي تعليمٌ لا نزاع، فافهم.

(وهو عين ما وقع منهم) وقعت فيما غابت به غيرها، ونازعت في الإطاعة والانقياد، وقالت ما قالت، ووقعت في الفساد وهم لا يشعرون، وكذلك وقع منها سفك الدماء.

ذكر ﷺ في الباب الرابع والخمسين ومائة من «الفتوحات»: إن الملائكة التي أنزلها الله في بدر كانوا من الملائكة، أو هم الملائكة التي قالوا في خلق آدم ﷺ ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: 30]، فأنزلها الله سبحانه في بدر، فسفكوا، ووقعوا فيما عابوا به، انتهى كلامه ﷺ.

ولو لم تعترض الملائكة ما ابتليت بالسجود، فلما علم الحق منها السعوف والعلو على آدم ﷺ، فأنزل بهذا العضال دواءًا شافيًا، فأمرهم بالسجود، فلمَّا تحسُّوا هذا الدواء حَسْوًا برؤوا من الزهو، وعلموا أنه يفعل ما يريد، وما ابتلوا به إلا عن إغضابٍ دقيقٍ خفي لا يشعر به إلا الراسخون، وهكذا كل انتقامٍ إلهي يقع بالظلم لا يكون إلا بعد إغضابٍ، وتحصيل معرفة الإغضاب على غاية الاستقصاء حتى يجتنبوا عنه في غاية الصعوبة، فإنه من علم الأسرار ما يعرفه كل أحدٍ.

وكان حُذيفة اليماني صاحب رسول الله ﷺ عالمًا به، فلهذا سمِّي بهذا الاسم: أي صاحب السرِّ، وليس علم أنفع منه في حق الأولياء، ذكره ﷺ في الباب الحادي

والأربعين وثلاثمائة من «الفتوحات»، وكل ذلك من عدم العلم والكشف بحقائق الأمور وعدم الاطِّلاع بأحكام القضاء والقدر.

أما ترى اعترافها عليها السلام حين أعلمهم الله تعالى حقيقة الأمر أنها قالت: ﴿لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة: 32]، وأمَّا قولهم: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ [الصافات: 164] فعترافٌ منهم أن لهم حدودٌ يقفون عندها، ولا يتعدونها، ولكن لا ندري أنه وقع هذا قبله أو بعده، وترى أكمل الخلق وجودًا، وأعلمهم بالله علمًا، وكشفًا، وشهودًا مع العلم العام التام، فإنه ﷺ عَلِم علم الأولين والآخرين أنه يقول: «لا أدري ما يفعل بي ولا بكم»[1] هذا هو الأدب المطلوب، والاعتناء الإلهي حِفْظَهُ أن يُضيِّق الكمال لنفسه، ويدَّعيه لذاته على الإطلاق مع أن له الحق. فافهم.

(فلو عرفوا نفوسهم) ورد في الخبر: «فإن مَنْ عَرِفَ نفسه فقد عَرِفَ ربَّه، ومَنْ عَرِفَ ربَّه عَرِفَ حقَّه منه»[2].

(لعلموا) أنهم من بعض قواه ﷺ، (ولو علموا) أنهم مِنْ بعض قواه؛ (لعُصموا) من بركة العلم عن التجريح، فإنه لا يجرح أحدٌ نفسه.

(أو عرفوا نفوسهم) عرفوا ربهم، فإن «مَنْ عَرِفَ نفسه، فقد عَرِفَ ربَّه، ومَنْ عَرِفَ ربَّه عرف مواقع خطاياه، ومَنْ عَرِفَ مواقع خطاياه نُعْصِمَ من الزلل»[3].

(ولكن ما عرفوا) لأن هذا النوع من العرفان مخصوص للإنسان، فلم يعلموا فما عصموا، فوقعوا ما وقعوا فيه.

قال المصنف رضي الله عنه:

(ثم لم يقفوا مع التجريح حتى زادوا في الدعوى بما هم عليه من التقديس والتسبيح، وعند آدم من الأسماء الإلهية ما لم تكن الملائكة عليها، فما سبَّحت ربَّها بها ولا قدَّسته عنها تقديس آدم وتسبيحه).

قال الشارح رضي الله عنه:

(ثم لم يقفوا مع التجريح) [illegible] [البقرة: 30].

---

(1) [illegible]

(2) [illegible]

(3) [illegible]

ولم يكن ينبغي لهم ذلك؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: 12].

(حتى زادوا في الدعوى) يعني: وقفوا مع التجريح إلى أن زادوا في الدعوى وكل مدَّعٍ مطالب بالبرهان على صحة دعواه فإن البيّنة على المدَّعي، فاحتاجت إلى البيّنة والشهود والشهود ولا بد له من التزكية، فزكّت أنفسها بلا شهود وغفلت عن قوله: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النجم: 32] فمن التزكية ونعت في الدعاوي والتجريح من حيث لا تشعر.

(بما هم عليه من التسبيح والتقديس)وهو قوله سبحانه: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: 31].

مع أنه تعالى أخبر أن كل شيء يسبح بحمده، ولكن هنا فرقٌ آخر، وهو أن تسبيح العالم يثبت بشهادة الله تعالى، حيث قال: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: 44]: أي بحسب علمهم وقدر معرفتهم، فيكون ضمير بحمده راجعًا إلى كل شيء؛ لأنهم قدَّروا الله حق قدره، وتسبيحهم بأدعيائهم، وإن كان في نفس الأمر يحتمل أن يكون موافق الحق، ولكن ما نعلم أن اختيارهم بهذا من الاتفاقات الحسنة ومن التعريف الإلهي؛ لأن المسبِّح أثبت على نفسه الحجاب، ولا يكون المسبِّح في حالة الشهود؛ لأن الشهود فناءٌ، والعالم لا يفترِ عن التسبيح طرفة عين؛ لأن تسبيحه ذاتي كالنفس للمتنفس، فدلَّ أن العالم لا يزال محجوبًا، وطلبهم بذلك التسبيح هو المشاهدة، فخلق الإنسان على صورته وأعطاه دوام المشاهدة، وعرف الملائكة بمرتبته السنيَّة، وأخبرهم: إن لهم بهذه الكرامة.

أما ترى قول الشيخ الأكبر ﵁ في «الفتوحات» أنه قال: كل العَالَم يسبِّح غير الإنسان الكامل؛ لأن التجلِّي له دائمٌ، وحكم الشهود له لازمٌ يا ليت شعري! لو قالت: نُسبِّحك بحمدنا: أي بما نحن عليه كان يخلِّصهم؛ لأن كل أحدٍ ما يسبِّح إلا بحمده: أي بقدر علمه وكشفه، قال تعالى تنبيهًا لذلك: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: 91] فافهم.

(وعند آدم الأسماء الإلهية) مِن حيث التحقق والتخلُّق، لا من حيث التخلُّق، وبأنوار هذه الأسماء يظهر مسمياتها خَلقًا وخُلقًا مما يتعلق بالذات والصفات والأفعال

في الإلهيات ومما يتعلّق بأجناس الممكنات وأشخاصها جملة تفصيلاً، وهذه الأنوار التي كانت لآدم خَلقًا حين عَلِمَ جميع الأسماء، وتحقق بها حيث علم كيفية التأثير في الوجود بالأسماء كانت له بالتعليم أو بالوضع الإلهي لا بالتعليم بالاصطلاح المعتاد، وفي ذلك تكون الفضيلة والاختصاص، فقد أحضر الله تعالى أعيان المسميات، فقال تعالى: ﴿فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: 31].

ومن جملة المسمّين أعيان الملائكة عليهم السلام فما عرفوها ذوقًا، فإن علوم الأكابر ذوق، والذوق إنما يكون عن تجلٍ إلهيّ لا عن تعريف، ولا لهم هذا التجلّي فلا لهم ذوقه.

فقالوا: ﴿لاَ عِلْمَ لَنَا﴾ فعلَّم آدم الأسماء الإيجاديَّة كلها، وأسند إلى نفسه إيجادهم بالأسماء التي هم مظاهرها، والتي أوجد بها الملائكة المتعرضين، واستندوا إليها، فافهم.

إن هذا تعليم الأسماء المؤثرة في الكون، وهذا هو التعليم الإلهي الذي وقع في نفس الأمر لا ما يحتمل عقلاً، ويمكن وهما كما هو المتبادر لإفهام القاصرين، والفائدة إنما هي فيما وقع لا فيما يمكن، وهذا هو الفرق بين أهل الكشف مما يقولون، وبين أهل النظر والفكر مما يتوهمون، فافهم.

حتى نعلم رتبة الملك عن آدم، فإنه متأثر عن مؤثِّرٍ، ولآدم رتبة الإيجاد عليها فافهم.

وهذا حيث ألاح له لوائح القدم يعني: عطاء مرتبة الوجود، وأخرجه غير حيطة الإمكان، فجعله خلافًا للملائكة فافهم.

في صفائح العدم، ورجع قهقري بالسبك، والفك إلى البساطة بتحليل التركيب وفناء البناء والرسم، وذلك رجوع بالعرفان لا بذهاب العين والاسم.

وَمَا كُلُّ عَينٍ بالجَمَالِ قَرِيرةٌ ... وَمَا كُلُّ مَنْ نُودِي يُجيبُ إذا دُعِي

(ما لم تكن الملائكة عليها): أي على الأسماء الإلهية التي استند إليها المشار إليهم بهؤلاء في إيجادهم وأحكامهم، كأنه تعالى يقول توبيخًا لهم وتقريرًا: هل سبَّحتموني بهذه الأسماء، وقدَّستموني بها؟ حيث ادعوا نحن نسبّح بحمدك، ونقدِّس لك.

(فما سبَّحت ربها بها): أي بالأسماء الإيجاديَّة التي بها الإلهُ إله، وبها يؤثر في

الكون **(ولا قدسته عنها تقديس آدم وتسبيحه)**؛ لأنه سبَّحه كل إنسان وهو الدليل عليه بكل برهان، والمعلم بكل الأسماء.

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31] ومن جملة الأسماء التي توجَّهت لإيجاد الملائكة، وبيان ذلك التجلِّي في الأنوار الطبيعية المختصَّة بآدم ﷺ فهو التجلي الصوري المركب، فيعطي من المعارف بحسب ما ظهر فيه من الصور وهو يعمّ الملك والفلك وغيرها.

قال ﷺ: ومن هذا التجلِّي نعرف صلاة كل صورة وتسبيحها، وكلٍ قد عَلِمَ صلاته وتسبيحه، وهو كشفٌ جليلٌ.

ومن هنا يدرك أن كل شيء يسبح بحمده تسبيحًا ذاتيًا ولكن على قدر عِلمِهِ بنفسه، فينزِّه من كل ما هو عليه من الحوادث به أعني: الحوادث المختصَّة به لا مطلقًا.

ولهذا السرُّ يختلف تنزيه الحق وتسبيحه، وأن تسبيح آدم تسبيح عن التسبيح وتقديس عن التقديس كما حمد الله، وسبَّح نفسه.

وقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11] نزَّه وشبَّه في تلك الآية.

أشار إلى هذا المعنى ما ورد في الخبر في تفسير الآية: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الطور: 48]: أي قل: سبحان الله والحمد لله إنه ﷺ جعل التسبيح بالحمد بين تنزيهٍ وتشبيهٍ، فافهم هذه الإشارة، فإن هذا هو تسبيحه بحمده نفسه، فتسبيحه إياه تسبيحه.

قال المصنف ﷺ:

« فَوَصَفَ الحَقُّ لنا ما جَرى لِنَقِفَ عِندَه ونَتَعَلَّمَ الأدبَ مَعَ الله تعالى فلا نَدَّعِي ما نَحْنُ مُتَحَقِّقون بِهِ وحاوُون عَليهِ بالتَقْيد؛ فَكَيفَ أنْ نُطْلِقَ في الدَّعوى فَنَعُمَّ بِها ما لَيس لنا بِحالٍ ولا نَحْنُ مِنْهُ على عِلمٍ فَنَفْتَضِحَ؟ فهذا التَّعريفُ الإلهيَ مِمّا أدَّبَ الحقّ بِهِ عبادَهُ الأُدباء الأُمَناء الخُلَفَاءَ».

قال الشارح ﷺ: **(فوصف الحق لنا ما جرى)** للملائكة من المعارضة؛ **(لتقف عنده وتتعلم الأدب مع الله تعالى)**.

ورد في الأثر المأثور: «السعيد مَنْ وُعِظَ بغيره»[1] قيل في المثل: إياك أعنّي واسمعي يا جارة.

---

(1) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (31/8).

بل كان هذا الخبر من الله من قبيل حفظ الصحة على آدم وبنيه قبل قيام العلة، فإنه من ألطف حفظ الصحة، وهو أن يحفظ المحل قبل أن يقوم به مرضٌ وعلةٌ لأنه كان في الاستعداد قبول المرض، قال تعالى: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: 46].

وذكر هذه الحكاية منه تعالى لنا من أتمِّ المواعظ، وأعلى المنن والاغتناء؛ لتكون من السعد الذين وعظوا بغيرهم.

(**فلا تدَّعي ما نحن متحققون به**) مع أن الدعوى له حق، والتحدي به صدق كخاتم النبوَّة ﷺ أنه عَلِمَ عِلم الأولين والآخرين.

ومع هذا قال: «**لا أدري ما يُفعل بي ولا بكم**»[1] ولا يدَّعي العلم والكشف مع العلم والكشف، وهكذا الولاية المحمَّديَّة فإنه خاتم الولاية، ولا يصرِّح القول بدعواه والنص عليه أصلاً.

(**وحاوون عليه بالتقييد**): أي فلا ندَّعيه وهو مختصّ بنا، ونحن مشتملون عليه أما ترى أن للإنسان الكامل ظهورًا في المرتبة، ومع هذا نصب عينيه حكم ليس لك من الأمر شيء، بل إذا ظهرت عليه أحوالٌ، وصدرت منه آثارٌ وأفعالٌ يقول: هي لله تعالى الظاهر بأسمائه، فما لنا والدعوى فنحن لا شيء في حال كوننا مظاهر له وفي غير هذا المحال، فللعبد ترك الدعوى والتبرّي عنه أولى، وإن كان ترك الدعوى من الدعوى، ولكن التبرّي من الدعوى بالدعوى أليق وأحرى، وهذا كله لتعلم شؤم الدعوى وراحة تركها.

قال ﷺ في «**الفتوحات**»: هذا المقام يسمَّى راحة الأبد والقائم فيه مستريح وهذا الذي وفَّى الربوبيَّة حقها؛ لأن الحكم للمرتبة لا للعين.

فالزهو والدعوى من أين؟ كالسلطان المتحكِّم في المملكة إنما هي المرتبة لا عين ذلك الإنسان، أما ترى حين عزل ما يؤوُل إليه حاله، فالناصح نفسه لا ينخدع من نفسه، ويرى أن الحكيم وضع خلافته في الأرض.

وقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30] ولم يقل: في الأرض والسماء مع أنه هكذا، كما أنه في السماء إله، وفي الأرض إله حتى لم يزل في مقام

---

(1) سبق تخريجه.

الذلَّة والعبوديَّة في نفسه ولا تحجبه مرتبة الخلافة بالصفات التي أمدَّه بها عن رتبة عبوديته، بل منهم من الأدباء الذين يجعلون بينهم وبين نعوت الحق تعالى عند التخلُّق بأسمائه ما وصف به الملأ الأعلى من تلك الصفة، فيأخذونها من حيث هي صفة لعبيدٍ من عباد الله مطهَّرين، لا من حيث هي صفة للحق أدبًا مع الله تعالى حتى لا يكونوا تخلَّقوا بأخلاق الله تعالى، فهم لا يرجعون من مقام العبوديَّة ولا يجدون طعمًا للربوبيَّة التي تستحقها هذه الأسماء، وهذا الذوق في العارفين عزيزٌ وهو من شيم الأولياء الكرماء الأخفياء الأبرياء، وهذا هو التأسِّي بسيد الخلق مع سيادته يقول: «أنا عبدٌ وأنا بشرٌ مثلكم»[1].

وأيُّ أُسوة أعظم من هذا التأسِّي لمن عقل عن الله تعالى، رحم الله امرؤ عَرِفَ قدرهُ ولم يتعدَّ طوره، فطوبى لمن كان على صورةٍ تقتضي له المنزلة من العلو والسيادة، ولم يؤثر فيه ولا أخرجته عن عبوديته، كما قال سيد أرباب الآداب ﷺ بالأمر الإلهي والتأديب الربَّاني: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: 110]، فتلك عصمة وحظ أوفر، حققنا الله وإيَّاكم بهذا المقام المطلق والحال المحقق بمنِّه وفضله الحق.

(فكيف أن تطلق في الدعوى فتعمَّ بها ما ليس لنا بحالٍ ولا نحن منه على علمٍ فنفتضح؟): أي عند الله وبين أيدي عباده العالمين بحقائق الأمور، أما ترى الإنسان الكامل وإن وصفه الحق بما وصف به نفسه من جميع الوجوه يعلم أنه لا بد من فارق وليس إلا افتقاره إليه في الوجود، وتوقف وجوده عليه لإمكانه وغناه.

فبهذا الاتِّصاف صحَّ له الاتِّصاف بالأدب والاقتداء، ولم يفتضح عند كشف الغطاء، ولذلك إن الأكابر منهم لا يتحدثون إلا عن مواجيدهم كل ذلك خوفًا من الفضيحة بعد الكشف.

قال الله تعالى تأديبًا لعباده: ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 66] رفع عنهم رأسًا، وقال تعالى: ﴿فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِراً وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَداً﴾ [الكهف: 22].

فالناصح نفسه اللبيب الأديب ينبغي أن يقف مع الله، ويترصَّد أعلامه تعالى، فإن كان من أرباب التجلِّي فيترقب التجلِّيات الإلهية بواسطة أو بغير واسطة؛ لأن طرق

(1) أخرجه البخاري (156/1)، ومسلم (401/1).

العلم انحصرت بهذه المراتب حتى لا يفتضح؛ حيث افتضح غيره ويلتحق بالسعداء الذين وعظوا بغيرهم.

(فهذا التعريف الإلهي): أي الذي عرفنا الله مما وقع من الملائكة.

وقد حكاه الله تعالى لنا حكايةً وتعريفًا وتأديبًا مما أدَّب الحق به عباده الأُدباء.

(الأدب) مشتق من المأدُبة وهو الاجتماع على الطعام كذلك الأدب عبارة عن جماع الخير كله، قال ﷺ: «إن الله أدَّبني»: أي جمع فيَّ جميع الخيرات؛ لأنه قال: «فأحسن تأديبي»[1].

وأحسن ما جمع الإنسان العلم بالله مأدُبة، والأدب بابها فمن حرم عن الباب أيس من الدخول عليها، فلا تدخلوا البيوت: أي العلوم مثل قوله: أنا مدينة العلم إلا من أبوابها، وهي التخلُّق بأسماء الحق، والوقوف على ما تقتضيه عبوديته وإن يوفِّى ما يستحقُّه مرتبة سيده من امتثال أوامره.

ورد في الخبر: «إن هذا القرآن مأدُبة الله، فتعلَّموا من مأدبته ما استطعتم[2]... » الحديث رواه ابن مسعود ﷺ.

فهذه المحاسن كلها كانت مجموعة فيه ﷺ أحسن جماع، وبهذا ورد عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «خُلقه القرآن»[3].

(الأمناء الخلفاء): أي أمناء الأمانة وخلفاء الرتبة.

قال ﷺ: «إن لله أمناء»[4]، وقال في أبي عُبيدة بن الجرَّاح: «إنه أمين هذه الأمة»[5]، قال ﷺ: طائفة من الملامتيَّة لا يكون الأمناء من غيرهم وهم أكابرهم فلا يُعرف ما عندهم من الأحوال بجريهم مع الخلق بحكم العوائد، والوقوف عند ما أمر الله به ونهى على جهة الفريضة.

والخضر ﷺ من الأمناء ولما عرض الله الأمانة على الإنسان وقَبِلَها كان بحُكم الأصل ظَلومًا جَهولاً، فإنه خوطب بحملها عَرَضًا لا أمرًا، فإن حملها جبرًا كان أعين

---

(1) أورده المناوي (225/1).
(2) أخرجه الدارمي (523/2)، والبيهقي (325/2).
(3) أخرجه أحمد (91/6)، والطبراني في «الأوسط» (30/1).
(4) أورده المناوي في «فيض القدير» (165/4).
(5) أخرجه البخاري (1592/4)، ومسلم (1881/4).

عليها مثل الأمناء، فإنهم حملوها جبرًا لا عَرَضًا، فإنهم حَمَاهم الكشف فلا يقدرون أن يجهلوا ما عَلِموا، ولم يريدوا أن يتميَّزوا عن الخلق؛ لأنه ما قيل لهم في ذلك أظهروا شيئًا منه وإلا لا تظهروه، فوقفوا على هذا الحد، فسمُّوا أمناء، ويزيدون على سائر الطبقات بأنهم لا يَعرف بعضهم بعضًا بما عنده، فكل واحدٍ منهم يتخيَّل في صاحبه أنه من عامة المؤمنين، وهذا ليس إلا لهذه الطائفة من الأمة خاصة هكذا ذكره ﵁ في «**الفتوحات**».

قال الشيخ ﵁:

« ثُمَّ نَرجِع إلى الحكمة فَنَقُولُ: اعْلَمْ أنَّ الأُمُورَ الكُلِّيَّةَ وإنْ لَم يَكُنْ لَها وجودٌ في عَيْنها فهِيَ مَعْقُولَةٌ مَعْلُومَةٌ بِلا شكٍ في الذِّهنِ، فهي باطِنَةُ لا تَزُولُ عَنِ الوجُودِ العَيْنِي، وَلَها الحُكمُ والأَثَرُ فِي كلِّ ما لَهُ وجودٌ عينيٌّ، بل هُوَ عَيْنُها لا غَيرها، أعني أعيانَ الموجودات العَيْنِيَّةِ، وَلَمْ تَزَلْ عَنْ كَونِها مَعْقُولَةً فِي نَفْسِها فهِيَ الظَّاهِرَةُ مِنْ حيثُ أعيانِ الموجُوداتِ كما هِيَ الباطِنَةُ مِنْ حَيثُ مَعْقُولِيَّتِهَا».

قال الشارح:

(**ثم نرجع إلى الحكمة ونقول**) لما وقعت حكاية الملائكة جملة معترضة في بيان الحكمة التي كان ﵁ بصدد بيانها، وانقطعت فرجع لتكميل بيانها، ويريد التمثيل المضروب للحقائق الكليَّة التي اتَّصف بها الحق والخلق بها، فهي للحق أسماءٌ وللخلق صفاتٌ، وهي على أصلها في المعقوليَّة ما برحت ولا تقوم الصورة إلا في هذا المعقول، فافهم.

(**اعلم أن الأمور الكلية وإن لم يكن لها وجود في عينها**): أي من حيث إنها كليَّة طبيعيَّة ليس لها وجود مستقل في الخارج، فهي معقولة بلا شك في الذهن كالعلم والحياة فإنهما معلومان فهي باطنة من حيث هي كليَّة.

(**لا تزول عن الوجود العيني**) بالعين المهملة، وقُرِئ لا تزال معلومًا أو مجهولاً يعني: أن الأمور الكليَّة المطلقة، ولو لم يكن لها وجود من حيث إطلاقها وكليتها في الخارج ولكن لا تنفك عنه؛ إذ وجودها في ضمن أفرادها، فإن الوجود الكلي الطبيعي في ضمن الأفراد كالعلم والحياة مثالهما وجودٌ عيني باطني في العقل، ولهما وجود عيني ظاهري في الخارج.

(**ولها الحكم والأثر في كل ما له وجود عيني**): أي الأمور الكليَّة المعقولة التي

لا عين لها في الوجود العيني الخارجي لها الحكم والأثر، فصار الحاكم والمؤثر أمورًا عدميَّة معقولة ما لها عين في الخارج فعلى الحقيقة لا أثر لموجودٍ في موجودٍ، وإنما الأثر للمعدوم في الموجود، ويظهر ذلك في أحكام المراتب كمرتبة السلطنة ومرتبة السوقة بما يريد لمرتبة السلطنة، وليس للسلطنة وجودٌ بل هي مرتبة المراتب.

والعاقل يرى ويعلم أن المتحكِّم في المملكة إنما هي المرتبة لا عينه إذ لو كان لكونه إنسانًا فلا فرق بينه وبين سائر الأناسي، والمرتبة كانت ما كانت أمرٌ اعتباري لا عين لها في الوجود، فافهم:

الجمعُ حَالٌ لا وجودَ لِعينهِ ... وَلَهُ التحكُّم ليس للآحادِ

وهذه المسألة مضى لها ذكرًا سابقًا: إن كنت مفيقًا، فهذه الأمور الكلية حاكمة على الطبائع التي تعرض لها بأن يقال لها أنها حيَّة ذات علم وإرادة وقدرة وترتب عليها ما يلزمها من الأفعال والآثار التابعة لها، بل هو عينها ضمير هو يرجع إلى كل، وضمير عينها إلى الأمور الكليَّة فهو إضرابٌ وله الحكم في كل موجود.

(بل هو عينها): أي كل ما له وجودٌ عيني في الخارج هو عين الأمور الكلية وليس بأمرين، بل أمرٌ واحدٌ وله اعتبار عند العقل واعتبار في الخارج مثلاً تحلل الجامد، وتغيَّرت الصورة فتغير الاسم فتغير الحكم، فلمَّا رجع جامدًا رجعت الصورة في الحال، والحال كالحال فنزلت الأحكام تخاطب الأعيان بما هي عليه من الصور والأحوال والأسماء، فالعين واحدة والصور مختلفة الأحوال باختلاف الصور، فافهم.

هكذا الأمر في جميع الصور كانت ما كانت لا غيرها: أي الأمور الكليَّة المعقولة.

(أعني): أي أُريد بكل ما له وجودٌ عيني أعيان الموجودات العينيَّة الخارجيَّة وذلك؛ لأن الكلي الطبيعي عين جزئياته في الخارج، فإن الحقيقة الواحدة ظهرت بالصورة والشخص، وهما أمران نسبيَّان عدميَّان ليس لهما وجود في الخارج، فما ظهرت الحقيقة الكليَّة الواحدة إلا بإطلاقها فَهِمَ مَنْ فَهِمَ، وأنكرَ مَنْ أنكرَ.

(ولم تزل عن كونها معقولاً في نفسها): أي لم تزل تلك الأمور الكليَّة في كلمتها في البطون من حيث معقوليتها، وما ظهرت لأنها مراتب والمراتب لم تتنزَّل عن مقامها أبدًا.

(فهي الظاهرة): أي تلك الأمور الكلية من حيث أعيان الموجودات

العينيّة الخارجيّة.

(**كما هي الباطنة من حيث معقوليتها**) وكليتها.

قال المصنف ﷺ:

«فاستِنادُ كُلِّ مَوْجودٍ عَيْنِيّ لهذهِ الأُمورِ الكُلّيَّةِ التي لا يُمْكِنُ رَفْعُهَا عن العَقلِ، ولا يُمْكِنُ وجودُها في العينِ وجُوداً تَزُول بِهِ عَن أن تَكُونَ مَعْقُولَةً، وسَواءٌ كانَ ذلكَ الموجُود العينيُّ مؤقتاً أو غير مؤقتٍ إذْ نِسْبةُ الموقتِ وغير الموقتِ إلى هذا الأمْرِ الكُلّي المعقولِ نِسْبَةٌ واحدَةٌ».

قال الشارح ﷺ:

(**فاستناد كل موجود عيني خارجي لهذه الأمور الكلية التي لا يمكن رفعها عن العقل**): وهذه الحقيقة لا تزال معقولة أبدًا لا يقدر العقل على إنكارها، ولا يزال حكمها موجودًا ظاهرًا في كل موجود.

(**ولا يمكن وجودها في العين وجودًا تزول به أن تكون معقولة**): لأنها مراتب والمراتب لا تزول عن مراتبها، ولا تتنزَّل عن مقامها، فهذه الحقيقة الكليّة جامعة للأضداد لها، والظهور والبطون موجودة معدومة، فكل موجودٍ لها صورة فيه ولا صورة في ذاتها، فحكمها ليس سوى ذاتها وذلك الحكم من آياتها تجتمع الأضداد في وصفها، فنفيها في عين إثباتها، وهكذا الأمر في الإلهيات، فإن صورة العالم لا يمكن زوال الحق عنها أصلاً وهو تعالى جامع الأضداد بل عينها.

ذكر ﷺ في «**الفتوحات**» عن تاج الدين الأخلاطي أنه قال حين سمع منه كلام الخراز - قُدِّس سرُّه - أنه قال: عرفت الله بجمع الأضداد إنه يوهم كلامه أن ثمة عينًا تجمع الأضداد وليس كذلك، بل هي عين الضدين لا عين زائدة فما ثم إلا هذا فافهم.

ولمَّا كان هذا الأمر الكلي المعقول لا يقيِّد الزمان، بل الزمان والأزمان عنده أُسوة ولا يتقيَّد به، أراد ﷺ أن نسبته إلى الموجودات نسبة واحدة، قال الله تعالى: ﴿**وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ**﴾ [القمر: 50].

فقال: (**وسواء كان ذلك الموجود العيني مؤقتًا**): أي زمانيًا كعالم الخلق والشهادة، أو (**غير مؤقت**): أي غير زماني كعالم الأمر والغيب.

(**نسبة المؤقت إلى هذا الأمر الكلي المعقول نسبة واحدة**) باستنادٍ واحدٍ، ولا يختص هذا التأثير ببعض دون بعض، بل كلهم سواء في قبول التأثير من هذا المؤثر

الكلي العقلي، واقترانه بالزمان، وعدم اقترانه لا يتأثر فيه وذلك لعدم تقيُّده: أي الأمر بالزمان فإنه من عالم الأمر، فافهم.

قال المصنف ﷺ:

«غَيْرَ أنَّ هذا الأمْرَ الكُلّي يَرْجِعُ إلَيه حُكْمٌ مِنَ المَوجوداتِ العينيّة بِحَسَبِ ما تَطْلُبُهُ حَقائقُ تِلكَ المَوجُوداتِ العينيةِ، كَنِسبَةِ العِلم إلى العالمِ والحياةِ إلى الحَيّ، فالحَياةُ حَقيقةٌ مَعْقُولَةٌ والعِلْمُ حَقِيقَةٌ مَعْقُولَةٌ متميّزةٌ عَنِ الحياةِ كما أنَّ الحياةَ مُتَمَيِّزَةٌ عَنْهُ، ثُمَّ نَقُولُ في الحقّ تعالى: إنَّ له حياةً وعِلْماً فَهُوَ الحيُّ العالِمُ ونقول في المَلَكِ: إنَّ لهُ حياةً وعِلْماً فَهُو الحيُّ العالِمُ».

قال الشارح ﷺ: فلمّا أراد ﷺ أن يبيّن كمال الارتباط بين المعدومات والموجودات حتى يثبت ذلك الارتباط بالملازمة بين الموجودات، فأثبت أولاً ربطًا قويًا وهو التأثير من هذا الأمر الكل العدم على الموجودات العينيّة بأسرها، وأراد أن يذكر تأثيرًا آخر، وربطًا آخر محدث من جهة الموجودات الخارجية فكما تكون الحقائق العقلية مؤثِّرة كذلك تكون متوتِّرة من جهة الأعيان الخارجيّة مبالغة لبيان الارتباط واهتمامًا به، فإن الارتباط من الجانبين ما هو كالارتباط من جانبٍ واحدٍ، فأخذ على صورة المبالغة كما قيل في شعر:

وَلا عَيبَ فيهم غيرَ أَنَّ سُيوفَهم ... بهن فُلولٌ مِنْ قِراعِ الكتائِبِ

يعني: وإن كان التأثير من الحقائق العقليّة ثابتة، والرابطة حاصلة، غير أن هذا الأمر الكلي يرجع إليه حكمٍ: أي أثرٍ تتأثَّر به الحقائق الكليّة من الموجودات العينيّة كنسبة العِلم إلى العَالِم، والحياة إلى الحي، فكل منهما: أي من الأمر الكلي العيني والموجود العيني كان ما كان مؤثِّر ومتأثِّر وفاعل ومنفعل، فافهم مراده وإشارته وضرب مثاله ﷺ ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 182] فافهم ولا تكن الغليظ القدم، ومكرنا مكرًا وهم لا يشعرون، بل لله المكر جميعًا.

فالغافل المؤمن الناصح نفسه إذا سمع ممن يقول عن الله تعالى أو عن رسوله ينصت ويصغي، ويتأدّب ويتفهّم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: 204] فأوقع الترجي مع هذه الصفة وكيف حال مَنْ خاصم، وعَاند ورفع صوته، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الحَمِيرِ﴾ [لقمان: 19] فالعاقل الناصح نفسه من

ترك ما عنده لما جاءه من عند الله تعالى، فافهم.

فقد نبهتك على علمٍ عظيم من لطائف إشارات الشيخ وضرب أمثاله تشكرني عند الله وعنده ﷺ: إني أرجو أن أكون من مفصِّلي الألغاز بفهم إشاراته التي لا تجدها في كتب المؤلِّفين، وهذا كله قطرة من بحر كراماته ونقطة من فتوحاته، فما للمحبين المؤمنين إلا الفهم فيه من الله تعالى وهو الوحي الإلهي الذي أبقاه الحق لنا وراء حجاب الإيمان، فافهم.

قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه: 114]، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: 11]، فإنه شكر تلك النعمة، وبالشكر تزيد النعم، فالحياة حقيقة معقولة كليّة مؤثِّرة في الحي كان مَنْ كان، والعلم حقيقة معقولة كليّة مؤثِّرة في العالم كان مَنْ كان فافهم.

(متميِّزة من الحياة كما هي الحياة متميزة عنه) وكل منهما متميِّز عن الآخر في مرتبة التفصيل، ثم تقول عند ظهورهما في الخارج في الحق تعالى أن له علمًا وحياةً فهو الحي العالم.

(ونقول في الملك) بضم الميم وهو بمعنى: العالم أن له حياةً وعلمًا، فهو الحي العالم، فذكر ﷺ المُلك في مقابلة الحق تعالى، فافهم.

(ونقول في الإنسان أن له حياةً وعلمًا فهو الحي العالم) جعل ﷺ التقسيم على ذوقه ﷺ حين أعرضت الشرّاح كلهم عينها وما أتى على مَنْ أتى إلا بتصحيف المُلك بالضم بالمَلك بالفتح، ويدل على هذا سوقهم أحكام الملك على مساق الإنسان، وقولهم: إن الحياة والعلم فيهما حادثان وليس عينهما، فافهم.

فإذا عرفت هذا فتقول: إن العلم والحياة وجميع الحقائق الموجودة في الخارج لها مع الذات ثلاثة أحوال:

إمَّا العينيّة كما في الإلهيات، وإمَّا الغيريّة كما في العالم والملك، وإمَّا إلا غير ولا غير؛ لأنه عينٌ وغير من جميع الأضداد، بل هو عين الأضداد.

كما في الإنسان الكامل الخليفة الذي بالوجود حادثٌ أزلي؛ لأنه برزخ جميع الطرفين، وحاز الحدوث والقدم في الوجودين، وهكذا في العلم والحياة؛ لأنه جامع الأضداد، كما قال الخراز - قُدِّس سرُّه -: «عرفت الله بجمع الأضداد»، يُشير إلى التحقيق بهذه المرتبة، وهذا صفة مَنْ لا صفة له.

فإن قلت فيه: إنه حادثٌ صدقت، وإن قلت: قديمٌ صدقت يقبل الأضداد؛ لأنه عين مجموع الأضداد، وبهذه البرزخيّة فاز بالكل من بين العالم، ولا يقال: إنه حقٌّ مطلق لحدوثه، ولا يقال: إنه ملكٌ وعالمٌ لقدمه الذاتي وفوزه بالفناء الحقيقي والوجود الدائم الأبدي. وهذا النعت ليس لغير الإنسان الكامل، وهكذا الأمر فيه في جميع أسمائه وصفاته، فافهم.

قال المصنف ﷺ:

«ونَقولُ في الإنسان: إنَّ لَهُ حياةً وعِلْماً فَهُوَ الحَيُّ العالِمُ. وحَقِيقَةُ العَلْمِ واحدةٌ، وحقيقةُ الحيَاة واحِدةُ، ونسبَتُها إلى العالِمِ والحيّ نِسْبَةٌ واحِدَةٌ. ونَقُولُ في عِلمِ الحقّ: إنَهُ قَدِيم، وفي عِلْم الإنسان: إنَّه مُحْدَثٌ فانظر ما أحْدَثَتْهُ الإضافَةُ من الحُكْمِ في هذِهِ الحقيقة المَعْقُولَةِ».

قال الشارح ﷺ:

(وحقيقة العلم واحدة، وحقيقة الحياة واحدة).

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا﴾ [فاطر: 27]، والماء واحد وثمراته مختلفة باختلاف البقاع والأشجار، وهذا مثل مضروب في أن الأمر واحد، والاختلاف من القوابل وذلك لعدم التكرار في التجلّي، بل التجلّي وحداني، والكثرة من القوابل؛ فالقوابل مؤثرات في الحقيقة الواحدة الكليّة، هذا مرّ وهذا حلوٌ، وهذا ثفه وهذا حريفٌ، فافهم.

ومَنْ حاد عن هذه الجادة حاد بإلحادٍ عن العلم الحقيقي وندم.

(ونسبتهما): أي نسبة حقيقة العلم، وحقيقة الحياة إلى العالم الحي نسبة واحدة وتقول مع المساواة في النسب والإضافات في علم الحق سبحانه: إنه قديمٌ، وفي علم الإنسان الكبير محدثٌ، وهكذا في الإنسان الصغير حادث أزلي قديم كما قررناه، وفيه تفنن في العبارة أنه ما جعل ﷺ ثلثا مثل الأول؛ لأن تقرير القسم الثالث فيه إشكالٌ تام، وهو ﷺ أراد مجرّد التمثيل حتى يقبله كل أحدٍ، وقد ظهر بهذا القدر فاكتفى بالوجهين وهو مثل قولك في الوجود: إذا نسبته إلى الحق قلت: قديمًا، وإذا نسبته إلى العالم قلت: محدثًا، وإذا نسبت إلى الإنسان الكامل الخليفة قلت: حادثًا أزليًا.

وكذلك من حيث هو وصفٌ للحق هو وصفٌ إلهيٌ، ومن حيث هو وصفٌ كونيٌ هو وصفٌ كيانيٌ.

(**فانظر ما أحدثته الإضافة**) من الحكم والتأثير (**في هذه الحقيقة المعقولة**):

فكل منهما: أي من الحقيقة الكليّة التي قامت منهما مؤثِّرة من جهة، ومتأثِّر من جهةٍ بالتأثيرات المختلفة كالرأي في المرآة بتأثير المرآة من الوجه بوجه الانتقاش والانعكاس فيها، ويتأثَّر الوجه منها بوجهٍ إراءته الاستطالة، والاستدارة التي ليست في الوجه فهما مؤثِّران ومتأثِّران جميعًا، فافهم.

ومن مسائل النظر والفكر أنه إذا ضربت قارورتين واحدًا على واحدٍ، فينكسر الاثنان بضربةٍ واحدة، يلزم اجتماع التأثير والتأثر في آنٍ واحدٍ وبحثيةٍ واحدةٍ، فحصل جميع النقيضين.

قال المصنف ﷺ:

«وانظُر إلى هذا الارتِبَاطِ بَيْنَ المَعقُولاتِ والموجُوداتِ العينية. فكَما حَكَمَ العلْم على من قامَ بِهِ أَنْ يُقالَ فِيهِ إِنَّهُ عالمٌ، حَكَم الموصُوفُ بِهِ عَلى العلْمِ بِأنَّه حادثٌ في حَقِّ الحادِثِ، وقَديمٌ في حَقّ القديم، فَصارَ كُلُّ واحِدٍ مَحكُوماً بِهِ ومَحكُوماً عَليه، وَمَعْلُومٌ أَنَّ هذِهِ الأمور الكليَةَ وإنْ كانَتْ مَعقُولَةً فإنَّها مَعْدُومَةُ العَيْنِ مَوجودةُ الحُكمُ كما هِيَ مَحْكُومٌ عَليها إذا نُسِبَتْ إلى الموجُودِ العَيْني، فتَقْبَلُ الحكْمَ في الأعيان الموجودةِ ولا تَقْبَلُ التَفصِيلَ ولا التَّجزّي؛ فإنَ ذلك محالٌ عَلَيها، فإنّها بِذاتِها في كلّ مَوصوفٍ بِها كالإنسانيَةِ في كُلّ شخصٍ شخصٌ مِن هذا النَّوعِ الخاصِ لم تتفصّل ولم تتعدّد بتعدّد الأشخاص. وَلا برَحَتْ معقولةً».

قال الشارح ﷺ: (**وانظر إلى هذا الارتباط بين المعقولات**) الصرفة العدميّة الاعتباريّة المحضة والموجودات العينيّة الخارجيّة، فكما حكم العلم على مَنْ قام به أنه يقال فيه: عالمٌ من حيث الحقيقة الكليّة حكمة الموصوف به على العالم الموجود الجزئي الخارجي بأنه حادثٌ في حق الحادث، قديمٌ في حق القديم، وحادثٌ في حق الحادث القديم، فصار كل واحدٍ من الأمر الكلي والوجود الجزئي (**محكومًا به ومحكومًا عليه**)، فصار الأمر الكلي محكومًا به باعتبارٍ ومحكومًا عليه باعتبارٍ آخر.

(**ومعلوم أن هذه الأمور الكليّة وإن كانت معقولة فإنها معدومة العين**) في الخارج (**موجودة الحكم كما هي محكومٌ عليها إذا نُسبت إلى الموجود العيني**) فتقبل الحكم والأثر.

(**في الأعيان الموجودة**): أي تقبل هذه الأمور الكليّة الأثر في ظهوره في الخارج

في الأعيان الظاهرة.

(ولا تقبل التفصيل والتجزُئ): أي مع ظهورها في الأعيان الخارجية لا تقبل ذلك.

فإن ذلك محال عليها فإنها بذاتها في كل موصوف بها كالإنسانيّة في كل شخصٍ شخص من هذا النوع الخاص لم يتفصّل، ولم تتعدد بتعدد الأشخاص، (ولا برحت معقولة)؛ لأنها مراتب والمراتب ما تنتقل ولا تُزال عن مراتبها، ومثال هذا الأمر الكلي في الحس كالبياض والسواد في كل أسود، وكذلك الإشكال وهو على حقيقته من المعقوليّة، والذي وقع عليه الحس إنما هو المتلوّن والمتشكّل، هذا مَثلٌ مضروبٌ للحقائق الكليّة التي اتّصف الحق بها والخلق بها، فهي للحق اسمًا، وللخلق أكوان وأوصاف، فلمّا أثبت ﷺ الروابط الموجودة المشهودة بين المعدومات والموجودات التي هي من أقوى الارتباطات؛ لأنها من الجانبين بوجهين مختلفين، فإنها أربط وأضبط، فيريد أن يذكر على سبيل الملازمة، فإنها أتم في المبالغة حصول الارتباط الواقع بين الموجودات بأتمّ ما يكون في العالم حتى يبني عليه أحكام الإلهيات بملازمة الملازمة فقال ﷺ:

«وإذا كانَ الارتباطُ بين مَن له وجودٌ عينيٌّ وبينَ من ليسَ له وجودٌ عينيٌّ قد ثَبتَ، وَهِيَ نِسَبٌ عَدميّةٌ، فارتباطُ الموجودات، بَعْضُها بِبَعْضٍ أقرب أن يُعْقل لأنّه على كلّ حالٍ بينَها جامِعٌ وهو الوجودُ العينيّ، وهُناكَ فما ثَمّ جامعٌ وقَد وُجِدَ الارْتباطُ بِعَدمِ الجامِعِ فَبِالجامِعِ أقوى وأحقُّ، ولا شكَّ أنَّ المُحَدثَ قد ثَبتَ حدوثه وافتقارُهُ إلى مُحدِثٍ أَحْدَثَهُ لإمكانِهِ لِنَفْسِهِ فَوُجودُهُ مِنْ غَيرِهِ، فَهُوَ مُرتَبِطٌ بِهِ ارتباطَ افتقارٍ، ولا بدّ أن يكونَ المُسْتَنَدُ إليه واجبَ الوجودِ لذاتِهِ غَنِيًّا في وجودِهِ بِنَفْسِهِ غَيْرَ مُفْتَقِرٍ، وَهُوَ الَّذِي أَعْطَى الوُجودَ بِذاتِهِ لهذا الحادِثِ فانْتَسَبَ إليهِ، ولَمّا اقْتَضاهُ لذاتِهِ كانَ واجباً به».

قال الشارح:

(وإذا كان الارتباط بين مَنْ له وجودٌ عيني وبين من ليس له وجودٌ عيني قد ثبت) كما ذكره، يعني: إذا ارتبط النقيضان وهما الوجود والعدم بالقابلة، فارتباط الموجودات أقرب بالفهم والإدراك، وما ثم إلا ارتباطٍ والتفافٍ.

قال تعالى: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ [القيامة: 29]: أي أمرنا بأمره، وانعقد فلا ينحل عن عقده أبدًا، وهي نِسب عدميّة، فارتباط الموجودات بعضها ببعض أقرب أن

يعقل؛ لأنه الضمير للشأن.

(على كل حالٍ بينهما): أي بين الموجودين المرتبطين جامعٌ وهو الوجود العيني وهناك: أي المعدومات والموجودات.

(فما ثمة جامع): أي جامعٌ وجودي، وإلا فالجامع الثبوتي كما في الأعيان الثابتة ثابت ولا بُدّ، كما سترى قوله:ﷺ أقوى، بصيغة أفعل التفضيل وأحق، فإنه جعله في مقابلة القوي الحق، فكأنه ﷺ ما اعتبره: أي الجامع الثبوتي.

(وقد وجد الارتباط بعدم الجامع الوجودي) فبالجامع الوجودي أقوى وأحق، فالارتباط ثابت في الموجودات كانت ما كانت.

(ولا شك) لمّا فرع ﷺ عن التوطية والتمثيل، أراد أن يذكر الارتباط الحقيقي الواقع بين العالم والحق، وهو لمناسبة لولاها لم يلتئم، ولم يظهر له وجود، ولم يكن له ظهورٌ أصلاً، ولهذه المناسبة لمَ كان العلم من العالم على صورة المعلوم، وخرج المعلوم للزوم المطابقة بينهما؛ لأن العلم تابع المعلوم على صورة العلم؛ حيث العلم عين الذات في مرتبة وحدة العالم والمعلوم والعلم، وإن لم يكن كذلك فمن أين يقع التعلُّق والارتباط؟ فلا تصح المنافرة من جميع الوجوه أصلاً، فلا بد أن تتداخل الأمور الموجودة للارتباط الذاتي الذي في الوجود بين الأشياء كلها، فافهم ما أشرت به إليك في هذا الارتباط، فإنه يُبنى على أمرٍ عظيم إن لم تتحققه زلّت بك قدم الغرور في مهواةٍ من التلف، فإنه من هنا يعرف ما معنى قول مَنْ قال بحدوث العالم، ومَنْ قال بِقِدمِهِ مع الإجماع بأنه ممكن، وأن كل جزءٍ منه حادثٌ، بل هو بجملته وأجزائه في خلق جديد، فلولا الارتباط ما صحَّ هذا أصلاً، فكل حقيقة لها حكم في العالم ليس للأخرى، فنسبة العالم إلى حقيقة العلم غير نسبته إلى حقيقة القدرة، فالمعلوم غير نسبته إلى حقيقة القدرة، فالمعلوم غير المقدور، فإذا نظرته بعين الغنى والعزّة قلت: لا مناسبة بين الله تعالى وبين عباده، أين التراب، ورب الأرباب؟.

وإذا نظرت بعين الارتباط والاحتياج أثبت النسبة بين الله وبين العالم، فإنها موجودة في جميع الموجودات كالمربوب بالرب، والمالوه بالإله فإنهما من ألفاظ التضايف؛ وذلك لأن للحق حُكمين الحكم الواحد ما له من حيث هويته إلا رفع المناسبة بينه وبين عباده، والحكم الأخر هو الذي به صحّت الربوبيّة الموجبة للمناسبة بينه وبين خلقه، وبها أثر في العالم الوجود، وبها تأثّر بما يحدث في العالم من

الأحوال، وأين أنت عن واثق العرى وأقوى الروابط؟!

قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: 54] هل يمكن الرابط الوثيقة أقوى من المحبة من الجانبين، وأيضًا أن الحق هو الوجود والأشياء صور الوجود، فارتبط الأمر ارتباط المادة بالصورة، فلمَّا كان الارتباط بين الأمر من مقتضى الجهتين فعلمنا أن كل واحدٍ من الأمرين مرتبط بالآخر بارتباطٍ حي الذي قائم بكل من الحق والخلق، قال تعالى: «أحببتُ أن أُعرف، فخلقت الخلق لأُعرف»[1] فكل واحدٍ من المعارف والمعروف طالبٌ ومطلوبٌ، ومن أغرب الغرائب أن الحق محبٌّ محبوب، والعبد محبوبٌ محب، ومن شأن المحبوب أن يَبتَلي ويتحكَّم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 249].

وقال الله تعالى في حديث مشهور عن عبده: «وما ترددت كترددي في قبض نفس عبدٍ يكره الموت... »[2] فالكل مبتلي هذا من مقتضى كمال الجمال والحب، فافهم، وتكتَّم وعلى هذا يقتضي هذا الأصل الأصيل، قلنا: لا يصح الوجود والإيجاد أصلاً إلا عن أصلين الأصل الواحد: الاقتدار وهو الذي يلي جانب الحق، والأصل الثاني: القبول وهو الذي يلي جانب الممكن، فلا استقلال من أحد الأصلين بالوجود ولا بالإيجاد أصلاً فالأمر المستفيد ما استفاد الوجود إلا من نفسه بقبوله إياه، وممن نفذ فيه اقتداره وهو الحق، غير أنه لا يقول في نفسه: إنه مُوجد نفسه؛ بل يقول: إن الله أوجده والأمر على ما ذكرناه، فما وصف الممكن نفسه بنسبة الإيجاد إليه أعطاه الظهور بالصورة جزاء لذلك وغيره منه تعالى، فافهم فإني ذكرت لك هاهنا أسرارًا عجيبة غريبة هائلة خذها ولا تخف، فإنَّا لا نترجم إلا عمَّا وقع من الأمر لا عمَّا يمكن فيه عقلاً أو وهمًا، والفائدة إنما هي وقعٌ لا فيما يمكن، فافهم فالخفاء كالحقائق يعني لها عين في الخارج سواء؛ لأن الأسماء إضافات ونسب، والإضافات والنسب ما لها عين في الخارج، بل هي أمور عدميَّة، وهكذا الأعيان الخارجية أحكامها، وهنَّ غائبات

(1) سبق تخريجه.

(2) أخرجه أحمد في «المسند» (256/6)، وأبو نعيم في «الحلية» (32/4).

العين ظاهرات الأحكام والآثار، ولم يتبرجن تبرُّج الجاهلية، ويبدين زينتها إلا لأهلها، فافهم.

هذا هو الواقع كما في الإلهيات كالعلم فإنه أمرٌ نسبي، وآثاره وأحكامه ظاهرة في الخارج، فافهم فإذا فهمت ما ذكرنا عرفت بلا شك أن المحدث قد ثبت حدوثه فإذا ثبت حدوثه، ثبت افتقاره، وافتقاره إلى محدثٍ أحدثه لإمكانه لنفسه، فوجوده من غيره فهو مرتبطٌ به ارتباط افتقار، ولا بد أن يكون المستَنِد إليه واجب الوجود لذاته، غنيًّا في وجوده بنفسه غير مفتقرٍ، فإذا ارتبط الأمران كما قلنا، فلا بد من جامعٍ كما ذكرناه وهو الرابع.

وليس الاقتضاء ذاتي من كل واحدٍ من الحق والخلق، ولا محتاج إلى أمرٍ وجودي زائد، فارتبطا لمناسبة نفسه؛ لأنه ما ثمة إلا حق وخلق، فلا بد أن يكون كلاهما، ومن الحال أن ينفرد واحد منهما، فإن المناسبة التي قررناها من الجانبين ومع هذه المناسبة والارتباط فما هما مثلان، بل كل واحدٍ مثلهما ليس كمثله شيء فلا بد أن يتميَّز بأمرٍ ليس في الآخر، وهو الافتقار والغنى فلا افتقار موجب للميل، وقبول الحركة والغنى ليس حكمه كذلك، فارتبطا بوجهٍ.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15] جمع الله وجه الافتراق في هذه الآية، فافهم.

(وهو): أي المستند إليه الواجب الوجود.

(**الذي أعطى الوجود بذاته لهذا الحادث، فانتسب إليه ولما اقتضاه بذاته كان واجبًا به**): أي واجبًا بواجب الوجود؛ لأن الذاتيات لا تتخلَّف عن ذواتها، والأشياء إذا اقتضت الأمور لذواتها لا للوازمها وإعراضها لم يصح أن تتبدل ما دامت ذواتها.

والذوات لها الدوام في نفسها لنفسها فالمقتضى الذاتي كذلك، فإني أدرجت لك في هذه العبارة إشارات لم يسعها أواني الألفاظ وظروف الحروف، وأدرجت فيها معانٍ غير واهيةٍ، وتعيها أذن واعية، فافهم فكما أن الواجب أعطاه الوجود وجوب الوجود، كذلك الممكن أعطي الظهور؛ لأنه به ظهر فيه كان بصيرًا، وكما كان لكل واحدٍ من الأمور الكليّة الخارجيّة حكم وأثر على الآخر كذلك هنا، قال الله تعالى: «جعلت

الصلاة بيني وبين عبدي»[1].

قال ﷺ في ليلة المعراج: «إنه سمع صوتًا قيل له: قف إن ربك يصلِّي»[2] فالأمر من الطرفين، قال تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: 41]، قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: 14] فأثر في العبد هذا الحكم، فعبد الله وأقام الصلاة، ولذلك قال العبد: اغفر لي واعفُ عنِّي، فغفر له وعفا عنه، أما ترى أن العفو من أثر الدعاء، قال تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60] وهذا تأثير رتبة العبد في سيده وإدلاله على مولاه، والتأثُّر قيام السيد بمصالح عبده؛ ليبقى عليه حكم السيادة، ومَنْ لم يقم بمصالح عبده، فقد عَزَلته المرتبة فإن المراتب لها حُكم التولية، والعزل بالذات لا بالجعل كانت لمن كانت، وهذا من تمام المعرفة الموضوعة في العلم بالله في هذا المقام.

وأيضًا أن للجسم في الروح آثارًا معقولة لما يعطيه من علوم الأذواق ما لم يمكن أن يعلمها إلا بالذوق، وأن الروح لها آثار في الأجسام محسوسة يشهدها كل حيوان من نفسه كذلك العالم مع الله تعالى فيه آثار ظاهرة، وهي ما يتقلَّب فيه العالم وذلك من حكم اسمه الدَّهر أنه حول قلب.

فإن للعالم أحكامًا لولا تعريفه تعالى إيَّانا بها ما عرفناها وذلك أنه إذا اتَّبعنا رسوله فيما جاءنا به من الطاعة أحبَّنا، وأرضيناه فرضي عنَّا، وإذا خالفنا ولم نمتثل أمره أسخطناه وأغضبناه، وكذلك إذا دعونا أجابنا، فالدعاء من أثره، والإجابة من أثرنا؛ لتعلموا أنه ما ظهر شيء إلا من صورة ما هو عليه مؤثِّر ومتأثِّر، فإذا فهمت هذا المساق علمت معنى: التفت الساق بالساق، وعرفت الأمر هكذا على الإطلاق، فافهم.

قال المصنف ﷺ:

«ولَمَّا كان استنادُهُ إلى مَنْ ظَهر عَنْهُ لِذاتِهِ؛ اقتضى أنْ يكُونَ على صُورتِهِ فيما يُنْسَبُ إليْهِ مِنْ كُلِّ شَيءٍ مِن اسْم وصِفَةٍ، ما عَدا الوُجوب الذّاتيّ فإنَّ ذلك لا يَصحُّ للحادثِ وإنْ كانَ واجِبَ الوُجودِ ولكنَّ وجُوبَهُ بِغَيْرِهِ لا بِنَفْسِهِ، ثُمَّ لِيَعلَمْ أنَّهُ لَمّا كَانَ الأمْرُ عَلى ما قُلْناهُ مِنْ ظهورِهِ بصُورَتِهِ، أحالَنا تعالى فِي العِلْم بِهِ على النَّظَرِ في الحادِثِ

(1) أخرجه مسلم (296/1)، والترمذي (201/5).

(2) لم أعثر عليه.

وَذَكَرَ أَنَّهُ تعالى أرانا آياتِهِ فِيهِ».

قال الشارح ﷺ:

(ولما كان استناده إلى مَنْ ظهر عنه لذاته) لا لأمر عرضي اقتضى أن يكون على صورته، قال الله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: 84].

ورد في الخبر الصحيح: «إن الله خلق آدم على صورته»[1]رواه الشيخان البخاري ومسلمًا ﷺ.

أي لما كان استناد المحدث إلى المحدث من اقتضاءٍ ذاتي من المحدث الفاعل، وذلك لأنه متصوِّر الحق تعالى لما جاء في الحديث ذكر الصورة، فعلمنا أن الله تعالى إنما أراد خلقه على الصورة من حيث إنه يتصوَّر إلا من حيث ما يعلمه من غير تصور، فكل ما يتصوَّره المتصورون فهو عينه لا غيره كان مَنْ كان؛ لأنه ليس بخارج عنه، ولا بد للعالم أن يكون متصوَّرًا له على ما تظهر عينه؛ إذ لم يبقَ في الإمكان معنى إلا وقد ظهر في العالم متصور، ولا خفاء أن الشكل والصورة يألف شكله وصورته وهو الإنسان الكامل الذي لا يماثل في ليس كمثله شيء، وهو محل الجمع لصورة الحضرة الإلهية ولصورة العالم الكبير، وانفصل من جميع المولدات؛ لأن جميع المولدات ما عدا الإنسان الكامل موجود عن العالم، فهو أمّ بغير أب كوجود عيسى ﷺ من حيث الطبيعية، بخلاف الإنسان الكامل فإنَّه بين أبٍ وأمٍ، فافهم.

قال ﷺ في الباب الثامن والثمانين ومائتين من «الفتوحات» بعد ذكر هذه المسألة: وإنما نبهتك على هذا لئلاً تقول أن جميع المولدات وُجِدت بين الله والعالم وما كان الأمر كذلك، وإلا فلا فائدة لقوله ﷺ: «خلق آدم على صورته»[2] ولا كما يتوهمه بعض أصحابنا بل شيوخنا من كونه ذاتًا وسبع صفاتٍ، فإن ذلك غير صحيح، فإن الإنسان الحيواني معلومٌ أن له الذات والصفات، بل لكل حيوانٍ كما للإنسان الكامل، وإن كان التفاوت بالنقصان والزيادة وليس الأمر في نفس الأمر كذلك، بل كان يبطل اختصاص الإنسان الكامل بالصورة، فابحث على هذا الكنز حتى يفتح الله عليك كما فتح به على مَنْ يشاء من عباده، انتهى كلامه ﷺ.

وإنما خُلقت على صورته حتى تطَّلع منك على ما أخفاه فيك من قرة أعين، بل

---

(1) سبق تخريجه.

(2) سبق تخريجه.

حتى تطَّلع على ما في نفسه تعالى، قال ﷺ: العلم الذي يعطي السعادة للعبد هو العلم الذي يعلم ما في نفس الحق ولا يعلم ذلك أحد من خلق الله إلا بإعلام الله، قال تعالى: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: 255].

قال الله تعالى عن الكامل ﷺ: إنه قال اعترافًا أو تأدبًا بأدب النبوَّات: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ أي: من حيث أنه عينها ﴿وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: 117] من حيث أني غيرك في هذا الموطن.

يقول: المحمَّدي الذي يغبطه النبيُّون يوم الفزع الأكبر بلا خوفٍ ولا فزعٍ، وأعلمُ ما في نفسك، وذلك إمَّا من مقام مَنْ عَرِف نفسه فقد عَرِف ربه؛ لأن نفسه استهلكت وفنيت، وما قال ما قال إلا بلسان الذات هذا كمالهم عند البقاء، فلا يعلم ما في نفسه سواه؛ لأن هذا لسان الولاية، والله الولي الحميد وعلى ما نقول شهيد، فافهم.

وإن خرجنا عن المقصود ولكن ما خرجنا بالكليَّة، بل نحن نُدنْدن حواليه، وأردتُ أن أُظهر لك هذه الإشارة؛ لتكون لك بشارة إن كنت من المحمَّديين حتى تعرف قدر سيدك ﷺ، وقدر وارثيه؛ لتعلم معنى قوله ﷺ: «أُوتيت جوامع الكلم»[1]، وقوله ﷺ: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»[2].

كما قال القطب الوارث في هذا المقام: أُوتيتم اللقب، وأُوتينا ما لم تؤتوا، فافهم.

فإن قيل: إذا كان ظهوره على الصورة، فما هذا التغير الذي يطرأ على الإنسان في نفسه، وصورة الحق لا تقبل التغير الذي يطرأ على الإنسان في نفسه؟

قلنا: إن الله تبارك وتعالى قال في هذا المقام: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ﴾ [الرحمن: 31]، وقال ﷺ: «إن الحق يتجلَّى في أدنى صورة»[3] لم يتحول عند إنكارهم إلى الصورة التي عرفوها فيها بالعلامة التي يعرفونها، فقد أضاف إلى نفسه هذا المقام وهو العلي عن مقام التغير بذاته، ولكن التجلِّيات الإلهيَّة في المظاهر على قدر العقائد، فيختلف باختلافها، وبهذا الاعتبار ارتفع الاعتراض الوهمي تعالى الله عن ذلك علوًّا

(1) سبق تخريجه.
(2) سبق تخريجه.
(3) أخرجه البخاري (1672/4)، ومسلم (168/1).

كبيرًا، فلمَّا كان الإنسان على الصورة اقتضى أن يكون سريع التغيير كثير الخواطر، فلا يزال يتقلَّب في كل نفسٍ لو ظهرت لرأيت عجبًا؛ لكونه على صورة الأصل وهو كل يومٍ هو في شأن، فمن المحال ثبوت العالم زمانين على حالةٍ واحدة، فلا يزال يتقلَّب في كل آنٍ، يُسمِّي الخواطر بحكم الأصل الذي كل يومٍ هو في شأن، فأصل التغيير من تغيير الأصل الذي يمدُّه، وذلك لمَّا عَلِمنا أنه الدهر، وأن صفة الدهر الحول القلب.

وفي الحديث الصحيح: «**إنه تعالى يتحوَّل في الصور فيُعرف ويُنكر**»[1].

قال الشيخ ﷺ: لمَّا رأيت اختلاف عيني ولم يستقر لي أصل، فطلبت الإقالة من وجودي، فقال: أما ترضى أن تكون مثلي وليس كمثله شيء، انتهى كلامه.

فأثر الانتقالات في الأحوال مِن أثر كونه تعالى كل يومٍ هو في شأن.

قال الشيخ الأكبر ﷺ: ولا يشهدها كشفًا إلا أصحاب الأحوال، ولا يشهدها حالاً إلا أهل السياحات، ولا يشهدها علمًا إلا القائلون بتجدد الأعراض في كل زمان وهم طائفة من أهل الكلام القائلون بأن الأعراض لا تبقي زمانين، فافهم.

(**فيما ينسب إليه تعالى مِنْ كل شيء**): أي فيما يجوز أن يُنسب إليه إمَّا في أول الأمر كالاسم فإن له الأسماء، وإمَّا ثانيًا كالصفة فإن له بعد نسبتها إلينا.

فلهذا قال ﷺ: (**من اسم**)، قال الله تعالى: ﴿**لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ [الحشر: 24] أثبت لنفسه الأسماء.

قال ﷺ في الباب الثامن والثلاثين وثلاثمائة من «**الفتوحات**»: أعلم الخلق بالله ﷺ من هذا المقام: «**لا أحصي ثناءً عليك**»[2]؛ لأن الثناء بالأسماء وأسماؤه الحسنى لا تُحصى، فالثناء عليه لا يُحصى، والألسنة تكلُّ فيها وتعيي.

وأمَّا الثناء من حيث التسبيح تنحصر، وتحصى، ولا تكلُّ به الألسنة ولا تعني؛ لأنه نفي عن كل وصف لا إثبات فيه.

(**وصفة**) وهي من النِسب التي لا يجوز أن ينسب إليه تعالى في أول الأمر، بل تُنسب إليه بعد نسبة ذلك إلينا.

قال الله تعالى: ﴿**سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ [الصافات: 180] أطلق

---

(1) أورده المباركفوري في «التحفة» (424/4).

(2) سبق تخريجه.

ولم يقيّد بصفة دون صفةٍ، والعزّة المنع من الوصول إليه شيء من الثناء عليه.

قال الإمام الغزالي - رحمه الله - في بعض تصانيفه إشارة إلى هذا المقام، والمعنى: إن الناس ينزِّهونه عن نقائض الصفات، وأنا أنزِّهه عن كمالها، أما ترى أن بعض العلماء تنبّهوا لهذا المعنى، وإن لم يلم مرضى علماء الرسوم ولكن هو حق من وجهٍ، وذلك أنهم لمّا رأوا أن المشاركة بين الحق والخلق ما يصح حتى في إطلاق الألفاظ عليه، فإذا قيل لهم: إنه موجودٌ، قالوا: ليس بمعدومٍ، وإذا قيل: إنه عالمٌ، قالوا: ليس بجاهلٍ، وهكذا جمع الصفات الثبوتيّة، فإن الحادث موصوفٌ به ولا مشاركة، فافهم.

قال ﷺ في حضرة الحضرات من «الفتوحات» فإن الأصل التعرّي والتنزيه والتبرّي عن الصفات مطلقًا ولاسيّما في الله، إذا كان أبو يزيد ﷺ يقول: لا صفة لي فالحق أولى أن يطلق عن التقييد بالصفات لغنائه عن العالم؛ لأن الصفات إنما تطلب الأكوان، فلو كان في الحق ما يطلب العالم لم يصح كونه غنيًا عمّا هو طالبٌ، فافهم.

وذكر ﷺ في الباب الثامن والثلاثين وثلاثمائة من «الفتوحات»: فانظر حكمة الله تعالى في كونه لم يحصل له صفة في كتبه، بل نزّه نفسه عن الوصف.

فقال: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: 180] فجعلها اسمًا، ولم يجعلها نعوتًا وصفاتًا ولكن هي لنا نعوتٌ وصفاتٌ يثني علينا بها، قال تعالى: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾[التوبة: 128] وأذن لنا بالتخلُّق في الأسماء الحسنى وهو عين ما قلنا، ثم أثنينا به عليه؛ لأنه حميدٌ وله عواقب الثناء، فأثنى الله على نفسه بها، وقال: «إن الكبرياء ردائي»[1]وهي صفة عبده وهو رداؤه، فإنه مِن مَنزَل ثناء الحق على نفسه بغناه عن خلقه بخلقه، فافهم.

إن هذا عين ما سيقوله ﷺ في المتن بعد سطرين وهو قوله: فما وصفناه بوصفٍ إلا كنّا نحن ذلك الوصف، وهكذا الأمر لما كان استناد المستند إلى المستند لذاته، اقتضى أن يكون على صورته فيما يُنسب إليه من الأسماء، وهو التخلُّق بأخلاق الله تعالى وإحصاء الأسماء الحسنى، وفيما لا يُنسب إليه كالصفات؛ لأنه تعالى جمع له التقييد والإطلاق، كما جمع لنفسه بين التنزيه والتشبيه، فقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ

(1) أخرجه أبو داود (59/4)، وابن ماجه (1397/2).

شَيْءٌ﴾ [الشورى: 12].

ومن هذا المقام قال أبو يزيد - قُدِّس سرُّه - لما قيل له كيف أصبحت؟ فقال: لا صباح لي ولا مساء، إنما الصباح والمساء لمن تقيَّد بالصفة وأنا لا صفة لي، فوصف نفسه بعدم التقيُّد بالصفات، فإذا كانت الصفة قيدًا لا يقبله العبد المقيَّد، فكيف تُطلق على المطلق الحقيقي، وهو ﷺ أشار بهذا إلى التجرُّد الحقيقي، فافهم.

(**غير الوجوب الذاتي**) ما استفاده من أحدٍ فإنه وصفٌ ذاتي لا يفارقه أبدًا، قال ﷺ في الباب التاسع والستين وثلاثمائة: إن كل حكمٍ في العالم لا بد أن يستند إلى نعتٍ إلهيّ، إلا النعت الذاتي التي يستحقه الحق الذاتي وبه كان غنيًا، والنعت للعالم بالاستحقاق وبه كان فقيرًا بل عبدًا.

ومن هذا الذوق قيل: الفقير لا يحتاج فافهم، فإن المحل ما يحتمل البسط فإن ذلك: أي اقتضاؤه لذاته لا يصح في الحادث، وإن كان واجب الوجود: أي من كونه حادثًا لا يصح له هذا، وإن كان يصح له وجوب الوجود من وجهٍ آخر.

(**ولكن وجوبه بغيره لا بنفسه**): أي من حيث إنه حادثٌ بخلاف ما نحن بصدد بيانه، فإنه من اقتضاءِ ذاتي من الوجه الحق، فهو واجبٌ بوجوبه لإيجابه، فإن الذاتيات لا تفارق الذات بوجهٍ من الوجوه وإلا يلزم خلاف المفروض، فافهم.

قال ﷺ في «**الفتوحات**» في الاسم الحق: إن للحق وجوب الوجود بنفسه، وللخلق وجوب الوجود لا أقول بغيره، فإن الغير ما له عين وإن كان له حكمٌ كالنسب لا عين لها ولها الحكم.

(**ثم لتعلم**) لما ذكر ﷺ الرابطة التي هي من المناسبة الصوريَّة، وأي مناسبة أعلى وأتم أن يكون على الصورة، فأراد أن يذكر لوازمها.

(**إنه لما كان الأمر على ما قلنا من ظهوره بصورته**) أما ترى الحق تعالى ما تَسمَّى باسمٍ، ولا وَصَفَ نفسهُ بوصفٍ إلا والخلق يتَّصف بهما بحسب ما تعطيه حقيقة الموصوف، وإنما تقدَّمت في الحق بالوجود، وتأخَّرت في الخلق لتأخره فيه، فيقال في الحق: إنه ذاتٌ توصف بأنه حيّ عالمٌ قادرٌ، ويقال في العالم: إنه حيّ عالمٌ قادرٌ بلا خلاف من أحدٍ، والعلم والحياة والقدرة على حقيقة في العقل.

(**أحالنا الله تعالى في العلم به على النظر في الحادث**) آخر عِلمنَا به عن عِلمنَا بالحوادث؛ لنعلم أن علمنا بالحوادث أصلٌ للعلم بالأصل، فافهم أما ترى قوله ﷺ:

«مَنْ عَرِفَ نفسه فقد عَرِفَ ربّه»[1] فيه إشارة خفيّة إلى ذلك وهو لب المعارف الإلهيّة، حيث جعل الأصل فرعًا والفرع أصلاً، فافهم ولا يمكنني إظهاره أكثر من هذا، قال ﷺ: «أَعْرَفكُم بِنفْسِهِ أَعْرَفكُم بربّه»[2] فجعلك دليلاً عليه، وجعل معرفتك بك دليلاً على معرفتك به إمّا بطريق وصفك بما وَصَفَ به نفسه، وإمّا بطريق الافتقار الذي أتت عليه في وجودك، وإمّا بالأمرين لا بد من ذلك، فافهم.

قال ﷺ في الباب الخامس والسبعين وثلاثمائة: وقد ذكرت هذه المسألة في محلٍ آخر، ولكن أذكرها هنا بضرورة داعية إليها، وهي أن الأصل التقييد لا الإطلاق في محلٍ، فإن الوجود مقيّد بالضرورة ولذلك كل ما دخل في الوجود مثناة، فالإطلاق الصحيح إنما يرجع لمن في قوته أن يتقيّد بكل صورةٍ، ولا يطرأ عليه ضرورة من ذلك التقييد، وليس هذا إلا لمن تحقق بالمداراة، والله يقول: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: 4]، وهو أشرف الحالات لمن عرف ميزانها، وهو واحدٌ فردٌ، وأين ذلك الواحد الفرد؟ فافهم انتهى كلامه ﷺ.

ورد في الحديث: «بُعثت لمداراة الناس»[3] رواه البيهقي عن جابر ﷺ، وفيه إشارةٌ إلى ما ذكرناه من المُداراة، فلمّا أحالنا في العلم به تعالى على النظر في الحادث، فعلمنا أنّا مطلوبون له لا لأنفسنا وأعياننا؛ لأن الدليل مطلوب للمدلول لا لنفسه، ولهذا لا يجتمع الدليل والمدلول أبدًا، فلا يجتمع الحق والخلق أبدًا في وجهٍ من الوجوه إذا جاء الحق زهق الباطل، فالعبد عبدٌ لنفسه، والرب ربٌّ لنفسه، فالموجود موجود، والمعدوم معدوم.

وذكر أنه أرانا آياته فيه: أي في الحادث، وهو قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 53]، فأحالنا على الآفاق وهو ما خرج عنّا من الحوادث وعلى أنفسنا، وهو ما نحن عليه وبه من حيث الحدوث، قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: 21]، فإذا وقفنا، وعثرنا على الأمرين معًا حينئذٍ عرفناه، فتبين

---

(1) سبق تخريجه.

(2) سبق تخريجه.

(3) أخرجه ابن حبان (216/2).

لنا أنه الحق.

قال صاحب ذوق:

فـي كـلِّ شـيءٍ لـه آيَـةٌ تَـدلُّ عَلـى أنَّـه واحـدُ

والعارف يقول في هذا المقام: ففي كل شيء لذاته تدل على أنه عينه، ولكن دلالة الأمرين: أي الآفاق والأنفس مجموعًا أتم وأعلى؛ لحكمةٍ سيُظهرها لك إن شاء الله تعالى، وهي أنَّا إذا نظرنا في نفوسنا ابتداءً لم نعلم هل يعطي النظر فيها ما يعطي النظر في الآفاق علمًا بالله أم لا يعطيه نفوسنا، فإذا نظرنا في نفوسنا حصل لنا من العلم به ما يحصل للناظر في الآفاق، فإذا نظرنا جميعًا ظهرت لنا حقيقة الأمر بلا مراءٍ وشكٍ، فافهم.

وأما الشارع ﷺ فلما علم أن النفس جامعة لحقائق العلم فإنها مختصَّة ومنتخبة منه فجمعك عليك حرصًا منه على كمال أمته كما شهد الله تعالى.

فقال تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ [التوبة: 128] حتى تقرب الدلالة فتقول معجلاً بالعلم بالله، فتستعد لمعرفته بك، فقال ﷺ: «**مَنْ عرف نفسه فقد عرف ربَّه وأعرفكم بنفسه أعرفكم بربِّه**»[1]، فإنه ﷺ أحالك على نفسك لما علم أنك ستكون من المتبعين المحبين المحبوبين فيكون الحق قوَّاك، فتعلمه به لا بك.

وهذا السوق من ذوق قوله ﷺ: «**لا ألفين أحدكم متَّكئًا على أريكته يأتيه الخبر عني، فيقول: اتلُ عليَّ به قرآنًا إنه والله بمثل القرآن وأكثر**»[2] ذكره ﷺ في باب تاسع عشر وخمسمائة من «**الفتوحات**».

وقال ﷺ: أو أكثر في رفع المنزلة، وفي رواية: «**أيحسب أحدكم متَّكئًا على أريكته أن الله تعالى لم يحرم شيئًا إلا ما في هذا القرآن إلا وأني والله قد أمرت ووعظت ونهيت عن أشياء إنها كمثل القرآن أو أكثر..** »[3] رواه أبو داود، والبيهقي عن العرباض بن سارية ﷺ.

وأما الحق تعالى فذكر الآفاق حذرًا عليك ما ذكرناه أنه قد بقي في الآفاق ما

---

(1) سبق تخريجه.

(2) أخرجه أبو داود (200/4).

(3) أخرجه أبو داود (170/3).

يُعطي من العلم بالله ما لا تعطيه نفسك، فأحالك على الآفاق، فإذا عرفت عين الدلالة منه على الله تعالى ثم نظرت في نفسك من العلم بالله فلم يبقَ لك شبهة تدخل عليك فتطابق الأصلين، وتقرأ الكتابين فلا يخرج شيء من البين، فافهم.

قال المصنف ﷺ:

«فاسْتَدْلَلْنَا بِنَا عَلَيْهِ فَما وَصَفْناهُ بِوَصفٍ إلاّ كُنّا نَحْنُ ذلِكَ الوصفَ إلاّ الوُجُوبَ الذاتِي الخاصَّ، فَلَمّا عَلِمْناهُ بِنا ومِنّا نَسَبْنا إلَيه كُلَّ ما نَسَبْناهُ إلينا، وبذلكَ وَرَدَتِ الأخبارُ الإلهيّةُ عَلى ألسِنَةِ التَّراجِمِ إلَيْنا، فَوصفَ نَفسَهُ لَنا بنا، فَإذا شَهِدْنَاهُ شَهِدْنا نُفوسَنا وإذا شَهِدنا شَهِد نَفْسَهُ، وَلا نَشُكُّ أنّا كثيرون بالشَّخصِ والنَّوعِ وأنّا وإنْ كنّا على حقيقةٍ واحدةٍ تَجْمَعُنا فَنَعْلَمُ قَطْعاً أنَّ ثَمَّةَ فارِقاً بِهِ تميّزت الأشخاصُ بَعْضُها عَنْ بَعْضٍ، ولَولا ذلِكَ ما كَانَتِ الكثْرَةُ في الواحِدِ، فكذلِكَ أيضاً، وإنْ وَصفناه بِما وَصَف نَفْسَهُ مِنْ جَميع الوجوهِ فلا بُدّ من فارق»

قال الشارح: ولَيس إلا افتقارنا إليه في الوُجُودِ وتَوَقُّفُ وجودِنا عليه لإمكانِنا وغِنَاهُ عَن مثلِ ما افتقرنا إليه فاستدللنا بنا عليه، قال الله تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: 21]، وقال ﷺ: «مَنْ عَرِفَ نفسه فقد عَرِفَ ربّه»[1].

فاستدللنا بأنفسنا عليه فإنه ما ظهر إلا بنا، وما بطن إلا بنا، وما صحّت الأوليّة إلا بنا، وما ثبتت الآخريّة إلا بنا، فإنا كل شيء وهو بنا عليم، ذكره ﷺ في الخزائن من «الفتوحات».

إن من أعجب العجاب أن بالإنسان استتر الأمر فلم يشهدوا وبالإنسان ظهر حتى عرف فجمع الإنسان بين حجاب وظهور، فهو المظهر الساتر المعروف المتنكِّر، قال الشيخ عبد الله الأنصاري - قُدِّس سرُّه - في بعض مناجاته: إلهي ما فعلت في أوليائك كل مَنْ طلبهم وجدك، ومَنْ لم يرك ما عرفهم صيرتني مرآة مَنْ يبغيك، مَنْ يراني يراك وأرباب الحجاب، قلت فيهم: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: 198] انتهى كلامه - قُدِّس سرُّه -.

قال ﷺ: إن أصل وجود العلم بالله العلم بالنفس، فالعلم بالله حكم العلم بالنفس الذي هو أصله، والعلم بالنفس بحرٌ لا ساحل له عند العلماء بالنفس، فلا يتناهى العلم

---

(1) سبق تخريجه.

بالله، أما ترى قوله ﷺ: «مَنْ عَرِفَ نفسه فقد عَرِفَ ربَّه»[1].

إمَّا أحال المحال على المحال، وإمَّا حقق أنه مَنْ عرف الأصل فقد عرف الفرع وهما محتملان من محتملات معاني كلمة جوامع الكلم، فافهم، هذا الذي أحلناه يعطيك استعداد الكشف الإلهي.

قال ﷺ: ذهب بعض أصحاب الأفكار إلى أن العلم بالله أصلٌ في العلم بالنفس ولا يصح ذلك أبدًا في علم الحق خاصة وهو مقدم، وأصلٌ بالمرتبة لا بالوجود فإنه بالوجود عين علمه بنفسه عين بالعالم إلا بأمرٍ زائد، وإن كان بالرتبة أصل فما هو بالوجود.

كما يقول صاحب النظر العقلي في تقدم العلة على المعلول: إذا تساويا في الوجود كحركة اليد وحركة المفتاح، فمعلومٌ أن رتبة العلة مقدَّم على رتبة المعلول عقلاً لا وجودًا، وكذلك المتضايفان من حيث ما هما متضايفان وهو أتم فيما يزيد فإن كل واحدٍ منهما علة ومعلول لمن قامت به الإضافة، فكل واحدٍ علة لمن هو له معلول، ومعلولٌ لمن هو له علة، ومن حيث أعيانهما لا علة ولا معلول، فافهم.

(فما وصفناه بوصف) وإنما قال ﷺ: بوصفٍ، وما قال: بصفةٍ للنكتة التي قد ذكرناها سابقًا وهي: إن الصفة يعقل منها أمرٌ زائد وعينٌ زائدة، والوصف ليس كذلك بل هو نسبة خاصة لا عين لها هكذا ذكره ﷺ في «الفتوحات».

(إلا كنَّا نحن ذلك الوصف) لأن ذواتنا أوصافٌ قائمة على عينٌ واحدة.

قال تعالى إشارةً إلى ذلك المقام: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ﴾ [آل عمران: 163] ولم يقل: لهم درجات، فجعلهم أعيان الدرجات؛ لأنهم كلمات الكمالات الذاتيَّة واعيانها.

قال ﷺ: إني رأيت الشيخ أبا أحمد - قُدِّس سرُّه - بمرسيه، وسأله إنسان عن اسم الله الأعظم، فرماه بحصاة يشير إليه أنك اسم الله الأعظم، فإذا رأيت المدَّعي يثني على الله بأسمائه التنزيهيَّة والتشبيهيَّة ولا شاهدها ولا حسَّ آثار الحق فيه، ومن عمي عن نفسه التي هي أقرب إليه، فهو عن غيره أعمى وأضل سبيلا فافهم، ذكره ﷺ في الباب الثامن والثلاثين ومائتين من «الفتوحات».

---

(1) سبق تخريجه.

(إلا الوجوب الخاص الذاتي) لا العام الشامل للوجوب بالصبر، فإنه يتَّصف الحادث والصفات فإنه ما وَصفَنَا به وما كنَّا بذلك؛ لأنه ذاتي وللكون والجعل ليس فيه محال، فافهم هذا المبهم حتى تفرّق بين اليَهم والمبهم، أظهر وأخفى، عرا وكسا، حسبنا الله وكفى كما هو عادة الأمناء الأدباء يفهمه مَنْ يفهمه، ويجهله مَنْ يجهله؛ لأننا من حيث عياننا ما نظهر بهذا الوصف، فإنه وصفٌ خاصٌ ذاتي للقديم الذي له الغناء الذاتي والممكن في كل حال عدمه ووجوده مفتقر محتاج احتياج الفرع إلى الأصل، أصل الوجود مرة وافتقار استمراره أخرى، فلا يزال فقيرًا محتاجًا في حال عدمه ووجوده، بل الإمكان حكمٌ وهمي لا معقول لا في الإلهيات، ولا في المسمَّى ممكنًا فإنه لا يعقل هذا المسمى أبدًا ألا من حجاب حالة اختيار لا يعقل إلا ولا ترجيح، وهذا غير واقع عقلاً لكن يقع وهمًا والوهم حكمٌ عدمي فما ثم إلا واجب بذاته وواجب به، فمشيئة الأشياء واحدة وإذا زال الإمكان زال الاختيار، وما بقى سوى عين واحدة وما عندها إلا أمر واحد في الأشياء كلمح البصر، ذكر هذه المسألة في الباب الثامن والستين وثلاثمائة من «الفتوحات» فافهم.

فإني أردفت لك أصلاً بعد أصل، أرداف زمر بعد زمر، وإشارةً بعد إشارةٍ وسوقنا في سوق البيان وعلى أرض العبارة ممهدة لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا حرجًا فارجع البصر هل ترى من تفاوت، ثم ارجع البصر كرتين هل ترى من فطور فافهم.

(فلما علمناه بنا): أي بأنفسنا؛ لأنه عيننا اعلم أولاً أنه بالتحقيق الأتم والكشف الأوسع الأعم أنه تعالى كما ترى يعلم، وكيف لا؟ إن الله تعالى خلق المعرفة المحدِّثة به لكمال مرتبة العرفان ومرتبة الوجود، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، قال الراسخ في العلم: أي إلا ليعرفون، وقال: أعلم الخلق بالله ﷺ «مَنْ عَرِفَ نفسه فقد عَرِفَ ربَّه»[1] أثبت مكان هذه المعرفة، ولم تكمل تلك المرتبة، تلك المرتبة الكمالِيّة العرفانيّة إلا بتعلق العلم الحادث بالله على صورة ما تعلّق به العلم المحدث به، ما تعلّق إلا بما هو المعلوم عليه في نفسه، والذي هو عين كل صورة فهو عالمٌ بكل صورةٍ من علمه بنفسه، ولا يتَّصف بالعجز عن العلم به إلا مَنْ أخذ العلم عن دليلٍ، وإمَّا مَنْ أخذ العلم به عنه تعالى لا عن دليله، فهو لا يعجز عن

(1) سبق تخريجه.

حصول العلم بالله، فإنه ما حاول أمر العجز عنه، بل إنه علمٌ موهوبٌ من لدن حكيم عليم.

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31] ومن اسم الذات فقد علم بشهادة الله تعالى؛ لأنه عين الذات مثل الواحد والأحد والله عند أهل الظاهر، وقد بسطنا هذا المعنى في شرح آية الكرسي بسطًا يعني للمتعنّد الكنود، فإني جعلته بمنزلة الكشف والشهود.

ثم اعلم ثانيًا أنه لا يصح العلم لأحد إلا لمن عرف الأشياء بذاته لا بأمرٍ زائدٍ وكل مَنْ عَرف شيئًا بأمر زائد على ذاته هو مقلدٌ لعلوم النظر يعني: هو يعلم بذلك الوجه المخصوص الذي يعطيه الأمر الزائد لذلك الزائد فيما أعطاه، وما في الوجود من علم الأشياء بذاته إلا واحد وكل ما سوى ذلك الواحد فعلمه بالأشياء تقليد، فلنقلِّد الله ولاسيَّما في العلم بالله، ينبغي للعاقل الناصح نفسه إذا أراد أن يعرف الله أن يقلِّد الله فيما أخبر به عن نفسه في كتبه على السنَّة، تراجمه - صلوات الله عليهم - بالوقوف على الآداب الشرعيَّة المشروعة عسى أن يحبه، وإذا أحبَّه يكون سمعه وبصره وجميع قواه، فيعرف الأمور كلها بالله، ويعرف الله بالله فلا يدخل في علمه شبهةٌ ولا ريبٌ، وأنت قد عرفت أنه لا مُزيل لهذا الداء العضال إلا أن يكون الحق عين قواه وهو سبحانه عالم بذاته، وأنه لعالم بذاته لا بأمرٍ زائد، فافهم.

فقد نبهتك على أمر ما أطرق سمعك، فإن العلماء من أهل النظر يتخيلون أنهم علماء بما أعطاهم النظر والحس والعقل، وليس كذلك لما فهمته إن كنت فاهمًا من مقدمة كتابنا أن هذا النوع من العلم خارج عن طور العقل، فلا يدركه مستقلاً، فافهم.

فقوله ﷺ: (علمناه به)؛ لأنه ظاهر بنا فعلمناه بعلمنا بأنفسنا، كما ورد في الخبر: «مَنْ عَرِفَ نفسه فقد عَرِفَ ربَّه»[1].

(ومنَّا): أي من صفات أنفسنا لا من خارجٍ عنَّا، فعلمنا المورد والمصدر والأصل والفرع.

(منَّا نسبنا إليه) ذاتًا واسمًا من الأسماء التنزيهيَّة والتشبيهية إلينا مما يقبله العقل ومما لا يقبله العقل إلا بضرب من التأويل.

---

(1) سبق تخريجه.

اعلم أن الأسماء الكونيّة قد وسم الحق بها نفسه كالاستهزاء والنسيان والتعجب والضحك والخدعة والغضب، والأسماء الإلهية قد سمَّاها تعالى الكون بها كالرءوف الرحيم، فأسماء الكون إذا نسبتها إلى الحق هل هي خلقٌ أو استحقاقٌ؟.

فاعلم أن العبد من حيث إنه عبد لا يستحق شيئًا؛ لأنه من حيث عينه باطل ليس بحق أصلاً، والحق هو الذي يستحق بالحق، فجميع الأسماء في العالم ومتخيل أنه حق للعبد هي حق الله تعالى، وأنه ليس للعبد سوى عينه، وعينه عدم فلا حق له ولا استحقاق، فافهم.

فإنَّه ما ثم مُسمًّى وجودي إلا الله والأعيان معدومة في عين ما ظهر فيها، فقد اندرج في هذا الوصل إن فهمت جميع المعارف على تقاسيمها، فافهم فإنه عظيم الجدوى عزيز المثال جدًا، وبذلك وردت الإخبارات الإلهيّة على السنّة التراجم إلينا، فإنه تعالى وصف نفسه في كتابه وعلى السنّة رسله بما وصف به المخلوقات المحدثات من المجيء والنزول والإتيان والوجه والعين والسمع والبصر واليد والقدم والأصابع والذراع والبشيش والتعجب والضحك والرضى والكراهة والتردد مما لا يقبلها العقل إلا بضربٍ من التأويل، إمَّا أن تكون هذه النِسب في جنابه تعالى حقًا ثم نعتنا به، وإمَّا أن يكون لنا حقًا، ونعت نفسه بها توصيلاً لنا بها وخبره بها صدق ولا كذب، فإن كنَّا نحن فيه الأصل فهو مكتسب، وإن كان هو الأصل فقد كسبنا أباها، وهذا من أغمض نتائج العلم بالله فإنه أضاف نعوت المحدثات كلها بإخباره إخبارًا قديمًا أزليًا.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: 31]، قال ﷺ في منصات الأعراس من «الفتوحات» في المنصة الثالثة:

تجلِّي العبد في أسماء الكون، وتجلى له في أسمائه الحسنى، فيتخيَّل في تجلِّيه بأسماء الكون أنه نزولٌ من الحق في حقِّه ولم يكن ذلك في أفقه، بل إن الكل أسماؤه الحسنى وأن العبد لا اسم له، حتى أن اسم العبد ليس له، وأنه متخلِّق به كسائر الأسماء الحسنى.

قال ﷺ: إن هذا نهاية الكشف لربِّه وغايتها وكانت غاية أبي يزيد - قُدِّس سرُّه - دونها، فإن غايته ما قاله عن نفسه أنه قال لربه: يا رب بماذا أتقرَّب إليك؟ قال: بما ليس

لي، قال: يا رب ما ليس لك وكل شيء لك؟ فقال: الذلَّة والافتقار، فهذا خطه - قُدِّس سرُّه - من ربِّه، ورآه غاية فإنه غايته لا الغاية وهذه طريقة أخرى ما رأيتها لأحد من الأولياء ذوقًا إلا الأنبياء والرسل خاصة صلوات الله عليهم أجمعين، وقليل من صفوةٍ، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13].

قال ﷺ في الباب التاسع وأربعمائة: إن الله تعالى أطلعني على أن جميع ما يتسمَّى به العبد ويحق له النعت به وإطلاق الاسم عليه لا فرق بينه وبين ما يُنعت به من الأسماء الحسنى فالكل أسماء إلهيَّة، وهذا علمٌ أمنَّ الله به علينا مع مشاركتنا لهم - قُدِّس سرُّهم فيما ذهبوا إليه، انتهى كلامه ﷺ.

أي بإلحاق سفاسفها بها فتكون كلها مكارم؛ لأنه ما ثم مسمَّى وجود إلا الله فهو المسمَّى بكل اسمٍ، والموصوف بكل وصفٍ، والمنعوت بكل نعتٍ، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: 180] من أن يكون له شريك في الأسماء والصفات كلها، فالكل أسماء الله الحسنى ولا غير حتى يكون له اسمٌ أو وصفٌ أو صفةٌ، والأعيان ما شمَّت رائحة الوجود، فافهم فإن ما فوق هذه المعرفة معرفة ولا يعلم ذلك إلا العلماء الأمناء، وأن الأسماء والصفات كلها، والتنبيه على ذلك قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: 128] فوصف نفسه لنا بنا ونحن له صفاته النفسية، قال تعالى على لسان عباده: ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً﴾ [طه: 35] وهو البصير بنا، قد ورد في الخبر بهم أراد بعض الأولياء: «**تنصرون وهو الناصر، وبهم تُرزقون وهو الرازق**»(1).

فتعرَّف إلينا بنا، وأحالنا في المعرفة به علينا فإذا علمناه بنا عرفنا نفوسنا ونحن له صفات، فلتعلم أنك ما حكمت على معروفك إلا بك، فما عرفت سواك، فافهم.

وفيه سرٌّ آخر أُخفي منه وهو أن الصفات النفسية إذا رفعتها ارتفع الموصوف بها، ولم يبقَ له عين لا في الوجود العيني ولا في الوجود العقلي حيث ما رفعتها فافهم، فإنك ما تسمع مثال هذا أبدًا إلا من شخص سَبَّل نفسه وعرضه، كان ﷺ يقول: «**أيعجز أحدكم أن يكون كأبي ضمضم كان إذا أصبح يقول: اللهم إني قد وهبت نفسي**

---

(1) سبق تخريجه.

وعرضي لك فلا يشتم مَنْ شتمه، ولا يظلم مَنْ ظلمه ولا يضرب مَنْ ضربه»[1] رواه أنس ﷺ.

(فإذا شهدناه): أي الحق تعالى من حيث إنه مرآة العالم، (شهدنا نفوسنا فيها) لأننا ظاهرون في الوجود.

(وإذ شهدنا) من أن تكون له كالمرايا، (شهد نفسه فينا)؛ لأنه الظاهر فينا فالكل مراء والكل مشهود، قال تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: 3]، هذا هو شهود الخلق في الحق وشهود الحق في الخلق، أو نقول: فإذا شهدناه بوصفه شهدنا نفوسنا، فإنها عين وصفه، وإذا شهدنا شهد الحق تعالى نفسه: أي ذاته التي تعيَّنت وظهرت بصورنا أن الله خلق آدم على صورته، فافهم.

(ولا تشك أنا): أي أهل العالم كثيرون بالشخص والنوع؛ لأنك أشخاص غير متناهية تحت أنواع متناهية.

(وإن كنا على حقيقة واحدة تجمعنا) تلك الحقيقة الواحدة في الواحديَّة؛ لأن أفراد الجنس مثلاً على كثرتها وعدم تناهيها يجمعنا النوع الكلي وهو الإنسانيَّة ولكن لو لم يكن في كل فرد فرد معنى آخر زائد عن الأصل الكلي لما اختلفت الأفراد والأشخاص باللوازم الشخصيَّة والخواص.

(فتعلم قطعًا أن ثمة فارقًا به تميزت الأشخاص بعضها عن بعض) كما تميَّزت الأنواع بعضها عن بعض، ولولا ذلك التميز ما كانت الكثرة في الوحدة: أي ما ظهرت الكثرة موجودًا في العالم مع أن الأصل واحد، فعرفنا به أن التميز الفارق ظهور العالم وصوره المتكثِّرة المتنوعة مع أن الأصل واحد، فكذلك أيضًا: أي الحال في الإلهيات كثرة مع الفرقان في عين واحدة.

(وإن وصفنا): أي الحق تعالى بما وصف به نفسه من جميع الوجوه فلا بد من فارق لما شبَّه، أو لا، حيث قال ﷺ: فوصف نفسه لنا بنا، فأراد أن ينزهه هنا؛ ليجمع بين الحسنين التنزيه والتشبيه كما هو عادة الأولياء وسنن الأنبياء عليهم السلام، فأثبت الفارق، وذلك أنه لما قيل في الإنسان الكامل أنه على الصورة فما نقصه من الكمال شيء، وبقي حكم وجوب الوجود للتميز بين الحق والعالم؛ إذ لا يرتفع ذلك: أي

---

(1) أخرجه أبو داود (272/4).

التمييز بين الحق والإنسان بوجوب الوجود من حيث إنه إنسانٌ ولا يصح له فيه قدم، فافهم.

وله تمييز آخر ذكره ﷺ في «الفتوحات»: وذلك أن الحق يتقلَّب في الأحوال ولا تتقلَّب عليه الأحوال؛ لأنه يستحيل أن يكون للمحال عليه.

وأمَّا تقلُّب الحق في الأحوال فمعلومٌ بالاستواء والنزول والمعيَّة والضحك والفرح والرضا، وكل حالٍ وصف به نفسه فهو يتقلَّب فيها بالحكم وهو التحول في الصور، فهذا الفرق بيننا وبين الحق تعالى وهو أوضح الفروق وأعلاها أن يكون الفروق بالحدود الذاتيَّة التي بها يتميز الحق والخلق وحدود الكون بأسره هو الحد الذاتي بواجب الوجود، هذا المشهد غاية العارفين وأهل الرؤية، قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 76] فالعلماء بالله فوق هذا الكشف والمشهد، فإنهم في هذا المقام على حكم الحق فيه كما يرى المحجوب فينكرون النكرة، ويعرفون المعرفة والحدود الذاتية عندهم للأشياء كالعامة، فافهم فإنهم أهل تمييز وصحو، وأمَّا أهل الرؤية - قُدِّس سرهم - يحافظون على هذا المقام لسرعة نقلته من قلوبهم، فإن مَنْ لم يستصحب الرؤية دائمًا مع الأنفاس لا يكون من هؤلاء الرجال، وهذا مقام مَنْ يقول غير الله قط، وأمَّا مَنْ عَرِفَ الحق، والحق سمعه وبصره وجميع قواه عليه هذه الرؤية؛ لأنه بقواه يرى الأشياء كما هي، ويعلم الأمر كما هو فعُرف بالحق والخلق، ويرى الحدود الذاتيَّة الفارقة للذوات حقًا وخلقًا.

قال ﷺ في الباب الحادي والخمسين وثلاثمائة: إن من لهذا المقام فلا يحاد به أحد في علمه بالله، فهذا هو العَالِم المميَّز بالحد الذاتي والعَالِم الفارق الذي لا نقال عنه، فافهم.

(وليس إلا افتقارنا إليه في الوجود، وتوقف وجودنا عليه لا مكاننا).

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ﴾ [فاطر: 15] فافهم أنه وصفنا بما وصف به نفسه، توهم الاشتراك وهو لا اشتراك فيه، فإن الرتبة قد ميزته فيقبل كل واحد ذلك الإطلاق على تعطِّيه الرتبة التي يتميَّز بها فإنَّا نعلم قطعًا أن الأسماء الإلهية التي بأيدينا تطلق علينا.

كما قال تعالى في حق النبي ﷺ: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 128] كما تطلق على الحق تعالى أن نسبة تلك الأسماء التي وقع الاشتراك في اللفظ بها إلى الله

غير نسبتها إلينا، فما انفصل عنا إلا بربوبيته، وما انفصلنا عنه إلا بعبوديتنا فمن لزم منَّا رتبته فما جنى على نفسه، بل أعطى الأمر حقه فقد بان لك الحق تعالى وبان لك الخلق، فتلُ ما شئت.

فالفارق من جهة الحق الوجوب الذاتي ومن جهة العبد الافتقار، وغناه عن مثل ما افتقرنا إليه، قال تعالى: ﴿وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15]، وقال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: 267]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 97] للدلالة عليه لظهوره بنفسه للعالم، فاستغنى أن يعرف بالعالم ولا يدل عليه الغير، بل هو الدليل على نفسه بظهوره لخلقه، فمنهم مَنْ عَرِفَه وميّزه من خلقه، ومنهم مِنْ معارفيه فلم يدرِ ما هو كأبي يزيد - قُدِّس سرُّه - فإنه علم أن ثمة تميُّزًا ولكن ما عرف ما هو حتى سأل، وقال: يا ربِّ بماذا أتقرب إليك؟ فقال تعالى: بما ليس لي، فقال: يا رب وما ليس لك وكل شيء لك؟، فقال تعالى: الذلَّة والافتقار حتى سكن ما عنده - قُدِّس سرُّه - وهذه المحتملات الثلاثة من محتملات كلمة جمع جوامع الكلم ﷺ فإنه قال: «مَنْ عَرِفَ نفسه فقد عَرِفَ ربَّه»[1].

أمَّا تعليق محال على محال هذا من مقام الحيرة، وأمَّا من مقام العلم بصحوٍ وتميز كالمحققين من الكمَّل، وأمَّا من مقام العرفان أنه ما يرى الغير، فإذا عرف نفسه بهذا الاعتبار فهو عين معرفة الرب، فافهم.

وهنا لسانٌ آخر وذوق غير ذلك الذوق من أذواقه ﷺ، قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: 55]، فاعلم أن الله تعالى غنيٌّ عن العالمين بالعالمين كما يقال في صاحب المال: إن الله غنيٌّ عن المال بالمال، فهو الموجب له الغنى، وهي مسألة دقيقة لطيفة الكشف فإن الشيء لا يفتقر إلى نفسه فهو الغني عن نفسه بنفسه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15] الذي يرجع إليه عواقب الثناء، وما يثني الأبناء من وجودنا، وأمَّا تنزيهه عما يجوز علينا، فما وقع إلينا عليه تعالى إلا بنا، فهو غنيٌّ عنَّا فلا بد منَّا بثبوت هذا الغنى له بقاءً، ومن أراد أن يقرِّب عليه تصور هذه المسألة فلينظر إلى ما سمَّى به نفسه سبحانه من كل اسم يطلبنا فلا بُدّ منَّا، فلهذا لم يمكن الغنى إلا بنا إذا حكم الألوهية

(1) سبق تخريجه.

بالمألوه، وحكم الربوبيّة بالمربوب والمريد بالمراد، والقادر بالمقدور، والقول بالمقول وهكذا الأمر.

(فبهذا): أي بهذا الغنى الذاتي، وعدم الاحتياج بالوجود؛ لأن الوجود عينه والشيء لا يكون مفتقر إلى نفسه، فإنه غنيٌّ عن نفسه بنفسه، فلو كان فقيرًا يلزم أن يكون الشيء الواحد من حيث ما هو غني وهو محالٌ، وإن كان الاسم الإلهي المغني، هو معطي الغنى للعبد، فهو الغني بالله عنه أخبر تعالى أنَّه: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: 29] والعالم شؤونه، وهو متحول فيه وبه، وأخبر أنه يوم القيامة يوم عموم الكشف والعيان، قال تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: 37] فالكل يحمد الله مستغني به عنه كالحق أنَّه الغني عن العالمين، ولكنَّ العلم بالله داهية دهماء وفتنَة عمياء صماء فإنَّه يعطي، الزهو على عباد الله، ويُورث الجهل بالعالم وبنفسه، كما قال صاحب جنيد - قُدِّس سرُّه - حين عطس، وقال: الحمد لله، فقال له حينئذٍ: أكمل بقول رب العالمين، قال: ما العالم حتى نقرنه مع الله؟ وإن كان هذا القول قول صاحب حال ولكن ناقص العيار؛ لأن الله تعالى قد قارن معه، وقارن رب العالمين وهو تعالى حكيمٌ عليمٌ ما خاطب العالم إلا بالقول الأتم، فبتنوع خطابه؛ ليتسع الأمر ويعم، فالفقر ذاتي، والغنى أمرٌ عرضٌي ومَنْ لا علم له يغيبُ عن الأمر الذاتي؛ لشهود الأمر العرضي، فافهم.

وأُسند الغني إلى الغنى عن العالمين؛ لتكون أديبًا فإن العبد عبدٌ فقيرٌ تحت أمر سيده، والله هو الغني الحميد، فافهم.

(صحَّ له الأزل) وهو نفي الأوليَّة بمعنى: افتتاح الوجود عن عدم، ونسبة الأزل إلى الله تعالى كنسبة الزمان إلينا وهو نعتٌ سلبي لا عين له، فيكون كالزمان نسبة متوهمة الوجود لا موجودة؛ لأن كلَّ شيء تفرضه يصحُّ عنه السؤال بمتى، ومتى سؤال عن زمان فلا بد أن يكون الزمان أمرًا متوهمًا لا موجودًا ولهذا أطلقه الحق على نفسه، قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ [الأحزاب: 40]، ورد في الخبر عن صاحبي: «أين كان ربنا قبل أن يخلق الخلق وأمثالهما؟»[1] فعرفنا أن هذه الصيغ ما تحتها أمرٌ وجودي وإلا ما صحَّ تنزيه الحق عن التقييد الزماني إذا كان حكم الزمان بقيده، أما

---

(1) أخرجه الترمذي (288/5).

ترى تذيل الحديث المشهور: «كان الله ولم يكن معه شيء»[1] فذيّله عارف بقوله: والآن كما كان، فتوهم في الحديث زمانًا، وقال: والآن كما كان.

(والقدم الذاتي) وإنما قلنا: الذاتي؛ لأن الأرواح القاهرة والأعيان لها القدم ولكن بالزمان لا بالذات الذي: أي القدم.

(انتفت الأوليّة التي افتتاح الوجود عن عدم فلا يُنسب إليه): أي الأوليّة بهذا المعنى فهو افتتاح الوجود عن العدم مع كونه الأول ولكن بمعنى آخر، وهو كونه مبدأ لما سواه، كما أنَّ آخريّته عبارة عن كونه يرجع إليه عواقب الأمور، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ [العلق: 8]، وقال: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: 42].

اعلم أنَّ معقوليّة الأوليّة للواجب المطلق نسبة وصفيّة لا يعقل لها العقل سوى استناد الممكن إليه، فيكون أولاً بهذا الاعتبار، ولو قُدِّر عدم وجود الممكن قوةً وفعلاً لانتفت هذه النسبة الأوليّة؛ إذ لا تجد متعلقًا، وأمّا معقوليّة الأوليّة للواجب الوجود بالغير نسبة سلبيّة عن وجود كون الوجوب المطلق، فهو أوّل بكل مقيّد؛ إذ يستحيل أن يكون هناك قدمٌ لأحد، فافهم.

(ولهذا): أي لأن أوليته ليست أوليّة افتتاح الوجود من العدم.

(قيل فيه: الآخر فلو كانت أوليته أوليّة وجود التقييد لم يصح أن يكون الآخر للمقيّد لا أنّه لا آخر للمكن؛ لأنَّ الممكنات غير متناهيّة) لعدم تناهي الحقائق، وعدم تناهيها؛ لعدم تناهي أعيانها الثابتة، وهي المعلومات الإلهيّة، والتناهي في المعلومات محال.

قال ﷺ في الباب الثالث والثمانين وثلاثمائة من «الفتوحات»: إنّي علمت أنَّ في العالم مَنْ يقول بانتهاء علم الله تعالى في خلقه، وإنَّ الممكنات متناهية وأنَّ الأمر لا بد أن يُلحق بالعدم والدُّثُور، ويبقى الحق حقًّا لنفسه ولا عالم، ورأيت بهذا قائلاً بمكة المشرّفة معتقدًا له من أهل السوس من بلاد المغرب، حجَّ معنا وخدمنا، وكان يصر على هذا المذهب حتى صرّح عندنا ولا قدرت على ردِّه ولا أدري بعد فراقه هل رجع أو مات عليه؟ وكان لديه علوم جمة وفضل إلا أنه لم يكن له دين، وإنما كان يقيّمه صورة عصمة لدمه وليس في الجهل أعظم من هذا الجهل - عصمنا الله وإيّاكم منه -.

---

(1) سبق تخريجه.

(فلا آخر لها): أي دنيا وأخرى، إنما قلنا ذلك حتى لا يلزم الفساد المتوهم علينا فافهم.

(وإنما كان آخر الرجوع الأمر كله إليه) قال تعالى: ﴿أَلاَ إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ [الشورى: 53] ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: 245] عمَّ هذا النص الشريف ما حمد، وما ذمَّ وما ثمَّة إلا محمودٌ، قال تعالى: ﴿لله الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: 4] وهكذا الأمر، فافهم.

(بعد نسبة ذلك): أي الأمر كالصفات على ما قررناه أنَّها تؤخذ بعد نسبة تلك الصفات (إلينا)، وبهذا يتحقق معنى الرجوع؛ لأن الوجود وتوابعه له تعالى بالأصالة.

(فهو الآخر في عين أوليته والأول في عين آخريته): أي إذا كان الأول والآخر لهذين الاعتبارين المذكورين صحَّ عند العقل أن يقول: إنه الأول في عين آخريَّته، والآخر في عين أوليَّته، ولا جمع للأضداد التي لم تجتمع فإنَّ له شروطًا حتى يحكم العقل عليه بعدم الاجتماع منها: وحدة العين ووحدة النسبة والاعتبار من جميع الوجوه، وفي مسألتنا هذه أنَّه أوَّل بمعنى أنَّه مبدأ كل شيء وآخر كلِّ شيء بمعنى رجوع كلِّ شيء إليه، فجَمَعَ الأوليَّة في عين الآخريَّة بالاعتبارين ولا ضد فافهم، فإذا عرفت هذا اعلم أنَّهُ الأول.

قال الشارح الجامي - قُدِّس سرُّه - في بيان هذا المتن: جمع بإطلاق هويته بين الأضداد، وهو ظاهرٌ بها أزل الآزال وأبد الآباد، انتهى كلامه.

كأنَّه أعطى هذا القول حكم النص حيث قال: هو الأولُ والآخرُ والظاهرُ الباطنُ أنَّه الأول في عين الأول، في عين الآخريَّة، في عين الأوليَّة، من جميع الأضداد التي يرميها العقل، ويراها صاحب الكشف بالشهود.

ومن هذا المذاق ما نُقل عن الخراز - قُدِّس سرُّه -: عَرفت الله بجمع الأضداد؛ لأنَّه لو كانت معقوليَّة الأوليَّة والآخريَّة إلى الحق تعالى كمعقوليَّة نسبتهما إلينا، لما كان ذلك مدحًا في الجناب الإلهي ولا استعظمه العارف بالله وبحقائق الأسماء حتى قال: عرفت الله به ثم تلا: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 3].

فإنَّ العبد يصل إذا تحقق بالحق إلى أن ينسب الأضداد من عين واحدة ونسبة واحدة كالحق تعالى ولا يختلف النسب، وهذا المدرك عزيز المنال، صعب الارتقاء،

يتعذَّر تصوُّره على مَنْ لا أُنس له بالعلوم الإلهيَّة التي يعطيها الكشف والتجلّي، ولا يخفي أنَّ هذا ذوق غير الذوق الذي نحن في معرض بيانه، فإنَّ الأوليَّة في عين الآخريَّة اللتين نحن بصدد بيانهما ليس من عينٍ واحدة ونسبةٍ واحدة، حتى يكون مِنْ محالات العقل؛ بل إنما ذكرها ﷺ لتأنيس العاقل وصاحب النظر والفكر، فإنَّه ما يخالف ذوقهم وأصلهم، ثمَّ لتعلم بعد ما علمت فيما تقدَّم أنَّ الأوصاف مشتركة، أراد ﷺ أن ينبِّه بكيفيَّة الاستدلال، فإنَّه تعالى أرانا آيات أسمائه وصفاته في العالم وفينا، وجعل فينا ما نعرفه به؛ لنستدل بناءًا عليه، ويتمكَّن السالك من الوصول إليه فلو لم يصف نفسه بنعوتنا ما عرفناه، فهو المعروف في الحالين والموصوف بالنعتين، وبهذا من كل شيء زوجين؛ ليكون لأحد الزوجين العلو والتأثير وهو الذكر، وللآخر السفالة والانفعال والتأثير وهو الأُنثي؛ ليظهر ما بينهما إذا اجتمعا وجود أعيان ذلك النوع على صورتهما.

(إنَّ الحق وصف نفسه بأنه ظاهرٌ وباطنٌ فأوجد العالم عالم غيب وشهادة).

قال الله تعالى: ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [الحشر: 22]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 3] فعلم المحقِّقون من خاصته، والمعتني بهم من أهل قربه وكرامته بما كشف لهم، وأطلعهم عليه من أسرار وجوده أولاً، وبما أخبر ثانيًا: إنَّ المراتب وإن كثرت فإنَّها ترجع إلى هاتين المرتبتين؛ وهما الغيب والشهادة والحقيقة جامعة بينهما، فكل شيء له ظاهر، فهو صورته وشهادته وباطن، وهو روحه وغيبه، فنسبته جميع الصور على اختلاف أنواعها الخفيَّة والجليَّة إلى الاسم الظاهر المنعوت بالشهادة، ونسبة جميع المعاني والحقائق المجرَّدة؛ التي هي أصول لما ظهر من الصور الجزئيَّة المتعيِّنة، أو أسباب وشروط كيف شئت؟ قلت: إلى الغيب والاسم الباطن، فإذا عرفت هذا فاعلم أنَّ العالم عالَمان ما ثم ثالث عالمٌ يدركه الحس وهو: المعبَّر عنه بالشهادة، وعالَمٌ لا يدركه الحس وهو: المعبَّر عنه بعالم الغيب المطلق، فإن كان مغيّبًا في وقتٍ للحسّ فلا يسمَّى ذلك غيبًا، وإنَّما الغيب ما لا يمكن أن يدركه الحس أصلاً؛ لكن يُعقل بالعقل؛ إمَّا بالدليل القاطع، وإمَّا بالخبر الصادق وهو إدراك الإيمان، فالشهادة مدركها الحس وهو طريق العلم ما هو عين العلم، وذلك يختص بكل ما سوى الله ممن له إدراكٌ حسّي، والغيب مُدرك العلم عينه فافهم فهذا الغيب الذي أثبتناه: هو الغيب المطلق الحقيقي الذي لا يظهر لأحد أصلاً ولا لمن ارتضى من

رسولٍ؛ لأنه حضرة ذاته وهويته تعالَت وتقدَّست عن أن يحاط وأن يتعلَّق بها بِها الإدراك أصلاً من حيث هي هي، فإنه من المتفَّق عليه أن حقيقته لا تُحاط بالعلم ولا تتقيَّد بالوصف، سبحانك! ما عرفناك حق معرفتك.

وهذا القدْرُ من المعرفة المتعلقة بهذا الغيب المطلق؛ إنما هي معرفة إجماليَّة حاصلة بالكشف الأجليِّ والتعريف الإلهيِّ الأعلى الذي لا واسطة فيه غير نفس التجلِّي المتعيّن من هذه الحضرة الغيبيَّة المطلقة الغير متعينة؛ فالغيب المتعلِّق صار دليلاً على الغيب المطلق؛ لأنه الأصل، فالمتعين منه دليل عليه من حيث غير متعين، فكان هو الدليل والمدلول، قال تعالى إشارةً إلى هذا المقام: أي الغيب المتعين المقيَّد عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدًا.

قال تعالى: ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾ [الجن: 26، 27].

وإنما قلنا بالغيب الحقيقي المطلق؛ لأنه ﷺ ذكره في الباب السابع والأربعين وأربعمائة من «الفتوحات»: إن له في نفسه ما لا يصح أن يُعلم أصلاً هو الذي له بنفسه المشار إليه بقوله: ﴿الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 97]، فقوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الحشر: 22] أراد الغيب بالنسبة إلينا وإلا لا غيب له، والذي هو غيبٌ بالنسبة إلينا بحلم الشهادة له تعالى، أو نقول: إنه عالِم الغيب أو عالِم بأنه غيبٌ لا يصح أن يُعلم أصلاً.

قال ﷺ: وهذا الذي نبَّهناك عليه من العلم بالله ما أظهرناه اختبارًا؛ ولكن حُكم الخبر علينا، فتحفَّظ ولا تغفل عنه فإنه يعلِّمك الأدب مع الله، انتهى كلامه ﷺ.

هذا هو الغيب الحقيقي وبقية الغيوب كلها إضافي، فافهم فإن الإنسان إذا أراد إدراك الغيب والشهادة الإضافيين اللذين نحن بصدد بيانهما، وأراد أن يتميَّز في عِلْمَيهِمَا، فينبغي ألا يقيِّد نفسه إلا بالله وحده؛ وهو التقييد الذاتي الذي لا يصح له الإنفكاك عنه جملةً واحدةً؛ وهي عبوديَّة صرفة محضة لا تقبل الحريَّة أبدًا، فإذا قيَّده بالله الذي ﴿خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ [عبس: 19، 20] فلا يقف إلا في البرزخ وهو المقام المتوهَّم بين عالم الشهادة والغيب مطَّلعًا على الطرفين؛ كأصحاب الأعراف فلا يخرج منها شيء إلا وهو مطَّلع عليه، فإذا وقف في هذا المقام وهو محل العثور على الطرفين، استشرف على الغيبين؛ الغيب الذي يوجد منه، واستشرف على عالم

الشهادة؛ لأنه إذا وقف في المقام المتوهَّم على أنه معتنى به؛ حيث شغله الله تعالى بمطالعة الانفعالات عنه تعالى، وإيجاد الأعيان من قدرته تعالى، واتِّصافها بالوجود في حضرة إمكانها، وما أخرجها منها، ولا حال بينها وبين موطنها، ولكنه كساها خِلقةَ الوجود وحلَّة الظهور، فاتَّصفت بهما بعد أن كانت موصوفة بالعدم مع ثبوت العين في الحالتين، وبقي الكلام في ذلك الوجود الذي كساه الحقُّ فيك الآمر؛ وهو كالصورة التي في المرآة ما هي عين الرائي ولا غير عينه، ولكنه المحلُّ المرئي مع الرائي، والمواجهة أعطت هذا الحكم الذي تراه، فعلمتَ المرآة والرائي والصورة الحادثة بينهما، فأدركتَ بالغيب الباطن وبالشهادة الظاهر، وحصل المقصود، وهنا مبحثٌ آخرٌ؛ وهو من لطائف العلم بالله، فأذكره لك:

لا يفوتك علمًا فإنه ورد في الخبر: «**إن أفضل الهديّة وأكمل العطيّة الكلمة من كلام الحكمة يسمعها العبد ثم يعلمها أخاه خير له من عبادة سنة على نيّتها**»[1] رواه تمام، وابن عساكر ﷺ، ذكره في «جمع الجوامع».

فاعلم - أيّدك الله وإيّانا بروحٍ منه - أن العالم ينقسم إلى: ظاهرٍ وإلى باطنٍ.

فـ (الظاهر) هو عالم الشهادة، و(الباطن) هو عالم الغيب، وقد سُمّى الله تعالى الباطن بالأمر والظاهر بالخلق، وقال: ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: 54]، وقال تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: 85].

فـ(عالم الأمر) هو عالم الغيب الذي هو الأسماء الذاتيّة، ويليها أمهات أسماء الألوهيّة وتوابعها، وكل واحدٍ منها حجابٌ عن الآخر، وصف نفسه تعالى باعتبار هاتين العالمين: أي الظاهر والباطن، أو الغيب والشهادة بأن له الْحُجُب النوريّة التي هي الأرواح، والظلمانيّة التي هي الأجسام، فكل واحدٌ منهما حجابٌ عن الآخر، فإذا اعتبرتهما خلقًا وأمرًا، ولطيفًا وكثيفًا؛ إنما اعتبرتهما من حيث الأسماء، وهي سلسلةُ الترتيب والوسائط المتكثِّرة، فبهذا الوجه يكثر الوجود؛ وهو ظاهر الخلافة التي منه تكثر، وأمّا إذا اعتبرتهما؛ أي العالمين الخلق الأمر، وإن شئت قلت: عالم الغيب والشهادة حقًّا؛ أعني من الوجه الخاص زالت الكثرة وارتفعت الوسائط، وذلك باعتبار أن (الاسم) عين المسمّى، و(الذات) هي السارية في الكل؛ كتعيُّن الأسماء من حيث

---

(1) أخرجه ابن عساكر (63/17).

عدم التَّغايُر، فاتَّحدَ الكل من حيث إن الساري في الكل هو الذات، فهذا باطنُ الخلافة، والتجلِّي منه تجلٍ أقدس، وعلى هذا صحَّ أن القرآن غير مخلوق من حيث ارتفاع الوسائط، ومن حيث الإضافة إلى الاسم الذي عين المسمَّى، فصحَّ له الوحدة مع تكثُّر الألفاظ والحروف والآيات والسور، وبذلك تكثر في وحدته ولم يوصف بالمخلوقيَّة مع التكثُّر؛ لأنه ظهور الذات في المراتب بلا كيف.

فالعالمان؛ الغيب والشهادة أو الخلق والأمر إذا أُضيفا إلى الذات بلا واسطة بطريق الوجه الخاص فهما واحد، وإذا أُضيفا إلى الأسماء؛ فالشهادة: الخلق، والغيب: الأمر، فبهذا الاعتبار قلنا: إن الإنسان الكامل له الأخذ من الله تعالى بواسطة؛ باعتبار الإضافة إلى الاسم، وبلا واسطة؛ باعتبار الأخذ من الوجه الخاص، وإنما قلنا: الوجه الخاص؛ لأنه مخصوصٌ بالإنسان الكامل من دون الموجودات؛ كالملك وغيره، فإن له الإطلاق في الأخذ وغيره لكل منهم مقامٌ معلومٌ لا يتعدُّون مقاماتهم؛ وذلك لأن الإنسان الكامل كل الوجود، فافهم.

(**لندرك الباطن بغيبنا، والظاهر بشهادتنا**) فلمَّا أراد تعالى ظهورنا بالصورة: أي بصورة الحق ولها الغيب والشهادة، فأوجدنا ذا غيبٍ وشهادةٍ؛ ذا جسمٍ وروحٍ؛ فعالم الجسوم شهادتنا، وعالم الأرواح غيبنا؛ فالكون كله جسمٌ وروحٌ وبهما قامت نشأة الوجود، فالعالم للحق؛ كالجسم للروح فلا يُعرف الحق إلا من العالم كما لا تُعرف الروح إلا من الجسم.

فإنَّا لما نظرنا فيه، ورأينا صورته مع بقائها؛ تزول عنها أحكامٌ كنَّا نشاهدها من الجسم وصورته من إدراك المحسوسات والمعاني، فعلمنا أن وراء هذا الظاهر معنى آخر هو الذي أعطى أحكام الإدراكات معرفتنا غيبنا بشهادتنا، وسمَّيناه روحًا لهذا الجسم الظاهر، وكذلك ما علمنا أن لنا أمرًا يحرِّك أرواحنا كما كانت الأرواح تحرِّك أجسامنا؛ وهو روح الأرواح يحكم فيها بما يشاء حتى نظرنا في أنفسنا، وعرفنا منها وبها ربَّنا، وبهذا أخبر الوحي النبوي: «**مَنْ عَرف نفسه فقد عَرف ربَّه**»[1]، وقال تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ [فصلت: 53] حتى عرفنا الغيب بالغيب، والشهادة بالشهادة،

---

(1) سبق تخريجه.

فمَن جمع هذين العِلْمين فظهر بالصورتين، وعَلِمَ علم الغيب والشهادة قال تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 3]، قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً*إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾ [الجن: 27. 26].

لتعلم أنه تعالى بالحكم الذي صحَّت به الربوبيَّة الموجبة للمكاسبة؛ الرابطة بينه وبين خلقه أثر في العالم من الأحوال، فيتَّصف تعالى عند ذلك بالرضا والسخط.

قال المصنف ﷺ:

«ووَصَفَ نَفْسَه بالرِّضاء والغَضَب، فأوجد العالَمَ ذا خَوفٍ ورَجاءٍ فَنخافُ غَضَبَهُ ونَرجُو رضاهُ، وَوَصَف نَفْسَهُ بِأَنَّهُ جَمِيلٌ وذُو جلالٍ فأوجَدَنا على هَيْبَةٍ وأُنسٍ وهَكذَا جَمِيْعُ ما يُنْسَبُ إليه تعالى ويُسَمَّى بِهِ، فَعبَّر عن هاتين الصفتين باليَدين اللَّتَين توجَّهتا منه على خلقِ الإنسانِ الكامِلِ، لِكونِه الجامعَ لِحقائقِ العالَمِ ومُفْرَداتِهِ، فالعالَم شهادةٌ والخَلِيفةُ غيبٌ، ولهذا يُحجَبُ السّلطانُ».

قال الشارح ﷺ:

(ووصف نفسه بالرضا والغضب) وهما من الصفات التشبيهيَّة؛ لأن للعالم مع الحقِّ أحكامًا لولا تعريفه إيَّانا ما عرفنا، وذلك إذا اتَّبعنا رسوله فيما جاءنا به من الطاعة أحبَّنا وأرضيناه فرضي عنَّا.

قال تعالى: ﴿وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 100]، وإذا خَالفوه ولم يمتثل أمره أخبر أنهم أسخطوه وأغضبوه، فغضب الله عليهم، فالرضى أثر الطاعة، والغضب أثر العصيان، فافهم.

(وأوجد العَالم ذا خوفٍ ورجاءٍ) بسبب المناسبة التي بينه وبين الحق وبها كان خلقًا له ومنسوبًا إليه، فارتبط به تعالى ارتباط منفعلٍ عن فاعل، فخرج العالم على صورته، فيتحوَّل بتحولِّها فإذا تحوَّلت بصورة الرضا أثَّرت فيه، فتحوَّل بصورة النعيم، وإذا تحوَّلت بصورة الغضب أثَّرت فيه فتحوَّل بصورة العذاب، وهكذا الأمر في الوجود إنما غير الأسلوب المطلوب ههنا، وما قال: ذا رضا وغضب تنبيهًا على المقصود الأوْلي؛ الذي هو بيان الارتباط من الجانبين حتى لا تنسى، أما ترى الأبيات الثلاث الآتية بعد هذا؟ فإنه ذكر فيها الارتباط، فافهم مع أن المقصود حاصلٌ بهذا فيما نحن بصددِ بيانه الآن؛ وهو العلم به تعالى بالمقايسة؛ لأن الرضا والغضب لو لم يكن ذوق

الراجي والخائف؛ فما خاف وما ارتجى، فأثْبت باللازم مع ملاحظةٍ أخرى، فافهم.

(فأوجدنا على هيبة وأُنس الهيبة) من أَثر الجمال، والأُنس من أثر الجلال، ولَما كان الجمال مَهُوبًا، فأوجدنا قابلاً للهيبة؛ حتى نهاب منه، ولما وصف نفسه بالحياء من عبده إذا لَقيه، فقام الحياء لله مقام الهيبة في مخلوقٍ، فأوجدنا قابلاً للأُنس، وأرسل حجاب الجلال بيننا وبينه؛ ليرتفع عنا أثر هيبة الجمال، وتكون النشأة جامعةً للصفتين.

هذا البيان بطريق اللَّف والنشر المُرتبين على ذوق الشيخ ﷺ، فإنه قال في بعض رسائله: إن أكثر هذا التصرف جعلوا الأُنس بالجمال مربوطًا، والهيبة بالجلال منوطًا، وليس كما قالوه، وهو أيضًا كما قالوه بوجهٍ، وما ذلك إلا أن الجلال والجمال؛ وصفان لله تعالى، والهيبة والأنس؛ وصفان للإنسان، فإذا شاهدت حقائق العارفين الجلال؛ هِبْتَ وانقبضْتَ، وإذا شاهدت الجمال؛ أَنِسْتَ وانبسطت فجعلوا الجلال للقهر، والجمال للرحمة، وحكموا في ذلك بما وجدوه في أنفسهم، وأريد إن شاء الله تعالى أن أُبيّن هاتين الحقيقتين على قدر ما يساعدني به في العبارة، فأقول أولاً: إن (الجدالَ لله تعالى) مَعْنى يُرجع إليه، وهو الذي يمنعنا من المعرفة به تعالى.

و(الجمال) معنى يُرجع منه إلينا، وهو الذي أعطانا هذه المعرفة وزنًا بها والتنزُّلات والمشاهدات والأحوال.

وله فينا أمران: الهيبة والأُنس، وذلك أن لهذا الجمال علوًّا ودنوًّا؛ فـ (العلوُّ) يسمّيه جلال الجمال، وفيه يتكلم العارفون، وهو الذي يتجلّى لهم، ويتخيَّلون أنهم يتكلمون في الجلالِ الأوّل الذي ذكرناه، وهذا جلال الجمال قد اقترن معه منا الأُنس والجمال الذي هو الدنو قد اقترنت معه منا الهيبة، فإذا تجلّى لنا جلال الجمال أَنسنا، ولولا ذلك لهلكنا، فإن الجلال والهيبة لا يبقى لسلطانهما شيءٌ، فقابل ذلك الجلال منه بالأُنس منّا؛ لتكون في المشاهدة على الاعتدال حتى نفعل ما نرى، ولا نذهل، وإذا تجلّى لنا الجمال مِتْنا؛ فإن الجمال مباسطة الحق لنا، والجلال عزته عنا، فيقابل بسطه معنا في جماله بالهيبة، فإن البسط مع البسطِ يؤدي إلى سوء الأدب، وسوء الأدب في الحضرة سبب الطرد والبعد؛ ولهذا قال المحققون ممن عرف هذا المعنى وحضره: قف على البُساط وإيّاك والانبساط! فكَشْف أصحابنا صحيحٌ، وحكمهم بأن الجلال يقبضهم والجمال يبسطهم غلطٌ، وإذا كان الكَشْفُ صحيحًا فلا نبالي؛ فهذا هو الجلال والجمال كما تعطيه الحقائق، انتهى كلامه ﷺ.

أو نقول بعكس الأول أنه أوجدنا على هيبةٍ؛ حتى نرى عظمةَ الجلال تدركنا الهيبة لما نرى أنفسنا عليها من الافتقاد والبُعد عن إلتفات ما يعطيه مقام العظمة، ومن هذه الحضرة كانت الألوهية، فيُعلم سرّنا لما فينا من نسبة الباطن، وجهرنا لما فينا من نسبة الظاهر، فعظم ذلك في نفس الرائي.

أما الأُنس؛ فلأن السامع إذا أخذ الجلال على العظمة أدركه القنوط عن اللحوق لما يرى في نفسه الافتقار والبعد، فيزيل الله هذا القنوط عن وهمه بظهور الجمال، فإنّه جميلٌ يحب الجمال، فجامل ووهب وأعطى وجاد وامتنَّ به من جزيل الهبات والمنح، وآنسه فاستأنس به فأزال الله حكم القابض ونسخه بحكم الباسط وظهر بصورة كل شيء إلى عبادِه في طلب الكرم منهم إلى الظهور بصفة الحاجة وأيُّ أنسٍ أكبر من هذا! فافهم.

والجميل يتْبع الجليل ويلازمه، قال تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 27]، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 78] ربَّما يجدون في نفوسهم حَرجًا، وهَيْبَة مِن عظمة الجليل، فإن الله أحرجهم بإقران الجميل والأنس والإكرام بالجلال اعتناءًا بهم؛ فلهذا قارن ﷺ بين الجمال والجلال وأحكامهما، وقدَّم الهيبة وأخرَّ الأُنس؛ لأن الاعتبار بالخواتيم، فافهم.

(وهكذا جميع مَا يُنسب إليه تعالى) ويسمَّى به من الأسماء المتقابلة، وأوجد فينا مثلها، وبيّن لنا أن في أرضِ العالم نَجْدَيْن؛ نَجْدُ التنزيه، ونَجْدُ التشبيه؛ وهُما عالمان متقابلان في العلوّ، وإن لكل سرٍّ في العالم وجْهين بحكم القبضين من اليدين، ولا بد من الدارين، ولا بد من برزخٍ بين كل اثنتين، قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: 49] لأنه مخلوقٌ عن صفتين إرادةٌ وقولٌ؛ وهما اللذان شهدهما كلُّ مخلوقٍ من الحقِّ، فإن العالم نتيجة، والنتيجة لا تكون إلا عن مقدمتين وهذا هو التناسل؛ كوجود الابن بين الأبوين على صورة الأبوين، فافهم.

وهذا كله حتميّ بنا لا بأمرٍ خارجٍ عنا؛ لأن الشيء لا يُعرف إلا بِما به الاشتراك؛ إلا بما به الامتياز، فافهم.

(فعبّر عن هاتين الصفتين والنسبتين المتقابلتين)؛ تقابُل تنزيه وتشبيه باليدين، وما هو إلا عينٌ جمعه بين الصورتين؛ صورة العالم، وصورة الحق؛ وهما يدُ الحق إذ بهما يتمُّ الوجود وتُكمل الأفعال والآثار للربوبية، كما باليدين يتمكّن الإنسان من الأخذ

والمنع، قال تعالى: ﴿يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: 64]: أي في العطاء والمنع، وفي الحديث: «**الصدقة تقع في يد الرحمن**»[1] كناية عن الأخذ والقبول اللتين توجهتا منه؛ أي: من الحق تعالى.

(**على خلق الإنسان الكامل**) قال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: 75] وإنما خصَّ الإنسان الكامل؛ لأن غيره ما خُلق إلا بقولِ (كن فكان) كالملائكة - عليهم السلام -.

ورد في الحديث الصحيح «**إنَّ الملائكةَ عليهم السلام قالوا: ربنا خلقتنا وما خلقت بني آدم فجعلتهم يأكلون الطعام ويشربون الشراب ويلبسون الثياب ويأتون النساء ويركبون الدواب وينامون ويستريحون ولم تجعل لنا من ذلك شيئًا، فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة، فقال تعالى: لا أجعل مَن خلقته بيدي ونفخت فيه من روحي كمن قلت له كن فكان**»[2] رواه ابن عساكر.

اعلم أن للحق في مشاهدة عباده إيّاه نسبتين: نسبة تنزيه، ونسبة تشبيه فنسبة التنزيه تجليه في: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11]، والنسبة الأخرى تجليه في قوله ﷺ: «**إن تعبد الله كأنك تراه**»[3]، وقوله ﷺ: «**إن الله في قبلة المصلي**»[4]، وقوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ [البقرة: 115] ذاته، والأحاديث الواردة لو لم تستصحب بمعانيها الموضوعة لها المفهومة من الاصطلاح، فما معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: 4]؟ فما وقعت الفائدة بذلك عند المخاطب لها خصوص العموم من الناس، فإذا تقرّر عندك هاتين النسبتين للحق المشروعتين وأنت المطلوب بالتوجُّه بقلبك وبعبادتك إلى هاتين النسبتين، فلا تعدَل عنهما إن كنت ناصحًا نفسك، فإن الإنسان ما جمع الحقائق المذكورة إلا بهاتين النسبتين، فلمّا توجَّهَت هاتان النسبتان فخرج بنو آدم لهذا على ثلاثِ مراتبٍ:

(**كامل**) وهو الجامع للنسبتين، أو (**واقفٌ**) مع دليل عقله ونظره وفكره وهو

---

(1) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (109/9).

(2) أخرجه ابن أبي عاصم (496/2).

(3) أخرجه أحمد (51/1).

(4) أورده الشوكاني في «نيل الأوطار» (158/2).

المنزّه خاصة، أو (مشبه) بما أعطاه اللفظ الوارد، ولا رابع لهم.

ف (الاعتدال والكمال) هو القول بالأمرين والاتصاف بالوجهين؛ أعني الظهور بحقائق الأسماء الإلهية الوجوبية في حقائق الصفات الكونية على الكشف والعيان، فلا تزال حقيّته في خليقته حاكمةً على خليقته؛ شهودًا وكشفًا؛ بل ذوقًا محقّقًا.

وأما (الانحراف) فإمّا تنزيه، وإمّا تشبيه؛ فهو لا جهلوا وهو لا جهلوا، حيث فاز بالحق أهل الاعتدال، فافهم أمة وسطٍ بين غنى وفقر لا يتركه الفقر أنْ يطغى، ولا يتركه الغنى أن يغنى؛ فقد تعرّى بهذين الحكمين عن هاتين الصفتين، أما ترى أنه تعالى جعل له عينين لينظر بالواحدة إلى الغنى الذاتي من كونه غنيًا عن العالمين فلا يراه في شيءٍ؛ لأنه لا يرى شيئًا، بل ولا يرى نفسه كما في التجلّي في لا شيء، فإن المقامَ مقامُ فناء كل شيء كان ما كان، وهذا هو الغنى الذاتي، وهو نهاية الكامل، وحظُّه في الاتصاف بالصفات التنزيهية، وينظر بالعين الأخرى افتقاره الذاتي إلى كلِّ شيءٍ من حيث ما هي الأشياء، أسماء الحق تعالى لا من حيث أعيانها، فلا يَرى أفقر من نفسه إلى العالم؛ لأنه مسخرته، ولولا افتقاره إليه لما سخر له؛ لأن المسخر حكيمٌ عليمٌ، وهو نهاية الكامل، وحظُّه في الاتصاف بالصفات التشبيهية؛ فإذا اتصفت فقلدت ربك منزّهًا مشبّهًا وكل ذلك أنت؛ لأنهما تجليان إلهيّان وأنت جامعهما.

(لكونه الجامع لحقائق العالم ومفرداته) اللام تعليل المتوجّه باليدين؛ لأن الإنسان الكامل بجميع حقائق العالم، وهي الأمور الكليّة المعقولة التي لها الآثار، والأحكام على مفردات الأعيان الخارجية؛ لأن أحدية جمع الجميع علمًا وعينًا.

قال ﷺ في «الفتوحات»: إن الحقائق التي جمعها الإنسان فكان من جمعيتها الإنسان انتهى كلامه ﷺ، فجَمَع له بين يديه، وأعطاه جميع نسبته وتجلّى له في الأسماء كلها جماليًا، ولكن لا يعلم ذلك إلا الراسخون، إن الراسخ في العلمِ والكشف يرى ويعلم أن العلم بأنواعه وأفراده أجزاؤه ومع هذا واحدٌ في نفسه وأحديته، ولم يحكم عليه النسب بالتعداد الانقسام في ذاته من حيث حقيقته ولطيفته، ويقابل بذاته الحق من حيث نسبته التنزيهية، وبذلك الوجه يقابل الحق تعالى من حيث التشبيه ولا له وجهان متغايران؛ كالحق سبحانه أنه الموصوف بهاتين الصفتين، وهو واحدٌ في نفسه وأحديته وهذا الكمال المطلَق متفاوت بين الأنبياء الأولياء من الأناسي - صلوات الله عليهم أجمعين - المستغرق له في كل عصرٍ بالذات، والمرتبة والعلم، والحال والفعل في

جميع الأسماء والصفات الإلهية، والحقائق الكونية، والأحكام الكلية والجزئية،

وهو من حيث إنه برزخُ البرازخ الجامع بين الغيب الذاتي المطلق الواجب وبين أحكام الألوهية والكونية والإمكانية؛ هو خليفة الله وخليفة الخليفة المسمَّى بـ(القطب) ولمن دونه تكون الخلافة على قدْرِهِ ويشير إليه قوله ﷺ: «كلكم راع..... »[1] فافهم.

فالعالم وهو ما سوى الله تعالى على اختلاف أنواعه وأشخاصه؛ روحًا ومثالاً وجسمًا شهادةً؛ لأنها من أحكام الظاهر، والخليفة من حيث إنه خليفة لا من حيث أنه إنسان؛ غيبٌ حقيقيٌ من أحكام الباطن؛ لأنه سرُّ العالم، والسر من شأنه أن يكون غيبًا، فلو ظهر لم يكن سرًّا حقيقيًا، وقد قلنا أنه سرُّ العالم وهو أحدية جمعه وهو روح العالم ومدبِّره وهُويته لا تزال غيبًا ﴿فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً﴾ [الجن: 26] أبدًا.

هذا وهنا إشاراتٌ لا يمكن إظهارها، وأسرارٌ لا يُقبل إبرازها، ومن هذا المقام ما ورد عن بعض المجاذيب العقلاء: إنه سَكَر وبَاحَ وقال: أمَا عرفته؟ وأمَّا هو ما أعرفه هل عرفني أم لا؟ يشير إلى هذا الغيب المطلق، فافهم.

فهو يعلم غيب ربه، يعلم غيبه بنفسه، فمن عرف نفسه فقد عرف ربه.

قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً* إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾ [الجن: 26.27]، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31] ومنها (الاسم الباطن) وهو الغيب، ولهذا: أي لأجل عزة المرتبة بِحُجب السلطان؛ لأن المرتبة أمرٌ اعتباريٌّ لا عين لها في الخارج، فهو مستور عن أعين الشهادة لعزة المنصب بالمشاكلة.

قال المصنف ﷺ:

«وَوصَفَ الحقُّ نفسه بالحُجُبِ الظُّلمانيَةِ وهِيَ الأجسامُ الطَّبيعيَةُ الكثيفة والنَّوريَّة وهي الأرواحُ اللطيفَةُ والعُقولُ والنُّفُوسُ وعالَمُ الأمرِ والإبداعِ، فالعَالَمُ بينَ كثيفٍ ولطيفٍ، فلا يُدرِكُ الحقُّ إدراكَه نَفْسَهُ، فلا يَزالُ في حِجابٍ لا يُرفَع، مَعَ عِلْمِهِ بأنَّهُ مُتَمَيِّزٌ عن موجده بافتقاره إِلَيْه، ولكن لا حَظَّ له في الوجوبِ الذاتي الذي لوجودِ الحق، فلا يُدْرِكُهُ أبداً، فلا يزال الحقُّ من هذهِ الحيثيَة غيْرَ معلومٍ علْمَ ذوقٍ وشهودٍ، لأنه لا قَدَمَ للحادِث في ذلك».

(1) أخرجه البخاري (304/1)، ومسلم (1459/3).

قال الشارح ﷺ: (ووصف الحق نفسه بالحجب).

كما ورد في الخبر الصحيح: «إن لله تعالى سبعين ألف حجاب أو سبعين حجابًا من شك الراوي من نورٍ وظُلمة لو كشفها لأحرقت، سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه »[1].

اعلم أن الحجب منها: (حجب عناية) مثل قوله ﷺ: «إن لله سبعين ألف حجاب... »[2].

ومنها: (حجب نقمة وعذاب) مثل قوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: 15] وإن الله تعالى لما خلق الحُجُب، ولا بُدّ فلو لم يحجب لما كانت حجبًا، وخلق الله تعالى هذه الحجب على نوعين: معنوية، ومادية.

وخلق (الماديّة) على نوعين؛ كثيفة ولطيفة.

و(اللطيفة) على نوعين؛ شفافة وغير شفافة.

فـ (الكثيفة) لا يُدرِك البصر سواها ما فيها وما ورائها، ويحصل له الالتباس إذا أدرك ما فيها ويقول كما قيل:

رَقَّ الْقُلُوبُ ورقَّتْ الخمرُ فَتَشَاكَلا فَتَشَابَه الأمرُ
فَكأنَّمَا خَمرٌ ولا قَدَحٌ وكأنَّمَا قَدَحٌ وَلا خَمرُ

وأمّا المرئي في الأجسام الصقيلة فلا يُدرَك موضع الصور منها، ولا يدرك ما ورائها، ويدرك الصور الغائبة عن أعين المدرك بها لا فيها.

فـ (الصور المرتبة) حجاب بين البصر والصقيل، وهو صور لا يُقال فيها لطيفة ولا كثيفة، وتشهدها الأبصار كثيفة، وتتغيّر أشكالُها بتغيُّر شكل الصقيل، ويتموّج بتموُّجه، ويتحرّك بتحرُّكه بل بحركته، ويسكن بسكونه فما في الجود إلا حُجُب مسدَلة، والإدراكات مُتعلقها الحجب، ولها الأثر في صاحب العين المدرك لها، وأما الحجب المعنوية فأعظم الحجب حجابان؛ حجاب الجهل وحجاب حسيٌّ، وهو رؤيتك أنانيتك، فما جعل حجابًا عليك سواك وهو أكثف الحجب.

فأنتَ حِجَابُ القَلبِ عَنْ سِرِّ غَيْبِهِ ولَوْلاكَ لَمْ يُطْبَعْ عَلَيْهِ خِتَامُه

(1) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (148/6).

(2) سبق تخريجه.

فافهم، فإن الأمورَ كلها أمثالٌ وعِبَرٌ.

قال تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر: 2] فافهم.

ف (الحجب الظلمانية) وهي الأجسام الطبيعية يشير ﷺ إلى بيان الحديث المذكور حيث جعل ﷺ الحُجب من نور وظلمة، و(النورية): أي الحجب النورية؛ وهي الأرواح اللطيفة والأجساد اللطيفة النورية: أي (الحجب النورية) وهي الأرواح اللطيفة والأجساد اللطيفة النورية، فهذه هي الحجب التي وردت في الحديث أنها من نور وظلمة، فمن الظلمة وقع التنزيه، فنفينا عنه صفات المحدثات فلم نره، فنحن جعلنا الحجب على أعيننا بهذا النظر، ومن النور هو ظهوره لنا حتى نشهده وننكر أنه هو كما وقع التجلِّي في القيامة، فيشهده العارف في صور الممكنات وينكره المحجوب، فهو الظاهر للعارف والباطن للمحجوب دنيا وآخره، وكون الحجاب نورًا من أعزّ المعارف؛ إذ لا يتمكّن النور أن يكون حجابًا مستورًا، فإنه لذاته يخرق الحجب ويَهْتِك الأستار.

ف (العالم) الذي هو عين السرّ على نفسه بين (حجاب كثيف) و(حجاب لطيف)، وليس العالم سوى هذه الأجسام والأجساد كثيفها ولطيفها؛ وهو عين الحجاب على نفسه، وانحجب بعينه وتقيُّده عن الأصل المطلَق الذي لا يتقيَّد بالتقييد، كما لا يتقيَّد بالإطلاق، فافهم.

فلا يُدرِكُ الحق سبحانه: أي العالم لا يدركه تعالى؛ من حيث إطلاقه إدراكه نفسه: أي مثل إدراكه تعالى نفسه، وذاته تعالى وهو مطلق؛ لأن المقيَّد لا يُدْرِكُ المطلق لعدم المناسبة، فلا يدرك المطلق إلاَّ المطلق، والعالم مقيَّد فلا يُدرك الحق المطلق، فلا يزال أي العالم في حجاب لا يُرْفَع:

مِنْحَتِها الصِفَاتِ والأَسْمَاءِ   أنْ تَرَى دُونَ بُرْقُعِ اسما

قد تسمّت بهم وليسوا سواها   فالمسمى أولئك الأسماء

وذلك لتقيد العالم وعدم إطلاقه، وإطلاق الحقّ تعالى وعدم تقيُّده، والمقيَّد لا يُدرك المطلق أبدًا، قال تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: 164]؛ لأن الإطلاق مشرفٌ على التقيد لا بالعكس، فيعلمنا ولا نعلمه، ويدركنا ولا تدركه، وأيضًا أن (المطلق) له أن يقيِّد نفسه إن شاء.

ومن هذا المقام أوجب على نفسه الرحمة، فيدرك المقيد بإدراكه لنفسه بخلاف المقيد لا يصح أن يرجع مطلقًا بوجهٍ من الوجوه ما دامت عينه، فإن القيد صفة نفسه له فلا يفارقها أبدًا، هذا حُكمُ العالم من حيث أنه عالم لا حكم الإنسان الكامل؛ فإنه مخلوقٌ على الصورة يا أهل يثرب لا مقام لكم، فافهم.

(مع علمه بأنه متميز عن موجده بافتقاره) فـ(الحجاب) مسدلٌ مع العلم بالتميز؛ لأن علمه ما تعدى نفسه من حيث لوازمه الذاتية، فلا أفاد في إدراك الحق تعالى شيئًا، ولكن أي وإن كان له العلم بالتميز عن موجده بافتقاره، ولكن لا حظٌ له في (الوجوب الذاتي لوجود الحق سبحانه): أي ولو ميّزه لم يميّزه إلاَّ بما هو عليه في نفسه لا بما في نفس الحق؛ وهو الوجوب الذاتي.

قال المصنف ﷺ:

«فما جمع الله لآدَم بين يَديْهِ إلاّ تشريفاً. وَلِهذا قالَ لإبْليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: 75] ومَا هُوَ إلاّ عَيْنَ جَمْعِهِ بَيْنَ الصُّورَتَيْنِ، صُورَةِ العالَم وصورة الحقّ وهُما يَدا الحق، وإبْليسُ جُزءٌ مِنَ العالم لَمْ تَحْصُل لَهُ هذِهِ الجَمْعِيّةُ، وَلِهذَا كان آدَم خَلِيفَةً، فإن لَمْ يكُنْ ظاهراً بِصُورَةِ مَنِ استَخْلَفَهُ فِيما استَخلَفه فِيهِ فَما هُوَ خَلِيفَةٌ، وإن لَمْ يَكُنْ فِيه جميعُ ما تَطْلُبُه الرّعايا الّتي استُخْلِفَ عَلَيها؛ لأنَّ استنادَها إليه فلا بُدَّ أنْ يَقُومَ بِجَميعِ ما تَحْتاجُ إليهِ وإلاَّ فَلَيْسَ بِخَليفَةٍ عَلَيهم».

قال الشارح ﷺ:

(فما جمع الله لآدم بين يديه): أي يدي تنزيه وتشبيه، وإن شئت قلت: يدي وجوب وإمكان، وقِدَم وحدوث.

(إلا تشريفًا وتكريمًا له) فإنه جاز الشرف بكِلتا يديه، وإنه حادثٌ أزليٌّ.

(ولهذا): أي ولهذا التشريف قال تعالى لإبليس توبيخًا وزجرًا: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: 75]: أي يدي تنزيه وتشبيه من حيث التشريف بقرينه الحال حين عرفه بذلك لإبليس لما ادعى الشرف على آدم بنشأته قال: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص: 75] فلا بد من النسبتين بحيث يصحُّ بهما التشريف لخلافتي وإلا ذلك سائغ في غيره؛ كالإنسان الحيواني (وما هو): أي ليس هذا التشريف، وهو الخلق إلا عين جمعه بين الصورتين؛ (صورة العالم) و(صورة الحق) وتحقُّقه بهما وهما: يدا الحق يد تنزيه ويد تشبيه.

أحدهما فاعلة معطية، وأحدهما قابلة آخذة، وكلتا يديه يمين مباركة، فافهم.

و(إبليس) وكان اسمه حارث فأبلسه الله تعالى وطرده من رحمته، وطرد رحمته منه، فَسُمِّيَ إبليسًا: أي طريدًا.

(جزءٌ من العالم لم يحصل له هذه الجمعية)؛ لأنه مظهر اسم المضل، وآدم عليه السلام مظهر لاسم الله الجامع لجميع الأسماء الظاهرة في المظاهر المسمّاة بالعالم، والاسم المضل من جملة تلك الأسماء، واللبس على إبليس حقيقة الأمر لجهله بنفسه، فظنّه أنه الشرف من حيث النشأة العنصرية، ثم ظن أن أشرف الاستقصات النار؛ فرتَّب بالفكر الفاسد على هذا الوهم الكاسد الأقيسة الباطلة والمقدمات العاطلة في نفسه وتوهَّم منها النتيجة، وامتنع عن السجود حين أمره الله تعالى وما اكتفى بمجرد الامتناع وكان أستر له بل فضح نفسه عند العلماء بإظهار استدلاله، وجمع بين الجهل وسوء الأدب لخفته وطيشه.

وقال تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: 12].

وهذه أول معارضة ظهرت من إبليس في صنعة الجدال، فإنه جادل ربه وما أحسن في جداله؛ لأنه ما أعطي حقه إن الحق تعالى أراد بقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [صَ: 75]: أي يد تنزيه وتشبيه، وإن شئت قلت يد وجوب وإمكان، أو يد بخلاف سائر العالم مُلكًا وفلكًا.

قال تعالى: ﴿إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: 82] فهو مجموع العالم أجزاءه وله شرف الكلية على الأجزاء، وعلى الأجزاء أن يطيعوه ولا يعصوا له أمرًا، فأمر بهذه الحكم البالغة له سجدة إلا طاعة، والانقياد له إظهارًا لشرفه على الخلق المخلق؛ سيَّما الملائكة عليهم السلام؛ لأنه كل الوجود، فما فهم اللعين هذه المقدمات المطوية والأسرار الوجودية، وحمَّل الخطاب على غير محله حسدًا من عنده؛ فجادل وعارض وتطاول، وذلك أنه لما فهم من لحن المخاطبة والقول إثبات الشرف لآدم، وما علم أيُّ شرفٍ يوجب أن يطاع، وينقاد بهذه السجدة، فادَّعى بطريق المعارضة لنفسه الشرف، واستدلَّ بأنه خُلق من نارٍ، وظنَّ أنه أعلى الاستقصات من حيث المكان، ولم يعلم أن الطين أشرف الاستقصات؛ فإن له الثبات والقرار، وللنار الطيش والتهتُّك والاستكبار، وما أعتبر أن التبن في الماء فوق التبر في المكان، فغفل عن المكانة أو

استكبر وعاند واستكثر من الحسد، فعوتب.

استكبرت وعاندت أم كنت من العالين في الاحتجاج، ولك حجة في قولك ودعواك، فهذا لسان تبكيت وتعريض، وكان الأمر كما قلنا ظهر من آدم التمكين والثبات والتوجُّه في الأمور والأناة، والتدبُّر وإصابة الفكر والنظر في العواقب، وظهر منه قلة الأدب والجهل والتهتُّك والطيش والخفة، فإنه من مارج وهو نار مختلط بالهواء فله الخفة وعدم القرار والاستكبار.

(ولهذا): أي لحصول هذه الجمعية، وهي جمع النسبتين.

(كان آدم خليفة) وأعطاه الله تعالى من القوة بحيث إنه ينظر في النظرة الواحدة إلى الحضرتين، فيتلقّى من الحق، ويلقي إلى الخلق من حيث إنه حق خلق في مقام جمع الأضداد ومنزله، ويكون بين هاتين النسبتين كالبرزخ يقابل كل نسبة منها بذاته، فإنه لا ينقسم في ذاته فيقابل بعينيه التي قابل بها أحدهما الأخرى، وما ثمة إلا ذاته كالجوهر الفرد بين الجوهرين أو الجسمين يقابل كل واحد منهما بذاته؛ لأنه لا ينقسم، فلا يكون له جهتان مختلفان في حكم العقل، وإنْ كان الوهم يَتخيَّل ذلك؛ لأن حقيقة البرزخ ألا يكون فيه برزخ؛ وهو الذي يلتقي أمرين بينهما بذاته، فإن التَقَى الواحد منهما بوجهٍ غير الوجه الذي يلتقي به الآخر، فلا بُدّ أن يكون ما ينهما برزخ حتى يُفرّق بين الوجهين حتى لا يلتقيان فإذًا ليس ببرزخ، قال تعالى: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: 20] إشارةً إلى ما ذكرناه، فإذا كان اللغة الوجه الذي يلتقي به الآخر فذلك هو البرزخ الحقيقي، فيكون فاصلاً بين الشيئين مع وحدة الوجه.

فـ (البرزخ) يُعلم بالحواس؛ لأن ما له عين في الخارج ولا يُدرَك ويُعقل ولا يُشهد ذكره ﷺ في الباب الثاني والثمانين وثلاثمائة من «الفتوحات»، فهكذا رتبة الإنسان الكامل من حيث حقيقته ولطيفته يقابل بوجهِ الحقِّ من حيث نسبة التنزيه، وبذلك الوجه بعينه يقابل نسبة الحق من حيث نسبة التشبيه، وكما أن الحق الذي هو الموصوف بهاتين النسبتين واحد في نفسه، وأحديته ولم يحكم عليه هاتان النسبتان بالتِّعداد والتكاثر في ذاته، كذلك العبد الكامل الخليفة في مقابلة الحق واحدة، والعين من العبد واحدة، ولكن عين العبد ثبوتية ما برحت من أصلها؛ لأن الأعيان ما شمت رائحة الوجود، ولكن كساها الحق حلّة وجوده فحينها باطن وجوده، ووجودها موجدها، فما ظهر إلا الحق تعالى ولا غير حتى يظهر، فافهم.

(فإن لم يكن ظاهرًا بصورة ما استخلفه فيما استخلفه فيه ما هو خليفة).

اعلم أن الحكم في الأشياء كلها والأمور جميعها، إنما هو للمراتب لا للأعيان، ولها النصب والعزل كانت ما كانت، وأعظم المراتب وأعلاها هو (الألوهية) أنزلها العبودية فما ثمة الأمر ثبتان، فما ثمة إلا ربٌّ وعبدٌ، ولكن للألوهية أحكام مختصة به لا يقتضي الغير، بل بنفسه لنفسه؛ وهي كوجوب ذاته لذاته، والحكم بغناه عن العالم، ونُعوت الجلال كلها، ونفي المماثلة وأحكام ما يقتضي بذاتها عين الغير؛ كالكرم والجود والرحمة، فلا بُدّ من عين عبد، والعبد في المرتبة العبودية؛ فمرتبة العبد تطلب أحكامها من كونه عبدًا العبد من طينة مولاه، فلا بد أن يكون ظاهرًا بصورته خصوصًا إذا استخلفه، فلا بد أن يخلع عليه من استخلفه من صفاته ما تطلبه مرتبة الخلافة؛ لأنه إن لم يظهر بصورة من استخلفه فلا يتمشّى له حكم في أمثاله، وليس ظهوره بصورة من استخلفه سوى ما تعطيه مرتبة السيادة فأعطته رتبة الخلافة ورتبة العبودية لا يمكن أن يصرفها إلا في سيّده الذي استخلفه؛ كما أن له أحكامًا لا يصرفها إلا فيمن استخلف عليه، والخلافة صغرى وكبرى؛ فـ (أكبرها) التي لا أكبر منها الأمانة الكبرى على العالم.

و(أصغرها) خلافة الشخص على نفسه والتي بينهما ينطلق عليها صغرى بالنسبة إلى ما فوقها؛ وهي بعينها كبرى بالنظر إلى ما تحتها، وأما تأثير العبد من كونه عبدًا في سيده فهو قيام السيد بمصالح عبده لينفي عليه حكم السيادة، وأما التأثير الذي يكون للعبد من كونه خليفة فيمن استخلفه كان المستخلف من كان فهو أن يبقى له عين من استخلفه لينفذ حكمه فيه أيضًا، فإن لم يكن كذلك فليس بخليفة.

هذا قوله ﷺ: (فإن لم يكن ظاهرًا بصورته فما هو خليفة).

قال ﷺ: فإذا أراد الله تعالى تعظيم عبدٍ من عباده عدل به عن منزلته، وكساه خلعته، وأعطاه أسماه، وجعله خليفة في خلقه، وملّكه زمام الأمر، وكمل الغاشية بين يديه، وأعطي الحُكم له؛ ليعطي مرتبة حقها، فإن الحضرة في الوقت له، والوقت وقته، والحكم للوقت في كل حاكم كان من كان، ألا ترى الحق أنه يقول عن نفسه أنه: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: 29] فهو بحسب الوقت؛ لأنه لا يعطي إلا بحسب القابل؛ فالقبول وقته حتى تجري الأمور على الحكمة.

قال ﷺ: «**لا يؤمَّن الرجل في سلطان أحد ولا يقعد على كريمته إلا بإذنه**»[1]، فإن الخليفة إذا دخل أحدٌ من رعيته، فـ (**الأدب الإلهي**) المعتاد يحكم عليه بأن يقبل حكم صاحب الدار، فحيث ما أقعده يقعد ما دام في سلطانه، وذلك من حكم المنزل عليه، وجعل الرئيس مرءوسًا، أمَا ترى وجود العالم ما ظهر إلا بإظهار الحق إيجاده، ثم تأخُّر المتقدم، وتقدُّم المتأخر، فلم يظهر للعلم بالله عين حتى أظهر به العلم بالعالم، قال ﷺ: «**مَن عَرف نفسه فقد عَرف ربه**»[2]، فإن الأمر لا يظهر إلا بما تواطؤوا عليه، وإذ ظهر لهم فعلاً، فلم يظهر لهم إلا بما ألفوه في عادلتهم، وهذا من عاداتهم، وهذا من عاداتهم، ذكره ﷺ في الباب الحادي والثلاثين وأربعمائة من «**الفتوحات**» وإن لم يكن فيه جميع ما تطلبه الرعايا ومن (الرعايا) العقل الأول: وهو الوجود الأول الإبداعي.

وكذلك النفس: هو الوجود الانبعاثي؛ فلهما وجوب الوجود بالغير فيزيلان الاستناد إلى الوجوب الذاتي، فكيف يكون؟ وإن لم يكن الخليفة بهذا الوصف، فأنّى يمكنه ذلك، فافهم أن الخلفاء كالحبوب من الحبة، والنوى من النواة، فيعطي كل حبة ما أعطت الحبة الأصليّة لاختصاصها بالصورة على الكمال، وهذا من لباب العلم بالله الذي أعطاه كشفُ أهل الكشف والشهود، فمَن كان عارفًا بمواقع خطاب الإلهيين وتنبيهاتهم وإشارتهم فقد عرَّفوه حقيقة الأمر؛ لأنهم يدعون إلى الله على بصيرة ولهم فصل الخطاب، قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [سورة النحل: 9]، فإذا عرفت ما أوردناه في هذا المبحث، وقفت على الأسرار الإلهيّة وعلمت مرتبة عباد الله الذين هم بهذه المثابة أين تنتهي المرتبة بهم؟ فافهم.

(**التي استخلف عليها**)؛ لأن استنادها إليه فلا بد أن يقوم بجميع ما تحتاج إليه واحتياج الوجوب بالغير للاستناد إلى الوجوب الذاتي ظاهر، فافهم.

ويشير إلى هذا المعنى قوله ﷺ في الباب الأربعين من «**الفتوحات**»:

وعندي أن العالم هو عين العلة والمعلول وما أقول إن الحق علة له كما انتصر له بعض النظّار يعني: الإمام الغزالي فإن ذلك غاية الجهل بالأمر، فإن القائل بذلك ما

---

(1) أورده الشوكاني في «نيل الأوطار» (192/3).

(2) سبق تخريجه.

عرف الوجود ولا مَنْ هو الموجود فلا بد أن ينتهي الأمر إلى واجب الوجود الذي هو نهاية العلل، وإلا يلزم الدود والتسلسل على رأيهم وإلا فليس بخليفة عليهم فخُلِق على صورته ومكَّنه بالصورة من إطلاق جميع أسمائه فردًا فردًا أو بعضًا بعضًا، ولا ينطلق عليه مجموع الأسماء معًا في الكلمة الواحدة، يتميز الرب من العبد الكامل فما من اسم من الأسماء الحسنى وكل أسماء الله الحسنى ألا وللعبد الكامل أن يظهر بها، كما له أن يدعو سيده بها بلا تخصيص ولا تخصص.

أمَّا وجوب الوجود فقد أظهرتُ لك شأنَه إن كنت فاهمًا غير مرة، وأما الغنى الذاتي فاعلم أنه ﷺ قال في الباب التاسع والسبعين وثلاثمائة: إنه في الخبر الصحيح والنص الصريح أن العبد يصل إلى مقام يكون الحق تعالى من حيث هويته جميع قواه، وهو سبحانه الغنيّ لذاته الذي يمكن إزالته عنه فإذا أقام الله عبده في هذا المقام فقد أعطاه صفة الغنىّ عن كل شيء؛ لأن هويته هو عين قُوِي هذا العبد وليس ذلك من تقاسيم الأعطيات إلا الإيثار فقد أثَّر بما هو له لهويته التي هي عين العبد، وهذا من بعض محتملات ما ذُكر من القوم وهو أن الفقير لا يحتاج إلى الله؛ لأنه فانٍ في نفسه باقٍ بالغنى على الإطلاق.

قال ﷺ: وهذا من علوم الأسرار التي لا يمكن بسط التعريف فيها إلا بالإيماء لأهلها أشْجعهم للعمل عليها فإنه في غاية من الخوف لقبولها وكيف الاتصاف بها؟ فافهم وتَحفَّظ، فإنها أختُ مسألة وجوب الوجود في الغرابة والندرة التي لا تجدها في كتب الصوفية؛ لأنها دون ذَوق المحققين المتصفين بالإطلاق، فافهم.

قال المصنف ﷺ:

«فما صَحَّتِ الخلافةُ إلاّ للإنسان الكامِلِ، فأنْشأ صُورَتَهُ الظَّاهِرةَ مِنْ حَقائق العالِم وصُورِهِ وأنشأ صورتَه الباطنةَ على صُورَتِهِ تعالى، ولذلك قال فيه: «كنتُ سَمْعَهُ وبَصَرَه»[1] وما قال: «كُنْتُ عَيْنَهُ وأُذُنَه»، ففرَّقَ بَيْنَ الصُورتَين، وهَكذا هُوَ فِي كُلّ مَوجُودِ مِنَ العالَم بقَدر ما تَطْلُبُهُ حقيقةُ ذِلِكَ المَوجُودِ، لكن ليسَ لأحَدٍ مجموعُ ما لِلْخَلِيفَةِ، فَما فازَ إلاّ بِالمَجْمُوعِ، ولولا سَريانُ الحقّ في المَوْجودات وظُهُورُهُ فِيها بالصُورَةِ ما كان لِلْعَالَمِ وُجودٌ، كَما أنَهُ لَولا تِلك الحقائقُ المَعقولةُ الكليَّةُ ما ظَهَرَ حُكْمٌ في الموجُوداتِ العَيْنيَّة».

(1) سبق تخريجه.

قال سيدنا الشارح ﷺ:

(فما صحت الخلافة إلا للإنسان الكامل) فإن له الجمع بين الصورتين، **فهو** الأول من حيث الصورة؛ لأنه خُلق على صورته والآخر من حيث الصورة؛ لأنه خُلق على صورته والآخر من حيث الصورة الكونية، والظاهر بالصورتين من حيث الخلافة والباطن من حيث صورته؛ لأنه على صورة الرحمن بخلاف العالم فإنه لا يقبل هذه الجمعية، فافهم.

(فأنشأ صورية الظاهرة من حقائق العالم وصوَره) وهي الحقائق الكلية ومقر ذاته فإن الصورة للأعيان الخارجية من حيث الأفراد والأشخاص.

قال ﷺ: إن جميع العالم برز من العدم إلى الوجود إلا الإنسان الكامل وحده، فإنه ظهر من وجود إلى وجود، من وجود فرق إلى وجود جمع، فتغيَّر الحال عليه من افتراق إلى اجتماع، والعالم تغيَّر عليه الحال من عدم إلى وجود، فبين الإنسان والعالم كبين الوجود والعدم؛ فلهذا قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11]من العالم، فافهم.

(وأنشأ صورته الباطنة على صورته تعالى).

ورد في الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان البخاري ومسلم رحمهما الله: «**إذا قاتل أحدكم أخاه فليتجنب الوجه إن الله خلقَ آدم على صورته**»[1].

بإعادة الضمير إلى آدم لم يبطل المعنى المراد يعني: خلق آدم على صورته: أي صورة آدم التي كانت في العلم بمعنى طابقت صورته الحسية صورته العلمية؛ لأن المثال الذي وُجد العالم عليه هو العلم القائم بنفس الحق، فإنه سبحانه علَّمنا بنفسه وأوجدنا على حد ما علمنا ونحن على هذا الشكل المعين، ولا شك أن مثل الشكل هو القائم بعلم الحق تعالى ولو لم يكن الأمر هكذا إلا أخذنا هذا الشكل بالاتفاق لا عن قصد وليس كذلك، ولولا الشكل في نفسه تعالى ما أوجدنا عليه ولو لم يأخذ هذا الشكل من غيره؛ لأنه ثبت كان الله ولا شيء معه إلا أن يكون ما برز عليه في نفسه من الصورة علمه، فعلْمه بنا علْمه بنفسه، وعلمه بنفسه أزلاً عن عدم فعلمه بنا كذلك، فنحن كذلك، فمثالنا الذي عين علمه بنا قديم بقدَم الحق؛ لأنه وصفٌ له ولا تقوم

---

(1) سبق تخريجه.

بنفسه الحوادث جلّ الله عن ذلك فافهم فإنه له من لُباب العارف، فلمّا أنشأ صورته على صورته فللإنسان في كل حضرة إلهيّة نصيب لمن عقل وعرف؛ لأنه صورته.

(ولذلك): أي؛ لأنه على صورته من حيث الباطن، قال فيه: أي في الإنسان الكامل الذي على الصورة من مقام قرب النوافل.

ورد: «**كنت سمعه وبصره**»[1] إشارة إلى كينونة القوى لا الجوارح، وإنْ كانت الأخرى صحيحة؛ لأن تخصيص الشيء لا يُنفي ما عداه فإنْ قيل مَنْ كان الحق سمعه وبصره وقواه، يدرك كل مبصرٍ ويسمع كل مُسْمَعٍ ولا يغيب عنه شيء؛ لأنه ناظرٌ بالحق وسامع به والحق لا يعزب عنه شيء.

قلنا: صدقت ولكن فرقٌ بين المقام والحال؛ فالحال ظل زائل فعند حصوله صحَّ له هذا الكشف في ذلك الزمان ولمأ رفع عنه رجح عنه بنظر يقين، خُلقَ بإمداد حق لا بحق فيكون حكمه حكم خواص الخلق له الكشف الجزئي لا الكلي ولا يدرك بعد رفع الكشف هل بقيت الأمور على ما كانت عليه إن انتقلت عن ذلك؟ فافهم، ذكره ﷺ في خمسة وأربعين وثلاثمائة من «الفتوحات».

وأمّا حكم صاحب المقام غير هذا الحكم والتفاوت بحسب المقام أما الذي لا يُقيّده المقام والحال، بل على تجرده فهو شرفٌ على الحالَين، وحكمه حكم المطلق على الإطلاق وهو صاحب المرتبة الخلافية بالاستحقاق، فافهم.

ولا تقس الناس بنفسك ولا تزن الأحوال والعطايا بميزانك؛ فإنه يتحرَّم عليك فافهم ما قال: كنت عينَه وأذنَه، وأن يكون من تتمة الحديث أو من حديث آخر، «**ويده التي يبطش بها، ورجله التي يسعى بها**»[2]، ولكن هنا ما أراد إلا من حيث القُوَى التي هي من أعمال الباطن.

فلهذا استدل بقوله: «**كنت سمعه وبصره**»[3]، ولم يقل: (أذنه وعينه)؛ لأنهما من أعمال الظاهر وقد تَجِيء أحكامه.

وذكر ﷺ في الفِص الهُودي: إن هويته هي عين الجوارح ولكن ما أخذ الشيخ ﷺ هنا من كينونة القوى الباطنة لا من حيث الجوارح والظاهر، فإنه من حيث الجوارح

---

(1) سبق تخريجه.

(2) سبق تخريجه.

(3) سبق تخريجه.

اعتبره ﷺ في مسألتنا أنه مأخوذٌ من العالم حقائقه ومفرداته، فافهم أن هذا الاعتبار غير الاعتبار الثاني فإن له ﷺ [ألْسِنًا غير مكررة]، هذا منها، ففرّق: أي الحق تعالى بقوله: «كنت سمعه وبصره»[1]، وأراد به جميع القوى بين (الصورتين): أي الظاهرة والباطنة من تركيب الأجسام والأجساد كما في الرّوْحَانيين وصورته الباطنة من تركيب المعاني والقوى الروحيّة والحسيّة والأول من كثائف العالم، والثاني من لطائفها كما قررناه أن العالم بين كثيفٍ ولطيفٍ فكان الحق تعالى عين اللطائف من العبد والكثائف منه كما من العالم كما عرفته سابقًا على التفصيل المذكور وهكذا هو في كل موجود من العالم: أي هكذا الأمر في العالم أن كل شيء ظاهرًا وباطنًا والحق تعالى باطن كل شيء من العالم من حيث اللطائف، وظاهر كل شيء من حيث العالم، من حيث الكثائف بقدر ما تطلبه حقيقة ذلك الموجود باستعداده وقابليته فإن من المظاهر من يعلم هذا ومن المظاهر ما لم يعلم: أي أنه مُظهر الحق، وأنه قد ظهر فيه كل شيء وعلامة من يعلم أنه مظهر الحق وظهر فيه كل شيء أن يكون له مظاهر حيث شاء من الكون كقضيب ألبان، فإنه كان له مظاهر فيما شاء من الكون لا حيث شاء، ومن الرجال من يكون له الظهور فيما شاء وحيث ما شاء، فهو يعرف حقيقة ما قلناه ذوقًا؛ لأنه كل شيء وفي كل شيء هذا أتم الأذواق، وهو ذوق خاتم النبوة؛ لأنه قال: «فتجلّى لي كل شيء وعرفت»[2] حديث صحيح رواه الترمذي.

وذوق الوارث الكامل، الفرد الخاتم، فإنه قال: إني انفردت بهذا الكشف من بين أصحابي وإخواني، فافهم.

ولكن ليس لأحد من العالم قوة ظهور أحكام مجموع ما للخليفة، فإن المجموعيّة ظهرت فيها أكثر مما ظهر في العالم أعلاه وأسفله فما فاز إلا بالمجموع: أي ما فاز الكامل إلا بكونه جامع الحقيقتين حقية وخَلْقية، ثم أراد ﷺ أن يذكر سر ظهوره في كل موجود فقال: ولولا سريان سر الحق تعالى في الموجودات كلها بالصورة أي بجملتها ما كان للعالم وجود لا روحًا ولا جسمًا، وسريان سر الوجود في الكلِ بالكل، ولكنْ الاختلاف منْ القوابل، فكمال الظهور في الإنسان الكامل لكمال قبوله، وكمال قبوله لكمال جمعيته وصفاء مرآته.

---

(1) سبق تخريجه.

(2) سبق تخريجه.

كما أنه لولا تلك الحقائق المعقولة الكلية التي ذكرناها في أول الحكمة على سبيل التمثيل وهي: الحقائق المعقولة المعدومة العين الموجودة الأحكام، أراد ﷺ بهذه التذكرة أن لا تُنسى حكمها وأثرها وهي معدومة العين، ما ظهر حكم في الموجودات العينية الخارجية أصلاً.

قال المصنف ﷺ:

[وَمِنْ هذِهِ الحقيقةِ كانَ الافتقارُ مِنَ العالَم إلى الحَقّ فِي وُجُودِهِ.

فالكُــلُّ مُفْتَقِــرٌ مــا الكُــلُّ مُــسْتَغْنٍ ... هــذا هُــوَ الحَــقُّ قَــدْ قُلْــنَاهُ لا نَكْنِــي

فــإن ذكــرت غنــيًا لا افْــتِقَارَ بــه ... فقــدْ علِمــتَ الــذي مِــنْ قَوْلِــنا نَعْنــي

فالكُــلُّ فــي الكُــلِّ مَــرْبُوطٌ ولــيسَ لَــهُ ... عَــنْهُ انفــصالٌ خُــذُوا مــا قلــتُهُ عنّــي

فقد عَلمتَ حكْمَةَ نَشأة جسدِ آدَمَ أعني صُورَتَهُ الظاهِرة، وقد عَلِمْتَ نشأةَ رُوحِ آدَمَ أعني صُورتَهُ الباطِنَة، فَهُوَ الحقُّ الخَلْقُ، وَقد عَلمْتَ نشأةَ رُتْبَتِهِ وَهِيَ المَجْمُوعُ الّذي بِهِ استحقّ الخِلافَةَ، فآدمُ هُوَ النَّفْسُ الواحِدةُ الّتي خُلِقَ مِنْها هذا النَّوعُ الإنساني، وهو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ [النساء: 1]، فقوله: اتّقُوا ربّكُم اجْعَلُوا ما ظَهَرَ مِنْكُمْ وقايَةً لرَبّكم واجْعَلُوا ما بَطَنَ مِنْكُمْ وَهُوَ رَبُّكُم وقَايَةً لَكُمْ فَإنَّ الأمْر ذَمٌّ وحَمْدٌ فَكُونُوا وقايَتَه في الذمّ واجْعَلُوهُ وقايَتَكُمْ في الحَمْدِ تَكُونُوا أدْباءَ عالِمِين، ثُمّ إنَّه تعالى أطلَعَهُ عَلى ما أوْدَعَ فِيْهِ وَجَعَلَ ذلك في قبْضَتَيْهِ، القَبْضَةُ الواحِدَةُ فِيها العالَمُ، وفي القَبْضَةِ الأُخرى آدَمُ وَبَنُوهُ وَبَيّنَ مَراتِبَهُمْ فِيْه، وَلَمّا أطلَعَنِي الله في سِرّي عَلى ما أوْدَعَ في هذَا الإمامِ الوَالِدِ الأكبر، جَعَلْتُ فِي هذا الكِتابِ منه ما حُدّ لي لا ما وَقَفْتُ عَلَيْهِ فَإنّ ذَلِكَ لا يسعهُ كِتابٌ ولا العالم الموجُودُ الآن].

قال الشارح ﷺ:

(ومن هذه الحقيقة): أي حقيقة لو لم تكن لم يكن كان الافتقار من العالم إلى الحق تعالى في وجوده: أي لو لم يكن الوجود ساريًا في العالم ما كان العالم وإذا ارتفع المدد، ينعدم العالم ويرجع إلى أصله، فالعالم محتاج إلى الوجود دائمًا أبدًا والوجود لا تظهر أحكامُه إلا في العالم، كما أن الرعيّة تحتاج إلى السلطان، والسلطان ما يُظهر سلطانه إلا على الرعيّة فلا يكون السلطان إلا بالرعيّة، فإنَّ الرب بلا مربوب لم يُعقل، كما أن المربوب بلا رب لم يَكُن، وقد أعطي حكم التضايف ذلك، فافهم.

ولما كان الافتقار كالافتقار، والغنى كالغنى قال ﷺ شعر إلا أنه إشعار وتنبيه:

فالكلُّ مفتقرٌ ما الكلُّ مُستغني هذا هو الحقُّ قد قُلْناه لا تكني
فإنْ ذكرت غنيًّا لا افتقارَ به فقد علمتَ الذي مِنْ قولنا نعني
الكلُّ بالكلِّ مربوطٌ فليسَ له عنه انفصال خذوا ما قُلتُ عني

قال تعالى: ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً﴾ [طه: 35].

قال ﷺ في الباب الموفي أربعمائة من «الفتوحات»: إنَّه بنا عليمٌ وبنا بصيرٌ، فلو لم أكنْ بمن كان عليمًا بصيرًا وأنا أعطيته العلم؛ لأنَّ العلم تابع المعلوم وأنا المعلوم، كما هو أعطاني الوجود وأنا المعلوم المعدوم، قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: 4] فالله في هذه المعيَّة، يتبع العبد كان كما نحن نتبعه حيث ظهرنا بالحكم ونحن وقوف حتى يظهر أمر يعطي حكمًا خاصًا في الوجود فنتبعه فيه فارتبطت الأمور والتفَّت الساق بالساق، وقد اعترف لي بذلك الساق حيث قَسَم الصلاة بيني وبينه على السواء؛ لأنه عَلم أنِّي له كما أنه لي، قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾[البقرة: 40] فهو زينتي بهويته، فهو سمعي وبصري من قرب النوافل وأنا زينته، فظهر بي اقتداره ونفوذُ أحكامه وسلطان مشيئته من قرب الفرائض، فلو لم أكن لم تكن للمُلك زينة، فلولاه لما كنا ولولا نحن ما كانَ، فأبدانا وأخفى وأبدى هو وأخفانا فأظهرنا ليُظْهر هو سرارًا ثم إعلانًا، كما نطلبه لوجود أعياننا بطلبنا لوجود مظاهره فلا مظهر له إلا نحن ولا ظهور لنا إلا به فيه عرفنا نفوسَنا وعرفناه، وبنا تتحقق عين ما يستحقه إلا له، فالأمر متوقف على الأمرين فيه نحن وهو بنا بصيرًا؛ بل إن الله تعالى أَطْلع خواصَّه على أنَّ حاجة الأسماء إلى التأثير في أعيان المُمْكنات أعظم من حاجة المُمكنات إلى ظهور الأثر، وذلك؛ لأن الأسماء لها في ظهور الآثار السلطان والعزة، والممكنات قد يحصل فيها أثر فتضرَّر به وهو على خطر، فبقاؤها على حالة العدم أحبُّ إليها لو خُيِّرت.

أما ترى قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً﴾ [النبأ: 40] فإنها في مشاهدة ثبوتية حالية خالية عن الأغيار ملتذة بالتذاذ ثبوتي، فافهم.

بل الافتقار من الجانبين من حيث المرتبتين؛ إنما هو من حيث الأثر، فإنه ثبت بالذوق الصحيح والكشف التام الصريح أنه لا يؤثرُ مُؤثِّر كان حتى يتأثر فأول ما يظهر

حكم الانفعال في الفاعل ثم يسري منه إلى من يكون محلاً لأثرة، ذكره الشيخ صدر الدين القنوي في شرحه على الفاتحة.

وهكذا نجد في التجربة، فإنه إذا ورد الغذاء على المعدة فَيُؤَثِّر فيها أو لا، فإذا تأثَّر وانهضم أثَّر في المَعدة بالتبريد أو بالتسخين، والتغذية والتنمية؛ بل هكذا الشاهد في المحسوسات كالسراج والدهن فإن أوله يُطغى النار وآخره يُشعل، فهذا عين ما قلناه من الأثر: أن المختلفات فيهما فكل واحد مؤثر ومتأثر، فافهم.

هكذا في معنى البيت فالكل مفتقر ما، والكل مستغن بالاعتبارات التي ذكرنا. ما هذا سر الأمر من حيث الانفعال، وأمَّا سر الأمر من حيث الاحتياج فهذا اندراج العبودة في السيادة، فإن العبودة عبارة عن نسبة جامعة عن نسبتيّ الفقر والانفعال، والمتضايفان: أي العبد والسيد، كما توقف معرفة كل واحد منها وظهوره على الآخر، علم أنه لا غني لأحدهما عن الآخر، ويشير إلى هذا الذوق كلام سيدنا علي ﷺ ونهج البلاغة حيث قال فيه: فلو أن الباطلَ فيه خلص من مزاج الحق لم يخف على المرتادين، ولو أن الحق خلص من لَبْس الباطل انقطعت عنه السنة المعاندين، ولكن يؤخذ من هذا ضغْث ومن هذا ضغْث فيُمزجان، فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه وينجو الذين سبقت لهم من الله الحسنى، انتهى كلامه ﷺ. فلا بد من الأمرين، فافهم.

فقد علمت حكمةَ نشأةُ جسد ابنَ آدم أعني: صورتها الظاهرة، فإن نشأته الصورية من حقائق العالم وصوره، وقد علمت نشأة رُوح آدم على صورته الباطنة إنما هو على الصورة.

قال الشارح القيصري - رحمه الله -: إن حكمة نشأة رتبته وهي المجموع؛ لأن صورته الباطنة وحدها كما سيجيء في المتن، فهو يجمع الصورتين الحق في الخلق: أي حق من حيث الباطن وخلق من حيث الظاهر وقد علمت نشأة رتبته: أي الخلافة وهي كالبرزخ بين الصورتين، وبكونه أنه مجموع استشرفَ على الطرفين كالبرزخ، ورأى نفسه بهذه المثابة، فرأى في نفسه أحكام النقيضين ذوقًا، من حيث إنها ذات خليفة فهي؛ الذات الخلافية لا ذات الخلق ولا ذات الحق.

ومن هذا المقام قال الخراز - قُدِّس سرُّه -: عرفت الله بجمع الأضداد يعني: في نفسه ذوقًا يشير إلى التحقيق بهذا المقام وبه كَمُلت الصورة الإلهية وفيه شُوهدت، فهو حسبه كما هو حسبه، ولهذا المقام أحكام متداخلة، وأسرار غامضة متعانقة، قال

تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 165]، فعلمنا به أن العقول قاصرة عن إدراك إطلاق هذه الآية:

لَــيْسَ عَلَــى اللهِ بِمُسْـتَنْكِرٍ أَنْ يَجْمَــعَ الْعَــالَمَ فِــي وَاحِــدِ

وأن الله قادرٌ على جميع الأضداد، بل هو جامع الأضداد فجمع الخليقة بأحكامه الظاهرة أحكام المستخلف عليه، وبأحكامه الباطنة أحكام المستخلف، فجمع بين مقامي الاستفاضة والإفاضة، والتأثير والتأثر، والفعل والانفعال، فتمّ أمرُ الخلافة بهذا العبد الكامل المخلوق على الصورة الجامع لجميع الحقائق إلا مكانة بالأصالة والوجوبية الإلهية بالنيابة، وهو المظهر الأكمل القويم والمجلى الأجل الأجمل في أحسن تقويم؛ فلهذا قال الإمام الغزالي - رحمه الله تعالى -: ما في الإمكان أبدع من هذا العلم لكمال وجود الحقائق كلها فيه، وهو العبد الذي يسمى خليفة ونائبًا، وهو غياب عزيز جعله الحق موضع أسراره ومحل تجلياته، وهو الذي يعطي النزول والاستواء المعية والفرح والضحك، وما يفهم منه من أدوات التشبيه، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الزخرف: 84] وكان آدم أول خليفة ونائب منه في الأرض، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30] وعلمه ما لم يعلم من علوم التأثيرات التي تكون من الأسماء الإلهية التي تختص بالأرض حيث كانت خلافته فيها، وله الأثر الكامل في جميع الكائنات، وله المشيئة التامة في جميع الموجودات؛ فإنه إقامة الظاهر بالاسم الظاهر، وإعطاؤه علم الأسماء من حيث ما هي عليه من الخواص والتأثيرات التي تكون عنها الانفعالات، فيتصرف بها في العالم الأعلى والأسفل.

قال ﷺ في «الفتوحات»: اختلف أصحابنا هل يصح أن يكون منه في الوجود شخصان فصاعدًا؟ أو لا يكون إلا شخص واحد انتهى كلامه.

ونقول: قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ [النساء: 48] فافهم.

قال ﷺ شعرًا وحكمة:

وَمَـا النَّاسُ إلا واحـدٌ بعـد واحـد حَـرَامٌ عَلَـى الأدوار شخصان يوجد

قال الشارح القيصري - قُدِّس سرُّه - في بيان هذا المتن: إنما جعل الخلافة بالمجموع؛ لأنه بالنشأة الروحانية أخذ من الله، وبالنشأة الجسمانية بلغ إلى الخلق وبالمجموع يتم دولته انتهى كلامه، وهذا خلاف اقتضاء المتن السابق بل خلاف تفسيره السابق؛ لأنه قال الشيخ ﷺ: فهو الحق.

وقال الشارح: وهو الحق باعتبار روحه، والخلق باعتبار جسمه، فكيف يقول أخذ من الله وأثبت أنه عينه؟! بل الصواب أن يُقال: إنه أخذ مستفيض من حيث إنه خلقٌ مفيد مفيض من حيث إنه حقٌ فما جني ثمرة غرسه إلا من شجرة نفسه، فافهم.

فلمّا قرر ﷺ أن آدم هو الخليفة بالاستحقاق يريد أن يبين أن الخليفة على صورة المستخلف، والمستخلف ذات ظهرت منها المرتبة وهي الألوهية؛ لأنها من اقتضاء ذاتي، وظهرت منها صور العالم كله أعلاه وأسفله؛ فلذلك ينبغي أن يكون هذا الخليفة.

فقال: (فآدم وهو الإنسان) المفرد في كل إنسان، ولكن كانت في آدم أتم وأقدم؛ لأنه كان ولا مثل له، ثم بعد ذلك استشاق منه الأمثال، فخرجت على صورته، كما انتشل هو من العالم، ومن الأسماء الإلهية فخرج على صورة العالم وصورة الحقيّة، فوقع الاشتراك بين الأناسي في أشياء وانفرد كل شخص بأمر يمتاز به عن غيره، وهذا الإنسان المفرد يقابل ذاته الحضرة الإلهية، وقد خلقه الله تعالى من حيث شكله وأعضائه على جهات ست ظهرت منه، فهو في العالم كالنقطة في المحبط، وهو من الحق كالباطن، ومن العالم كالظاهر، ومن القصد كالأول، ومن النشأة كالآخر؛ فهو أول بالقصد آخر بالنشأة، وظاهر بالصورة، وباطن بالروح، كما أنه خلقه تعالى من حيث طبيعته وصورة جسمه من أربع، فله التربيع من طبيعته إذا كان مجموع الأربعة الأركان، وأنشأ جسده ذا أبعاد ثلاثة من طول وعرض وعمق، فأشبه الحضرة الإلهية ذاتًا وصفاتًا وأفعالاً، فافهم.

ولكن جعل الله تعالى هذا الإنسان المفرد خليفة عن الإنسان الكل الأول الأقدم، فالإنسان المفرد ظل الله في خلقه من خلفه فعن ذلك، هو خليفة، والكُمَّل هم خلفاء عن مستخلف واحد، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [فاطر: 39].

قال القيصري رحمه الله تعالى: فآدم في الحقيقة هو النفس الواحدة، وهو العقل الأول وليس كذلك؛ لأن آدم الذي نحن بصدد بيانه من أول الكتاب إلى هنا آدم، من حيث إنه خليفة لا من حيث إنه إنسان؛ فهو مجموع العالم مع الزيادة والعقل من بعض

قواه بل العقل الأول ثم النفس الكل، وهكذا على الترتيب فافهم؛ حتى تعرف رتبة كلام الشيخ ﷺ من بين الذواق، وأمّا من قال: إنه آدم أبو البشر خالف كلام الشيخ، وهو الشارح الجامي ﷺ حيث قال في نفس الفصوص: إن مرادي من آدم هو النوع الإنساني.

قال في «الفتوحات»: إنه أصل هذا النوع الإنساني، وأن هذه الحقيقة في كل إنسان كامل، ولكن امتاز آدم بالأولية كما سبق ذكره آنفًا، فافهم فإنه ما أراد في النفس (هو النفس الواحدة) من حيث الحقيقة لها أحديَّة الجمع وبها استحق الخلافة، فإنها من مقام برزخي التي خلق منها هذا النوع الإنساني؛ فإن هذا النوع الإنساني من حيث إنه نوعٌ كالعقل الأول، وجرِّد آدم من حيث إنه خليفة فبثَّ منهما أفرادًا كثيرةً ذكورًا وإناثًا، فكما ظهرت من الذات المرتبة، ومنها ظهرت صور العالم مؤثرات ومتأثرات، كذلك آدم الخليفة ذات ومرتبة، وبث منهما أفرادًا كثيرةً ذكورًا وإناثًا وهو قوله: أي ما قلنا: إن الأصل نفس واحدة، وخلق منها كثيرًا هو عين ما قاله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [البقرة: 21] في هذا الخطاب إشارة لطيفة، وهي أن الناس المخاطبين بهذا الخطاب كلهم بعدوا عن مواطنهم، ونسوا مقتضى ذواتهم؛ لأن النداء دعاء على رأس البعد وبَوّحَ بعين العلم والحجاب لا الكشف، وذلك أن الإنسان إذا رأى في نفسه هذا الكمال الذي قررناه في المباحث السابقة فخيف عليه أن يزهو على مقتضى النشأة؛ لأنها مقتضى النشأة؛ لأنها مقتضى ذلك بل إنه مشتق من النسيان يخاف أن ينسى عبوديته، قال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى﴾[العلق: 6]، ﴿أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: 7] بل إن الله تعالى خلقه على صورته، وكان في قوة الإنسان من أجل الصورة أن ينسى عبوديته؛ ولذلك وصف الإنسان بالنسيان فقال في آدم فنسي والنسيان نعتٌ إلهيّ، فما نسي إلا من كونه على الصورة، قال الله تعالى: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: 67] كما يليق بجلاله، فلمّا علم الله أن هذا العبد للقوة الإلهية التي معه يبعد عن مقتضى النشأة ولا بد يدَّعي في نعوت ما هو حق الله تعالى؛ لأن الدعوى صفة إلهية والعبد مخلوق على الصورة، قال تعالى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [طه: 14] فادَّعى العبد أنه لا إله إلا هو وهي دعوى صادقة، ومَنْ ادَّعى دعوى صادقة لم يتوجه عليه حجة وكان له السلطان على كل من ادَّعى عليه دعواه؛ لأن الشدة، والغلبة، والقهر، فإنها لا تقاوم فغار من المشاركة وحجر عليه بعض النعوت، وقال: من يتعدى هذه الحدود كالعظمة،

والكبرياء، والجبروت فتضمنه، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: 35]، فهو عين الغيرة.

أما ترى أنه جعله خليفة في الأرض لا في السماء مع وجوده على الصورة؛ لأنه ربما يطغى ويقول: أنا ربكم الأعلى ولو طغى ما وقع الإنس وما خلق إلا للإنس به فبهذه الاعتبارات نزَّلهم بمنزلة مَن خرج عن الحضرة فناداهم، وقال: يا أيها الناس، ولم يقل: يا أيها المؤمنون أو غيره من الألفاظ، للإشعار بالنشأة منهم والاعتذار عنهم.

قال ﷺ في كتاب «القدس في مناصحة النفس»: فالقوي منا المتمكن هو الذي يخرق حجاب سره يعني: مرتبة الخلافة الجمعية العامة الكبريائية بينه وبين ربه: أي لا يرى ألوهية نفسه، بل يشاهد ألوهية ربه دون ألوهيته، فيتعبَّد فيعرف عبوديته، فحينئذٍ يكون أقوى العالم وأشده؛ لرفعه ذلك الحجاب الأقوى فتكون منزلته أعلى وقوته أعظم، وهناك يتميز ويتحارى مع العالم في الرفعة والانحطاط، وهناك راتب مبلغ العارفين العالمين.

وأمَّا هذا المدرك الذي أومأنا إليه فبعيد أن تسمعه من غير هذه الرسالة على درج هذا التحقيق، ثم قال ﷺ: وأمَّا قبل أن تحرقه فإنه يثمر لك ما أثمر للجبارين، قال تعالى فيهم: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: 35] ختم عليه بالشفاء، فإذا خرقت حجاب الجمع العام الكبريائي؛ استودعه فيك منه فنفدت من ورائه إلى عبوديتك، عاينت ألوهية الحق المقدسة، فوجدته ولم تشرك به شيئًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: 48] وهنا يجوز يُهْلَك فيها عالمٌ كثيرٌ من أهل طريقتنا لعدم ذلك التحقيق، ووقوفهم مع سر الجمعية، فحجبتهم الرئاسة عن استيفاء العبودية، والخدمة، فافهم.

فلما كان دواء هذا الداء العضال التقوى فأمره بالتقوى، وقال تعالى: ﴿إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: 29]: أي لتفرقوا بين الحق والباطل، وقال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 282]، جعل التقوى طريقتنا إلى حصول العلم النافع.

والتقوى أن يجعل الله وقاية له في الخير كله، فإن الحق تعالى عين الوجود، والوجود فخيرٌ محضٌ، ويجعل نفسه وقاية الله في الشر، فإنه عدم، والعدم شر كله،

وأشار إلى هذا الأدب معلم الخير ﷺ حيث قال: «والخير كله بيدك، والشر ليس إليك»[1] ولو لم يتس نفسه ولو أدخله الجوّاد في الميزان.

وقال: إنه خلقه على صورته، فيوازن بصورته حضرة موجدة ذاتًا، وصفة، وفعلا، فلا يلزم من الوزن الاشتراك في حقيقة الموزونين؛ فإن ما يوزن به الذهب المسكوك هو سنجة حديد، إذا وزنت نفسك بهذا الميزان عرفت نفسك؛ وهو ميزان الشريعة ومعرفة النفس، وزال عنك ما توهمته في الصورة من أنه ذاتٌ وأنت ذاتٌ أنك موصوف بالعلم والحياة، وهو الحي العالم، ولكن أنت فقيرٌ محتاج، وهو الله الغني وهو الوجود، وأنت المعدوم المفقود، وكل من ادَّعى الربوبية من كلمة فرعون إلى قول الإنسان: لولا قلت كذا كان كذا، ولولا همتي كان كذا، وهذه كلها علل وأمراض من داء سر الأُلوهية، وكل واحدة من هذه الأصناف يعاقب ويعاتب على قدره، فهذه أدواءٌ كثيرة ودوائها التقوى.

قال ﷺ: أعظم الفتن التي أفتن الله تعالى بها الإنسان الكامل تعريفه إياه بأنه خلقه على الصورة؛ ليرى هل يقف مع عبوديته؟ وسواء داء مكانه، أو يزهو الأجل مكانه، ومكانة صورته، فإنه تعالى ما أظهر الصورة المثلية في هذه النشأة على التشريف فقط، بل هي شرف وابتلاء، مَنْ ظهر يحكم الصورة على الكمال، أن يخرق حجاب سر الجمعية العامة الكبريائية؛ حتى يشاهد ألوهية ربه دون ألوهيته، فقد حان الشرف بكلتا يديه، فإن الصورة الإلهية الكاملة لا يلحقها ذمًا بكل وجه.

وهذا هو أول قدم في الشريعة، فإن الشارع أول ما أتى به لا إله إلا الله، فلا يجيبه إلا مَنْ خرق سرِّ الجمعية العامة الكبريائية منه، وبهذا ينتفي الاشتراك ويتبين أهل لا إله إلا الله على حسب رفع حجابهم، فمن الجماعة من يقولها ابتداءًا من غير نظر وهو الإمام، ومنهم مَنْ يقول معه بعد رؤية الدليل، فهذا جاهل بنفسه؛ فإن لا إله إلا من مدركات العقل بالنور الإلهي توقفه على الدليل دليل على التقليد وفقد ذلك النور، ولكن قد يستعد بإجابته ولو بعد حين، قال تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاً وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: 10] فافهم.

---

(1) أخرجه البيهقي في الكبرى (32/2)، وأبو نعيم في «الحلية» (39/8).

ومَنْ نَقَضَ هذا المقام الكمالي خرج مع فرعون والنمرود، وكان في حقه مكرًا إلهيًا، من حيث لا يشعر فلهذا قال ﷺ: «**إنها في الآخرة مندمة**»[1]، لما يتعين على صاحبها حقوقًا، وقد جعلنا رعاة، فقال ﷺ: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**»[2].

فمَنْ جُمعت له الصورة بكمالها، وهو يخرق حجاب السر الجمعي كما قلناه آنفًا، فلم يسأل؛ فإن الله لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، هذا كله إذا كانت الخلافة بالتجلي، أما إذا كانت الخلافة بالتعريف الإلهي؛ فإن متعلقه السمع وهو خير، وهذا الأمر آخر، ولا كلامنا فيه، فافهم.

ثم نرجع ونقول: فلما كان هذا الإمكان إمكان النقص والنسيان في الإنسان فيه أمره بالتقوى، وقال ﷻ: ﴿**وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً**﴾ [الطلاق: 2]، حتى يخرج العبودة مخرج الأُلوهة علمًا وكشفًا، وتجمع السيادة في عين العبودية، والعبودية في عين السيادة، يكون عبدًا ربًا خلقًا حقًا، فظهر بالأصالة بين الطرفين؛ وهما طرفا نقيض، فجمع الضدين، بل يكون عين الضدين على صورة من أنشأه، فإنه على الصورة، فإنه حينئذ رزقه الله علم الفرقان، ويقف بذاته على القرآن؛ هذا هو استظهار القرآن، وهذا لباس التقوى لباسًا يواري سوءاتكم، وهذا أدب يلبسكم لباس الأدباء، قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ**﴾ [الأعراف: 27] فالمتقي يتولى الله تعليمه، فلا تدخل في علمه شبهةٌ ولا مراءًا، وكمال هذا لِمَنْ وأخا بين الإيمان والعيان، ويعمل بمقتضى الإيمان مع العيان، كما قيل في بيان العارف وتعريفه: إن لا يطغى نور معرفته نور درعه، ورد في الخبر ما أشار به إلى هذا المقام ﷺ: «**إنما الإيمان بمنزلة القميص يقمصه الرجل مرة وينزعه مرة أخرى**»[3] رواه الحكيم وابن مردويه عن عتبة بن خالد بن معدان عن أبيه عن جده ﷺ، فإنه يتقمَّص به حين يتعمَّل بالإيمان وينزعه حين الكشف، وما يجمعهما إلا الأقوياء، فافهم.

قال الشيخ ﷺ: أنا الذي واخيت بين الإيمان والعيان، وكمال هذا المقام ختم بالختمين، أما ترى أنه ﷺ وآله وسلم كان يحكمهم بالشاهدين، وهو عالمٌ بحقيقة

---

(1) لم أعثر عليه.

(2) سبق تخريجه.

(3) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادره (273/1).

الأمر، وأشار إلى هذا بطرف خفي في قوله في حكاية مشهورة وهو: «لولا الإيمان لكان لي ولها أمر»[1] رواه الطبراني عن ابن عباس.

وورد في الحديث: «لو رجمت أحدًا بغير بينةٍ لرجمت هذه»[2] رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما ذكره في «جمع الجوامع».

قال تعالى: ﴿رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: 1] وهى نفس آدم أبو البشرﷺ، يخاطب الحق ما نفزع منه، قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ﴾ [القمر: 50] وهي أمره، وقال ﷺ: «إنَّ ربَّكم واحدٌ كما إنَّ أباكم واحدٌ»[3] لما كان حواء عين آدم؛ لأنه عين ضلعه، فما كان إلا أب واحد في صورتين مختلفتين كما هو التجلي في تكرار العدد، فعين حواء عين آدم؛ انفصال اليمين عن الشمال وهو عين زيد، وقال الله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يوسف: 100]، سمَّاها أبي وليس أبوك إلا مَن أنت عنه.

وقال ﷺ في الباب العاشر من «الفتوحات» في آدم، ثم فصل عنه أبًا ثانيًا، فافهم.

قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[النساء: 1]؛ وهى حواء.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم: 21]، وما أنشأ الله تعالى من كل شيء زوجين؛ إلا لِيُعَرِّفَ الله العالم بفضل نشأة الإنسان الكامل؛ ليعلم أن فضله ليس بالجعل الكامل ليعلم أن فضله ليس بالجعل، فإن الذي هو الإنسان الكامل ظهر به ازدواج من لا يقبل لذاته الازدواج ما هو بالجعل، فضمن الوجود الإنسان الكامل الظاهر بالصورة، فصار الصورة بالصورة روحين فخلق آدم علي صورته فظهر في الوجود صورتان متماثلتان كصورة الناظر في المرآة ما هي عينه ولا هي غيره ولكن حقيقة الجسم الصقيل أعطى ذلك، فافهم فإنه لب المعارف، فلمَّا أراد سبحانه إيجاد التناسل والتوالد والنكاح الصوري في دار الدنيا للاستئناس؛ فاستخرج من ضلع آدم ﷺ من أقصره حواء عليهما السلام، فقصرت بذلك عن درجة الرجل، وللرجال، قال تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: 228] وهي درجة

(1) أخرجه الطيالسي «المسند» (347/1).
(2) أخرجه البخاري (2036/5)، ومسلم (1134/2).
(3) أخرجه أحمد (411/5).

التقدم والكلية في رتبة الوجود، فما تلحق بهم أبدًا، قال تعالى ﷻ: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾[النساء: 35] قيام الكل على الجزء، وللقيُّوم درجة التقدم والشرف.

أمّا السرُّ الذي خلق منها زوجها إلا من خارج، حتى لا يخرج الأمر منه أصلا، ويكون الأمر منه إليه؛ كالأصل وغيره منه عليه حتى لا يستأنس بالغير، وهكذا الأمر في الأصل أنه ما أظهر عينا للغير حتى لا يكون للغير عين، فافهم.

هذا سرُّ الحديث المشهور في الغيرة الإلهية أنه قال ﷺ: «إنَّ سعدًا لغيُور وأنا أغير منه والله أغير مني»[1] فالغيرة صفته كما قال، فافهم.

قال تعالى: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً﴾ [النساء: 1] فلمّا كان آدم نفسًا واحدةً وحواء خلقت منها فبثَّ منهما، وأوجد، ونشر بنكاح صوري رجالاً كثيرًا ونساءًا.

قال تعالى: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: 17]، إنما أخَّر النساء؛ لتأخرها في الخلق وفي الرتبة، يقال: نسأت الشيء إذا أخرته، ذكره في الصحاح؛ وذلك لأنها في مرتبة الانفعال، ولها التأخُّر عن رتبة الفاعل، وهكذا الأمر في العالم وإيجاده خلق في نفس واحدة، وهي نفس القلم الأعلى والروح الأعظم الأسنى وهو أول خلقٌ إبداعي نفس النفس الكل، وهي أول خلق انبعاثي كانبعاث حواء من آدم عليهما السلام في عالم الأجرام؛ ليكون محلاً للولادة المعنوية المحسوسة المشهودة لأهلها، وكانت مما ألقي إليها من الإلقاء الأقدس الروحاني الطبيعة والهباء جميعًا، فكانت أول أم ولدت توأمين، كما كانت حواء عليها السلام، فأول ما ألقت هو الطبيعة أخ وأخت لأبٍ واحدٍ وأمٍ واحدةٍ، فأنكح الطبيعة الهباء، كما كانت في أولاد آدم وحواء فولدت بينهما صورة الجسم الكل، وهو أول جسم ظهر في الوجود؛ فكان أبوه الطبيعة والهباء أمه، وهي الهباء جوهرة مثبتة في جميع الصورة أثاثها، وما من صورةٍ إلا هي فيها، وإنما قلنا الذكور والإناث، وأردنا الصورة الفاعلة والمنفعلة؛ لأن الأمر لا يخلو من هاتين القوتين؛ فأول الأباء لعلوية معلوم: أي القلم الأعلى؛ وأول الأمهات السفليّة شبيه المعدوم الممكن، فهذا أبٌ ساري الأبوة، وهذه أمٌ سارية الأمومة، والنكاح والازدواج سارٍ في كل شيء والأولاد والنتيجة دائمة أبدًا دنيا وآخرة.

(1) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (23/6).

فالمولدات أمورٌ مختلفة لا تنحصر أشخاصها الطبيعة والعنصرية أبدًا؛ لأن الله تعالى قد وصفها على أمزجة مختلفة لمعانٍ مقصودة لا تحصل إلا بها، وإنًا وإنْ كنّا عن أصلٍ واحدٍ، ولكن جعلنا مختلفين؛ لحكمة لا تخفى على الواقفين.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: 118]؛ ولذلك خلقهم، فمنًا الطيب والخبيث الواسع والضيق، نظم حضرة الشيخ ﷺ شعر:

فالأَصْلُ فَرْدٌ والفُرُوْعُ كَثِيرَةٌ فَالحقُّ أصْلٌ والكَيَانُ فُروعُ

فافهم، وهكذا في المعاني في إنتاج العلوم؛ إنما هو بمقدمتين موضوع التالي عين محمول المقدم، فإذا وقع بينهما نِكاحٌ معنوي وهو نسبة مخصوصة تُعطي صحة النتيجة وحرية الأولاد كتكرار حد الوسط وغيره من شروط الصحة لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: 21] بل العالم كله بما فيه ضَرْبٌ للأمثال للذين آمنوا؛ ليعلموا منه أنه هو فجعله عليه، وأمرنا بالنظر فيه كذلك يضرب الله الأمثال للذين استجابوا لربهم، فإن قيل ما من شيء في الوجود إلا وله استناد إلى الإلهيات، فإن العالم ظل وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الفرقان: 45]، كما ورد في الخبر: «السلطان ظل الله في أرضه»[1]، وقال في هذا المعنى ﷺ في الباب الرابع والستين وثلاثمائة في معرفة منزل السرّين: لِمَ سمّي هذا المنزل منزل السرّين؟ وهو سرٌّ عجيب أن الشيء الواحد تثنيةُ نفسه لا غيره في المحسوس والمعقول، فأمّا في المعقول فآدم ثنّاه ما فتح من ضلعه القصير من صورة حواء، فكان واحد في عينه فثنّاه نفسه وصار زوجًا، وليست سوى نفسه التي بها قيل فيه: إنه واحدٌ.

وأمّا في المعقول فالألوهية ليست غير ذاته، ومعقول الألوهية خلاف معقول كونه ذاتًا، فثنّت الألوهية ذات الحق تعالى وليست سوى عينها فكانت في الحس من آدم ومَنْ ثنّاه مِنْ ذاته رجالاً ونساءًا على صورة الزوجين.

كذلك بثَّ من ذات الحق وكونه إلهاً للعالم على صورة هذين المعقولين صور كثيرة، أسماء مؤثرة وأسماء متأثرة ذكورًا وإناثًا، فالعالم لِتَوالُدِ أجزائِه على صور مؤثِّر ومؤثَّر فيه فاعل ومنفعل، كما جرى في المحسوس فإن الله تعالى ما خلق من آدم

(1) أخرجه البيهقي (17/6).

وحواء عليهما السلام أرضًا وسماءًا، بل ما خلق منهما الأمثال في الصورة والحكم؛ لأن الأصل واحدٌ وما ثنّاه سوى نفسه ولا ظهرت كثْرَةً إلا من عينه الواحدة، فكان له كل شيء من العالم يدل على أنه واحد؛ فإن الوجود بثَّ منه صورًا كثيرةً، وهي نسب أحكام الأعيان واستعدادات الممكنات في عين الوجود الواحد، والنَّسب هي صورة الحقائق الأسمائيّة الفاعليّة التي كثُرت من نكاحاتها المعنوية في الحقائق الكونية، وكثُرت منها صور النَّسب الواقعة بلفظ النَّسب بفتحتين، وهو مشتق من النِّسْبة، فافهم.

وبثَّ نسبًا مؤثِّرة ومتأثِّرة ذكورًا وإناثًا، وهذه هي النسبة الإلهية التي يرفعها يوم القيامة كما ورد في الخبر الصحيح: «**اليوم أضع نسبهم وأرفع نسبي**»[1].

وأمَّا الإنسان الكامل من حيث طبيعته الحاضرة للمواليد كلها هو بمنزلة الأنثى لزوج معروف غير منكور، وله ثلاث حالات معه قبول الولد والمخاض والولادة، فيعرف في كل نفس ما يَلقي إليه فيه ربّه وما يخرج منه إلى ربّه وما فيه مما ألقي فيه مِنْ ربّه، فإنه مأمورٌ بمراقبة أحواله مع الله تعالى في هذه الثلاث المراتب، فالمحقق العارف يعرف زوجه ويعرف أنه بِنِكَاح لا بِسِفَاح بوليّ وشاهدَين مع تلاوة: ﴿**وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص: 4] غيره فيعرف ما يلد ومن يقْتُل ولده إذا وُلدَ ومن يربّيه؛ فلهذا السرُّ: أي لأجل أنه أنثى لا يكون الكامل الفرد تحت الكامل؛ لأن الفوقيّة للرجوليّة، وليس فيهم رجل.

قال ﷺ من هذا الذوق في بعض أشعاره يناجي فيها ربّه:

إنَّـا إنَـاثٌ لِمـا فِيـنَا نُـولِدُه فلْـنَحْـ ـمَـدُ الله مَـا فِـي الكَـوْنَ مِـنْ رَجُـلِ

فنسمّي هذه الطائفة بالأفراد فافهم فإن المعارف الإلهية على هذا النمط والأسلوب لا نجدُها في غير كتبِ الشيخ ﷺ فقوله تعالى: ﴿**اتَّقُوا رَبَّكُمُ**﴾ [النساء: 1] والاتّقاء بمعنى جعْل الشيء وقايةً يندرج بها عن إصابةِ أَسْهُم الحوادث والمكاره والأسوأ، فلمَّا ذكر ﷺ التقوى يريد بيان التقوى، فإنها أقسام: تقوى الله، وتقوى النار، وتقوى الحدود.

وأمَّا التقوى التي نحن بصَدد بيانها هي: تقوى الله، فاعلم أنَار الله تعالى بصائرَنا وأصلح لنا سَرائِرَنا وخلَّص مِن الشبهِ أدلَّتنا أنه لَّما امتنَّ الله علينا بالاسم الرحمن،

---

(1) أخرجه البيهقي (289/4)، والطبراني في «المعجم الصغير» (383/1).

فأخرجَنا من الشر الذي هو العدم إلى الخير الذي هو الوجود، فينبغي أنْ لا ننسى أصلنا حتى لا ننسى فضلَه.

وردَ في الخبر: «إنما يعرفُ الفضلَ لأهلِ الفضلِ أهلُ الفضلِ»[1] رواه أنس، فمَنْ جهل بنفسِه ونسيَ أصله فهو بالغير أجْهلُ، وهذا داء ينبغي له دواء قبل الداء، كما هو عادة الحكماء الإلهيين، فكان الله حفِظَ صحة آدم قبل قيام العلة به مِنْ ألطف الطِّب ويسمَّى هذا الفعل عند الأطباء: الاستظهار، وأمر الله تعالى بالتقوى.

كما ذكرناه أنزل الدواء قبل الداء، فمَن تحسَّى منه برئ بإذن الله، فأراد ﷺ أن يذكر جنس الدواء، ويحرر أوزانها ويقرر أوقاتها، كما دأَب الحكيمُ العليم.

فقال ﷺ: اجعلوا، أي بالإسناد إليكم ما ظهر منكم من الفواحش والمذام وقاية لربكم الذي هو باطنكم، كما فعل الأديب الإلهي إبراهيم عليه وعلى نبيِّنا السلام؛ حيث أسندَ المرض إلى نفسه، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: 80].

(واجعلوا ما بطن منكم وهو ربكم وقاية لكم) فإن ظاهرَكم خلْق وباطنهم حقّ فاسد، والخير كله مِن المحامد إلى باطنكم، كما جعلتم ظاهركم وقايةً باطنكم في إسناد الشر، فاجعلوا باطنكم وقاية ظاهركم في إسناد الخير، لما ورد في الخبر الصحيح أنَّ الله تعالى يحب أن يُمدح وفي حديث طويل:

«وما من أحدٍ أحب إليه المدح من الله من أجل ذلك وعد الجنة»[2] رواه الحاكم في «المستدرك» عن المغيرة بن شعبة ﷺ، فألحق المحامدُ إليه، كما تُلْحقُ المذام إلى نفسك، كما هو فعْل الأدباء، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: 80] وإنما عرَّفنا الله تعالى بأهل الأدب وحكى لنا حكايته ؛ حتى نتأدَّب بآدابه تعليمًا لنا وتنبيهًا وتعظيمًا له وتنويهًا، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾ [النحل: 123] فلهذا كان ﷺ يقول في الأدعية المأثورة معلِّمًا لنا «والخير كله بيديك والشر ليس إليك»[3] فافهم.

فإن الأمر الصادر منكم إمَّا ذم، فهو لكم وأنكم سواد الوجه في الدَّارين كل

---

(1) أورده الديلمي في «الفردوس» (343/1).

(2) أخرجه البخاري (200/5)، ومسلم (2113/4).

(3) سبق تخريجه.

يشاكلُه عمله، وإمَّا حمد، له الحمد في الآخرة والأولى، وأخيرًا عَلِم الخلْقُ به ﷺ أن الحمد لله على كل حال ما قيده بشيء حتى الأمر في جميع الأحوال سواء كان بواسطة أو بغير واسطة، وإن شئت قلت في الجمع أو الفرق، فإن له عواقب الثناء وذلك؛ لأن الحمد هو الثناء، والثناء على قسمين: ثناءٌ عليه بما هو له كالثناء بالتسبيح، وثناء عليه بما يكون منه وهو الشكر على من أسبغ النَّعماء وإلا لا.

والعبد وما في يده لمولاه فلا يملكُ شيئًا؛ حتى يكون الحمدُ بما هو له، ولا يُخرج منه شيئًا، فإن خروج الشيء عن الشيء فَرع أنْ يكون له شيء، وقد قلنا أنه ليس له من الأمر شيء، فالحمد لله كله له، فافهم.

فكونوا وقايته في الذَّم فتكونوا كالوقاية من أسنَّة المكاره وسِنان اللسان، وأضيفوا كل مكروه إليكم فداءًا له.

(**واجعلوا وقايتكم في الحمد**): أي ألحقوا الوجود والخير كله إلى ربكم؛ ليكون الخلاص لكم الخلاص مِن شرور الزهو والظهور، قال تعالى: ﴿**لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ**﴾ [الحج: 37] فالظاهر مُتَّقي والباطن مُتَّقي فالكل مُتَّقي وهو الكل أنه، قال تعالى: ﴿**أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ المَغْفِرَةِ**﴾ [المدثر: 56] هذا حقيقة أعوذ بك منك، فافهم.

(**يكونوا أدبًا**): أي تكونوا جامعين الخير كله، وجِماع الخير أن تقف مواقفك ولا تتعدَّى طَوْرك، ولا تجعل بنفسك لله اسمًا وصفةً، ولا تسمِّيه إلا بما سمَّاه نفسه ولا تضيف إليه إلا بما أضاف الله إلى نفسه ويكون معه على توفيق التوفيق، فما أُسْند إلى نفسه تُسند إليها، فَتسْند الخيرَ إليه كما أسنده إلى نَفْسه، قال تعالى: ﴿**مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ**﴾ [النساء: 79]، وقال تعالى في الشر: ﴿**وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ**﴾ [النساء: 79] ثم قال: ﴿**قُل كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ**﴾ [النساء: 78]: أي أن التعريف من عند الله، بأن هذا من عند الله وهذا شر من عنده تعالى، ثم قال في حق من جهل هذه الأحكام والتعريف: ﴿**هَؤُلاءِ القَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً**﴾ [النساء: 78]: أي ما حدَّثتهم به فإني قلت: هذا من عند الله وهذا من النفس، فرفعتُ الإيهام واحتمال الإيهام، فلمَّا قلت كل من عند الله، فعلْم العالم بالله أني أريد الحكم، والإعلام بذلك أنه من عند الله لا عين الشر والسوء فإذا علمت هذا.

فاعلم أن الأدب ينقسم إلى أربعة أقسام في اصطلاح أهل الله ﷺ: أدب الشريعة؛ وهو الأدب الإلهي الذي يتولى الله تعليمه بالوحي والإلهام والتعريف، وبه أدبُ نبيّه ﷺ، وبه أدَّبنا نبيُّه ﷺ، ومِنْ هذا المقام قال ﷺ: «إن الله أدبني فأحسن تأديبي»[1] فهو المؤدِّب.

وأدب الطريقة والخدمة، فقد شرَع ما كيفية المعاملة معه خاصةً دون الخلق، قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: 7]، وقال ﷺ: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم»[2] رواه ابن مسعود ﷺ.

وهذا من أحسن التأديب منه، وأدب الحق هو: الأدب مع الحق في اتِّباعه حيث وُجد وظهر، فلو ظهر عند الأصغر سنًا ورتبة فيتّبعه ولا يأنفه ويقبله ولا يرده ولا يكون ممن قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ﴾ [البقرة: 206].

وهذان القسمان لو كانا يدخلان في القسم الأول من وجه؛ فإن أدب الشريعة كالأم ولو كان لهما بعض خصوصيات تختص بهما.

أدب الحقيقة وهو: ترك الأدب بفنائك عن نفسك وردُّك الأمر كله إلى الله، والذي نحن بصدد بيانه أدب النبوّات على ذوق حكم النصوص وحكمها؛ وهو أن لا يتعدى علمك في الأشياء علمَه تعالى فيها، وهو الموافقة وإن أعطاك علمُك خلاف ذلك، لاسيما فيما أضافه الحق إلى نفسه وإلى خلقه فأضفها إلى مَنْ أضافها الله، وأنزل علمَك لعلمِه، فإنه العليم وأنت العالِم، فلا ترجّح على علمه من حيث قيام الدليل لك على أنه لا فاعل إلا الله تعالى وفي أدب الحقيقة، قال تعالى: ﴿بَلْ لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً﴾ [الرعد: 31]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: 154]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: 128]، وقال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ [النساء: 78]، وقال له موسى ﷺ: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: 155].

وكما ورد عن الصدِّيق الأكبر ﷺ أنه قال: الطبيب أمرضني أسند المرض إلى الحق بخلاف ما فعل الخليل ﷺ ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: 7]، قال تعالى:

---

(1) سبق تخريجه.

(2) أخرجه الدارمي (80/1)، والطبراني في «المعجم الكبير» (154/9).

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: 82].

فالتاركُ للأدب أديب من حيث الكشف والشهور يُغاين جريان المقادير قبل وقوعها، كما قال: ما رأيت شيئًا إلا ورأيتُ الله قبله، فنزل مِنْ الحق إلى الخلق.

فاعلم أن لله تعالى تجلّيين: تجلِّ نفسك عنك وعن أحكامك، فما يرى صاحب هذا التجليّ سوى الحق، وتجلِّ بنَفْيك معك ومع أحكامك، ومن أحكامك ملازمة الأدب في الأخذ والعطاء، فمثل هذا التجليّ اسأل الله ما دُمت في دار التكليف، فإذا انتقلت إلى غير هذا الموطن، فكن بحسب الموطن تكن أديبًا وبأحكام المواطن عليمًا، فإذا قمت في كل موطن باستحقاقه تحمدُك المواطن، والمواطن شهداء عدْلٌ عند الله؛ فإنها لا تَشْهد إلا بالصدق، وقد نصحتك فاعمل تكن أديبًا فإن لكل موطن أدبًا مختصًا به، فكل وقت له حال بنطقه، وكل حال له معنى يحققه، فلا تخلط وكن مِنْ فَصْلِ الخطابِ، والله هو الهادي الوهاب عالمين بحقائق الأمورِ كما هي هي وآدابها قوله ﷺ: عالِمين حال أن تُكوّنوا أدبًا، حال كونكم عالمين بأن الأمر لله جميعًا، فيدخلون في رحمته الواسعة التي قال فيها: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: 156]، ثم إنه تعالى: أي بعد ما خلق الله تعالى آدم الخليفة الذي جمع من حيث الطبيعة حقائق العالم بأسْرها، وحصر قوابلها بأجمعها أعلاه، وكان أسفله (أطلعه): أي أعثر آدم الخليفة من حيث إنه خليفة لا من حيث إنه إنسان، وكان ذلك بعد الخلافة والإمامة الكبرى، والاطلاع إمّا بتعريف إلهيّ، أو بتجلّي إلهيّ وهو اطلاعه على نفسه وعلى عينه الثابتة الجامعة لجميع الحقائق الكونية.

ومن كرامات القلب معرفة الكون قبل أن يكون، وهذا هو العلم الخفي الذي فوق العلم السرّي وفوقه علم أخْفَى وفوق الأخفى أخفى إلى الأخفى الذي استأثره الله دون خلقه، فالأخفى الأول: عَمِيَ عنه كل مخلوقٍ ما عدا هذا الشخص الذي أطْلعه الله عليه كرامةً منه به، ولا يلتفت إلى من يقول: إنَّ كل إنسانٍ له سرٌّ يخصه لا يعلمه أحد معه إلا الله تعالى هيهات! وأين اللوح والقلم، نعم لكل إنسان سرّ مُسلَّم ذوقًا لا يعلَمه أحد من جنسه ولا الأكثر من غير جنسه، ويعلمه هذا الذي أكرمه الله تعالى بقوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 76]، فافهم.

ذكره الشيخ ﷺ في «مواقع النجوم» على ما أودع فيه من حقائق العالم عمومًا، كما في قبضة شماله، ومن حقيقة نفسه ونبيه من حيث إنه إنسان لا من حيث إنه خليفة

خصوصًا كما في قبضة يمينه، وجعل ذلك عطف على قوله أودع: أي جعل ذلك الوديعة.

(**في قبضته**): أي قبضتي آدم؛ وهما قبضتا اليمين والشمال.

قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: 49].

إن هذا من حكم القبضتين، فالقبضة على الحقيقة.

قوله تعالى: ﴿اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً﴾ [النساء: 126] ومن أحاط به فقد حَكم عليه؛ لأنه ليس له مُنْقذ مع وجود الإحاطة، وهكذا الخليفة فهو قابضٌ لجميع العوالم، ولا يَخرج من قبضة إحاطته شيء، حتى آدم الإنسانيّ أبا البشر؛ وذلك لأن آدم من حيث العنصرية جزاء من أجزاء العالم كسائر العوالم فالكل من أجزائه وصورة ذلك أنه ما من موجود سوى الله إلا وهو مرتبط بنسبة إلهيَّة، وحقيقة ربانية تُسمَّى أسماءًا حسنى، وكلّ ممكن في قبضة حقيقة إلهيَّة وكلها في قبضة الكامل الخليفة، بإقباض الله إيَّاهُ فالكل في القبضة، فافهم.

ثم فصَّل ما في القبضتين باعتبار اليدين؛ أصحاب اليمين وأصحاب الشمال فقيل فيهما: أهل الجنَّة وأهل النَّار، هو لا للجنَّة ولا أُبالي، وهو لا للنَّار ولا أُبالي.

قال ﷺ: فلمَّا رأيتُ آدمَ في الإسراءِ فقلتُ له يمينَ الحق يقضي بالسعادة قال: نعم فقَدْ فرَّق الحقُّ بين أصحابِ اليمينِ وأصحابِ الشمالِ فقال لي: يا ولدي ذلك يمينُ أبيكَ وشمالُه، انتهى كلامه ﷺ، وجعل القبضة الواحدة فيها العالَم سعيْدُه وشقِيُّه في شماله، وإنما قال العالم مطلقًا؛ لأنه سعيدٌ وشقيٌّ.

لما وُرِد في الأخبار الصحيحة: «**إنَّ جبلَ أُحُد مثلاً من جبالِ الجنَّةِ**»[1]، وجبلَ عَيْر على وزن زيد وهو جبلٌ في المدينة المشرَّفة من جبال جهنم، وهكذا حُكْم السعادة والشقاوة سار في العالم حتَّى في الأمْكنة والأزْمنة كالمتمكنين، والقبضة الأخرى فيه آدم وبنوه: أي مِنْ هذه القبضة مِنْ آدم الخليفة، فيها آدم أبو البشر وبنوه.

فلمَّا كانت هذه القبضة من أثَر مزج العجز الأوَّل الإلهيّ، الذي دخلَتْ أحكامُه بعضها في بعض من كل قبضة في أختها، اختلطت أحكام السعادةِ والشقاوةِ والطيب والخبيث بحكم الجمعيَّة التي فيه.

(1) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (16/17).

وذلك؛ لأنَّ الصِّفَات قبل المزْج لا تتصف بالشقاوة ولا بالسعادة لذاتها، والذوات كذلك قبل الامتزاج لم تكن قبله، فقيل هذا سعيدٌ وهذا شقيٌّ وهذا طيبٌ وهذا خبيثٌ، فانظر ما أحدث الامتزاج كسواد الحِبْرِ والمِداد بامتزاج العَفْص والزاج، فكل الآفات من التركيب والمِزاج، وجميع المصائب من الامتزاج واختلاط الأمشاج، ونهاية الأمرِ وغاية السالك التَّخلص من التركيب والرجوع إلى البساطة الأصلية، والسَّبك والفَّك عن هذه القيود العارضة المتعارضة، كما قال أبو يزيد - قُدِّس سرُّه -: إنه لا صفة له، يشير إلى السَّبك والتخلص على حكم الامتزاج؛ لأنه أُقيم في كل معقوليَّة بساطته، ولم يرَ مركبًا مخلاً للبساطة الأصلية، ولكن هذا حالٌ جائزٌ وظلٌّ زائلٌ، فما ثمَّة إلا مُرَكَّب يقبل الصِّفات إمّا السعادة أو الشقاوة بحسب ما يقتضي مزجته وتركيبه، فما في العالم إلا سعيد أو شقي، وقد بيَّن أسبابَ الخير والسعادة وطُرقها وأسباب الشر والشقاوة وطرقُها لقوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: 8] يَميز الخبيث من الطيب، فافهم.

فلمَّا تداخلت أحكام القبضتين، وجُهلت الأحوال تفاضلت الرجال باستخراج الخبيث من الطيب، وتميُّز الطيب من الخبيث، فأراد تعالى الفُرْقان بين الطبقات ورؤية الغايات في البدايات بتخليص المزج وتميُّز أهل القبضتين؛ حتَّى ينفرد كلٌّ بعالمه، ويتميز الطائع من العاصي؛ لتميز المراتب بأربابها، فكل أحدٍ يعرف حالَه ومالَه وعاجَله وآجلَه، وكلُّ أحد يعرف ماله عنده وما عليه مِنْ عنده، بل تعلم مَن أنت ومَن هو، كما انفرد العالم وآدم من قبضتيِ الحق ومِنْ هذا المقام.

قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: 37].

فمن بقي فيه شيء من هذه المَزْجة غير مُتخلِّص، ومات عليها لم يُحشر يوم القيامة من الآمنين، ولكنَّ منهم مَن يتخلَّص في الحساب، ومنهم بشفاعة الشافعين؛ وأما من تخلص في دار الدنيا فيُحشر من الآمنين لقوله تعالي: ﴿لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 62] - جعلنا الله من المخلصين المتخلِّصين آمين -.

وإنما قلنا إنه ﷺ أراد بالقبضة قبضة آدم؛ لأنه القابض المقبوض وبيان ذلك أنه قابض من حيث إنه خليفة ومقبوض من حيث إنه إنسان، وحقيقة من الحقائق.

قال ﷺ في الباب السابع وثلاثمائة من «الفتوحات»: فلمَّا أراد الله أسرى بي

ليُرِيَني من آياتي في أسمائه من أسمائي أزالني عن مكاني، وعرَج بي على بُراق إمكاني، فلم أرَ أراضي أركاني، فالتفت آدم فإذا أنا بين يديه وعن يمينه في نسيم نبيّه عيني فقلت له: هذا أنا فضحك، فقلت: فأنا بين يديك وعن يمينك، قال: نعم هكذا رأيت نفسي بين يديه فقلت له: فما كان في اليد المقبوضة الأخرى؟ قال: العالم.

فإذا فهمت هذا فأرجع، وأقول في بيان النص الشريف: إنَّ للكامل أن يرى لطيفته ناظرة إلى مُركَّبها العنصري، وهو متبدِّد في العناصر فيشاهد ذاته العنصرية قبل وجودها وخلقها وتركيبها، كما للحق أن يراها قبل الوجود وله السّراح: أي التحلية وعدم المانع والإطلاق في كل موطن ومقام؛ لأن له صورًا في كل موجود من عقل ونفس وطبيعة وعرش وكرسيّ، وهكذا في جميع الموجودات؛ لأنه مركَّب من الكل والجميع أجزاؤه.

ومن هذا المَقام: «كنت نبيًا، وآدم بين الماء والطين»[1] بل إنه يرى في صورته الكمالية صورة حقيقية التي هو بها هو؛ لأنه جامع للعوالم كلها، وصورته العنصرية بالنسبة إليه من جملة العوالم، فيرى نفسه خارجًا عما يرى غيره من هذا القبيل قوله ما ورد في الخبر عنه ﷺ في الإسراء: «إنه دخل فإذا آدم عليه السلام وعن يمينه أشخاص بنيه السعداء وعن شماله أشخاص بنيه الأشقياء فرأى صورته ﷺ في الذين عن يمين آدم فشكر الله».

وعلم عند ذلك كيف يكون الإنسان في مكانين وهو عينه لا غيره؛ فكان له كالصورة المرئيّة والصور المرئيّات في المرآة والمرائي، ذكره رضي الله عنه في الباب التاسع والستين وثلاثمائة من «الفتوحات» وهذا العلم لا يُدرك بالعقل وهذا من علوم التجلّيات التي تجمع الأضداد بل يرى الأضداد عينه.

قال رضي الله عنه في الباب الخامس وثلاثمائة من «الفتوحات»: للإنسان في كل عالم من عالم الأرواح والأعيان الثابتة وعالم الخيال، وغيرها صورة بل في كل مقام وعلمه بصورته إنْ كان صاحب الكشف بل في كل مقام، وكما أنَّ لنا صورة ووجودًا في صورته، ووجوده كذلك له صورة ووجوده من صورنا وجودنا، كما في الميثاق كان معنا من صورة ظهوره، فشَهد معنا كما شهدنا، فهذا آدم وذريّته صِور قائمة في قبضة

---

(1) سبق تخريجه.

الحق، وهذا آدم خارجٌ عن تلك القبضة وعن تلك اليد، فهو يصير صورته العنصرية، وصورة ذريته وبنيه في يده، وهو خارج عنها، ثم قال ﷺ: فاعرف ذلك وأكثر من هذا التأنيس ما أقدر لك عليه فلا تكن ممن قال فيهم ﷻ: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 171].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: 22]، وأخذ الله الصور من ظهر آدم، وآدم فيهم وأشهدهم على أنفسهم بحضرة الملأ الأعلى والصور التي لهم في كل محل؛ لقوله تعالي: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: 172]، فالإنسان عالِم بجميع الأمور الخفيَّة فيه من حيث رَوْحه المدبِّر، وهو لا يعلم أنه يعلم، قال تعالى: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 17]، فهو الناسي والساهي، والأحوال والمقامات والمنازل تذكره، وهو رجلٌ يدري ولا يدري أنّه يدري، ومن هذا المقام قال ﷺ: «**الحكمة ضالة المؤمن**»[1].

وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: 55].

(**وبين مراتبهم**): أي بين الله تعالى مراتب العالم سوى الإنسان أو مرتبة نفسه من حيث إنه إنسان، ومراتب بنيه أو المجموع فيه: أي في ذلك الاطلاع أو في آدم الخليفة أو في الوجود الحق؛ وذلك لأن العالم بالنسبة إلى الكامل سواء كان نفسه أو بنوه أو غيرهما بمنزلِة الأجزاء كلها، وتبين له جزء جزء على مراتبها؛ لأنها منها بمنزلِة النفس، ومنها بمنزلِة القوي، ومنها بمنزلِة الحواس، ومنها الحواس منها بمنزلِة الظاهرة ومن الظاهرة منها بمنزلِة السمع، ومنها بمنزلة البصر، ومنها بمنزلِة الشم والذوق واللمس، ومنها بمنزلِة الحواس الباطنة، ومنها بمنزلِة الأعضاء، ومنها بمنزلة العضَّلات، ومنها بمنزلِة الزينة كالشِّعر، كما ذكرناه سابقًا؛ أن الملائكة بمنزلِة القوي، وقِس على هذا الأمر كله.

ومَنْ كان بنفسه في نفسه بهذه الشهود والأتم، إلا وفي اطلع على الكل بحسْب مراتبهم، وبمعرفته بنفسه على هذا الأسلوب عرف الله، وهذا تصديق قوله ﷺ: «مَن

(1) أخرجه الترمذي (51/5).

عرف نفسه فقد عَرف ربه»[1] فإنَّه عين المجموع، وهذا من علم المضاهاة فإنَّه رأى نفسه واحدة العين كثيرة المظاهر، وَحْده في عينٍ كَثِرة، وعرف ربُّه أنَّه واحد كثير، فعرف مراتب الكثرة في عين الوحدة، وسراية الوحدة في الكثرة، وعلَّم نفسه أنَّه بمنزلِة حبه، أوجد الحق منها أوراقًا وأغصانًا وأزهارًا وأصولاً وعروقًا وبذورًا كثيرة، فظهرت الكثرة في الصورة عن عين واحدة، وهي عينها وغيرها بالشخص وهذا هو المراد من إيجاد العالم، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56] أي: ليعرفون أنَّ الكثرة ناشئة عن الوحدة الحقيقية والنشأة الآخرة نشأة في بعض الأحكام، نشأت البرازخ غيبًا أو شهادةً، فترى نفسك فيها وهي واحدة في صور كثيرة وأماكن مختلفة في الآن الواحد، فيرى نفسه أنَّه هو ليس غيره في الكل، وهكذا يكون يوم القيامة فإنَّ النبي ﷺ يطلبُه النَّاس في مواطن القيامة، فيجِدونه من حيث طلَبهم في كلِ موطن يقتضيه ذلك الطلب، في الوقت الذي يجده الطالب الآخر في المواطن الأُخرى بعينه فسببه ما ذكرناه، فافهم.

وأما كيفية الاطِّلاع والبيان، فقد يكون بالتعريف الإلهيّ كالخلافة؛ فإنها قد تكون بالتعريف، كما قال تعالى في آدم عليه السلام: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]، وقال لداود عليه السلام: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً﴾ [ص: 26]، وقال لإبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ [البقرة: 124] قد يكون، أي: بالتجلِّي الإلهيّ وهو أتم مِنْ التعريف؛ فإنَّ متَعلِّق التعريف السَّمع وهو خبرٌ إلهيٌّ بواسطة أو بلا واسطة، وقد يكون الاطِّلاع والبيان بالتجلِّي؛ وهو ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب بعد الستر، ولا يكون أبدًا إلا بالتَّحقق وأنَّ يكون حقُّ اليقين[2] ولا يلقى التخلق، فبين مراتبهم ودرجاتهم حتى علم ما علم، وذلك أنه تعالى لما علَّمه الأسماء التي أودع فيه وجعل في قبضته عليه السلام، وهو الأسماء الكونية وكل اسم من العالم علامة على حقيقة معقولة مخصوصة به ليست للآخر، وكذلك وجوده العنصري ووجود بنيه في خروجهم من آدم الخليفة إلى الوجود العيني فإنه كثير يطلب تلك الأسماء الكثيرة، وهم مسمياتها وإن كانت العين واحدة

---

(1) سبق تخريجه.

(2) حق اليقين: هو مشاهدة الحقيقة في أرفع الأطوار التي لا يمكن تجاوزها.

وقال الجنيد: حق اليقين: أن يشاهد الغيوب كما يشاهد المرئيات.

فهي كثيرة كما أن العالم من حيث إنَّه عالمٌ واحدٌ وهو كثير بالأحكام والأشخاص ﴿يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: 13].

وما ذكرنا هنا نعتًا ولا حالاً بل ذكر الأمرين اجتباءًا وبدايةً فافهم هذه الإشارة.

ولما خرج بنوه فنظر إلى شخص من أخويهم فسئل عنه؟ فقيل: هذا ولدك داود ﷺ كما في الخبر المشهور، فعلم بهذا الاطلاع والأداة كل المسميات بطلسم اسمه، فإن الاسم طلسمه على المسمَّى من علم الحروف وكيفية وضعها، كما أنعم الله على داود بإعطاء اسم ليس فيه حرف من حروف الاتصال وهي الحروف التي من شأنها أن تتصل بما بعدها فقطعه عن العالم بذلك، وسمَّاه بذلك الاسم إخبارًا لنا عنه ﷺ بتجرُّده وانقطاعه، وأعطي محمدًا ﷺ اسمًا بحروف الاتصال والانفصال الاختصاصي؛ لأنه حكيمٌ عليمٌ ما يضع الأشياء إلا في موضعها فيستخرجه العارف بوضع الحروف، فإن الأسماء تنزل من السماء فما وضع شيئًا على شيء إلا بالحكمة، فالوجود كله ما انتظم منه شيء بشيء إلا للمناسبة ظاهرة أو باطنة صورية أو معنوية إذا طلبها الحكيم المراقب وجدها.

قال ﷺ في «مواقع النجوم»: إن معرفة مثل هذه المناسبات من مقام خواص أهل الطريقة رضوان الله عليهم وهي غامضة جدًا.

ولقد أشار أبو يزيد السهيلي إلى هذا المقام في كتاب «المعارف والإعلام» الذي له باسم النبي ﷺ محمد وأحمد، وتكلم على المناسبة التي بين أفعال النبي ﷺ وأخلاقه ﷺ وبين معانيها.

والقائلون بهذه المناسبات عظماء أهل المراقبة والأدب ولا يكون هذا العلم إلا بعد كشف علمي ومشهد ملكوتي، ولاسيما الآمنين من طريقتنا كشيبان الراعي، وأبي يزيد البسطامي، ومن لقينا من المشايخ كالعريني وأحمد المرسي وعبد الله البرجاني وجماعة منهم، انتهى كلامه ﷺ.

فعلم آدم مرتبة كل مسمًى من اسمه لا من خارج، وإنما قلنا أن الاطلاع تعريفي؛ لأن الأخذ كان من ظهره يعني: ظهر الغيب ﷺ وهو غيبٌ له وأخذه في الميثاق أيضًا من ظهره، فما نحن على يقين من ذلك أي من أنه كان بالكشف فأخذنا أقل المراتب مع احتمال ذلك، فإن قبضه لا مقطوع ولا ممنوع، قال ﷺ في هذا المبحث: عبدًا وقف على علم ذلك باليقين ويخبر به، انتهى كلامه.

وأما الخلافة بالتجلي فهو مخصوص سيد البشر ﷺ وهو مظهر حقيقة الاسم الموفي مائة، وهم اسم الذات، أما ترى طلب هذا الظهور من الأنبياء كداود عليه السلام فخوطب بخطاب تسعة وتسعين نعجة إشارة إلى تحققه بتسعة وتسعين اسمًا.

وطلبه الموفي مائة قيل: إنه لأخيك محمد ﷺ والطلب ليس في محل، وحين طلب موسى عليه السلام خوطب، فقال تعالى: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِين﴾ [الأعراف: 144].

وكم تطاولت الأعناق لهذه المرتبة، وضربت من دونها وخوطب بالصدِّ والقلى.

قال الشيخ ابن الفارض - قُدِّس سرُّه - من هذا المقام إشارة إلى هذا الصد بيت:

ولا تَقْــرَبُوا مَـــالَ اليَتِـــيمِ إِشَـــارَةً لِكَــفِّ يَــدٍ صَــدَّتْ لَــهُ إِذْ تَــصَدَّتِ

وكان أُمية بن الصلت في الأيام الجاهلية يترشح للنبوة قبل مبعث رسول الله ﷺ حتى كان من شأنه أنه قال لأخته: ها أنا أنام فاصنعي طعامًا، قالت: فبينما هو نائمٌ إذ رأيت وقد نزل طائران من النافذة فشق أحدهما صدره، ثم أخرج نكتة سوداء فقال أحدهما: أوَعِيَ؟ قال الآخر: نعم، وعلى علوم الأولين فقال: أدرك فقال: لا فقال: ردُّوا قواده إليه فليست النبوة له إنما هي لسلالة عبد المطلب قالت: فلمَّا انتبه أخبرته بالقصة فبكي وقال متمثلاً بأبيات، ثم انصدعت كبده فمات، فانظر إلى لمن يبلغ به أهله والأمر محتوم فافهم.

وكان آدم أبو البشر حامل الأسماء ونبيّنا ﷺ حامل معانيها؛ فلهذا قال ﷺ: إن الأمم السابقة ما وقفوا من الاسم الأعظم إلا على حروفه أو على معناه بخلاف المحمديين فإنهم جمعوا بين الحروف والمعاني، وأشار إلى هذا المعنى سيدنا قطب الوقت محيي الدين عبد القادر الكيلاني في سُكره حاكيًا عن المرتبة المحمدية والمحمديين: معاشر الأنبياء أوتيتم اللقب وأوتينا ما لم تؤتوا، ذكره رضي الله عنه في «الفتوحات» وذكر فيها أن اثنى عشر نبيًا - صلوات الله عليهم أجمعين - صاموا نهارهم وقاموا لياليهم مع طول أعمارهم سؤالاً ورغبةً ورجاءًا أن يكونوا من أمته، فافهم.

«وقد رميت بك على الطريق لتعلم ما الأمر عليه ولما أطلعني الله تعالى اعلم أن الاطلاعات من كرامات القلوب ولها مراتب بحسب صفاء القلوب وجلائها»

ومن كراماتها اطلاع الحق تعالى عبده الكامل على ما أودع في العالم الأكبر من

الأسرار، ثم أين حظه في نفسه من ذلك السر؟ حتى يعرف أين البحر فيه وأين البر؟ وأين الشجر؟ وأين السماء والكواكب والأقاليم ومكة والقدس ويثرب وآدم أبو البشر وموسى وعيسى وهارون؟ كما يُعرف أيضًا في ذاته الدجّال ويأجوج ومأجوج والدابّة المكَلِّمة، وهكذا بحيث لا يخرج منه شيء من الموجودات ولا أريد حصرها؛ وإنما أريد أنَّ كل ما عرفه من العالم الكبير لتصحيح كتابه الخاص به ذوقًا، وفوق هذا أن يُطلعه الله تعالى على هذه الأسرار بعكس المرتبة الأولى، فيكون في هذه يقابل العالم مع ذاته فيعرف الشيء في نفسه أولاً، ثم بعد ذلك ينظر ما يقابله في العالم من خارج.

فالأول طالب في نفسه ما وجد خارجًا عنه، والثاني طالب في الخارج عنه ما وجده في ذاته، وهذه الكرامة أشرف وأسبق في الرحموتيات:

ومنها أن يُطلعه الله تعالى على هذه الأشياء في الكتابين معًا من غير تقديم ولا تأخير كالصورة في المرآة مع الناظر، هذا غاية المشيئة الأزلية وظهور المرادات القديمة الأولية؛ لأنَّه رأى أعيان الأسماء مرايا لوجوده تارة، ورأى الوجود مرآة الأعيان تارة، وجمع بين الروايتين تارة أخرى، في كون جامع حاضر وعلى لسان صاحب هذا المقام، قال الشيخ العارف ابن الفارض:

وَلَوْلايَ لَمْ يوجَدْ وجُودٌ ولَمْ يَكُنْ شُـهُودٌ ولَـمْ تُعْهَـدْ عُهُـودٌ بِذِمَّـةِ

وهنا مقامان: الأول أنْ يكون العالم مرآته، والثاني أن يكون هو للعالم مرايا وهو المقام الأعلى والمَدْرك الأقصى والمجلي الأعَم الأسني.

قال: العالم يرى فيها نفسه ولا يراها أصلاً كالمرآة حين ترى صورتك فيها فإنَّك حينئذٍ ما تراها فيكشف العالم ولا يكشفه العالم، فهذا قلب الخاتم الأتم لو تسأل الأيام عنه ما عرفته ولو طلب له مكان لم يعقل له مكان، وهذا هو وارث الحق حقًا، وصاحب هذه الكرامة المحمدية صدقًا ليس له مقام فيدرك، وحال فيكشف، ومن هذا المقام أشار في الكتاب العزيز: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ [الأحزاب: 13] أي: لتربية أرباب المقامات، فإنَّ الأمر غير متناه وله تأثير في العالم من غير تعيين ونوى في كشفه ما يغنيك عن وصفة في سري أشار إلى أن تجليه ﷺ كان سريًا: أي ذاتيًا اعلم أن سر كل شيء عبارة عن حقيقته، فحقيقة كل شيء سره: أي لما أطلعني الله تعالى على ما أودع في هذا الوالد الأكبر في سري وحقيقتي، فما عرفت أمرًا زائدًا على نفسي بل عرفتها بمعرفة نفسية كمالية جامعة، وعرفتها بتفصيلها لا في الخارج يشير ﷺ إلى

تحقيق التحقيق وتشريف التجلي المحقق في هذا الاطلاع يعني: ما كان الاطلاع بالأخبار الإلهي ولا باعتبار القبضتين كاطلاع آدم بل كان بالكشف السري وبالشهود الذوقي والوجدان النفسي: أي لا بمجرد الكشف وشهدت ما أودع في هذا الوالد الأكبر ذوقًا ويقينا باطلاعي على نفسي وسري وحقيقتي وأشرفت على ما فيها، ما أخفيت فيها من قرة أعين إشراقًا وإطلاعًا ذوقيًا ومن هذا المقام قال العارف بالله الشيخ بن فارض - قُدِّس سرُّه - شعر:

ولا تَحْسَبَنَّ الأَمْرَ عَنِّي خَارِجًا فَمَا سَادَ إلا دَاخِلٌ فِي عُبُودِيَّتِي

وقوله ﷺ الأكبر من مقام قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: 57] لكون الإنسان متولد عن تأثيرات سماوية وتأثرات أرضية فيهما له كالأبوين رفع الله مقدارهما تعليمًا لنا حتى نفعل هكذا مع الأبوين، ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذا: أي أنه أكبر من حيث الفاعلية والتأثير والأبوة فإن قيل كيف قال العارف:

وإنِّي وإنْ كُنْتُ ابنُ آدَمِ صُورَةً فَلِي فِيه مَعْنَى شَاهِدٌ بِأُبُوَّةِ

قلنا: هذا لسان إدلال وشطح، وصاحبه صاحب سُكر، أمَا ترى قوله ﷺ كيف يقول في الشك: «أنا أولى بالشك من إبراهيم»[1]، في قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: 76]، ربي على سبيل الشك حجة على الكفار؛ حفظًا لرتبة الأبوَّة مع الكمال الفائق فافهم وتأدَّب ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً﴾[لقمان: 15]، وأما اطِّلاعاته ﷺ فعلى إنما شئّي منها كما ذكرته سابقًا، ومنها ما ذكره في «الفتوحات»، في الباب الثالث والستين وأربعمائة: إني رأيت جميع الأنبياء والرسل عليهم السلام كلهم مشاهدة عين وكلمت منهم هودًا أخا عاد دون الجماعة.

ورأيت المؤمنين كلهم مشاهدة عين من كان منهم، ومن يكون إلى يوم القيامة، أظهرهم الله تعالى في صعيد واحد في زمانين مختلفين، وصاحبت من الرسل وانتفعت بها غير سيدنا محمد ﷺ جماعة منهم: إبراهيم الخليل ﷺ، قرأت عليه القرآن وعيسى تبت على يديه، وموسي أعطاني علم الكشف والوضوح، وعلمت تقليب الليل والنهار، فلمَّا حصل عندي زال الليل وبقى النهار، في اليوم كله فلم تغرب لي شمس ولا

(1) أخرجه البخاري (1233/3)، ومسلم (1839/4).

طلعت، فكانت لي بشرى من الله تعالى أنه لا حظَّ لي في الشقاء في الآخرة وعاشرتُ من الرسل محمدًا وإبراهيم وموسى وعيسى وهودًا وداود - صلوات الله عليهم أجمعين - وما بقي من الأنبياء فروية لا صحبة انتهى كلامه ﷺ.

وفي قوله: سري، يعني: أطلعني في كوني سرًا إشارة لطيفة إلى تحققه بالحقيقة السريَّة التي أشار إليه ﷺ بأن الولد سر أبيه والذي كان له سرًا فظهر على الولد بل الولد الأكبر، فافهم.

فإن استكثرت أيُّها الطالب المتأمِّل ما ذكرته عن الإنسان الكامل بل إنسان الإنسان الكامل، بل عين إنسان الإنسان الكامل، بل رُوح الكل، رُوح الرُّوح الكل وحقيقته، فأنت معذورٌ فإن فهمك يعجز عن إدراك أمثال هذا لكن كما قيل:

إِذَا رَأَتْ عَيْنُ العُيُونِ فُتُوحَه   نَسَخَ العِيَانُ عَجَائِبَ الأَخْبَار

فإذا آمنت بالقرآن فإن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 165] وهذه آية من آياته بل هو من آيات أشراط الساعة، فإنه طلوع شمس من مغربها وكفى بذلك عبرة وآية، فافهم.

وتكتَّم تسلم، فإن أردت بيانه أكثر من هذا، فاعلم أولاً أن هذا جائز شرعًا وعقلاً بالنسبة إلى الحق، فإنه تعالى يرى ما في الأزل والأبد في آن واحد، كما يعلم ما كان وما يكون قبل أن يكون، فيجوز أن يميِّز الله عبدًا من عباده بهذا الاختصاص رؤية وعلمًا، فإن الله تعالى فعَّال لما يريد وأنه على كل شيء قدير.

ولا شك أن هذا شيء وهو قادر عليه، فهو من المقدورات وما بقي بيننا أمرٌ مبهم إلا أن نقول هذا الأمر واقع أم لا فهانت المسألة.

ورد في الخبر الصحيح والنَّص الصريح أنه ﷺ قال: «**مثلت لي أمتي في الماء والطين وعلمت الأسماء كلها كما علم آدم الأسماء كلها**»[1] ذكره الديلمي عن أبي رافع، وقال ﷺ: في حديث طويل: «**فتجلى لي كل شيء وعرفت فعرفت تأنيسًا**»[2].

اعلم أنَّ القلب له بابان: باب إلى عالم الملكوت وباب إلى عالم الشهادة وعلى كل باب إمام، فالإمام الذي هو بباب الملكوت قارع ذلك؛ حتى يفتح له ولا بد أن

---

(1) سبق تخريجه.

(2) سبق تخريجه.

يُفتح، فإذا فتح ظهر عند فتحه طريقان واضحان؛ طريق إلى الأرواح وقف على أسراره ويصير صاحبًا لهم وسميرًا، وإن سَلَك على طريق اللَّوح يَعرف ما ذكرناه؛ لأنه قد ارتقم فيه علم ما كان وما يكون، وما كان لو شاء الله أن يكون كيف يكون، فيقابله بذات قلبه فيرتقم فيه على حسْب كشفه واستعداده.

والمُشاهد لهذا المقام ساكن الجوارح لا يتحرك له عضوًا أصلاً إلا عينه؛ لغلبة المقام عليه، وهنا يقع التفاضل بين أهل الطريقة، فمنهم من لا يزال عاكفًا على اللوح أبدًا لا ينتفع به، ومنهم من يَشْهَده تارة، ومنهم من يترك فيما سَطَّر قبل ويرتقي إلى النظر فيما يُسطِّر، وهنا مرتبتان؛ منهم من ينظر فيما يسطر أعني: ماذا يسطر؟ ومنهم من ينظر في كيفية تخطيط القلم، وكيف تقع العلوم من الدواة التي هي النون مجملة، وينثرها على سطح اللَّوح مفصَّلة، فإن تحكم صاحب هذا المقام لم يفهم منه كلام أصلاً؛ لإجماله، ومنهم من ينظر اليمين، ومنهم من ينظرها من حيث هي هي: أي من حيث أن اليمين عين ذاته تعالى، وهذه أسنا المراتب والمقامات وأعلاها، وليس ورائها مقام ولا مَنْزل يتعالى.

وفي هذه المقامات يقع التفاضل بين أصحابها، فللرسول منها شرب، وللنبيّ شرب، وللصُّوفي الوارث المحقِّق شرب، قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ [الأعراف: 160] ولكل مقام أدب يخصه وشاهد حال يشهد له بصدق المقام، قال تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾[النور: 42]، وللخاتم المحمدي فيه يد الأخذ والعطاء وإطلاق التصرف فيها كما يشاء، فافهم؛ لأن المساواة في إفادة العلم، فإن علمه بالعالم من علمه بنفسه، وعلمه بنفسه بمنزلة علم الله به؛ لأن الأخذ من معدن واحد والفرق بينهما أنَّ علم هذا العبد الوارث المحمدي عطيَّة وعناية سبقت من الله تعالى له الحسنى من جملة أحوال عينه يعرفها صاحب هذا الكشف إذا أطلعه الله تعالى على الأعيان الثابتة في حال عدمها، وإنما قلنا بسبق العناية؛ لأنها نسبة ذاتية لا صورة لها حتى يقع عليه اطلاع مخلوق،فصاحب هذا العلم هو أعلى عالم بالله ليس كمثله شيء، فإنه أعطاه العلم والمعرفة بالتجلي فكَمُلت معرفته بالله فنَزَّه وشَبَّه اقتداءًا بسنن سيده ومولاه، فإنه نزَّه وشبه في آية بل نصفها، وقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

وليس هذا العلم إلا لخاتم الرسل بالأصالة، ولخاتم الأولياء الوارث الأخذ عن

الأصل المُشاهد المُشرف على المراتب والمقامات، كذلك وهو حسنة من حسنات خاتم الرسالة والنبوة المقدم على الأسماء الإلهيَّة في فتح باب الشفاعة؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ﴾ [الأحزاب: 21].

وفي الخبر: «أما لكم فيَّ أسوة.. »[1] رواه أبو قتادة رضي الله عنه.

فالخاتم الحارث الراجي الوارث يقول: كما قال سيده وسنده: «كنت نبيًا وآدم بين الماء والطين»[2] فمَنْ فهم المراتب والمقامات لم يعْسِر عليه قبول أمثال هذا، فخزائن الأُعْطِيَات مختومة بختام الفاتح، فما يخرجها إلا بقدر معلوم فلهذا قال: (جعلت هذا الكتاب منه): أي أظهرت فيه من هذه الحقائق الغير المتناهية ما حدَّ لي: أي ما حدَّ لي رسول الله ﷺ لا ما وقفتُ عليه، والوقوف من الكمَّل مختلف باختلاف وسع الكمَّل، فمنهم من يشهد الحِكَم ويَزِنُها في الشؤون الإلهية المشهودة له، ولا يشهدها إلا عند تكوينها في الخارج في عالم الأرواح لا عالم الحس خاصة ومنهم من يشهد قبل ظهورها في الحس وهو التكوين، والآخر يشهده في الإمام المبين وهو اللوح المحفوظ، وهذا أعلى من الأول وأما على الشهود وأتمه الذي كلامنا فيه ونحن بصدد بيانه، وهو أنه يزنها قبل أن يكون الحق فيها، وهو الذي يشاهد أعيان الممكنات في حال عدمها، كما يشهدها الحق في قوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 76]، وهذا أعلى المدارك وأتمها وأعزها، قال: علمه بالأشياء بمنزلَة علم الله تعالى بها؛ لأن الأخذ من معدن واحد وهذا: أي الخليفة شرب الخاتم الفاتح، فإنَّ ذلك لا يسعه كتاب ولا العالم الموجود الآن؛ لأن المتناهي لا يَسعْ غير المتناهي: أي عادة وإنما قلنا عادة؛ لأنه قد يسعُ كرامة كما وسع القلب ربَّه.

ومن دون ذلك الذوق يقول أبو يزيد البسطامي - قُدِّس سرُّه -: العرش وما فيه مائة ألف ألف مرة لو أبقي في زاوية قلب العارف ما أحسَّ به هذا وسعه - قُدِّس سرُّه - في المحسوسات، فافهم.

والتأنيس في كيفية الاطلاع على غير المتناهي:

أولاً: من قرب النوافل؛ حيث يكون الحق قواه فيدرك غير المتناهي

---

(1) سبق تخريجه.

(2) سبق تخريجه.

بغير المتناهي.

وثانيًا: من حيث قرب الفرائض، فإنَّ المدرك هنا حق به.

فإن قلت: هل يمكن إدراك غير المتناهي بالقوة المتناهية الحادثة أم لا؟! وإذا كان من الممكنات، هل هو واقع أم لا؟! وإذا كان واقعًا هل مخصوص ببعض دون بعض أم لا؟!.

مع أن حقيقة العلم تستدعي الإحاطة وحقيقة غير المتناهي تمنع الإحاطة، وقلتم إن قلب الحقائق من الحالات، فمن تعلق العلم به يلزم أحد الحالين؛ إما قلب حقيقة العلم وإما أن يكون غير المتناهي متناهيًا وقد فرضناه متناهٍ يقول: فاعلم أولاً أنه تعالى قال: ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: 255] علَّق أمر الإحاطة بالمشيئة.

وقال ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم وكلمات الله لا تنفد»[1]، وقال ﷺ في حديث صحيح: «علمت علم الأولين والآخرين»[2] وليس لأفراد الأولين والآخرين نهاية دُنيا وأُخرى، فافهم.

وآدم عليه السلام شهد الله له بأنه علم آدم الأسماء كلها وقال ﷺ: «علِّمت الأسماء كلها كما عُلِّم آدم الأسماء كلها»[3] ذكره الديلمي عن أبي رافع، والأسماء إلهية غير متناهية، فإذا عرفت هذا، فاعلم أنه رضي الله عنه قال في الباب السادس والأربعين من «الفتوحات»: واختلف أصحابنا في العلم المحدَّث (بفتح الدال) هل يتعلق بما لا يتناهى من المعلومات أم لا؟ فمَنْ منع أنْ نعرف ذات الله سبحانه مُنع منْ ذلك ومَنْ لم يُمنع مِنْ ذلك لم يُمنع حصوله، فإن قلتُ هذا التفصيل مُبهم ما عرفت الحق منهما، وما مذهب الشيخ رضي الله عنه من بينهما.

قلنا: قال رضي الله عنه في «الفتوحات»: إن الله تعالى عَلَّق الإحاطة بالمشيئة، فما شاء الله كان، وقد يمكن أنْ يقع بل وقد يصح أنْ يقع بمشيئة الاشتراك مع الحق تعالى في العلم بمعلوم ما، ومن المعلومات العلم بالعلم، أخبر سبحانه أنَّه يعلم ولا يُعلم منه إلا ما أعلمه إذا شاء لمنْ شاء بقدر ما شاء.

(1) سبق تخريجه.

(2) سبق تخريجه.

(3) سبق تخريجه.

وذكر ﷺ في الباب السابع والتسعين ومائتين: إن العبد أقامه الحق في وقت ما في مقام تعلُّق العلم بما لا يتناهى وليس بمحال عندنا، انتهى كلامه.

فقوله ﷺ: «إن لي مع الله وقتًا.. »[1] يمكن أن يكون إشارة إلى ذلك الوقت فافهم.

وأما قولك: إن العلم حقيقة تطلب الإحاطة وإن لم تحط، يلزم جوار قلب الحقائق فلا نسلِّم أنه حقيقة من الحقائق الوجودية حتى يلزم المحال، بل هو نسبة بين العالِم والمعلوم، والنسبة من الاعتبارات العدمية فلا محال، فافهم.

وإن سلَّمنا أنه حقيقة من الحقائق فلِمَ لا يجوز أن يكون مثله مثل وسعة القلب الذي يسع الحق الغير متناهي وهو متناه، وقد ثبت ذلك بالخبر الصحيح من الله مع أنَّ الشيخ ﷺ قال: إن الاقتصار غير لازم عندنا في كل شيء بل أوجد الله تعالى ما يريد في أي محل يريد، ذكره ﷺ في الباب السابع والسبعين ومائتين من «الفتوحات».

ولا يعلم ما قلناه إلا من وسِع الحقَّ قلبُه كما وُرد في الخبر الصحيح أن الحق يقول: «ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي... »[2] فإذا المتناهِي وسع غير المتناهي، وقِس عليه العلم المحيط على المعلومات الغير المتناهية، فإن قلت: قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: 85] وهو الذي أثبته علم كثير بل غير متناهٍ فما التوفيق بينهما قلنا: قال الشيخ ﷺ في الباب السادس والأربعين من «الفتوحات»: إن القليل من الاستقلال، أي: ما أعطيتم من العلم إلا ما تستقلون بحمله، انتهى كلامه ﷺ، أو يكون الاستثناء عن المخاطبين مَن أوتيتم، أي: ما أوتيتم من العلم إلا قليلاً منكم، قال تعالى: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [الكهف: 22] قال ابن عباس ﷺ: أنا من القليل، وورد عن العلماء: اللهم اجعلنا من القليلين، فافهم.

ويُحتمل أن يكون الآية خطابًا على اليهود حين مرَّ ﷺ بنفر من اليهود فسألوه عن الرُّوح، فأنزل الله الآية وقال آخرها: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: 85] والعلم بمعنى المعلومات ويساعد تفسيرنا هذا قراءة الأعمش وهو قوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: 85] فيكون العلم بمعنى المعلومات، كما قلنا

---

(1) أورده المناوي في فيض القدير (6/4).

(2) سبق تخريجه.

آنفًا عن الأعمش هكذا في قراءتنا رواه البخاري في صحيحه وكيف لا؟ والمحمَّديون أوتوا ما لم تؤتوا، وهم الحكماء الإلهيين، قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ [البقرة: 269] وهل الحكمة غير العلم؟ بل هي خصوص العلم للخصوص، وخصوص الخصوص.

ومن هذا المشرب ما قال الشيخ عبد القادر الكيلاني - قُدِّس سرُّه -: أوتينا ما لم تؤتوا، يشير إلى هذا العلم الخاص العام التام الذي يؤخذ من المعدن الأصلي الذاتي بلا واسطة مع أنه كلما أعطاك في الدنيا والآخرة جمعًا وفرادى من الخير، كالعلم وغيره فهو قليل بالنسبة إلى ما عنده تعالى، فإن الذي عنده لا نهاية لها على التتابع والتتالي، يظهر وكل ما حصل لك من ذلك فهو متناه؛ لحصوله في الوجود ونسبة ما يتناهى إلى ما لا يتناهى قليل بل أقل القليل وما لا يتناهى ما يمكن حصوله في الوجود؛ فلهذا قال ﷺ: ولا العالم الموجود إلا هذا من توفيق التوفيق، فافهم.

قال ﷺ في الباب السابع والتسعين ومائتين من«الفتوحات»: إن الله قد أودع في الإنسان علم كل شيء ثم حال بينه وبين أن يدرك ما عنده مما أودع فيه وهو من الأسرار الإلهية التي ينكرها العقل ويجهلها جملة واحدة، وقال فيها ﷺ: بهذا العلم انفردت من دون الجماعة ولا أدري هل عثر عليه أحد غيري أم لا، انتهى كلامه.

يشير إلى هذا الكشف والعلم الخاص أقول والله أعلم أنه ورد في الخبر في حديث طويل: «**إنَّ الحقَّ وضع كفَّه بين كَتِفَيَّ فوجدتُ بردَ أنامله بين ثدييَّ فتجلَّى لي كلُّ شيء وعرفت...** »[1] رواه الترمذي حسن صحيح عن معاذ بن جبل ﷺ وهذا من هذا الذوق انفرد به الختم الوارث المحمدي بيان ذلك.

اعلم - أيَّدك الله وإيَّانا بروح منه - أنَّ الحقَّ تعالى قد جعل كل فرد من أفراد العالم علامة ودليلاً على أمر خاص مثله، فمِن حيث وجوده المتعين هو علامة على نسبة من نسب الألوهيَّة المسمَّاة أسماء الذي هذا الشيء الدال مظهر له، ومن حيث عينه الثابتة فهو دليل على عين ثابتة مثله، ومن حيث كونه عينًا ثابتة متصفة بوجود متعين هو: علامة على مثله من الأعيان المتَّصفة بالوجود، فالأجزاء من حيث أجزاء؛ علامة على أجزاء مثلها، ومن حيث مجموعها وما يتضمنه كل جزء من المعنى الكل؛ هي علامة على الأمر الكلي الجامع لها، والوجود المطلق الذي يتعين منه وجودها،

(1) سبق تخريجه.

وجعل أيضًا مجموع العالم الكبير من حيث ظاهره علامة ودليلاً على روحه ومعناه وجعل جملة صور العالم وأرواحه علامة على الألوهيَّة الجامعة للأسماء والنسب وعلى مجموع العالم، وجعل الإنسان الكامل المجموعة من حيث صورته وروحه ومعناه ومرتبته علامة تامة ودليلاً دالاً عليه سبحانه دلالة كاملة، وكل ما عدا الحق والإنسان الكامل فليس كونه علامة على ما دل عليه شرطًا ضروريًا مطرد الحكم لا يمكن معرفة ذلك الشيء بدونه، بل ذلك بالنسبة إلى أكثر العالم والحكم الغالب بخلاف الحق تعالى، والإنسان الكامل قد يعلم بكل منهما كل شيء ولا يعلم أحدهما إلا بالآخر وبنفسه وموجب ذلك؛ أن الإنسان هو: نسخة من كل شيء، ففي قوله ومرتبته أن يدل على كل شيء بما فيه من ذلك الشيء، فقد يُغني في الدلالة على كل شيء عن كل شيء، وهذا الأمر في الجَناب الإلهيّ عن شأنه، فإن الحق محيطٌ بكل شيء، فمن عرِف كل شيء في ضمنه أو بالالتزام، فمِن عباده تعالى: مَن يكون عرف نفسه فقد عرف ربه وعرف الأشياء بربه، وقد يكون عرف نفسه وعرف الأشياء بنفسه، ويكون ممن عرف نفسه وعرف الأشياء بنفسه؛ لأن عينها هذا أتم ما يكون في الإلهيين، فافهم المراد.

وهنا مبحث آخر، وهو: إن العلم هل يقبل القلة والكثرة؟ أو هو معنى من المعاني فلا يقبل القسمة، بل له أحدية العين لا يتجزأ ولا يقبل القلة والكثرة، مع أنه قال تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء: 85] فانقسم، وقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه: 114]، قلنا: المراد من العلم في الآية المعلومات ذكره ﷺ في الباب السادس والأربعين من «الفتوحات»، فما انقسم ولا دخل تحت القلة والكثرة.

وقال ﷺ في كتابه المسمّى بـ «كتاب المعرفة»: إن العلم عندنا واحد لا أقول إن لكل معلوم علمًا فإني لا أشترط فيه التعلق بكل المعلومات بل له صلاحية التعلق وإنما قلنا بوحدانيته؛ إذ لو كان لكل معلوم علم والمعلومات لا نهاية لها محال، انتهى كلامه ﷺ، فافهم.

واجمع المشرب الأول بالثاني تكن عليمًا، فإن ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 76] فلا يكون هذا إلا لمن يكون العلم عين ذاته، فافهم.

ولولا قصورُ المدارك ما احتجتَ إلى هذه التنبيهات كلها؛ لأنها كالعلاوة

الخارجة عن المقصود، فافهم وأمعن النظر فيما مضى، وألحق آخر الكلام بأوله وأجمعَ النُّكت المبثوثة فيه؛ لتكون عليمًا فَهِمًا، فإن ما كل عليمٍ فَهِيم،أما ترى قال الله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾ [الأنبياء: 79]، فافهم.

قال المصنف ﷺ:

فممّا شهدتهُ ممّا نودعهُ في هذا الكتابِ كَما حَدَّهُ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: حِكْمَةٌ إلهيّة في كلمةٍ آدَمِيّةٍ وهو هذا الباب، ثُمَّ حِكْمَةٌ نَفْثيّة فِي كَلمةٍ شِيثِيّةٍ، ثُمَّ حِكْمَةٌ سبّوحيّة فِي كَلمةٍ نوحيّةٍ، ثُمَّ حِكْمَةٌ قُدُّوسيّة فِي كَلِمَةٍ إدريسيّةٍ، ثُمَّ حِكْمَةٌ مُهَيَّمِيَّةٌ فِي كَلمةٍ إبراهيميّةٍ، ثُمَّ حِكْمَةٌ حَقيّةٌ فِي كَلمةٍ إسحاقيّةٍ، ثُمَّ حِكْمَةٌ عَليّةٌ فِي كَلمةٍ إسماعيليّةٍ، ثُمَّ حِكْمَةٌ روحيةٌ فِي كَلمةٍ يعقوبيّةٍ، ثُمَّ حِكْمَةٌ نُوريّةٌ فِي كَلمةٍ يُوسفيّةٍ، ثُمَّ حِكْمَةٌ أحَديّةٌ فِي كَلمةٍ هُوديّةٍ، ثُمَّ حِكْمَةٌ فَاتِحيّة فِي كَلمةٍ صالحيّةٍ، ثُمَّ حِكْمَةٌ قَلْبيةٌ فِي كَلمةٍ شُعيبيّةٍ، ثُمَّ حِكْمَةٌ مَلْكِيّةٌ فِي كَلمةٍ لُوطيّةٍ، ثُمَّ حِكْمَةٌ قَدَريّةٌ فِي كَلمةٍ عُزَيْريّةٍ، ثُمَّ حِكْمَةٌ نَبَويّةٌ فِي كَلمةٍ عِيسَويّةٍ، ثُمَّ حِكْمَةٌ رحمانيّةٌ فِي كَلمةٍ سُليمانيّةٍ، ثُمَّ حِكْمَةٌ وُجوديّةٌ فِي كَلمةٍ داوديّةٍ، ثُمَّ حِكْمَةٌ نَفَسيّةٌ فِي كَلمةٍ يُونسيّةٍ، ثُمَّ حِكْمَةٌ غيبيّةٌ فِي كَلمةٍ أيّوبيّةٍ، ثُمَّ حِكْمَةٌ جلاليّةٌ فِي كَلمةٍ يَحياويّةٍ، ثُمَّ حِكْمَةٌ مالكيّةٌ فِي كَلمةٍ زكرياويّةٍ، ثُمَّ حِكْمَةٌ إيناسيّةٌ فِي كَلمةٍ إلياسيّةٍ، ثُمَّ حِكْمَةٌ إحسانيّةٌ فِي كَلمةٍ لُقمانيّة، ثُمَّ حِكْمَةٌ إماميّةٌ فِي كَلمةٍ هارونيّة، ثُمَّ حِكْمَةٌ عَلَويّةٌ فِي كَلمةٍ مُوسَويّةٍ، ثُمَّ حِكْمَةٌ صَمَديّةٌ فِي كَلمةٍ خالديّةٍ، ثُمَّ حِكْمَةٌ فَرديّةٌ فِي كَلمةٍ مُحمّديّةٍ، وفصُّ كل حكمةٍ الكَلِمةُ الّتي نُسِبَ إليها، فَاقْتَصَرْتُ على ما ذَكَرْتُهُ مِنْ هذِهِ الحِكَمِ في هذا الكِتابِ على حَدّ ما ثَبَتَ في أُمّ الكتابِ، فَامْتَثَلْتُ على ما رُسِمَ لِي، وَوَقَفْتُ عِندَما حُدَّ لي، وَلَو رُمْتُ زيادةً على ذلكَ ما اسْتَطَعْتُ، فإن الحضْرة تَمْنَعُ مِنْ ذلِكَ والله الموفّقُ لا رَبَّ غَيْرُهُ».

قال الشارح ﷺ:

(فما شهدَته مما نُودعُه في هذا الكتاب كما حدَّه لي رسول الله ﷺ): أي فمِن بعض ما شهدَّته هو مما نُودعُه في هذا الكتاب، وهو المحدود من واضع الحدود ﷺ حتَّى لو رام ﷺ في أجزاء النَّص الذي نحن فيه وبيانَه يَخيَ في محلِّه إن شاء الله تعالى.

ونحن إن شاء الله آمنون في البيان من الخطأ والزَّلل والله المستعان، والحمد لله حكمة إلهيَّة في كلمة آدميَّة، وهو هذا الباب الذي مضى آنفًا.

والحكمة: وضع الشيء في محلِّه [1]، والإلهيَّة هي: النسبة إلى حضرة المرتبة الجامعة، والكلمة هي: العين المقصودة، والآدميَّة هي: حضرة الناسوت فهو ظهور المرتبة في الكلمة وبطون العبودية فيها، هذا هو الظهور بالصورة علمًا ووجودًا، فافهم.

(ثم حكمة نفثية في كلمة شيثيّة)، ثم حكمة سُبوحيَّة في كلمة نوحيَّة، ثم حكمة قدوسيَّة في كلمة إدريسيَّة، ثم حكمة مُهيّمية في كلمة إبراهيميَّة، ثم حكمة حقيَّة في كل كلمة إسحاقيَّة، ثم حكمة عليَّه في كلمة إسماعيليَّة، ثم حكمة روحيَّة في كلمة يعقوبيَّة، ثم حكمة نوريَّة في كلمة يوسفيَّة.

ثم حكمة أُحُديَّة في كلمة هُوديَّة، ثم حكمة فاتحيَّة في كلمة صالحيَّة، ثم حكمة قلبيَّة في كلمة شعيبيَّة، ثم حكمة ملكيَّة في كلمة لوطيَّة، ثم حكمة قدريَّة في كلمة عزيزيَّة، ثم حكمة نبويَّة في كلمة عِيْسَويَّة، ثم حكمة رحمانيَّة في كلمة سليمانيَّة، ثم حكمة وجوديَّة في كلمة داوديَّة، ثم حكمة نَفَسيَّة في كلمة يونسيَّة، ثم حكمة عينيَّة في كلمة أيوبيَّة، ثم حكمة جلالته في كلمة يحياويَّة.

ثم حكمة مالكيَّة في كلمة زكَرياويَّة، ثم حكمة إيناسية في كلمة إلياسيَّة، ثم حكمة إحسانية في كلمة لقمانية، ثم حكمة إمامية في كلمة هارونية ثم حكمة علوية في كلمة موسَوِيَّة، ثم حكمة صمديَّة في كلمة خالدية، ثم حكمة فردِيَّة في كلمة مُحمَّدية، صلى الله عليهم أجمعين وسلم تسليمًا.

ونًص كل حكمة الكلمة المنسوبة إليها، وقد عرفتَ سابقًا معنى النَّص والحكمة والكلمة والنسبة معروفة، فلا يحتاج إلى بيان آخر.

(فاقتصرت): أي بالأمر؛ لأنه حدّ له ووسمّ له ﷺ، وإنما قال: فاقتصرت ولم يقل: فاقتصر لي كما هو المناسب لقوله ﷺ: حدَّ لي ووسمّ لي إشارةً إلى أنه كان صاحب صحْو تام مختار مَجْبور، فالأمر وقع بالاختبار في عين الجبر على ما ذكرته من هذه (الحكم) التي لا يسعها كتاب، ولا العالم الموجود فإنه ﷺ ما ذكر منها إلا قدْرًا معلومًا محدودًا.

(في هذا الكتاب): أي كتاب فصوص الحِكَم الذي لا ريب فيه على ما ثبت في

---

(1) الحكمة: الاطلاع على أسرار الأشياء، ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها، ومعرفة ما ينبغي بالشروط التي تنبغي، فمن عرف الحكمة، ويُسّر للعمل بها، فذلك الحكيم الذي أتاه الله الحكمة فأحكم وضع الأشياء في مواضعها.

(أمّ الكتاب): يعني النَّفس الكلي؛ الذي هو اللَّوح المحفوظ.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: 4]: أي ما ثبت أنه سيظهر حكمه، وحكمه في الخارج فإنه تقدير العزيز الحكيم، وأم الكتاب هو الحضرة العلمية التي تخرج من بطنها نتائج العلوم والمعارف إلى الظهور بقدر معلوم، أشار ﷺ بهذه العبارة إلى أن الأمر الشريف النبوي كان بمقتضى القضاء المُبرَم، وهو أم الكتاب، فالأمر كان حتمًا مقضيًا (فامتثلت)؛ لأنه لا يسعه إلا الامتثال، فإن الأمر على كشف وعيان.

(على ما رسم لي ووقفت عندما حُدَّ لي) يصح أن يكون الفعلان مجهولين: أي رسم وحدّ، وأن يكونا معلومين، وفي قوله: (امتثلتُ، ووقفتُ) يُشير إلى صحوه وعلمه أنه امتثل الأمر ووقف على حدوده ما زاد ولا نقص.

(ولو رمت زيادة على ذلك ما استطعت) فما رام الزيادة (فإن الحضرة تمنع من ذلك)؛ وذلك لأن العيان أعطى أن الأمر الخارج إلى الظهور: أي قَدر منها فلم يتعلق الخاطر بأمر محال.

(والله الموفق التوفيق)، جعل الأسباب موافقة للتسبب (لا ربٌّ غيره) أين الغير حتى يكون ربًّا؟!.

(برجه غير وكحا غير وكر نقش) سوى الله، والله ما في الوجود.

❁❁❁

ومن ذلك:

الفصُّ الشيثي
فص حكمة نفثية في كلمة شيثية

كان النص الأول في بيان مراتب الوجود حقًّا وخلقًا، وهذا النَّص في بيان مراتب العلم خَلقًا وخُلقًا.

(النَّفْث) بسكون الفاء والثاء المثلثة إرسال النَّفس وجوامع رتق، فلا يكون النفث إلا ريحًا لا بد من ذلك، حتى يعم: أي يشمل المادة والصورة فكما أعطاه من رُوحه بريحه، أعطاه من نشأته الطبيعية من ريقه، فجمع له الكل في النفث بخلاف النفخ، فإنه ريح مجردة، فالنفث هنا عبارة عن إفاضة النَّفس الرحماني الذي يحيي به كل موجود

وعلى قلب ذلك النبي ﷺ، ومن هذا المقام قال ﷺ: «إنَّ رُوحَ القُدُس نَفَثَ في رَوْعي.. »[1].

وأمَّا الشيث بلسان العربي ولحنه هبة الله، لمَّا أراد الله تفصيل إجمال آدم بمقتضى النَّفس الرحماني بسَط الوهَّاب الجود على الأعيان، وأظهر مرتبة المبدئيَّة والموجدية بأكمل العيان، وهي: نتيجة النفس بالهبَة منه والامتنان، وإنما اختصَّ النَّفس في رَوع شيث للمناسبة؛ لأنه هبة الله ولا يحملها إلا هبة الله كما قيل لا يحمل عطاياهم إلا مطاياهم، فهو مثاني التعيين الكمالي أوَّل التفصيل، فلما كانت العطايا التي ظهرت في الوجود على مقتضيات متعددة منها: ذاتي وغير ذاتي أشار ﷺ إلى تفصيلها وقال المصنف:

«اعْلَمْ أنَّ العَطايا والمِنَحَ الظَّاهِرَةَ فِي الكَوْنِ عَلى أيْدي العِبادِ وعَلى غَيرِ أيْدِيهم على قسمَيْن: منها ما تكُون عطايا ذاتِيَّةً وعطايا أسمائِيَّةً وَتَتَميَّزُ عِنْدَ أهْلِ الأذْواقِ، كَما أنَّ منها ما يكُونُ عَنْ سُؤالٍ في مُعَيَّنٍ وَعَنْ سُؤال في غيرِ مُعَيَّنٍ، ومنها ما لا يكون عن سؤالٍ، سواء كانَتِ الأعطية ذاتيةً أو أسمائيَّةً، فَالمُعيَّن كمنْ يَقُولُ: يا ربِّ أعطِنِي كذا فَيُعَيِّنُ أمْرًا ما لا يَخْطُر لَهُ سِواهُ، وغَير المعيَّن كَمَنْ يَقُولُ: يا ربِّ أعْطِنِي ما تَعْلَمُ فِيه مصْلَحَتِي مِنْ غَيرِ تعيينٍ لكُلِّ جُزءٍ مِنْ ذَاتِي مِنْ لَطِيفٍ وكَثِيفٍ».

(**اعلم أن العطايا والمنح الظاهرة في الكون**): أي العالم فدخل فيه عالم الغيب الإضافي كعالم الأرواح والشهادة، إنما خصص ﷺ المنح بالظاهرة في الكون؛ لأن المنح التي هي مقتضى الأسماء المستأثرة يكون بحكمها مستأثرة في الذات، وهي مظاهر تلك الأسماء لو ظهرت ولها البطون بدوام الباطن، فالمنح والعطايا التي نحن بصدد بيانها بحكم الاسم الظاهر على أيدي العباد: أي الظاهرة على أيديهم، كالأرواح والملائكة والأنبياء عليهم السلام والمشايخ والأئمة ﷺ، وغير ذلك كالشجرة لموسى عليه السلام.

(**وعلى غير أيديهم**) كالمنح والعطايا التي تحصل بلا واسطة منه تعالى من الوجه الخاص، وقد أخبر أبو يزيد الأكبر - قدَّس الله سرَّه - نفسه بهذا عن المقام أعني: الأخذ عن الله بلا واسطة أنه ناله، وقال فيما رُوي عنه أنه يخاطب علماء زمانه: أخذتم علمكم ميتًا عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت؛ بل قد أشار الشرع في

---

(1) أخرجه البيهقي في الشعب (67/2).

التعريف بهذا.

فقال: ما من أحد من المؤمنين إلا ولا بد أن يُناجي ربَّه وحده ليس بينه وبينه ترجمان فيضع كتفه عليه وهو عموم رحمته به، ذكره الشيخ ﷺ في الباب الثالث عشر وخمسمائة من «الفتوحات»، ولكن هنا نكتة أخرى سأظهرها لك إن شاء الله تعالى.

فاعلم - أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه - أنه تعالى يُعطي عباده على أيدي الرسل صلوات الله عليهم وعلى غير أيديهم، فما جاء على أيديهم فخذه من غير ميزان، والذي يعطي على يده سبحانه بلا واسطة فخذه بميزان فإن الله تعالى عينُ كلِّ مُعْطٍ وقد نهاك أن تأخذ كلَّ عطاء وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: 7]، فصار بالنسبة إلى العموم الآخذ من الرسول وأولى؛ لأنه سبحانه أخبر عن نفسه سنستدرجهم من حيث لا يعلمون، فمن أراد له السلامة من مكرِ الله فلا يضع ميزان الشرع من يده.

منها: (ما يكون عطايا ذاتية) وهي إذا نسبت إلى الوهاب الحق؛ سُمِّيت ذاتية؛ لأنها تقتضي الذات لا موجب لها غيرها، فهي وترية لا تعدُّد فيها ولا تفصيل ولا تميز، وإنما يتميز ويتعدد من نسبتها.

(وعطايا أسمائيّة) وإن كانت كلها أسمائيّة؛ لأن مقتضاها الأسماء وتعدَّدت بتعدُّد القوابل، ومن تعدُّد القوابل ظهرت الكثرة في الأسماء والعطايا، فالعطاء وتري أحدي في الأصل، والاختلاف من قِبل القابل؛ كما ترى الشمس نورها أحدي وتري، والاختلاف بحسب القوابل صافٍ، وأصفى لطيف وألطف، وكالقصار فإن الشمس تبيِّض شعثهُ، وتسوِّد وجهه، وكما ترى في النفخة الواحدة؛ تشعل الحشيش الذي فيه النار، وتطفئ المصابيح مع أن الإمداد من الممد واحدٌ.

(ويتميز عند أهل الأذواق): أي تتميز تلك العطايا الذاتية بعضها عن بعضٍ عندهم؛ فإنهم يفرِّقون بينها من عند فيضان الوجود بالعلوم والمعارف؛ لأنهم على كشفٍ منه، يرون مصدره ومنبعه مع الذوق في نفسهم - قُدِّس سرُّهم -.

وإنما قال ﷺ: أهل الأذواق إشارةً إلى أنه في هذا التميز لا يكفي مجرَّد الكشف.

فإن بالذوق تعرف الذاتيات والمرضيات؛ لا بالكشف والرؤية، فإذا فهمت هذا، فاعلم أن هذا التقسيم المذكور باعتبار نفس المنح والعطايا.

كما أن (للعطايا) تقسيمًا آخر باعتبار القابل، وهو أن مهما ما يكون عن سؤال:

أي لفظي، فإذا كانت عن سؤال لفظي فإما أن تكون في مسؤول معين كما تقول: اعطني الجنة قد تكون عن سؤال غير معين كما تقول: اللهم خر لي واختر لي، فلمَّا أخبر تعالى عن نفسه الكريمة أنه قريبٌ مجيبٌ، فليحتفظ السائل ويراقب ما يسأل فيه؛ لأنه لا بُدّ من الإجابة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60].

ورد في الخبر الصحيح: «**إن القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض فإذا سألتم الله أيها الناس فاسألوا وأنتم موقنون بالإجابة، فإن الله تعالى لا يستجيب لعبدٍ دعاه عن ظهر قلب غافل**»[1] رواه ابن ماجه وأحمد بن حنبل عن ابن عمر ﷺ.

فإنه قد سُئِلَ العبد فيما لا خبر له فيه؛ لجهله بالمصالح فهو تنبيه من الله تعالى لقلب بنية أن لا يعين على الله شيئًا إلا فيما يعلم باليقين أن له في الخبر، فإذا سأل يسأل الله العافية وسلامة الدين فإن تعينه في السؤال فيهما وبما يرجع إلى أمر ديني لا مكر فيه ولا غائلة ومنها ما لا يكون عن سؤال: أي لفظي وإنما قلت: لفظي لمراعاة المحل الذي وقع التقسيم فيه وإلا ثبت عند أهل الكشف بالكشف الأتم أن الحق لم يعطِ شيئًا إلا بالدعاء والتضرع والسؤال والطلب؛ بل بشفاعة الشافعين وهم الأسماء الإلهية، ويُشير إليه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: 77]، فأخبر تعالى إنه لا يعبأ بنا إلا بالدعاء فإنه يحب الملحين فيه لهذا الدعاء مخ العبادة فالسؤال والدعاء لا بد منه؛ ولكن لا يدرك ذلك كل أحد لغموضه وإخفائه غالبًا، فإن السؤال والدعاء قد يكون بلسان الظاهر، وقد يكون بلسان الروح وبلسان الحال وبلسان المقال وبلسان الاستعداد الكلي الذاتي الغيبي العيني الساري الحكم من حيث الاستعدادات الجزئية الوجودية التي هي تفاصيله؛ فحكم هذه التقاسيم باعتبار القابلين سواء كانت الأعطية ذاتية أو أسمائية.

وبالجملة: إن الأعطيات تنقسم أولاً من حيث ذاتها ونفسها إلى: ذاتية وأسمائيّة.

و(الذاتية) تنقسم باعتبار القابل إلى: الحاصلة بسؤالٍ لفظي معين، وبسؤال لفظي غير معين وبلا سؤال.

ف(المعين): أي الذي بالسؤال اللفظي المعين من يقول: يا رب أعطني كذا، فيعين له أمرًا ما لا يخطر له سواه؛ فإن خطر سواه تشتَّت بناء في الجمعية المؤثرة، فلا بد أن

(1) أخرجه أحمد (177/2).

يكون في أحدية التصوُّر وحسم التفرُّق والشتات، فإنه يجمع القلب بالحضور مع الله، فيكون أبهج وأنهج وأنجح، فافهم.

و(غير المعين): أي الذي بالسؤال اللفظي بلا تعيُّن على الله كمن يقول: يا رب أعطني ما تعلم ومصلحة من غير تعيين لكلِّ جزء من ذاتي من لطيف كالقوي والأرواح وكثيف؛ كالأعضاء، ثم يرجع ﷺ إلى تفصيل التفصيل، يريد أن يبيّن بواعث الأسوء له سواء كانت لفظيّةً أم حاليّة أم استعداديّة.

قال المصنف ﷺ:

«والسّائِلُون صِنفانِ: صِنفٌ بَعَثَهُ عَلى السّؤال الاستعجالُ الطَّبيعيُّ، فإنَّ الإنسانَ خلِقَ عَجُولاً، والصِّنفُ الآخر بَعَثَهُ على السؤالِ لِما عَلِم أنَّ ثَمَّة أُموراً عِنْدَ الله قَدْ سَبَقَ العلم بأنّها لا تنالُ إلاّ بَعدَ السّؤالِ فيقولُ فلعلَّ ما نَسْأله مِنْهُ سُبحانه يَكُونُ مِنْ هذا القبيل، فسُؤاله احتياط لما هُوَ الأمرُ عَليه مِنَ الإمكان وهُو لا يعلمُ ما في علم اللهِ ولا ما يُعْطيهِ استِعدادُه في القَبُولِ؛ لأنّه مِنْ أغمضِ المعلوماتِ الوقُوفُ في كلِّ زمانٍ فَرْدٍ على استعدادِ الشَّخْصِ في ذلِك الزّمان، وَلَوْلا ما أعطاهُ الاستعدادُ السُّؤالَ ما سأل».

قال الشارح ﷺ:

فقال: (والسائلون صنفان) وما تم إلا السائلون كما فهمته سابقًا من أن الحق لا يعطي شيئًا بلا سؤال، فإذا علمت أن الأعطيات في الخزائن، ومفتاحها السؤال ولا بُدّ منه.

فاعلم أنه ﷺ لما أراد أن يفصل مراتب السائلين من حيث البواعث؛ لأن التمييز بين السائلين ما يمكن إلا بمعرفة البواعث؛ لأنه قد يسترك الكامل والعامي في صورة السؤال والرغبة فيما يتميز إلا الباعث إنه يتميز به كل أحد عن صاحبه، فقال ﷺ: (صنف بعثه) و(البعث) إنما يكون من الاسم الباعث، فهو الذي يبعث إلى البواطن رسلَ الخواطر بما نطقوا به أو طلبوا في بواطنهم كما يبعث في أميين رسولاً، فإذا وفق الرسولُ الرسول فلنحمد الله على ذلك، وقد يكون البعث على السؤال الاستعمال الطبيعي، فإن باعثهم الشوق، قال تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى*قَالَ هُمْ أُولاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: 83 - 84].

نعوت على قوله: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: 85].

وحكى الشيخ ﷺ في الباب الخامس والثمانين وأربعمائة من «الفتوحات» فقال:

إن أبا العباس السبتي بمراكش رأيته وفاوضته في شأنه، فأخبرني عن نفسه إنه استعجل من الله في الحياة كل النعيم فما حياته للآخرة سوى ربع درهم خاصة فذكر ﷺ هذه الحكاية وشكر عنه على إيمانه بذلك، فافهم.

ثم أراد ﷺ أن يعتذر عنهم في استعجالهم فقال: فإن الإنسان خلق عجولاً يطلب الأمور قبل أوانها وإلا، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: 5] أي: لا تستعجل هذا من أحسن تأديب أدب الله به حبيبه حيث إنَّه ذكر له ما جرى قبله، ومنهم قصصنا عليك فافهم.

و(**الصنف الآخر: بعثه على السؤال**) رجم بالغيب؛ لأنه لما علم أن ثمة أمورًا عند الله في غيبه قد سبق العلم بأنها لا تُنال إلا بعد سؤال، فيقول هل ما يسأله فيه سبحانه يكون من هذا القبيل؟ فسؤاله احتياط لما هو الأمر عليه من الإمكان.

فـ(**الأول**) صاحب استعجال، و(**الثاني**) راجم بالغيب بمجرد الاحتمال، ولكن صاحب هذا السؤال إذا تصوَّر المنادي المسؤول عنه تصوُّرا صحيحًا عن علم ورؤية سابقين أو حاضرين حال الدعاء، ثم سأله ودعاه عسى أن يُستجاب له.

وأما من يقصد مناداة زيد ويطلب منه وهو يستحضر عمروًا ويتوجَّه إليه، ثم لم يجد الإجابة فلا يلومنّ إلا نفسه، فإنه ما نادى القادر على الإجابة والإسعاف؛ لأنه توجَّه إلى ما استحضره في ذهنه وخياله، وهو مثله عاجز عن الإجابة، وإن أثمر سؤاله على هذا فإنما أثمر بشفاعة حسن ظنه بالله، وشفاعته المعية الإلهية فإنه مع كل شيء.

ورد في الخبر: «**ما كان الله ليفتح لعبد الدعاء فيغلق عنه باب الإجابة الله أكرم من ذلك**»[1] رواه الديلمي عن أنس ﷺ.

وهو لا يعلم ما في علم الله والعلم بما في علم الله من أعلى العلم بالله، ولا يكون إلا بسبق العناية، قال الله تعالى: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: 255]، وما شاء الله كان ولا ما يعطيه استعداده في القبول، فإذا لم يعلم ما في نفسه من الاستعداد فهو بغيره أجهل، قال تعالى عن عيسى عليه السلام يخاطب ربه ويناجيه: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: 116]، أشار عليه السلام إلى نفسه فإنها ملك له تعالى، قال تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾[المائدة:

(1) أخرجه الديلمي (88/4).

116].

(فيها) لأن من أغمض المعلومات الوقوف في كل زمان فرد على استعداد الشخص في ذلك الزمان ولا يكون ذلك العلم إلا لمن أشرف على الأعيان الثابتة أو أحاط بكل شيء علمًا، أما مِن مقام ما ورد في الخبر: «**مَن عَرِفَ نفسه فقد عَرف ربه ومن عرف علم ما في نفسه فعلم العالم بعلمه بنفسه**»[1].

قال ﷺ في الوصل الخامس عشر من الخزائن من «**الفتوحات**»: من أدرك الحق علمًا لم يفته من العلم الإلهي مسألة، كما أنه رأى الحق ببصره رأى كل شيء من العالم لا يفوته من أنواعه شيء: أي إذا رأى الحق في غير مادة، فافهم.

وأما من مقام قرب النوافل، فإنه علم الحق بالحق، فإنه عين قواه، ومن كان هويته عين قُواه لا يعزب عنه مثقال ذرة.

قوله ﷺ: (**في كل زمان فرد**): أي غير منقسم، وهو الآن الذي لا يتجزَّأ، ومن كان بهذا الكشف أدخل السؤال الاستعجال والاحتمال في الكمال؛ لأنه علم أنه لولا ما أعطاه لاستعداد السؤال ما سأل؛ لأن كل طلب في العالم من كل طالب إنما هو طلبيٌّ وأتى ما به طلب عارض لا يكون بالذات، فإن هذا لا يكون أبدًا، بل إنما يعرض للشخص أمر ما لم يكن عنده، فهذا الأمر الذي حصل عنده هو الذي يكون له الطلب الذاتي للمطلوب وانحجب الناس من قام به ذلك الأمر العارض بحيث يسمونه طالبًا، وليس الطالب إلا ذلك الأمر، فالطلب له ذاتي، والشخص الذي قام به هذا الأمر مستخدم في أمر ما أوجبه عليه هذا الأمر الذي حلَّ به، فالطلب ذاتي لذلك الأمر، وقد استخدم في تحصيله هذا الشخص الذي نزل به ولا شعور للناس بذلك، ذكره ﷺ في الباب السبعين وثلاثمائة من «**الفتوحات**».

فإذا كان الأمر هكذا، فما ثم سؤال وطلب إلا عن اقتضاء ذاتي، فما يقع الاستعجال ولا الطلب والسؤال بمحض الاحتمال؛ بل كل سؤال في وقته وهو مبذول، ولكن تميُّز مراتب الأسئلة والأجوبة ومعرفتها على قدر العلم بالله، ومعرفة حقيقة نفسه نهاية أهل الحضور.

قال المصنف ﷺ:

«**فغاية أهْل الحُضُور الّذين لا يعلمونَ مِثْل هذا أنْ يعلمُوهُ في الزّمان الّذي**

(1) سبق تخريجه.

يكونُون فيه، فإنَّهُمْ لحُضُورِهِم يَعْلَمُونَ ما أعطاهُم الحَقُّ فِي ذلك الزَّمانِ وَأَنَّهُم ما قَبِلوه إلاَّ بالاستعدادِ، وهُمْ صِنْفان: صِنْفٌ يَعْلَمُونَ مِن قَبُولِهم استِعدادَهُم؛ وصِنفٌ يَعْلَمون مِن استِعدادِهم ما يقبلونه، هذا أتمّ ما يكونُ في معرفة الاستعدادِ في هذا الصِّنْفِ، ومِنْ هذا الصِّنفِ مَنْ يَسألُ لا للاستَعجالِ ولا للإمكان، وإنَّما يسأل امتثالاً لأمر الله تعالى في قوله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60] فَهُوَ الْعَبْدُ المَحض، وَلَيْسَ لهذا الدّاعي هِمَّةٌ مُتعلِّقةٌ في ما يَسْألُ فِيْه مِن مُعيَّنٍ أوْ غَيرِ مُعَيّنٍ، وإنّما هِمَّتُهُ في امتثالِ أوامرِ سَيِّدِهِ، بَلْ نَظَره عَلى الحقّ جَمْعًا في مقام وَحْدَتِهِ وتَفْصِيْلاً في مظاهرِهِ، فإذا اقتضى الحالُ السؤالَ سَألَ عُبوديّةً، وإذا اقْتَضى التَّفويْضَ والسُّكوتَ سَكَتَ، فَقَدْ ابتُلِيَ أيُّوبُ وغيرهُ وما سَألُوا رَفْعَ ما ابْتَلاهُم الله بِهِ، ثُمَّ اقتَضَى لَهُم الحالُ في زَمانٍ آخر أنْ يَسألُوا رَفْعَ ذلك فسألوا فَرَفَعَهُ اللهُ عَنْهُمْ، والتَّعجيلُ بِالْمَسْؤولِ فيهِ والإبطاءُ للقدر المُعيَّنِ لَهُ عِنْد الله».

قال الشارح ﷺ:

(الحضور) عبارة عن استجلاء المعلوم الذي هو عبارة عن صور تعقُّلات العالم نفسه في علمه بحسب كل حالة من أحواله الذاتية، واستجلاء ذاته من حيث هي أعني: من حيث أحواله، وهو المعرف المعين بالعلم صور البواعث وحكمه: أي حكم الاستجلاء الثاني استجلاء المعلوم، ذكره الشيخ صدر الملة والدين القونوي - قُدِّس سرُّه - في شرح الفاتحة، فنهاية أهل الحضور الذين لا يعلمون مثل هذا، أي: العلم الذي من نتائج الإشراف على الأعيان الثابتة الذي هو علم النفس أو إحاطة العلم بالعلم أنْ يعلموه، أي: هذا العلم الغامض وهو كشف كل شيء بالمقتضيات الطبيعية المسماة بالقابلية والاستعداد في الزمان الذي يكون فيه، أي: في الحضور، فإنهم كحضورهم بالله أو بأنفسهم، فـ (الحاضر بالله) يعلم ما في نفسه، و(الحاضر بنفسه) يعلم ما في نفسه، يعلمون ما أعطاهم الحق من استعدادات الظهور والقبول في ذلك الزمان، أي: في زمان الحضور ويعلمون أنهم ما قبلوه إلا باستعداد، أي: بطلبه وسؤاله من خيره وشره، ذكره ﷺ في [...] أنه كثيرًا ما كان الصديق الأكبر يتمثل بهذا البيت:

لَوْ لَمْ تَرُدْ نَيْلَ مَا أَرْجُو وَأَمَلُه ... مِنْ جُودِ كَفِّكَ ما علمتني الطلبا

قال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: 8] وذلك الحضور لأرباب الحضور والأحوال حال زائل وضيفه أحلّ، وهذا الصنف من أهل الحضور (هم صنفان): صنف يعلمون من قبولهم استعدادهم كما يعلمون المؤثر بالأثر وهذا: أي

صنف الأخير أتم ما يكون في معرفة الاستعداد في هذا الصنف: أي صنف أهل الحضور لأنه عَلِم الاستعداد القبول وعَرف الأمر الواقع قبل الوقوع.

(ومن هذا الصنف): أي الصنف الأخير وهو الذي يعلم مَنْ الاستعداد القبول وعرف، مَنْ يسأل سؤال طاعة وانقياد حيث رأى أنه أمر بالمسارعة إلى الخيرات، فسارع إلى العبودية، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ [طه: 40]: أي في وقت الحاجة المجيء، وما سأل ما سأل إلا بالعِلم والكشف والشهود لا كاستعجال المذموم، ولا للإمكان الذي كان رجمًا بالغيب، وإنما يسأل امتثالاً لأمر الله في قوله سبحانه: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60].

(فهو العبد المحض): أي الخالص عن شرب الربوبية، وليس لهذا الداعي همة داعية متعلقة فيما يسأل فيه من معين أو غير معين وإنما همته في امتثال أوامر سيده، ورأى أنه تعالى مدح طائفة بأنهم كانوا يدعونه رغبًا ورهبًا، وشكرهم على ذلك وخاطب نبيه وصفيه ﷺ بقوله: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: 77]، فإذا اقتضى الحال والوقت والسؤال سأل عبودية، وإذا اقتضى التفويض والسكوت سكت، قال تعالى حاكيًا عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ [غافر: 44]، والتفويض ردّ الأمر إلى صاحبه المدبر عند شهوده أن الحركة والسكون صادرة عن الحق بلا واسطة، فيرى الحركة من اسمه الباسط ويشهد السكون من اسمه القابض، فافهم.

(فقد ابتلي أيوب عليه السلام وغيره) وما سألوا رفع ما ابتلاهم الله به، ثم اقتضى فهم الحال في زمان آخر أن يسألوا رفع ذلك فرفع الله عنهم، وهنا تفصيلٌ آخر من حيث إجابة السؤال، فإن الإجابة على ضروب شتى إجابة في عين المسؤول فيه وبذله على التعيين دون تأخير وتراخٍ أو بعد مدة، وإجابة ثمرتها التفكر، وقد نبهت الشريعة على ذلك، وإجابة بلبَّيْك أو ما يقوم مقامه وكل دعاء وسؤال يصدر من الداعي بلسان من الألسنة المذكورة في تقاسيم الأسئلة حسْب علم الداعي بالمسؤول منه والمسؤول فيه، ولصحة التصور وجودة الاستحضار في القبول أثر عظيم اعتبره ﷺ حيث حَرَّض عليه عليًا رضي الله عنه وكرم وجهه، لما علمه الدعاء وفيه: اللهم اهدني وسدِّدني، فقال له: اذْكُر بهدايتك هداية الطريق، وبالسَّداد سَداد السهم، فأمره باستحضار هذين الأمرين حال الدعاء، فافهم.

فلما كانت إجابة السؤال على أنحاء شتى، فقال: والتعجيل بالمسؤول فيه، أي: سرعة حصوله، والإبطاء بالمسؤول فيه يكون للقَدر المعين: أي بحسب القدر أو بحسب الوقت له: أي للمسؤول فيه، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: 21] وهو وقته، وكذلك مقداره عند الله ولكن من حضرة المقيت فإنه سار به: أي خادم الحق وخادمه في القَدَر وأحكامه: وهي حضرة تعين الأوقات والأقوات وموازينها.

قال المصنف ﷺ:

«فإذا وافَقَ السُّؤالُ الوَقْتَ أسرع بالإجابَةِ، وإذا تأخَّر الوَقْتُ إمّا في الدّنيا وإمّا في الآخِرَة تأخَّرتِ الإجابَة، أي المسؤول فيه لا الإجابة التي هي لَبَّيكَ مِنَ الله، فافهم هذا.

وأمّا القِسْمُ الثّاني وهُوَ قَوْلُنا: «ومِنْها ما لا يَكُون عَنْ سؤالٍ» فإنّما أُريدُ بالسّؤالِ التّلفُّظَ بِهِ، فَإِنَّهُ في نَفْسِ الأمرِ لا بُدَّ مِنْ سُؤالٍ إمّا باللّفظِ، أو بالحالِ أو بالاسْتعدادِ، كما أنّه لا يَصحُّ حَمْدٌ مطلقٌ قَطُّ إلاّ في اللّفظِ، وأمّا في المعنى فَلا بُدّ أن يُقَيِّدَهُ الحالُ، فالَّذِي يبعثُكَ عَلى حَمْدِ الله هُوَ المُقَيِّدُ لَكَ باسمِ فِعْلٍ أو بِاسْمِ تنزيهٍ، والاسْتِعدادُ مِنَ العَبْدِ لا يَشْعُرُ بِهِ صاحِبُهُ ويَشْعُرُ بِالحالِ لأنَّهُ يَعْلَمُ الباعِثَ وَهُوَ الحالُ فالاستعدادُ أخفى سُؤالٍ، وإنّما يَمْنَعُ هؤلاءِ من السّؤال عِلْمُهُم بأنّ لله تعالى فيهم سابقةَ قضاءٍ فهم قد هيّأوا مَحَلَّهم لِقَبول ما يَرِدُ منه وقد غابوا عن نُفُوسِهِم وأغراضِهم».

قال الشارح ﷺ:

(فإذا وافق السؤال الوقت أسرع بالإجابة) كما إذا وافق الدواء الداء يرى بإذن الله، ولا يعلم تلك الموافقة إلا مَنْ أشرف على الحقائق في موطنها والأعيان في عدمها ثابتة في العلم، ولا أعيان لها في الوجود فمن يكون بهذا الكشف والحال فلا يسأل المُحال (وإذا تأخر الوقت): أي وقت الإجابة بتقدم السؤال قبل الوقت إمّا في الدنيا وإمّا في الآخرة تأخرت الإجابة لفوات شرط الإجابة، وهو المقابلة، أي: مقابلة السؤال.

قال الشيخ صدر الدين - قُدِّس سرُّه - في شرح الفاتحة: إنَّ صحة التصور واستقامة التوجه حال الطلب، وهذا عند الدعاء شرط قوي في الإجابة، ومما ورد مما

يؤيّد ما ذكر قوله ﷺ: «**لو عرفتم الله حق معرفته لزالت بدعائكم الجبال**»[1] أي (**المسؤول فيه**): أي تأخرت الإجابة في السؤال فيه فإنَّه لم يضمن له إجابة في عين المسؤول فيه شفقة عليه ورحمة، قال تعالى: ﴿**فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ**﴾ [الأنعام: 41] لأنه قد يسأل العبد فيما لا خير له فيه، قال تعالى: ﴿**وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ**﴾ [الإسراء: 11].

وورد في الحديث القدسي عن الله تعالى أنه قال: «**إنَّ من عبادي المؤمنين لمَنْ يسألني الباب من العبادة لو أعطيته إياه لداخله العجب فأفسده ذلك**»[2].

وهكذا إلى أن قال: «**وإني أدبر عبادي لعلمي بقلوبهم إني عليم خبير**»[3] الإجابة التي هي لفظة لبيك من الله تعالى فإنَّها ما يتأخر عن الدعاء بالنسبة إلى كل عبد داعٍ.

ورد في الخبر ما قال: «**قط يا رب ثلاثًا إلا قال الله: لبيك عبدي فيعجل الله تعالى ما يشاء ويؤخر ما يشاء**»[4]، رواه الديلَمي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قال رضي الله عنه في «**الفتوحات**»: إنَّ هذه التلبية لا بد منها من الله تعالى في حق كل سائل إنْ قُضي مراده، أو لم يُقض، فافهم هذا، أي: أنَّ شرط الإجابة المقابلة بين السؤال ووقت الإجابة، فالإجابة بلبيك ما يفارق السؤال، وأمَّا الإجابة بالمسؤول فيه فبالمشيئة كما ذكره (**وأما القسم الثاني**) وهو قولنا: ومنها ما لا يكون عن سؤال فإنَّما أريد بالسؤال المتلفظ به فإنَّه في بعض الأمر لا بد من سؤال، إما باللفظ أو بالحال أو بالاستعداد، فالسؤال بالحال كسلام الفقير على الغني، والتَملُّق له والسؤال، بالاستعداد كسؤال الأعيان في ظهورها، فأول سؤال كان من الكون استعداده من حيث إمكانه بحَسب اختلاف أعيانه المنددة حيث ثبوتها في العدم، ثم الاستعداد والقبول أيضًا عطاء، وهو استجابة الدعاء الذي هو الاستعداد والقبول للاستعداد والقبول لكل عطاء هو سؤال العطاء، وأول ظهوره من الله الطالب، فافهم.

(**كما أنَّه لا يصح حمد مطلق قط إلا في اللفظ**) نقول الحمد لله، وأما في المعنى فلا بُدّ أنْ يقيده الحال، فالذي يبعثُك على حمد الله هو المقيد لك باسم فعل أو اسم

---

(1) أخرجه الحكيم الترمذي (236/1).

(2) لم أقف عليه.

(3) أورده القرطبي في «التفسير» (28/16).

(4) أورده الديلمي (286/1).

تنزيه كالمُعطي والوهاب وكالمُغني والقُدوس إنما خَص ﷺ باسم الفعل واسم التنزيه؛ لأنّه تعالى أظهر أسماؤه لنا إلا للثناء بها عليه، فمن المحَال أنْ يكون فيها اسم علمي أصلاً؛ لأنَّ الأسماء الأعلام لا يقع بها ثَناء على المسمَّى مع أنّه ما وجدنا لله أسماءً تدل على ذاته خاصة من غير تعقل معنى زائد على الذات إنه ما سَم اسمًا إلا على أحد الأمرين، من إما ما يدل على الفعل، وإما ما يدل على التنزيه، وذَكره ﷺ في الباب التاسع والسبعين وثلاثمائة من «الفتوحات» فلمَّا قرر ﷺ أنّه لا بُدّ من سؤال وهو منحصر في ثلاثة لفظ وحال واستعداد، ثم ذكر أحكام السؤال اللفظي، فأراد أنْ يذْكر أحكام السؤال الحالي والاستعدادي، فقال ﷺ: (والاستعداد من العبد لا يشعُر به صاحبه) الذي لم يبلغ الإشراف على الأعيان ويشعُر بالحال؛ لأنّه يعلم بالباعث وهو الحال فالاستعداد أخفى سؤال لأنَّ العلم بكل استعداد جزئي في وقت جزئي صعب لمَنْ لا يشرِف على الأعيان ولا يكون هذا النوع من العلم إلا للأفراد خاصة، وكمال ذلك كختم الختم فإنَّه من مقام باطن النبوة وهو الشعرة التي من الخاتم في الخاتم ﷺ، وفي ذلك يقع الميراث الكامل، وأما أرباب الأحوال فيعرفون ذلك من البواعث فإنَّها من الأحوال، فهو هين الخطب من هذه الحيثية، (وإنما يُمنع هؤلاء من السؤال) أي الذين يسألون سؤالاً لفظيًا.

(علمهم بأن لله فيهم) فكل مقدرات بلا سؤال، ويرون أن السؤال مطلقًا إلحاف، قال الله تعالى في حق طائفة مدحًا لهم: ﴿لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً﴾ [البقرة: 273] فإن كل سؤال إلحاف، قيل عن إبراهيم ﷺ من هذا المقام أنّه قال: علمه بحالي أغناني عن سؤالي.

فهم قد هَيّؤوا مَحَلِّهم بعد ما علموا القبول ما يرد منه، وقد غابوا عن نفوسهم وأغراضهم هذه الغيبة؛ هي التمني لحضرة القبول.

قال المصنف ﷺ:

«ومِنْ هؤلاء مَنْ يَعْلَمُ أنَّ عِلمَ الله بِهِ في جَميعِ أحوالِهِ هُوَ ما كانَ عَلَيْهِ في حالِ ثُبوتِ عَينِهِ قَبْلَ وجودِها، ويَعْلَمُ أنَّ الحقَّ لا يُعطِيِهِ إلاّ ما أعطتهُ عَيْنُهُ مِنَ العِلْمِ بِهِ وَهُوَ مَا كانَ عَلَيْهِ في حال ثُبوتِهِ، فَيَعْلَمُ عِلمَ الله بِهِ مِنْ أيْنَ حَصَلَ وَما ثَمَّةَ صِنفٌ مِنْ أهْلِ الله أعلى وأكشَفَ مِنْ هذا الصّنفِ؛ فَهُم الواقِفُونَ على سِرّ القَدَر، وهم عَلَى قسمين: مِنْهُمْ مَنْ يَعْلَمُ ذلِكَ مجمَلاً، وَمِنْهم مَنْ يَعْلَمُهُ مُفَصّلاً، وَالّذِي يَعْلَمُهُ مُفَصّلاً أعلى وأتَم من

الّذِي يَعْلَمُهُ مُجْمَلاً، فَإِنَّهُ يَعْلَمُ ما فِي عِلْمِ الله فِيهِ إمّا بإعْلامِ اللهِ إيّاهُ بما أعْطاهُ مِن العِلْمِ بِهِ، وإمّا أنْ يكشِفَ لَهُ عَنْ عَيْنِه الثّابِتَةِ وانتقالاتِ الأحوالِ عَلَيْها إلى ما لا يَتناهى، وهُوَ أعلى فإنَّهُ يَكُونُ فِي عِلْمِهِ بِنَفْسِهِ بِمَنزِلَةِ عِلْمِ الله بِهِ لأنَّ الأخذَ مِنْ مَعدِنٍ واحِدٍ هو العين المعلومة، إلاّ أنّه مِنْ جهَةِ الْعَبْدِ عِنَايَةٌ من الله سَبَقَتْ لهُ هي مِنْ جُمْلَةِ أحوالِ عَيْنِهِ الثّابِتَةِ يَعْرفها صاحِبُ هذا الكَشْفِ إذا أطْلَعَهُ الله على ذلِكَ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي وُسْعِ الْمَخلُوقِ إذا أطْلَعَهُ الله على أحوالِ عَيْنِه الثّابِتَةِ الّتِي تَقَعُ صُورَةُ الوُجودِ عَلَيْها أنْ يَطَّلع فِي هذِه الحال عَلى اطّلاع الحَقّ عَلى هذهِ الأعيانِ الثّابِتَةِ في حالِ عَدَمِهَا؛ لأنّها نِسَبٌ ذاتِيّةٌ لا صُورة لها فبهذا القَدرِ نَقُولُ: إنَّ العِنَايَةَ الإلهيّةَ سَبقَتْ لِهذا العَبْدِ بهذِهِ المُساواةِ في إفادَةِ العِلْمِ، ومِنْ هُنا يَقُول الله تعالى: ﴿حَتَّى نَعْلَمَ﴾ [محمد: 31] وهِيَ كَلِمَةٌ مُحقَّقَةُ المَعْنى ما هِي كَما يَتَوَهَّمه مَنْ لَيس لَهُ هذا المَشْرَبُ».

ومِنْ هؤلاء مَنْ للتبعيض، ويظهر بالقدرة ما قضي ورفعت الدواوين وجف القلم مَنْ يعلم (أنَّ عِلم الله به في جميع أحواله) وهو ما كان عليه في حال ثبوت عينه قبل وجودها، وهو من أهل الحضور بالعلم والشعور وتفصيل الأمور مع نوع من الإجمال ويعلم أنَّ الحق لا يعطيه إلا ما أعطاه عينه، أي: بالاستعداد الذاتي من العلم به بنفسه، وهو ما كان عليه في حال ثبوته، أي: في عدمه لا زائدًا ولا ناقصًا، فإذا علم نفسه وعرفها كما هى هى، فيعلم علم الله به، أي: بالعلم بنفسه، وقد ورد في الخبر: «ومن عرف نفسه فقد عرف ربه»[1] فيعلم تعلق علم الله به من أين حصل، وهذا غاية العلم بالله وبالنفس.

ذكر الشيخ ﷺ في كتابه المسمَّى بـ «المشاهد» أنّه تعالى قال له في بعض المنازلات: أنت الأصل وأنا الفرع، انتهى كلامه.

وهو محتمل لوجوه شتى منها أنْ يعلّمه بنا منّا لا منه، وعند أكثر النُّظار منه لا منّا، والكشف يعطي كما قلنا.

ذكر ﷺ في «الفتوحات» في الباب الثامن وخمسمائة: لمّا سألني عن هذه اللفظة محمد بن أبي الضيف نزيل مكة المشرفة ومفتيها، فقلت: إنَّ علمَنا به فرع علمِنا بنا، كما أنَّ وجودَنا عند فرع عن وجوده، فهو أصل في الوجود فرع في علمِنَا بنا وهو مدلول هذا اللفظ أيضًا، ففرح بذلك؛ لأنّه كان هذا قدره لا إيمان كامل ولا العلم

(1) سبق تخريجه.

والنظر السليم، وكان بحّار فأعطيناه ما يلائم مزاجه وعقله وهو صحيح، فإنَّه ما في الوجود كلام إلا وله وجه صحيح، فافهم.

و(ما ثم صنف من أهل الله أعلى واكشف من هذا الصنف) لأنّهم أحاطوا بالعلم الإلهي بعلمهم بأنفسهم.

قال تعالى: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: 255]، علّق الإحاطة بالمشيئة ما شاء الله، كان قد أحاط الله بكل شيء علمًا.

(وهم الواقفون على سر القدَّر) والقدَّر توقيت ما عليه الأشياء في عينها من غير مزيد من حضرة المقيت، فأنّه يُقدر أوقات الأوقات صورية ومعنوية، فما حَكم القضاء قدَّره هذا الاسم تقدير العزيز الحكيم وهذا هو عين سر القَدَر، فهم الواقفون الحاضرون لهذا التوقيت على مقتضى الاستعداد، والمطلعون على أصله وفرعه، ولهذا المقام إجمال وتفصيل، منهم من يعلم ذلك تفصيلاً، فقال ﷺ: مُريدًا لإظهار مراتبهم (وهم على قسمين) منهم من يعلم ذلك مُجمَلاً، أي: يعلم سر القدر على الإجمال، ومنهم من يعلمه مُفصَّلاً والذي يعلمه مفصَّلاً أعلى وأتم من الذي يعلمه مجملاً؛ فإنّه يعلم: أي بذلك العلمي التفصيلي ما في علم الله فيه: أي في نفسه وذاته.

(إما بإعلام الله تعالى إياه بما أعطاه عينه من العلم) أي بنفسه فهذا العلم، أي: الذي يكون بالإعلام يسمَّى العلم التعليمي، فإنّه من تعريف الله إياه بإلقاء روحي أو قلبي أو كلاهما هذا دون الكشف في النتيجة والشرف.

(وإما بأنْ يكشف له عن عينيه الثابتة وانتقالات الأحوال عليها إلى ما يتناهى) هذا علم التُجلِّي بكشف الساق يعني: كشف الغيوب على القلوب، وهو أعلى، أي: الذي بالكشف أعلى من الذي بالإعلام والتعريف، كما قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 76]، فإنّه، أي: العلم بالكشف يكون في علمه (بنفسه منزلة علم الله به لأن الأخذ من معدن واحد) والمعدن هو العين الثابتة؛ لأنَّ الحق سبحانه يأخذ منها وهي تعطي العلم على ما هو عليه، فإذا رجع العبد إلى عقبه فقهري بالتجلِّيات التحليلية المعروفة عند أرباب السبك والتحليل برجعته إلى أصله وإطلاقه، فيكشف له عن ساق فيرى أحواله على ما هو عليه بلا زيادة ونقصان فيجاري علمه علم الحق لهذا الوجه، ولكن هنا فرق آخر لطيف أشار إليه الحديث أيضًا، وهو «ومن عرف نفسه فقد

عرف ربه»[1] أنّه اتبع العلم به تعالى بالعلم بالنفس، فجعل العلم بالنفس هو الأصل في المعرفة وهو أصل معروف غير متكرر.

كما ذكر الشيخ ﷺ في المشاهد وقد نقلته سابقًا بعبارته ﷺ التي ذكرها في بعض المنازلات، وذلك لأنّه وإنْ كان الأخذ من معدن واحد ولكن للعبد ذاتي أصلي؛ لأنه عينه ما جاء من خارج بل قرة عين أخفيت له فيها.

(**إلا أنه من جهة العبد**): أي ذلك الأخذ من جهة العبد يسمّي عناية من الله سبقت له الحسنى من الفيض الأقدس، فلما قال ﷺ: إنْ أخذ العبد من عينه كأخذ الله من عينه وأنَّ الآخذين من المعدن الواحد؛ وهم المساواة، فاعتذر بأنْ أخذ العبد بالعناية، وهي أنَّ تلك العناية أيضًا.

(**من جملة أحوال عينه يعرفها صاحب هذا الكشف**): أي الذي كشف له عن عينه الثابتة رأى العناية ذاتية له بلا جعل الجاعل.

(**إذا أطلعه الله تعالى على ذلك**): أي على أحوال عينه أنّه يُشاهد أنَّ العناية ذاتية له من جملة أحوال عينه، وأمّا إطلاعه وعلمه ما في علم الله فيه من حيث إنّها شؤون ذاتية لا من حيث إنها أعيان لا يكون إلا بالعناية كقوله تعالى: ﴿**وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ**﴾ [البقرة: 255].

وتلك المشيئة عين العناية التي سبقت، (**فإنّه ليس في وسع المخلوق إذا أطلعه الله على أحوال عينه الثابتة**): أي من حيث إنّه عين ثابتة لا من حيث إنّه حق وإنّما قلنا ذلك؛ لأن الأعيان لها اعتباران.

اعتبار كونه عينًا من الأعيان الممكنة وحقيقة من حقائقها، واعتبارٌ آخر من حيث إنّها صور علمية بلا شؤون ذاتية، وهي بهذا الاعتبار عين الذات لا صورة لها في الوجود ولا في العلم بخلاف الأول، فإنّها صورة علمية ولها في الخارج صور خارجية يتعين بها في الخارج إذا ظهرت في الخارج.

(**وهي التي تقع صورة الوجود عليها**) وذلك لا يكون إلا من حيث إنّها أعيان ثابتة لا من حيث إنّها شؤون ذاتية للحق سبحانه.

فإنّها عين الذات فليس في وسع العبد (**أنْ يطلع في هذا الحال**): أي حال كونه مطلعًا على عينه ومقيدًا بهذا الاطلاع الجزئي أنْ يطلع كليًا على اطلاع الحق على هذه

---

(1) سبق تخريجه.

الأعيان الثابتة في حال عدمها؛ لأنَّها: أي لأنَّ الأعيان الثابتة في حال عدمها.

(نسب ذاتية) مجرَّدة عن الأسماء والصفات لا صورة لها، يدرك غير الذات ولا تَميُّز ولا فرق بينها وبين الذات بل هي نسب وخصوصيات لحضرة الذات تسمى باصطلاحهم شؤون ذاتية، وهي عين ذاتها فإذا اطلع العبد المُعتني به على الأعيان الذاتية من حيث إنَّها شؤون، فيرى شؤونًا ذاتية لا صورة لها في ذاتها، بل يرى أنَّها عين الذات.

(فبهذا القدر): أي بقدر هذا الاطلاع على الذات وما فيها (نقول: العناية الإلهية سبقت في الأزل)؛ لهذا العبد الفرد كاشف عينه الثابتة وأخذ العلم بنفسه في نفسه بهذه المساواة في إفادة العلم؛ أنَّه يفيد من حيث أفاد الحق سبحانه ويفيض من عين ما أفاضه تقدَّس وتعالى.

وإنَّما قلنا سبقت له بسبب هذه المساواة التي هي الأخذ من المعدن الواحد في الإفادة؛ وهي العلم بما في علم الله فيه، وهي العناية المختصة بالفرد؛ لأنَّه فوق مقام عينه بل هو في إطلاق الذات ولا عين له في الأعيان كالحق تعالى.

ومن هذا المقام والمشهد من يشهد الحكم ويراها قبل أن يكون الحق فيها، وهو الذي يشاهدها في حال عدمها كما يشهدها الحق، وهو أعلى المدارك وأسناها وأشرفها.

قال الشيخ ﷺ الصديق الأكبر ﷺ أشار في قوله: ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله قبله إلى هذا التجلي: أي التجلي في لا شيء وما فيه أحد فيما وصل إلينا على هذا الوجه، وما يتكون منه في قلب المعتكف على شهوده إلا أبو بكر الصديق ﷺ.

ذكر الشيخ ﷺ في الباب السادس والتسعين وثلاثمائة من «الفتوحات»: وذلك لأنَّ الإدراك بهذا النمط للمكن ممكن.

وهو إدراك في حال عدمها فإذا جاء الأمر الإلهي بالتكوين لم يجد إلا وجود الحق فظهر فيه لنفسه، فرأى الحق قبل رؤية نفسه فلما ألبسه وجوده تعالى رأى نفسه عند ذلك، فقال: ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله قبله: أي قبل أن يتكون فيه فيقبل الحق صورة ذلك الشيء وهذا من مقام التجلي؛ لأنَّه رأى الحق قبل الكون فيرى صدور ذلك منه تعالى وتقدَّس.

(ومن هنا يقول الله): أي مِن أنَّه يعلم أنَّ الحق لا يعطيه إلا ما أعطَته عينه من

العلم به؛ فإن الأعيان عالمه مفيدة معطية والأسماء مستفيدة، فالله تعالى العالِم أزلاً وأبدًا؛ لأنّه تعالى عين الكل، (حتى نعلم وهي كلمة محققة المعنى).

كما ورد في الخبر: «إنّه ينزل إلى سماء الدنيا ويقول هل من مستغفر»[1].

وهذا عين ما قررناه في هذا المقام، وكيف لا؟ ومِنْ أسمائه المؤمن ومِنْ معقوليته المؤمن؛ فإنّه المصدق بالغيب أنْ يكون هناك غيب.

فنبّه تعالى عليه في قوله: ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ﴾ [محمد: 31].

وأيضًا ورد في الخبر حديث: «المؤمن فإنّه المصدق بالغيب أنْ يكون هناك غيب مرآة المؤمن»[2] رواه ابن أبي عاصم، والطبراني في الأوسط، والضياء المقدسي عن أنس ذكره في جمع الجوامع.

فالمؤمن الحق مرآة المؤمن الخلق فيرى فيها نفسه وذاته بحكم المرآة، وكذلك صفاته كالعلم في القديم قديم، وكذلك المؤمن الخلق فيرى فيها نفسه وذاته بحكم المرآة وكذلك صفاته كالعلم، فظهر من هنا حكم حتى نعلم، فافهم.

فإنَّ من أعجب العجاب في الوجود؛ أنْ يكون من أعطاك العلم بنفسه لا يعلم نفسه إلا بك؛ لأنَّ الممكنات أعطت العلم بأنفُسها الحق، ولا يعلم شيء منها نفسه إلا بالحق، فإنّه يعلم بك كما تعلم به فهو حسبك، لأنّه الغاية وأنت حسبه، لأنّه ما تم بعده إلا أنت ومنك عملك وما بقى إلا الحال، وهو عين العدم المحض، فافهم.

(ما هي كما يتوهمه) أنّه لو جعلنا حتى نعلم على ما به بصرافته، فيلزم الحدوث في العلم بحصول علمه بعد إنْ لم يكن، وذلك ذوق (من ليس له هذا المشرب) ولم يعلم صاحب هذا المشرب أنَّ العلم ولو كان إحدى الصفة ولكن من حيث هو هو.

فإنّه نِسْبة من النِسَبِ الاعتباري، فلا معدوم ولا موجود ولا قديم ولا حادث، وأمّا بحكم المتعلق فيحدث له أحكام، حتى يقول فيه أنّه في القديم قديم، وفي الحادث حادث، كالوجود.

فلهذا قيل: إنَّ التعلق حادث وحدوث التعلق ما جاءه إلا من حدوث المتعلِّق؛ لأنّه لو كان المتعلق قديمًا فتعلق العلم به قديمًا فلا يكون صفة القدم للعلم إلا بقدم المتعلق كالعلم بالذاتيات والأسماء الإلهية وصفة الحدوث لها بحدوث تعلقه وحدوثه

---

(1) أخرجه مسلم (522/1)، وأحمد (433/2).

(2) أخرجه أبو داود (280/4).

بحدوث المتعلِّق، كما أنَّ في القديم قدم التعلُّق لقدم المتعلِّق، فافهم.

قال المصنف ﷺ:

«وغايَةُ الْمُنَزِّه أنْ يَجْعَلَ ذَلِكَ الحُدُوثَ في الْعِلْم للتَّعَلُّقِ، وَهُوَ أعْلى وَجْهٍ يَكُونُ لِلْمتَكَلِّمِ بعقلِهِ في هذه المسألةِ، لَولا أنّه أثْبت العِلْمَ زائداً على الذّات فَجَعَل التَّعَلُّقَ لَهُ لا للذّاتِ، وبِهذا انْفَصَلَ عَنِ الْمُحَقِّقِ مِنْ أهلِ الله صاحب الكَشْفِ والوُجُودِ، ثُمَّ نَرجِعُ إلى الأعطيات فَنَقُولُ إنَّ الأعطيات إمّا ذاتِيَّةٌ أوْ أسمائيَّةٌ، فأمّا المِنَحُ والهباتُ والعَطايا الذّاتِيَّةُ فَلا تَكُون أبدًا إلاّ عَنْ تَجَلٍّ إلهي، والتَّجَلّي من الذّاتِ لا يكونُ أبدًا إلاّ بصورةِ استعدادِ المتجلَّى لَهُ، غَيْرُ ذلِكَ لا يكُونُ، فإذًا المُتجلَّى لَهُ ما رأى سوى صُورتِهِ في مرآةِ الحقِّ، وما رَأى الحَقَّ ولا يُمْكِنُ أن يَراهُ مَعَ عِلْمِهِ أنَّهُ ما رَأى صُورتَهُ إلاّ فيه كالمرآةِ في الشّاهدِ إذا رأيتَ الصُّورَ فِيها لا تراها مَعَ عِلْمِكَ أنّكَ ما رَأيْتَ الصُّورَ أو صُورتَكَ إلاّ فيها، فأبرَزَ اللهُ ذلِك مِثالاً نَصَبَهُ لِتَجلّيهِ الذّاتِي لِيَعْلَمَ المُتَجَلَّى لَهُ أنّهُ ما رآه، وما ثَمَّةَ مِثالٌ أقْرَبُ ولا أشبَهُ بالرُّؤيَةِ والتَّجَلّي مِنْ هذا، واجهَدْ في نَفْسِكَ عِنْدَما تَرَى الصُّورَةَ في المرآةِ أنْ تَرى جِرْمَ المِرآةِ لا تراهُ أبدًا البَتَّةَ حتّى أنّ بَعْضَ مَنْ أدْرَكَ مِثْلَ هذا في صُوَرِ المرايا ذَهَبَ إلى أنَّ الصُّورَةَ المَرْئِيَّةَ بَيْنَ بَصَرِ الرّائي وبَيْنَ المِرآةِ، وهذا أعْظَمُ ما قَدَرَ عَلَيْهِ مِنَ الْعِلْمِ، والأمرُ كَما قُلْناه وَذَهَبْنا إلَيْه، وقَدْ بَيَّنّا هذا في (الفُتوحاتِ المكيَّةِ)».

قال الشارح ﷺ:

(وغاية المنزِّه) الذي ينزه الحق بنظره وفكره، رأى في هذه المسألة أنْ يجعل ذلك الحدوث في العلم: أي الحدوث المفهوم.

(من اللفظ المتعلِّق): أي جعل الحدوث للتعلق لا للعلم من قولهم: إنَّ العلم قديم والتعلق حادث، وهو أعلى وجه يكون للمتكلم بعقله في هذه المسألة، ومع هذا ليس بمرضي لأرباب العقول السليمة سيما أهل الحقائق - قُدِّس سرُّهم - لأنَّ الأمر على خلاف ذلك قال جلال الملة والدين الدواني - رحمه الله - في «شرح العقائد العضوية» في قوله: وهو عالم بجميع المعلومات، إنَّ القول بأنَّ العلم قديم والتعلق حادث لا يسمن ولا يغني من جوع؛ إذ العلم ما لم يتعلق بالمعلوم لا يصير عالمًا ولا ذلك المعلوم معلومًا، فهو يقضي إلى نفي كونه عالمًا بالحوادث في الأزل تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا، انتهى كلامه.

قالوا: لو تعلق العلم بما منْ شأنه أنْ سيكون كائنًا أو قد كان فَقدَ علم الشيء

على خلاف ما هو به وعليه، وكذلك لو علم ماهر كائن أنَّ قد كان أو سيكون لكان هذا جهلاً كله والله تعالى مُنزَّه عن ذلك، فادخلوا على الله الزمان، منْ حيث لا يشعُرون، وإنما التقدم والتأخر في الأشياء لا في العلم، وعلموا أنَّ الله يشهد الأشياء ويعلمها على ما هي عليه في أنفسها، والأزمنة التي لها من جملة معلوماتها مستلزمة لها وأحوالها وأمكنتها، إنْ كانت لها ومحالها إنْ كانت مما يطلب المحال وإخبارها، كل ذلك مشهود وللحق في غير زمان لا يتصف بالقدم والتأخر ولا بالآن، فافهم.

فإنَّ هذا من شوم التفكر وفضول العقل الذي منعوه عنه وما امتنع، فإنَّه حريص على ما مُنع وتحقيق ذلك أنَّ الأشياء ليست إلا صورًا تعقبت صورًا، والعلم بها يسترسل عليها بقوله حتى يعلم مع علْمه بها قبل تفصيلها إجمالاً, فلو علِمَها مُفصَّلاً في حال إجمالها، ما علِمَها مجملة، فالعلم لا يكون علما بل يكون جهلا، حتى يكون تعلقه بما هو المعلوم هو الذي يُعطي العلم بذاته، والمعلوم هنا غير مُفصَّل إلا أنَّه تعالى يعلَّم التفضيل في الإجمال، ومثل هذا لا يدل على أنْ المجمل مفصَّل، بل إنما يدل على أنَّه مجمل يقبل التفصيل، إذا فصل بالفعل.

قال الشيخ الأكبر ﷺ في الباب الثالث والثمانين وأربعمائة من «الفتوحات»:

إنَّ هذا الذي ذكرناه هو معنى حتى نعلم فخلاصة، الكلام كما قلنا آنفًا أنَّ العلم في القديم قديم وفي الحادث حادث، كالوجود وهما الله تعالى وليس موجودًا سواه، فافهم.

كما ورد في قوله: ﴿لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: 40] لولا أنَّه، أي: المتكلم بذلك، أي: قدم العلم وحدوث التعلق.

(أثبت العلم زائدًا على الذات فجعل التعلُّق له لا بالذات): أي لولا كذلك ما أمكنه ذلك لأنَّ الذات من حيث هي هي في حجاب العزة وحمى الكبرياء، لا تعلُّق لها ولا نسبة لها مع العالم أصلاً، وهي في غناء ذاتي، فأثبت المتكلم بذلك العلم الزائد وعلقه بالمعلومات.

قال ﷺ: مَنْ قال بزيادة الصفة على الذات قال ما قاله اليهود بحسن العبارة، وهو قولهم بأفواههم ﴿إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: 181] ﴿وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: 15] فافهم.

ذكر الشيخ ﷺ في الباب التاسع والتسعين ومائة من «الفتوحات»: إنَّ هذا سر

الحقيقة، وهو أنْ يعلم أنَّ العِلْم ليس بأمر زائد على العالِم، وأنه يعلم الأشياء بذاته، لا بما هو زائد على ذاته أو مغاير لذاته، فسرُّ الحقيقة يُعطي أنَّ العين واحدة والحكم مختلف، كما في الوجود فافهم.

(**وبهذا انفصل**): أي بإثبات العِلم زائد على الذات، أو يجعل الحدوث في العِلم للتعلق انفصل صاحب النظر والفكر بالجهل والتخمين عن المحقق بالتحقيق واليقين، قال تعالى: ﴿**وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ**﴾ [غافر: 78] حيث فاز المحقِّق بالحق.

(**مِنْ أصل الله صاحب الكشف والوجود**) والمتحقق بالعين والشهود المحقق، ورد في الخبر الصحيح: «**إنَّ الشاهد يرى ما لا يرى الغائب**»[1] رواه ابن سعد عن علي ﷺ، ذكره السيوطي في «جمع الجوامع».

لا يُقال: إنَّ القائل زيادة الصفة غير الأشعَري، ولا نعبأ بهم وبكلامهم؛ لأننا نقول إما قد قيل، وأيضًا مَن قال: إنَّها لا عينه، يلزم عليه أنْ يكون غيره وإنْ لم يُصرِّح بذلك، بل بقوله: لا غيره ولا عينه يلزم عليه إما جمع النقيضين، أو رفعهما، وأمَّا الاحتمال الثالث الذي أُريد منه لا يشفي عليلاً ولا يشفي غليلاً، قال ﷺ في «**الفتوحات**»: إنه كلام لا روح له، فافهم.

فلما قسَّم ﷺ الأعطيات من حيث الذات ذاتية وأسمائية، ثم أدخل تقاسيم العطايا من حيث السائلين استطرادًا، فأراد الرجوع إلى أصل التقسيم للعطايا من حيث ذواتها وأنفسها.

فقال: (**ثم نرجع إلى الأعطيات**) بفتح الهمزة وتخفيف الياء جمع الأَعطية جمع عطاء، فيكون جمع الجمع كأغطية وغطاء، أو بضم الهمزة وتشديد الياء المثناة التحتانية جمع أُعطيَّة كأُمنيَّة.

(**فنقول أنَّ الأُعطيات إما ذاتية أو أسمائية، فأما المنح والهبات والعطايا الذاتية فلا تكون إلا عن تجل إلهي**): أي لا يكون إلا عن تعريف ولا عن نظر وفكر، فإذا كانت منحصِرة في التَّجلي فقط، والتَّجلي من الذات لا يكون أبدًا إلا بصورة استعداد المُتَجلَّى له؛ لأنَّ تجلِّيه تابع مشيئته، ومشيئته تابع عمله، وعمله تابع استعداد المعلوم المتجلي له، وذلك لأرباب المقامات والمقيدين بها، فأمَّا الوارث المحمدي الذي أتاه

---

(1) أخرجه أحمد (83/1).

الله جوامع الكلم، وعلِمَ الأسماء كلها، وعلم علم الأولين والآخرين، فكل الصيد في جوف الفراء فقد خلص من حكم المقامات عليه، فهو يحكم بها بحسَب ما تُعطِيه الأحوال، فإنَّه العليم الحكيم، وهذا مقام من لا مقام له وهو قابل التَّجلِّي الذاتي لا يتبع الاستعداد أو يتبعه، فافهم.

ذكر ﷺ هذه المسألة في الباب العشرين وأربعمائة من «الفتوحات»: إذا فهمت هذا، فاعلم أنَّ كل تجلٍ يكون معه أليفًا والعقل، فذلك التَّجلِّي صوري في رتبة الخيال مثالي؛ وهو المقام العام الساري في العموم، وذلك إذا كان التَّجلِّي من غير مقام المُتَجلِّي له؛ فإنَّه لا يصح فيه الثبوت والبقاء، أشار إلى هذا الفناء أبو العباس - قُدِّس سرُّه - حيث قال: ما التَذَّ عاقل بمشاهدة قط لأنَّها فناء، وأمَّا من قال بجمع الكلام والشهود كأنَّه أشار إلى الأول الذي نحن بصدد بيانه الآن كما نُقل عن الشيخ شهاب الدين السهروردي فإنَّه قال بجمعهما غير ذلك لا يكون؛ لأنَّ الحكمة أعطت الحكيم ذلك.

قال الله تعالى لموسى ﷺ: ﴿لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف: 143] أي: أبدًا؛ لأنَّ الرائي ما يرى منه إلا قدر منزلَته ورتبته فما رآه بل ما رأى إلا نفسه، ولولا كذلك ما وقع التفاضل في الرؤية أصلاً، وقد وقع التفاضل فيها كالرؤية المحمدية وهي أكمل رؤية يرى فيها الحق وبها، فيرفعه بها منزلاً لا يناله إلا المحمديون، وهو منزلة الهوية.

(**فإذن المتجلَّى له ما رأى سوى صورته في مرآة الحق**) وهو مجلي رؤيته نفسه، وما رأى الحق اشتغل الرامي برؤية نفسه عن رؤية المجلي الذي هو المجلي الحق، فلو لم تبدُ للرأي صورته أو صورة كون ربما كان يراه فما حجبنا عنه إلا نفوسنا فيه فلو زلنا عنه أيضًا ما رأيناه؛ لأنَّه ما كان يبقى ثمة بزوالنا من يراه، فنحن لم نزل ما نراه بل نرى فيه نفوسنا، ولا يمكن أنْ يراه؛ لأننا مقيدون بعدة قيود والله تعالى مطلق لا يتقيد، فلا مناسبة بل لا يرى المطلق إلا المطلق ولكن المطلق قد يتقيد بحسب الاعتقاد، فلا يكون مطلقًا فما رأيته مطلقًا؛ بل رأيت نفسك، فإذا رأيت نفسك عرفت من أنت فتعلم عند ذلك هل أنت هو أو لست هو؟

فإنَّه هنا يحصل لك العلم الصحيح، فإنَّ الدليل قد يكون خلاف المدلول وقد يكون عين المدلول، فلا شيء أول على الشيء من نفسه «من عرف نفسه فقد عرف

ربه»[1]، ثم تبعد الدلالة بقدر المناسبة وأقرب الشيء إلى الشيء نفسه، قال تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: 117].

لأنَّها لك ولا أعلم ما فيها مما أخفيت من قرة أعين؛ لأنَّه غيب عنه ﷺ وذلك من بعد المناسبة بين العبد وبين ربه مع علمه.

(بأنَّها رأى صورته إلا فيه) والذي رأى فيه صورته لا غير؛ وذلك لأنَّه رأى الوجود كالمرآة لم يكد يراه ورأى عينه فيه محصورة بحكم، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ [الصافات: 164]، فالحصر عمَّ الوجود ومحصور يحصرٍ ما مع أنَّه يعلم أنَّه عينه من حيث كونه عدمًا له إطلاق صرف، ولكن يحكم الاتصاف بالوجود والظهور فيه، أعطي للعين الحصر وانحصرت فيه؛ لأنَّ الحصر من لوازم أحكام الوجود، فيعلم أن التي رآها ليست صورته، فيحكم الأمر أنَّ المتناقضان المتضادان في آنٍ واحدٍ.

(كالمرآة في الشاهد) أراد ﷺ لتوضيح الأمر أنْ يقيس الغائب على الشاهد، وضرب مثل (إذا رأيت الصور فيها لا تراها): أي لا ترى نفس المرآة وجرمها وعينها: أي حين نظرك صورته لم تر صورة المرآة، كما قيل لا يصدر من الواحد إلا الواحد، أما ترى جرم المرآة ما ترى نفسك وصورتك فيها مع علمك أنك مهما رأيت الصور أو صورتك إلا فيها مثله كمثل الضوء أنَّه يرى به كل شيء، وهو لا يرى بل ولا يمكننا أن نشير إليه، فهو تعالى غائب حاضر منظور ناظر، باطن ظاهر، إنَّ هذا لشيءٌ عجاب ولله المثل الأعلى، وهو العزيز الذي لا يُرى من حيث هويته الحكيم، حتى يُقال: إنَّه يُرى من حيث ذاته.

(فأبرز الله ذلك): أي حكم المرآة مثالاً نصبه لتجلِّي الذات، أي: أنَّ الله تعالى قد ضرب الأمثال، فقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ﴾ [الرعد: 17] فالعَالم كله بما فيه ضَرب مثلا واحد؛ ليعلم أنَّه هو يجعله دليلاً عليه وأمرنا بالنظر فيه، فما ضَرب الله في العالم المثل صورة المرآة.

(ليعْلَم المتجلى له أنه ما رآه): أي الذي أراد أنَّه لا هو لا غيره، وما ثم مثال محسوس أقرب من حيث الأخذ والفهم؛ أنَّه قريب المآخذ والفهم ولا أشبه بالرؤية

(1) سبق تخريجه.

والمتجلي المعقولين من هذا المثل المحسوس فإنَّك إذا رأيت الصورة الظاهرة في الجسم الصقيل وحققت رؤيتك، فتجد تلك الصورة حالت بينك وبين إدراكك عين الجسم الصقيل؛ الذي هو مجلاها فلا تراه أبدًا، والحق جلِّي صور الممكنات فلم يرَ العالِم إلا العالَم في الحق، فافهم.

(**واجهد في نفسك عندما ترى الصورة في المرآة أن ترى جرم المرآة لا تراه أبدًا البتة**) قد ذكرنا بيانه آنفًا في المتن السابق.

(**حتى أنْ بعض مَن أدرك مثل هذا في الصور المرائي ذهب إلى أن الصورة المرئية**)؛ هي التي حالت بين الرائي والمرآة عند المقابلة هذا أعظم ما قدر عليه من العلم في الخبرة، والأمر كما قلناه وقررناه وذهبنا إليه؛ وهو أنَّ الإنسان يُدرك صورة في المرآة ويعلم قطعًا أنَّه أدرك صورته بوجه، ويعلم قطعًا بلا مرآته ما أدركها بوجه؛ لأنَّه يرى من الدقة والرقة، إذا كان جرم المرآة صغير، أو يعلم أنَّ صورته أكبر من التي رآه بما لا يتقارب.

وإذا كان جرم المرآة كبيرًا فيرى صورته في غاية الكِبَر، ويقطع إنَّ صورته أصغر مِنْ ذلك ولا يقدر أنْ ينكر أنَّه ما رأى صورته، ويعلم أنَّه ليس في المرآة صورته، ولا هي بينه وبين المرآة، ولا هي انعكاس شعاع البصر إلى الصورة المرئية فيها من خارج سواء كان صورته أو غيرها، إذ لو كانت كذلك لأدرك الصورة على قدرها وما هي عليه، فليس بصادق ولا كاذب في قوله: إنَّه رأى صورته، فما تلك الصورة المرئية؟ وأين محلها؟ وما شأنها؟ فهي منفية ثابتة، معدومة موجودة، معلومة مجهولة.

أظهر الله سبحانه هذه الحقيقة الجزائية لعبده، ضَرب مثال ليعلم أنَّه عجز وحار في محسوس مرئي مخلوق؛ فهو بالخالق أعجز وأكثر حيرة، وهذا من البيان الذي قال ﷺ، وقد بينا هذا في «**الفتوحات المكيَّة**»، ذكره في الباب الثالث والستين منها.

وذكر في الباب السابع والعشرين وثلاثمائة من «**الفتوحات**»: إنَّ صورة الناظر في المرآة ما هي عينه، ولا هي غيره؛ ولكن حقيقة الجسم الصقيل مع النظر من الناظر أعطى هذه الصورة؛ ولهذا يختلف باختلاف المرآة لا بالناظر، فالحكم في الصورة الكبرى لصورة المجلِي لا للمتجلِّي.

كذلك الصورة الإنسانية في حضرة الإمكان لما قبلت الصورة الإلهية لم تظهر على حكم المتجلِّي من جميع الوجوه فحكم عليها حضرة المجلِي، وهو الإمكان

بخلاف حضرة الواجب الوجود لنفسه، فظهر المقدار والشكل الذي لا يقبله الواجب الوجود عند العقل؛ وهو الناظر في هذه المرآة فهو من حيث حقائقه كلها هو هو، ومن حيث مقداره وشكله ما هو هو؛ وإنما هو من أثر حضرة الإمكان فيه، الذي هو في المرآة ينبوع شكلها في نفسها ومقدارها في الكبر والصغر، ولمَّا كان الظاهر بالصورة لا يكون إلا في حال نظر الناظر الذي هو المتجلِّي، لذلك نسبت الصورة إلى محل الظهور وإلى النظر، فكانت الصورة الظاهرة برزخية بين المحل والناظر ولكل واحد منهما أثر فيهما، يخرج منهما اللؤلؤ، وهو ما كبر من الجوهر والمرجان، وهو ما ظهر منه، وهو أثر الحضرة المرآتية الإمكانية لا أثر الناظر فلمَّا أثَّر المجلِّي المتجلَّى فيه في الصورة الكامنة من الشكل والمقدار الذي لا يقبله المتجلي الناظر من حيث ما هو عليه في ذاته، وإنْ ظهر به حُكم فذلك حُكم عين الممكن في عين وجوده، فافهم.

قال المصنف ﷺ:

«وإذا ذُقْتَ هذا ذُقْتَ الغايَةَ الّتي ليسَ فَوْقَها غايَةٌ في حَقّ المَخْلُوق، فلا تَطْمَعْ ولا تُتْعِبْ نَفْسَكَ في أن تَرَقى في أعْلى مِنْ هذا الدّرجِ فَما هُوَ ثَمَّ أصلاً، وما بَعْدَه إلاّ العَدمُ المحْض، فَهُوَ مِرآتَكَ فِي رؤيتكَ نَفْسَكَ، وأنْتَ مِرآتُهُ في رُؤيَتِهِ أسماءَهُ وَظُهُورَ أحكامِها، ولَيْسَتْ سوى عينه، فاختَلَطَ الأمرُ وَانْبَهَمَ فَمِنّا مَنْ جَهِلَ فِي علْمه، بَل أعطاهُ العِلْمُ السّكُوتَ كَما أعطاهُ العَجْزَ، وهذا هُوَ أعْلى عالِمِ باللهِ، ولَيْس هذا العِلْم إلاّ لِخاتَمِ الرُّسُلِ وخاتَم الأوْلياءِ، وَلا يَراهُ أحَدٌ مِنَ الأنبياء والرُّسُلِ إلاّ مِنْ مشكاةِ الرَّسُول الخَاتَم، ولا يَراهُ أحَدٌ مِن الأولياء إلاّ مِنْ مشكاةِ الوليّ الخاتَم، حَتى أنَّ الرُّسُل لا يَرونَهُ مَتى رَأوه إلاّ مِن مِشكاةِ خاتَمِ الأولياء، فَإنَّ الرّسالةَ والنبوّة أعني نُبُوَّةَ التشريع ورِسالَتَهُ تَنْقَطِعانِ، والولايَةُ لا تَنْقَطع أبدًا، فَالمُرْسَلُون مِنْ كَونِهِم أولياء لا يَروْنَ ما ذَكَرْناهُ إلاّ مِنْ مِشكاةِ خاتَمِ الأولياءِ، فَكيف مَنْ دُونِهم مِن الأولياء؟.

وإنْ كانَ خاتمُ الأولياء تابعًا في الحُكْمِ لِما جَاءَ به خاتَمُ الرُّسُلِ مِنَ التَّشرِيعِ، فَذلكَ لا يَقْدَحُ في مَقَامِهِ ولا يُناقِضُ ما ذَهَبْنا إلَيْهِ، فإنّه من وَجه يَكُونُ أنْزل كَما أنّهُ مِنْ وَجْهِ يَكُونُ أعلى، وقَدْ ظَهَر في ظاهِرِ شَرعِنا ما يُؤيِّدُ ما ذَهَبْنا إليه في فضل عُمَرَ في أسارَى بَدرِ بِالحُكْم فِيهم، وفي تأبِيرِ النّخلِ، فَما يَلْزَمُ الكامِلَ أنْ يَكُونَ لَهُ التَّقَدُّمُ فِي كُلّ شَيءٍ وَفِي كُلّ مَرتَبَةٍ، وإنّما نَظَرُ الرّجالِ إلى التَّقَدُّم فِي رُتَبِ العِلمِ بالله هُنالِكَ مَطْلَبُهُمْ، وأمّا حَوادِثُ الأكوانِ فَلا تَعَلُّقَ لِخواطرِهِم بها، فَتَحقَّقْ ما ذكَرْناهُ، ولَمّا مَثَّل النّبيُّ ﷺ

النُّبُوَّةَ بالحائطِ مِنَ اللَّبنِ، وقَدْ كَمُلَ سوى مَوضِعِ لبنةٍ واحِدَةٍ، فكان ﷺ تلكَ اللَّبِنَةَ غير أنَّهُ ﷺ لا يراها إلاّ كَما قالَ: لَبِنَةً واحِدَةً، وأمَّا خاتَمُ الأولياءِ فَلا بُدّ لَهُ من هذِه الرُّؤيا فَيَرى ما مثَّلَهُ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ ويَرَى في الحائط مَوضع لَبِنَتَيْنِ واللَّبِنتان مِنْ ذَهَبٍ وَفِضّةٍ فَيَرى اللبنَتَيْنِ يَنقُصُ الحائطُ عَنهما ويَكمُلُ بِهِما، لَبِنةٌ ذهبٍ ولبنة فضّةٍ فلا بُدّ أن يَرَى نَفْسَهُ تَنطَبعُ في مَوْضِعِ تَينكَ اللَّبنتين، فَيَكُونَ خاتَمُ الأولياء تَينكَ اللَّبِنَتَيْنِ فَيَكْمُلُ الحائِطُ».

قال الشارح ﷺ:

(فإذا ذُقت هذا): أي أدركت بطريق الذوق والوجود: أي لا بمجرد العلم والعرفان: أي مقام التجلي الذاتي على صورتك: أي رؤية نفسك في الحق كأنّك أنت ولا أنت، كأنّه هو ولا هو.

(ذقت الغاية التي ليس فوقها غيره في حق المخلوق) وهي الحيرة الكبرى، كما قال الصديق الأكبر ﷺ: العجز عن درك الإدراك، إدراك؛ وبيان ذلك أنَّ الحضرة التي وقعت الرؤية فيها برزخية خيالية وسلطانها من الألفاظ، كأنّه أشار إلى هذا المعنى الحديث الشريف الذي يقول: «أن تعبد الله كأنك تراه»[1] يعني: كأنّك بكاف التشبيه هذه أتم من أنْ تراه بالنسبة إلى العابد؛ لأنَّ الرؤية تغطي الحجاب والاثنينيّة، ولا بُدّ بخلاف كان، فإنَّ فيها رائحة الكشف وبيان الواقع؛ لأنّه أمرٌ برزخي بين فاصل بين معلوم ومجهول، معدوم وموجود.

وليس ذلك إلا الخيال فإنّك أدركت شيئًا وجوديًا بأنْ وقع بصرُك عليه وتعلم قطعًا بالدليل؛ أنّه ما ثم شيء رأسًا؛ لأنَّ كل شيء هالك في ذاته وفي نفسه ورأيت شيئًا قد علمته أنّه لا شيء، فأثبتت وجودًا نفيه في حال إثباتك إياه في الخيال كما قررناه في المثل المضروب في المرآة، فتقع في الرائي حيرة حتى نقول هل بهذا المرئي ماهية أولا ماهية له؛ بل يرى العين كالسمياني، فإنّه يرى رأي العين ما لا وجود له، مع أنّه لا يُلحقه بالعدم المحض، وقد أدرك البصر شيئًا ما ولا بالوجود المحض، وقد علم باليقين أنّه ما ثم شيء ولا بالإمكان المحض؛ لأنه حكمه غير محكم، لا مكان الناظر إلى الحرباء في اختلاف الألوان عليها.

(1) سبق تخريجه.

فذلك بعين الخيال بلا شك ما ما هو عين الحس، فأدركت الخيال كما في الحديث الشريف: «الناس نيام، فإذا ماتوا انتبهوا»[1] أخرجه ابن عساكر عن ﷺ ذكره السيوطي في «شرح الصدور».

قال الشيخ ﷺ: وقليل من يتفطن إلى هذا الإدراك، يعني: الخيال كما رئي جبريل بصورة (دحية الكلبي) وهم ما رأوه بعين الحس ولكن شبه عليهم، وعلم من علم وجهل، وإنما قال ﷺ في حق المخلوق ليخرج من يدرك الأشياء بالحق إمَّا مِن قرب النوافل أو مِن قرب الفرائض أو منهما؛ وهو مقام أو أدنى.

وأما مَن يدرك الأشياء بحسب استعداده يقول بالغاية؛ لأنَّه كشفه ورؤيته على قدر استعداده ولا يقول بالغاية إلا مَن يكون كشفه في اللوح المحفوظ، المعتكف على النظر فيه أو مَنْ كان كشفه في نظرته ما هو الوجود عليه، ثم يسدل الحجاب دونه ويرى التناهي، إذ كل ما دخل في الوجود متناه، فمَنْ رأى الغاية قال بالرأي، وعلَّق همته بالغاية، وهؤلاء أرباب الاستعداد الجزئية أو الكلية في الجملة، ولم يمكن لهم أنْ يقبلوا مِن الحق إلا ما يعطيه استعدادهم فحصل الاكتفاء بما قبله استعداد القابل، وضاق المحل عن الزيادة من ذلك.

وأما بالنسبة إلى المطلق التام، أين الغاية والأمور كلها بدايات لا نهاية لها، وصاحب هذا التجلي كشارب ماء البحر، يقول: هل من مزيد؟.

قال أبو يزيد - قُدِّس سرُّه - في هذا المشرب:

شَـرِبْتُ الحُـبَّ كَأسًـا بَعْـدَ كَـأسٍ   فَمَـا نفـد الـشَّرَابُ ولا رَوَيْـتَ

فإنْ قِيل وُرد في الخبر عن الكوثر: «إنَّه من شربه لا يظمأ أبدًا»[2] فقال: بالرائي، قلنا ذلك بالنسبة إلى نتائج الأعمال وقد وقفت إلى السدرة المنتهى، فرأى الرائي من هذا الوجه أما ترى صاحب أوسع الكشوفات أمر بأن يقول: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه: 114] فإن كل علم يعطي استعداد وعلم آخر وهلم جرًا، فإذا أردت أنْ تُميز بين المراتب، فاعلم أن الرؤية قد يكون الحق فيها بمنزلة المرآة للعبد وهو ناظر فيها، فلينظر ما يرى فيها من الصور، فإنْ رأى فيها صورة باطنة مشكلة بشكل جسدي مع

(1) سبق تخريجه.

(2) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (27/9).

تعقله أنَّ ثمة أمرًا ما هو عينه فتلك صورة حق وأنَّ العبد في ذلك الوقت قد تحقق، بأنَّ الحق قواه ليس هو، وإنْ كان الحق هو المتجلي فيها الناظر إليها، فلينظر العبد من كونه مرآة ما تجّلى فيه.

فإنْ تجلّى فيه ما يقيده بشكله، فالحكم للمرآة لا للحق، فإنَّ الرائي قد يتقيّد بحقيقة شكل المرآة من طول وعرض واستدارة وانحناء وكبر وصغر، فترد الرائي إليها ولها الحكم فيه، فيعلم أنّه الحق الذي هو بكل شيء محيط، فافهم، ذلك ذكره ﷺ في بيان اسم السلام من حضرة السلامة.

(ولا تطمع) من حيث تقيّدك بالصفات البشرية وتلبسك بالكمالات الجزئية، أكثر مما ذكرناه، فافهم.

(ولا تتعب نفسك في إن كثر في أعلى من هذا الدرج) لأنّه فوق استعدادك المقيد المقيد، فما هو ثمة أصلاً، أي: ليس الحق هناك بل إنه معك حيث أنت، وأنت ما تتعدى استعدادك لا معه؛ لأنَّ الحق في نفس الأمر مع كل معتقد، بل هو صورة كل معتقد واستعداد لا يتعدى عنه فأدرج نفسك ولا تتعب إنَّك معه كما هو معك، وإنْ لم يشعر بذلك، كما قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 76]، وكما ورد في الخبر: «كلٌّ ميسّر لما خلق له»[1] خذ ما أتاك وكن من الشاكرين لعل بالشكر تزيد النعم، فافهم.

(وما بعده): أي بعد الترقي بهذا الدرج المذكورة إلا (العدم المحض): أي الخالص المطلق بلا شوب الوجود لا حق ولا خلق البتة، إنما أضاف ﷺ العدم بالمحض حتى لا يطن الظان الطالب أنه العدم الإضافي، فإن فيه مجال الطالب بخلاف العدم الصرف، وهو العدم المطلق ظلمة لا نور فيه، فلا تتعب الطالب المريد في الطلب فيها، فافهم فإذا علمت بل فهمت أن التجلي على قدر المتجلي، فهو مرآتك في رؤيتك نفسك، وأنت مرآته في رؤية أسمائه وظهور أحكامها فيك وعلى قدرك لا تزيد ولا تنقص، وليست سوى عينه مع أن الأمر ليس بخارج منك، بل أنت عينه لا غيره، فهو الرائي وهو المراد، وهو الصورة لا غير فيها.

(فاختلط الأمر: أي أمر الوجود وأبهم فإنه لأحب لوائح القدم في صفائح العدم، فظهرت أشياء في مجالي الحق صورًا في الوجود، فتداخلت الصفات والأسماء

---

(1) سبق تخريجه.

الإلهية والكونية، فأنبهم الأمر والتفت الساق بالساق وصارت الحيرة الكبرى المساق، وبيان ذلك أنه لما صحَّ على الحادث من حيث هو حادث أنه فقير متأخر، وأنه مرآة القديم الواجب في رؤية أسمائه، وعلى القديم أنه مرآة الحادث في رؤية نفسه، أي: في بروزه له وليس أحدهما غير الآخر من حيث الوجود، فاختلط الأمر وأنبهم على أهل الأفكار والعقول المعقولة، فقصروا عن هذا الإدراك، وهم لا يشعرون أن قصورهم من نسبة تجلي الذات لها باسم من أسمائها التي ظهر الكون بهم، وهو الاسم المانع فبطن هذا العلم عنهم فكان لهم غيبًا؛ فلهذا قال ﷺ: قمنا أي من الكمل من جهل في علمه، أي: علمه بأنه عينه، فقال: والعجز عن درك الإدراك بإدراك الحق الحيرة بالإدراك والعلم؛ لأنه علم أنه لم يعلم، فلمَّا علم من علوم مقام الحيرة لأهل التجلي، فأعطاه مقام العلم.

ورد في الخبر الصحيح: «رب زدني فيك تحيرًا»[1]، ولولا التحير علم لما سأل ﷺ الزيادة فيه؛ لأنه أمر يقل: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه: 114] هذا إذا كان الإدراك بمجرد الاستدلال أو بالتعريف الإلهي، وأما إذا كان يتجلى إلهي إمَّا من قرب النوافل أو قرب الفرائض فلم يعجز عن الإدراك.

قال ﷺ في الباب الخامس والثلاثين وثلاثمائة: فالقول بالعجز، وإن كان هذا القدر هو المسمى بمعرفة الله، ولكن لوجودي بقوله صاحب هذا القول، فإنه لا يرى الله أبدًا، كما لا يعلمه أصلاً إلا أنه يبدي له من الله ما لم يكن يحتسب ويعلم ما لم يعلم، ويرى ما لا يراه كما ورد في الأثر: «إنه يرى ما لا رأت عين»[2] فإنَّه يرى ويعلم أنَّه هو فإن الصحيح: إنَّه تعالى يعلم ويرى ولو بعد حين، ويتصف العبد بالعجز عن العلم به إلا مَنْ أخذ العلم بالدليل لا به.

فلهذا قال ﷺ: (ومنا من علم وذلك) من مقام المشاهدة التي هي الصمت والخرس والسكوت، (فلم يقل مثل هذا): أي بالعجز.

ورد في الأثر الصحيح أنه قال ﷺ: «إن الله ليلوم على العجز... »[3] رواه عوف بن مالك ﷺ، ذكره في «جمع الجوامع»، وفي حديث: «أحزان الله ليلوم على

(1) أورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (201/7) بنحوه.

(2) سبق تخريجه.

(3) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (95/8).

العجز قاتل من نفسك الجهد... »[1]، رواه أبو إمامة ذكره في «جمع الجوامع» لأنَّ القول بالعجز دعوى القوة والمقابلة من حيث لم يشعر، بل هذا مقام ليس له لسان؛ لأنه من مقام توحيده إياه توحيده.

وكما قيل: إنَّ التوحيد بحر والكلام ساحله، وتوحيده الحقيقي توحيده لنفسه بنفسه من غير أثر لسواه إذ لا سوى هناك، فافهم.

(**وهو على القول**): أي القول والذهاب إلى ترك القول أعلى القول؛ لأن المقام ما يعطي القول والكلام، فإنه خروج عن المتصد؛ بل أعطاه العلم بأنه عينه السكوت وهو العجز عن القول لا العجز عن الإدراك، فافهم حتى تفرق بين العجزين عجز هو عين القوة، وعجز استفيد منه، كما ورد في الخبر: «**أعوذ بك من العجز والكسل... »**[2]

وإنما قال ﷺ: السكوت ولم يقل: الصمت، والخرس للمغلوب بخلاف السكوت فإنَّه لصاح قادر على الكلام، وسكوته لحكمه أرادها، وكما أعطاه العجز، أي: العجز عن درك الإدراك، فافهم.

فإني ترجمان لسان الحقائق لا يقيدها بالعلل والأعراض؛ ولأنَّه نسبها بالأغراض ولا يتقيَّد بالإنكار والأعراض.

(**وهذا أعلى عالم بالله**) لأنه علم الحق بعلمه بنفسه، فعلم ما في نفسه سبحانه كما علم ما في نفسه، ولم يصرح بالعجز؛ لأنَّه ما حاول أمر العجز عن حمله وإدراكه، وكيف لا! وقد قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56].

قال العارف بالله: أي ليعرفون كلامه إمَّا للغاية وإمَّا للحكمة، فلو كانت المعرفة محالة فلم تقع غاية الخلق مع أنه ورد في الحديث: «**من عرف نفسه فقد عرف ربه**»[3] وأعرفكم بالنفس أعرفكم بالله، وأمثال هذا كثيرة في القرآن والأحاديث، كما ورد في الحديث عنه ﷺ: «**انتقال أن هذا الأمر إلى الله فمن يسّره للهدى تيسر ومن يسّره للضلالة كان فيها**»[4] رواه الواقدي وابن عساكر عن سعد بن عمر والهذلي مرسلاً، ذكره السيوطي في «جمع الجوامع».

---

(1) سبق تخريجه.

(2) أخرجه البخاري (1039/3)، ومسلم (2088/4).

(3) سبق تخريجه.

(4) أورده القرطبي في «التفسير» (188/7).

والضلالة هي: الحيرة كما ورد في القرآن: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: 95] أي حيرتك القديمة، فافهم.

(وليس هذا العلم): أي العلم الذي أعطي العالم به السكوت إلا لخاتم الرسل بالأصالة وخاتم الأولياء بالجمعية، وهو المعتني الفرد الذي انفرد بهذا العلم من أقرانه وإخوانه من المحمدين.

(وما يراه): أي العلم الذي يعطي السكوت، وهو العلم بأنَّه عينه أحد من الأنبياء والرسل من حيث إنَّهم أنبياء ورسل إلا من مشكاة الرسول الختم، ولا يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الولي الخاتم هذه أسوة حسنة للخاتم في الخاتم، وذلك من مقام باطن النبوة المحمدية وهي الشعرة التي في خاتم الولاية من خاتم الرسل ﷺ، بل في ذلك يقع الميراث، قال ﷺ في «الفتوحات»: إنَّ الله تعالى رزقنا الاتباع الإلهي النبوي، فأمَّا الاتباع الإلهي سكوتنا عن التعريف؛ إذ هو إذا تجلَّى في صورة تنكر فيها مع معرفتنا به، فهو المقدم بالتجلِّي وحكم الإنكار نحن نتبعه بالسكوت، وإن لم ننكره ولا نقر به، فهذا هو الاتباع الإلهي، وأمَّا الاتباع النبوي الذي رزقنا الله فهو قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: 21]، ثم أنَّه اتبعنا وما آتانا أخذنا وما نهانا عنه انتهينا، وما سكت عنه سكتنا حتى تبعنا وتأسى بنا ﷺ كما في صلاته إذا صلى بالجماعة فيكون فيها الضعيف والمريض وذو حاجة فيصلي بصلاتهم؛ فهو المتبع المتبع انتهى كلامه ﷺ.

(حتى أن الرسل) الذين هم الأفضلون على الإطلاق إلا من مشكاة خاتم الأولياء؛ لأنَّه خارج الولايات المحمدية والهبات والعطايا الختمية، وكما عرفت أنَّه قد أحاط بكل شيء علمًا ووجودًا؛ بل هو عيْن الأشياء علمًا ووجودًا؛ لأنَّه تجلَّى له كل شيء في كل شيء فعلم كل شيء بعلمه بنفسه، ثم يعلمه بنفسه علم الحق؛ لأنَّه تعالى عين كل شيء.

وقال خاتم الأولياء ﷺ كما قال سيده خاتم الرسل ﷺ: «إنَّه تجلى له كل شيء فعرف كل شيء»[1] كما ورد في الحديث بلفظه، فاستحق خاتم الخاتم بهذا الأمر بإتمام مكارم الأخلاق مع الله تعالى وهو إمام قد جعل الله تعالى أمور الخلق طرًا بيده من

(1) سبق تخريجه.

خليفة إلى عرِّيف ووضيع وشريف وصاحب وصاحبه ووالد ووالده وخادم ودابة وحيوان ونبات وجماد في ذات وصفات وجوهر وعرض، فراعى جميع ذلك مراعاة الصاحب في السفر والخليفة في الأهل فما صرف الأخلاق الإلهية إلا في سيده، فلما كان بهذه المثابة قيل فيه ما قيل في خاتم الرسل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4] فكان ذا خُلق ولم يكن ذا تخلُّق.

ذكر ﷺ في الباب الرابع والثلاثين وخمسمائة من «الفتوحات»: إنَّ هذه الآية تُليت علينا تلاوة تنزُّل إلهي من أول السورة إلى قوله: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: 13] عرَّفنا الحق في هذه التلاوة المنزَّلة من عند الله في المبشرة التي أبقاها الله علينا من الوحي النبوي وراثة نبوية لله الحمد، ورثته فيها من قوله تعالى: ﴿وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: 127] وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: 97] وقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: 29] فشكرت الله على ما حققني به من حقائق الورث النبوي، وأرجو أنْ أكون ممَّنْ لا ينطق عن هوى نفسه - بجعلنا الله منهم - فإنَّ ذلك من عين العصمة الإلهية انتهى كلامه.

(فإنَّ الرسالة والنبوة) أعني: نبوة التشريع ينقطعان بانقطاع النبي والرسول والولاية لا تنقطع أبدًا، وهنالك الولاية لله الحق وبقاؤها ببقائه، والله الولي الحميد فالأخذ من هذا الوجه: أي وجه الولاية لم ينقطع فالاستمداد دائم، وإمداد أتم فالأخذ يكون بواسطة أوسع التعينات؛ فإنَّه باقٍ ببقائه لا بإبقائه.

فقوله ﷺ: لا تنقطع أبدًا، أي: في الدنيا والآخرة، أشار إلى رتبته السنية الذهبية الباقية فإنَّه وُرد في الخبر: «إنَّ الناس كالمعادن فمنهم من معدن الذهب ومنهم من معدن الفضة»[1] وغير ذلك لأنَّه حامل الأخلاق المحمدية وقيوم نواميس الأحمدية فلا تنقطع ولا تنسخ أبدًا.

وهو كما أشار ﷺ: إنَّ قطبًا من الأقطاب المحمدي الحامل لوائه لا يموت أبدًا وبه قوام الدين المحمدي، كأنَّه يشير إلى رتبة الخاتم، خاتم الولاية المحمدية الصرفة، فإنَّ له رتبة الولاية الذهبية ولها البقاء، وأمثال هذا سائغ في التعريفات الإلهية.

---

(1) أخرجه مسلم (2031/4).

قال تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: 169] وشائع في النبوات كإدريس عليه السلام رفعه الله مكانًا عليًا، وكعيسى عليه السلام رفعه الله إليه، وخضر عليه السلام فإنَّه حي يرزق وأمثالها كثيرة.

قال رضي الله عنه في الباب السادس والستين وثلاثمائة: وخضر عليه السلام اسمه بلياء بن ملكان ابن فالغ بن عامر بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام كان في جيش يرتاد لهم ملوكًا كانوا قد فقدوا الماء فوقع بعين الحيرة فشرب منه فعمر إلى الآن، ثم عاد إلى أصحابه فأخبرهم بذلك، فسارع الناس إلى ذلك الموضع فلم يقدروا عليه.

(**فالمرسلون من كونهم أولياء لا يرون ما ذكرناه**): أي الحق وفيوضه، إلا من مشكاة خاتم الأولياء كما كانوا يأخذون علوم الوحي من كونهم رسلاً من جبريل أو من روح، وكما أخذ موسى في البقعة المباركة من الشجرة قال رضي الله عنه: إنَّ الحكمة فيما أخذ بني رسول من الشجرة وتكون لسان حق وكلمة صدق؛ أنَّه استضعف لقبول السامعين حيث إنَّهم يجوزون أخذ بني رسول من جماد ولا يرضون من الإنسان الكامل المسمى بالولي، أنْ يكون لسان حق مع أنَّه ورد في الخبر: إن الله قال على لسان عبده.

وقال: إنَّ الله قال على لسان ذلك إلا الجمود والحسد على أبناء جنسه غير هذا إما يكون، أما ترى ما حكى لنا الحق حكاية خضر عليه السلام، وموسى عليه السلام، وهي إلا تنبيهًا له في هذه المسألة؛ فإنَّ موسى كليم الله ونبيه ورسوله، أخذ من خضر عليه السلام علمًا لم يكن عنده، وقال لموسى عليه السلام: «**أنا على علمٍ علمنيه الله تعالى لا تعلمه أنت**»[1].

وهذا عين ما نحن فيه وفي صدد بيانه، بل إنه ما أظهر عنده عليه السلام إلا علم كون من الأكوان من علوم الكشف، ومن أحوال المريد من أصحاب السلوك، فكيف لو كان من العلوم المتعلقة بالجناب الإلهي، أو من العلم المحكم أو المتشابه، بل إنه عليه السلام قال لبعض المحمَّدين من الأولياء: إني عينت له عليه السلام ألف مسألة من هذا القبيل، فما صبر عن ثلاثة، فلهذا قال صلى الله عليه وسلم: «**رحم الله أخي موسى لو صبر...** »[2] وهكذا الأمر ورد في الخبر الصحيح: «**إن لله عبادًا ليسوا بأنبياء ولا رسلاً ويغبطهم الأنبياء**»[3].

قال رضي الله عنه: وذلك للعلوم التي عندهم، بل قيل: إن الأنبياء عليهم السلام كانوا

(1) أخرجه البخاري (57/1).

(2) أخرجه البخاري (1247/3)، ومسلم (1849/4).

(3) أخرجه أبو داود (288/3)، والنسائي (362/6).

يلحون أولياؤهم أن يدعوا لهم، وكان داود عليه السلام إذا عُرضت له حاجة جاء بزهاد أمته المجاهدين، وأقامهم في محاريبهم، ووكّل بكل واحدٍ منهم صاحب مزمار؛ ليقطع قلب المصلي بلذة نغمته عن الشواغل، حتى يتفرَّغ لحاجته عليه السلام فتسرع الإجابة، وهكذا نبينا ﷺ أمرنا أن نسأل له الوسيلة، وأمر ﷺ عمر وعليًا أن يسألا من أويس القرني رضي الله عنه أن يدعو لهما وللأمة، وهذا كله عين ما قلناه من أخذ الفاضل من المفضول، بل إذا ثبت أن العلم تابع المعلوم، والمعلومات من حيث أعيانها تعطي العلم الصحيح بذواتها، فأنت قلت: إنه بالعلم متى، بحيث لم يشعر به، فكيف تستنكف بالخلق أن يُقال فيه فاضل يأخذ من المفضول، وقد أُثبت مثل هذا الأخذ في الإلهيات، فافهم.

(فكيف من دونهم من الأولياء): أي إذًا الأنبياء والرُّسل - عليهم السلام - من حيث بواطنه، يأخذون من خاتم الخاتم مع شرفهم وعلو مقامهم، فكيف يسع من دونهم من الأولياء أن يستنكف من ذلك ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾ [يونس: 2]، فإن قيل: قال الله تعالى في عبده: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾ [الكهف: 65]، الظاهر أنه بلا واسطةٍ.

وأخبر الشيخ رضي الله عنه أن العبد يأخذ العطايا والمنح بلا واسطة بينه وبين الحق، بل من الوجه الخاص أطلق ولم يقيد، فكيف الجمع بينه وبين الذي قال الآن رضي الله عنه: إن العلم الذي يعطي السكوت خالصة للخاتمين خاصةً، ولا يراه أحدًا إلا من مشكاة خاتم الولاية المحمَّدية، وغيرهما يأخذ من مشكاة ختم الختم عامةً، قلنا: إن المراد من العطايا والمنح التي بواسطة وبلا واسطةٍ هي العطايا الشيئية، ويكون علم خضر عليه السلام من جملتها أيضًا، لا من الذي نحن إلا بصدد بيانه؛ لأنه مخصوص بمحمد ومحمدي صرف ﷺ.

أو نقول: إن أخذ الأولياء على الإطلاق من مشكاة الخاتم؛ لأنه تحقق بالعينية، وهو الفرض الذي انفرد من العالم، وهو ختم الدورة المحمَّدية العامة التامة، وخاتم الدائرة الكلية الطامة، خرج من الذات وتحقق بالأسماء والصفات، ثم رجع إلى ما خرج منه بأحدية سيره، ووترية نوره، وفردية رجعه ودوره، ومن حيث صدوره من غيب ذاته إلى حضرة أسمائه وصفاته، لم يتعوق من حيث حقيقته وروحانيته في عالم من العالم، ولا في حضرة من الحضرات، شاهدًا ما مرَّ عليه، آخذًا ومعطيًا، مفيدًا

ومستفيدًا، هذا هو الفرض الذي انفرد بالوترية، فلهذا يحبه الله «فإنه وتر يحب الوتر»[1] فهو من حيث التعيين الذاتي خازن الذاتيات وخاتمها، ومن حيث الأسماء خازن، فإن هذا من الذي ما خطر على قلب بشر، ولله الأمر من قبل ومن بعد، فما ظنك فيما بينهما، فافهم.

(وإن كان خاتم الأولياء تابعًا في الحكم لما جاء به خاتم الرُسل من التشريع) وهو تابع متبوع، كما ذكرنا في خاتم الرسل وخاتم الأنبياء، فإنه تابع متبوع جميع الأنبياء عليهم السلام من حيث الإفاضة، وتابع ملة إبراهيم من حيث الاستفاضة، وإنه تأسى بنا في الصلاة بالجماعة وخفف، قيل: إن أبا طالب قال ذات يوم، كأنه رأى سرعة إجابة الدعاء من الله تعالى لَه ﷺ، فقال: ما أطوعك ربك يا محمد، فقال ﷺ: «إذا أطعته أطاعك يا عم»[2] الأمر هكذا فإن الولي من شدة الاتباع جعلته متبعًا.

قال ﷺ: لو اتبع متبع السُنة في جميع أموره، وأحل بواحدة فيما أبيح له الاتباع فيه بلا ضرورةٍ، فما اتبعه قط، وإنما اتبع هوى نفسه؛ لأنه تعالى قال: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران: 31]، فجعل الاتباع دليلاً، وما قال في شيءٍ دون شيءٍ.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: 21]، وهو الاتّباع، وكمال الاتباع أن يكون القرآن خلقه كما كان خلقه ﷺ، قال ﷺ في أول «الفتوحات»: لما شاهدته ﷺ في مكاشفة قلبية في حضرة غيبية قال لي: «إن فيك شعرة مني لا صبر لها عني هي السلطانة في ذاتيتك، فلا ترجع إلَيّ إلا بكليتيك، فلا بُدّ من الرجوع إليه». انتهى كلامه ﷺ.

وبعد الرجوع فبقدر رجوعه إليه يكون رجوعه إليه، (فذلك): أي كونه تابعًا لما جاء به الرسول (لا يقدح في مقامه)، وهو البطون من الظهور المحمّدي، والأخذ منه ظاهرًا (لا يناقض ما ذهبنا إليه)؛ لأن الباطن يأخذ من الظاهر ما ظهر من الأحكام؛ لأن لَه أحكامًا مختصّة بالظهور من مقام (حتى نعلم) والظاهر يأخذ من الباطن أما ترى إشارة قوله تعالى: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: 10] وما كان سوى يد محمد ﷺ أنه الظاهر في العالم بختم النبوة والرسالة، والباطن عنه بختم الولاية، فجمع الأول

(1) أخرجه البخاري (2354/5)، ومسلم (2062/4).

(2) أخرجه أبو داود (288/3).

والآخر، والظاهر والباطن، فلما ظهر لَه وجهان لَه يدان فقلنا: (من وجهٍ يكون أنزل): أي من حيث الأخذ، (كما أنه من وجهٍ يكون أعلا) ورد في الخبر أن: «اليد العُليا خيرٌ من اليد السُّفلى»[1] ولا نعرف لها الخيرية سوى أنها معطية والسفلى آخذة، مع أن الآخذة كانت يد الرحمن، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: 104].

(وقد ظهر في ظاهر شرعنا ما يؤيد ما ذهبنا إليه) وهو أخذ الفاضل من المفضول، كما ظهر (في فضل عمر ﷺ في أسارى بدر بالحكم فيهم) حتى قال ﷺ: «لو أنزل الله بلاءً لهذا الحكم ما كان ينجو منه سوى عمر» والحكاية مشهورة.

قال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: 159]، وما كانت امتحانًا لهم، قال ﷺ: «إنما أنا بشرٌ مثلكم، وإن الظن يخطئ ويصيب، ولكن ما قلت: قال الله، فلن أكذب على الله»[2] رواه ابن ماجه، وأحمد بن حنبل عن طلحة، ذكره الأسيوطي في «جمع الجوامع».

(وفي تأبير النخل) قال: «أنتم أعلم بأمور دنياكم»[3] وأخذ الأنبياء - عليهم السلام - من أوليائهم: «ليس بمستنكرٍ»، كما يقع الشيخ أن يأخذ بعض الأمور من التلميذ، ومثل ما وقع للنبي ﷺ أنه قال لعمر ﷺ: «أشكرني في دعائك» أو «اجعلني في بالك»[4] أو قريبًا من هذه العبارة.

وهكذا رُوي أن أبا هريرة ﷺ حين أراد أن يبشر من لقيه وراء الحائط ومعه نعل رسول الله ﷺ، بأن كل من قال: (لا إله إلا الله) لَه الجنة، فأول من لاقاه عمر ﷺ قال لَه: «ما هذا؟ فقال لَه: أنا مبشرٌ من عند رسول الله ﷺ، كل من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة، فضرب على صدره وردَّه إلى رسول الله ﷺ، وقال: يا رسول الله، أنت قلت هكذا؟ قال: نعم، فقال عمر: يا رسول الله، كلهم يعملون.. »[5] والحكاية مشهورة.

---

(1) أخرجه البخاري (518/2)، ومسلم (717/2).

(2) أخرجه أحمد (162/1).

(3) أخرجه مسلم (1836/4).

(4) لم أقف عليه.

(5) أخرجه ابن حبان (430/1).

وورد في الخبر أنه قال: «جبريل أقرأ عمر السلام، وأعلمه أن رضاه حكم، وغضبه عزٌّ»[1] ذكره ابن عدي في «الكامل» عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، ذكره في «جمع الجوامع».

(فما يلزم الكامل أن يكون لَه تقدم في كل شيءٍ، وفي كل مرتبةٍ)، بلى ولا يمكن أن يكون كذلك؛ لأن كل تجلي إلهي يختص بعلومٍ ليس في الآخر؛ لأنه لا تكرار في التجلي، فبهذا الاعتبار كل شخصٍ يختص بكمال شخصي ليس للآخر، فالتفاضل بين الخلق من هذا الوجه، عموم وخصوص من وجه، فالكل فاضل مفضول، فلا يقع التفضيل على الإطلاق أصلاً، هذا مذهب أبي القاسم القسي، صاحب خلع النعلين.

أما ترى صاحب علم واحد في فنه قد يكون أفضل من صاحب الفنون، فهذا أفضل في جميعته، وكلما قلناه في الملك والبشر، (وإنما نظر الرجال إلى التقدُّم في رتبة العلم بالله هنالك مطلبهم) أما ترى قوله ﷺ في التأبير: «أنتم أعلم بأمور دنياكم»[2] وقوله ﷺ: «إذا أمرتكم بشيءٍ من أمر دنياكم فخذوه»[3].

(وأما حوادث الأكوان فلا تعلق لخواطرهم بها)، قال ﷺ: «إني قط ما طلبت من الله تحقيق حادث الأكوان، إلا أن يعلمني الله به ابتداءً لا عن طلبٍ».

(فتحقق ما ذكرناه)، وهو أن أخذ العلم بالله لا يكون إلا ممن وراء الخاتم، وما وراء الله المنتهى؛ لأن الأمر مختوم، والأخذ منه مختوم ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: 21]، والمؤمن بهم ينبغي أن يحقق ما قاله، ويعامل الموطن بما عامله به صاحب الكشف، وإلا ليس بمؤمن حقًّا؛ لأن لكل حقٍّ حقيقة، وليست الحقيقة التي لكل حقٍّ إلا إنزاله منزلة المشهود المدرك بالبصر، حيث لو كشف الغطاء ما ازداد يقينًا في العلم.

أما ترى في الحديث حيث قال ﷺ: «إن لكل حقٍّ حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟»[4] فقال الرجل: كأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا، ففسَّر الحقيقة بالرؤية والنظر، وجعله بـ (كأن)، فافهم.

---

(1) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (60/12).

(2) سبق تخريجه.

(3) لم أقف عليه بلفظه.

(4) أخرجه الحكيم الترمذي (270/1).

(فلما مثل النبي ﷺ النبوة بالحائط من اللبن، وقد كمل سوى لبنة واحدة، فكان ﷺ تلك اللبنة غير أنه لا يراها إلا كما قال: «لبنة واحدة»)؛ لأنه ﷺ رأى حائط النبوة قد انختم بها، ولا بُدَّ أن يكون أيضًا لبنة فضة، فإنها مبطونة الذهب، وفي ظهورها ذهبًا فتنة للعموم، ومقام النبوة مقام رحمة عامة بلا فتنةٍ ولا محنةٍ، فلا يقضي سوى رحمة خالصة.

أما ترى إجراء الله العادة في العموم المعاملة بالفضة عامة؛ لأنها أقرب إلى القبول، بل يحتمل أن يكون بلدًا وأناسًا لا يقبلون الذهب في المعاملة؛ وذلك لعدم الفهم، وعدم الفهم به، وهكذا أمر الولاية فإنها باطن النبوة، وصورة الفضة كصورة الشريعة، ظاهرها شريعة وباطنها حقيقة، ولولا الشريعة وهي الصورة الفضية لانفضوا من حوله، وتركوه قائمًا، ولم يقبلوا إلا قليلاً.

فلهذا قال عارف محمَّدي: «خضنا بحرًا وقف الأنبياء على ساحله»، وهو بحر بيان أن الحقائق بلا صيانة الشريعة كحسين بن منصور وغيره، بخلاف الأنبياء عليهم السلام؛ فإنهم الأقوياء في حفظ الباطن، والأشداء في حب صيانة الأسرار، فلما كان الختم في الخاتم أسوة حسنة، فقيل: (وأما خاتم الأولياء فلا بُدَّ له من هذه الرؤيا، فيرى ما مثله به رسول الله ﷺ)، هذا إعلام من رسول الله ﷺ، وبشارة للشيخ ﷺ بختم الولاية، وإن كان الذي رآه في سنة تسع وتسعين وخمسمائة بمكة هذا تأويل رؤياه؛ لأنه ﷺ قال: «من كان ختمًا لا بُدّ أن يراه»[1].

وهو ﷺ قد رآه (ولكن يرى في الحائط موضع لبنتين، واللبن من ذهبٍ) وهو الصورة الولاية المحمَّدية الختمية، واللبن من فضة، وهي صورة شريعية التي أخذها من مشكاة خاتم الرُّسل، صلوات الله عليه وعليهم أجمعين، فيرى الصورتين، أي: صورة الولاية والشريعة (على صورة اللبنتين اللتين ينقص الحائط عنهما) أي: الحائط الجامع للظاهر والباطن، وإن شئت قلت: الجامع بين النبوة والولاية؛ لأن الحائط لا بُدَّ لَه من ظهرٍ وبطنٍ، فالنبوة ظاهرة والولاية باطنة، (ويكمل بهما، أي: لبنة فضة ولبنة ذهب ذلك الحائط الناقص)، فلا بُدّ أن يرى، أي: خاتم الولاية المحمَّدية نفسه تنطبع في موضع تلك اللبنتين، كما رأى خاتم النبوة ﷺ من المناسبة التي بين الختمين، وهي ظهور الشعرة التي منه ﷺ فيه ﷺ، وصورة رجوع تلك الشعرة إلى أصلها، (فيكمل

(1) لم أقف عليه.

الحائط) به ظاهرًا وباطنًا، يضع اللبنة الفضة على ظاهر الحائط، ويضع الأخرى على باطنه؛ لأنه حكيم يضع كل شيء في محله.

ذكر ﵁ في «الفتوحات المكية» في الباب الخامس والستين: لقد رأيت رؤيا لنفسي، وأخذتها بُشرى من الله، فإنها مطابقة لحديثٍ نبويّ عن رسول الله ﷺ حين ضرب لنا مثله في الأنبياء عليهم السلام، فقال ﷺ: «**مثلي في الأنبياء كمثل رجل بني حائطاً فأكمله إلا لبنة واحدة، فكنت أنا تلك اللبنة، فلا رسول بعدي ولا نبي**»[1].

فشبَّه النبوة بالحائط، وهو تشبية في غاية الحسن، فإن مُسمَّى الحائط المُشار إليه لم يصح ظهورة إلا باللبنة، فكان ﷺ خاتم النبيين، فكنت بمكة سنة تسع وتسعين وخمسمائة أرى فيما يرى النائم: الكعبة مبنية بلبنة ذهب وفضة لبنة ذهب، ولبنة فضة، وقد كملت بالبناء وما بقي فيها شيءٌ، وأنا أنظر إليها وإلى حُسنها، فالتفتُّ إلى الوجه الذي هو الركن اليماني والشامي، وهو إلى الشامي أقرب، موضع لبنتين لبنة فضة ولبنة ذهب، ينقص في الحائط في الصفين، في الصف الأعلى ينقص لبنة ذهب، وفي الصف الذي يليه ينقص لبنة فضة، فرأيت نفسي قد انطبقت في موضع تلك اللبنتين، فكنت أنا عين تلك اللبنتين، وكل حائطٍ لم يبقَ في الكعبة شيء ينقص، وأنا عين تلك اللبنتين لا أشك في ذلك، وأنهما عين ذاتي، واستيقظت فشكرت الله تعالى، وقلت متأولاً إليَّ في الاتباع في صنعي كرسول الله ﷺ في الأنبياء عليهم السلام، وعسى أن أكون ممن ختم الله الولاية بي، وما ذلك على الله بعزيز، وذكرت حديث النبي ﷺ في ضربه المثل بالحائط، وإنه كان تلك اللبنة، فقصصت رؤياي على بعض علماء هذا الشأن بمكة، فأخبرني في تأويلها بما وقع لي، وما سميت له الرائي من هو، فالله أسأل أن يتمها عليَّ بكرمه، فإن الاختصاص الإلهي لا يقبل التحجر ولا الموازنة ولا العمل، وإن ذلك من فضل الله يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

فإذا عرفت تاريخ هذه الرؤيا المكيَّة وهو سنة تسع وتسعين وخمسمائة عرفت ما قال رسول الله ﷺ في فصوص الحكم في سنة سبع وعشرين وستمائة بمحروسة دمشق، أنه كان منه ﷺ بشارة وإعلام أن الذي رأى بمكة هو عين البشارة وتصديق

---

(1) أخرجه أحمد (9/3).

لتعبيره ﷺ إياها، يعني قد صدقت في رؤياك كما رأى مثله خاتم النبوة وتعبيره إياها تعبيره إياها.

وهذا مصداق قوله ﷺ: «أما لكم فيَّ أسوة.. »[1] رواه قتادة ﷺ.

قال المصنف ﷺ:

«وَالسَّبَبُ الموجِب لكَونه رآها لَبِنتَيْن أنّه تابعٌ لِشَرع خاتَمِ الرُّسُلِ في الظَّاهِرِ وهُوَ مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ الفضيَّةِ وهو ظاهِرُهُ وما يَتْبَعُهُ فِيه مِن الأحكام، كما هو آخِذٌ مِنَ اللهِ تعالى في السّرِّ ما هُوَ بالصُّورةِ متَّبعٌ فيه؛ لأنَّه يَرَى الأمرَ عَلَى ما هو عَلَيه، فلا بُدَّ أنْ يَراه هكذا وَهُوَ مَوضِعُ اللَّبِنَةِ الذَّهَبِيَّة في الباطِن، فإنَّه آخِذٌ مِن المَعْدِنِ الّذي يَأخُذُ مِنْهُ المَلَكُ الّذي يُوحَى بِهِ إلى الرسول فإنْ فَهِمتَ ما أشرتُ إليه فَقَد حَصلَ لك الْعِلمُ النافعُ، فَكُلُّ نَبِيّ مِنْ لَدُنْ آدَمِ إلى آخر نَبِيّ ما مِنهُم أحَدٌ يَأخُذُ إلاّ مِنْ مشكاةِ خاتَمِ النَّبِيّين، وإنْ تَأخَّرَ وُجُودُ طينَتِهِ فإنَّهُ بحقيقتِهِ مَوجُودٌ، وهو قوله ﷺ: «كُنْتُ نَبِيًّا وآدمُ بَيْنَ الماءِ والطِّينِ»[2] وغيرُهُ من الأنبياءِ ما كانَ نبيًّا إلا حِينَ بُعِثَ، وكذلِكَ خاتَمُ الأولياء كانَ وَلِيًّا وآدمُ بَيْنَ الماءِ والطِّينِ، وغَيرُه مِنَ الأولياء ما كان وليًّا إلاّ بَعدَ تحصِيلِهِ شرائطَ الولايَةِ مِنَ الأخلاقِ الإلهيّةِ في الاتِّصاف بِها مِنْ كَوْنِ الله يُسَمَّى «بالوليّ الحَمِيدِ»، فخاتَمُ الرُّسُلِ مِنْ حيث وِلايَته، نِسْبَتُهُ مَعَ الخاتِمِ للولايَةِ نسبةُ الأنبياء والرُّسُلِ مَعَهُ، فإنَّهُ الوليُّ الرَّسُولُ النبي؛ وخاتَمَ الأولياء الوليُّ الوارِثُ الآخِذُ عَنِ الأصلِ المُشاهدُ للمراتب، وَهُوَ حَسَنَةٌ مِنْ حَسَناتِ خاتم الرُّسلِ محمدٍ ﷺ، مُقَدَّمِ الجماعةِ وسَيِّدِ ولدِ آدَم في فَتْحِ بابِ الشَّفاعَةِ، فَعَيَّن حالاً خاصّاً وما عَمَّمَ، وَفِي هذا الحال الخاصّ تَقَدَّم عَلَى الأسماءِ الإلهيّةِ، فإنَّ الرّحمن ما يَشْفَعُ عِند المُنتَقِم في أهْل البَلاءِ إلاّ بعد شفَاعَةِ الشّافِعين، ففاز مُحَمَّدٌ ﷺ بالسّيادَةِ في هذا المَقامِ الخاصِ فَمَنْ فَهِمَ المَراتبَ والمقاماتِ لَمْ يَعْسُره قَبُولُ مِثْلِ هذا الكلامِ».

قال الشارح ﷺ:

(وأمّا السبب الموجب لكونه رآها لبنتين، أنه تابع لشرع خاتم الرسل في الظاهر)، وهو: أي اتباع الشرع (موضع اللبنة الفضة، وهو ظاهره): أي ظاهر الخاتم،

---

(1) أخرجه مسلم (473/1)، والنسائي (484/5).

(2) أورده العجلوني (129/2).

(وهو ما يتبعه فيه من الأحكام): أي صورة متابعته، وصورة ما يتبعه من الأحكام، **(كما هو أخذه عن الله تعالى في السرِّ ما هو في الصورة الظاهرة متتبع فيه؛ لأنه يرى الأمر)**: أي حقيقة الأمر **(على ما هو عليه في الواقع، فلا بد أن يراه)**: أي الحكم الذي قرره الشارع بعينه؛ لأنه ينكشف له الأمر خفية وجلية، ويراه بعينه **(هكذا)** الذي يقع بين الاثنين.

قيل: إنَّ الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في مجلس الإمام الأعظم الشافعي ﷺ، سُئل عن شيبان الراعي - قُدِّس سرُّه - وكان أميًا، مسألة في الزكاة أراد به الامتحان، فقال الشيخ: تريد وجه المسألة في مذهبك أو في مذهبي؟ ثم أجاب على الوجهين، وقال الشيخ ﷺ في «**الفتوحات**»: إن العارف عارف بجميع المذاهب والملل، فإنَّهم أخذوا من حيث أخذ الملك الرسول، فافهم فإنَّه من هذا الذوق الذي نحن بصدد بيانه، وهو: أي الرائي الشيخ ﷺ **(موضع اللبنة الذهبية في الباطن)**؛ لأنه يرى الغيب كالشهادة مكشوفًا بلا لبس، وهو ممن ارتضى من رسول، بل وارث الرسول، كما قال: لست بنبي ولا رسول، **(فإنَّه أخذ من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحي به إلى الرسول)**، إنما قال ﷺ ذلك؛ لأنه في هذا المقام يثبت بهذا القدر والمساواة، بل السبق، وإلا أين الملك الكريم من الإنسان الكامل الذي على خلقٍ عظيمٍ، وهم قد اعترفوا بذلك حيث قالوا: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ [الصافات: 164]، وللخاتم كما للخاتم صلوات الله عليهما مقام: «**إن لي مع الله وقتًا لا يسعني فيها ملكٌ مقرَّبٌ، ولا نبيٌّ مرسلٌ**»[1] وأنت صاحب المقام عمن لا مقام له.

والتنبيه على ذلك في الكتاب لكفاهم التنبيه من أولي الألباب قوله: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ﴾ [الأحزاب: 13]، فختم الختم أولى بذلك الخطاب.

قال ﷺ في «**الفتوحات**»: لا يخلص من المقامات إلا الوارث المحمَّدي الصرف، الذي أتاه الحكم بفصل الخطاب، وأُوتي جوامع الكلم، وعلِّم الأسماء كلها: أي المؤثرات في الكون وغيرها، ولم يستأثر فكل صيد في الفراء.

(فإن فهمت ما أشرت إليه) من أن أخذ الخاتم العلم من المعدن، وأخذ الأولياء العلم منه قاطبة، إنما قال ﷺ ما أشرت به؛ لأنه ﷺ ما صرَّح في الخاتم المساواة في

---

(1) سبق تخريجه.

الإفادة في بيان إفادة العلم، بل قال: سبقت لهذا العبد هذه المساواة، ولم يقل: أي عبدٍ.

(**فقد حصل لك**) بالفهم لهذا الأمر الواقع على هذه المثابة (**العلم النافع**)، وجعلك من الصديقين، بل ألحقك بالصدِّيق الأكبر.

وبيان ذلك أن مَنْ صادق العلم في ظنه كان نعته العلم في نفس الأمر، وهذا هو نتيجة الإيمان بالأنبياء - عليهم السلام - وهذا الذوق.

قال ﷺ لشخصٍ من الصحابة حين سأله عن أي آيةٍ في القرآن أعظم، فقال الرجل وأظن أنه أبي بن كعب: آية الكرسي، فضرب ﷺ على صدره وقال: «**ليهنّك العلم يا أبا المنذر**»[1]، يعني: أصبت وصادفت حقيقة الأمر.

وكيف لا إذا كان الفجر عن درك الإدراك إدراك؟ فكيف لا تكون الإصابة علمًا، وما ظنك بالمصادفة؟.

قال ﷺ في «**الفتوحات**»: مَنْ صادق العلم في ظنِّه كما في نفس الأمر، فقد حصل له العلم في نفسه كما هو في نفس الأمر، ولا يكون ذلك إلا بإعلام الحق، وإعلام مَنْ أعلمه عند مَنْ يعتقد فيه أنَّ الله تعالى وما عدا ذلك فلا علم بغيبٍ أصلاً، انتهى كلامه.

أما ترى أن الله مدح مَنْ يؤمن بالغيب ويعمل بمقتضاه، قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ**﴾ [البقرة: 3]، فما أقاموها إلا من علمهم وتصديقهم بالغيب، فالأمر قائمٌ بالصادق، والصديق صاحب عيان، وصاحب إيمان، وما وراء ذلك خُسْران وحِرمان، فافهم؛ إن هذا فصل الخطاب لأولي الألباب ف ﴿**طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ**﴾ [الرعد: 29].

قال ﷺ في «**الفتوحات**»: مَنْ قعد مع هذه الطائفة ولا يصدقهم فيما قالوه، يخاف عليه من سوء الخاتمة، فإذا فهمت ما قرره ﷺ علمت الأمر على ما هو عليه بإعلام صاحب أوسع الكشوفات، والأذواق المحمدية، وليهنّك العلم.

(**فكل نبيّ من لدن آدم إلى آخر نبي، ما منهم أحد يأخذ إلا من مشكاة خاتم النبيين، وإن تأخر وجود طينته فإنه بحقيقته موجود، وهو قوله: «كنت نبيًا وآدم بين الماء والطين»**).

---

(1) أخرجه مسلم (556/1)، وأحمد (141/5).

ورد في الخبر الصحيح: «**أول خلق خلقة روح نبيك يا جابر**» وهو المعبر عنه بلسان الحقائق القلم الأعلى.

وورد في الخبر بلسان الولاية: «**أول شيءٍ خلقه القلم، فقال له: اكتب، قال: يا رب ما أكتب؟ قال تعالى: مقادير كل شيءٍ حتى تقوم الساعة، من مات على غير هذا فليس مني**[1]». رواه عبادة بن الصامت ﷺ.

وفي رواية: «**أول شيءٍ خلقه الله القلم، فأمره فكتب كل شيءٍ يكون**»[2] رواه ابن عباس - رضي الله عنهما. وذكرهما الأسيوطي في «جمع الجوامع».

فأخذ الأنبياء - عليهم السلام - من هذا الروح المحمَّدي المُسمَّى بالعلم الظاهر في الوجود بالوجود الكلي الممتاز عن الموجودات أزلاً، فالأنبياء عليهم السلام يأخذون منه بحسب استعدادهم، وهو يعطيهم مقاديرهم بمقتضى ذواتهم بحسب أوقاتهم، وقابليتهم قبل الوجود، وعند الوجود، وبعد الوجود، ومَنْ لم يعتقد ما قلناه وقررناه بهذا النمط مات ميتة الجاهلية، وليس منا المحمديين.

أما ترى قوله ﷺ أنه قال في آخر الحديث: «**مَنْ مات على غير هذا، فليس مني**»[3]؛ لأنه ما آمن بما جاء به كله بل آمن بما فهم، وكفر بما خفي عليه ولم يفهم، فإن كان خلى للصلح مجالاً كان به أولى، فأوله برأيه المشؤوم، ويحسب أنه في التنزيه، وهو كما قربه.

فإذا فهمت هذا السرد الذي سردته لك سردًا سائغًا، فاعلم أنَّ نظير هذا الأخذ قد ثبت بالكشف أن الأولياء يأخذون من الغيب، فمنهم مَنْ يأخذ من اللوح، ومنهم مَنْ يأخذ من القلم، ومنهم منْ يأخذ من تخطيط القلم، ومنهم من حركة التخطيط من القلم، ومنهم من إجمال الدواة المعبر عنها بلسان الشرع بالنون، قال تعالى: ﴿**نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ**﴾ [القلم: 1].

فالأنبياء - عليهم السلام - أولى بهذا الأخذ القويم القديم، وقد ذكرت تفصيل الأخذ في الفص الآدمي في سر الولد الأكبر، ولا يعرفها إلا عارفٌ أو مؤمنٌ، كما

(1) أخرجه أبو داود (225/4).
(2) أخرجه الضياء المقدسي (333/10).
(3) أخرجه البيهقي (204/10).

يعرف أخذ الذرية من ظهر آدم حين أشهدهم على أنفسهم، ونحن نؤمن يقينًا.

سُئِلَ شخصٌ مِن العارفين كأنَّه ذو النون - قُدِّس سرُّه - عن علم الميثاق قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172]، فقال: كأنَّه في أُذني الآن، وآخر قال حين سُئِلَ عنه: سمعت سبعًا من المواثيق، وآخر قال: إنَّه صدق في كليات المواثيق أنَّها سبعة، وأما جزئياتها فغير متناهية، فأنا مؤمن بذلك كله، فمأخذ الأنبياء - عليهم السلام - قبل وجودهم وبعد وجودهم وعند وجودهم مِنْ هذا المقام المحمدي الذي خُتم به ويختمه، فافهم.

فإنِّي قرَّبت إليك الأمر البعيد لتفهم ولا تقف، إنَّ أكثر من هذا البيان لا يمكن لي؛ إنَّ هذا إلا سحرٌ يؤثر، هذا سحر حلال، ولا تتبع القيل والقال.

ورد في الخبر: «**إن الله ينهاكم عن كثرة السؤال، وإضاعة المال، وعن اتِّباع القيل**»[1] رواه مسلم بن عبد الله بن سبرة عن أبيه ﷺ، ونحن ما أخذنا هذه المعاني إلا من صاحب أوسع الكشوف، ورد في الحديث: «**إن هذا العلم دينٌ فانظر ممن تأخذونه**»[2] رواه أبو نصر السجزي في «الإبانة» والديلمي عن أبي هريرة ﷺ.

وفي حديث أنس ﷺ: «**فلينظر أحدكم ممن يأخذ دينه، وعلى الله قصد السبيل**»[3].

(**وغيره من الأنبياء ما كان نَبِيًّا إلا حين بُعث**)؛ لأنَّه ﷺ من حيث الروح والحقيقة كان كليًّا، بل كلاً قائمًا بذاته، لذا المسمى بالروح الأعظم، والعقل الأول، وباصطلاح الحكماء بالعقل الكل، كالكلي الطبيعي، فإنَّه موجود في الخارج عند الحليم؛ بل إنه جوهر قائم بذاته، وقيوم لغيره بخلاف سائر الأنبياء - عليهم السلام - فإنَّ أرواحهم جزئية تابعة للأمزجة بحسب مزاجها، تقع الأبدان منها كلي في الجملة، ومنها جزئي (**وكذلك خاتم الأولياء كان وليًا وآدم بين الماء والطين**) وذلك لكليته، والتفضيل كالتفضيل «مولى القوم منهم، والعبد من طينة مولاه».

وَالعَبْدُ مِقْدَارُه فِي جَاهِ سَيِّدِه ... فَلا يَزَال بِسَتْرِ العِز مَسْتُورا

---

(1) أخرجه البخاري (537/2)، ومسلم (1340/3).

(2) أخرجه مسلم (14/1).

(3) أخرجه الخطيب البغدادي (129/1).

وقد قررناه غير مرةٍ صريحًا وكنايةً وإفهامًا وإبهامًا، وبكل وجه؛ بل بأحسن الوجوه وأسناها إنَّ الولاية باطن النبوة، والولي بطانة نبيه، وحسنة من حسناته، فإذا رجع الأمر إلى الباطن فيرجع الحكم إلى الباطن، وهو ظهور الكامل الكل بوحدة الحقيقة، وأي الحقيقة الكلية المتميزة عن الحقائق الجزئية علمًا ووجودًا، فهي لخاتم النبوة باعتبار، وهي عين خاتم الخاتم باعتبار، فإن ابتداء الخاتم انتهاء خاتم الخاتم، والأمر بينهما؛ لأنَّهما فاتحان وخاتمان لأمر العلم والوجود، فظهرا في الوجود بكلتيهما، كما كان في العلم، والتفصيل كالتفصيل، (**وغيره من الأولياء ما كان وليًا إلا بعد تحصيله شرائط الولاية**) التي هي تابعة للمزاج وبحسبه؛ وذلك لأنَّ دورة العبودية في الخلافة تمت بعيسى عليه السلام، وفُتح باب السيادة في الخلافة بمحمدٍ ﷺ، وتحصيل الشرائط (**من الأخلاق الإلهية في الاتِّصاف بها**) بعد إنْ لم تكن بحسب السلوك والرياضيات، كان شرطًا في الولاية والنبوة بحسب القابلية المزاجية الطالبة صفة الكمال، وذلك التخلق (**من كون الله تسمَّى بالولي الحميد**) فأراد أنْ يتخلَّق بأخلاقه حتى يتسمَّى وليًا فيكون محمودًا بذلك التخلق؛ فإنَّه سمع أنَّه تعالى يحب أنْ يُحمد فتخلَّق بالولاية ليُحمد، رُوي في حديثٍ طويلٍ: «**وما من أحدٍ أحب إليه المدح من الله من ذلك وعد الجنة**[1]» رواه مغيرة بن شعبة، ذكره في «جمع الجوامع».

إنمَّا قال: (حميد) وهو فعيل، فعم اسم الفاعل واسم المفعول بالدلالة الوضعية عليهما، فهو الحامد المحمود؛ لأنَّه صيغة مبالغة بمعنى: فاعل ومفعول، فإما أنْ يُعطي الأمر الواحد بقرينة حال، وقد أثنى على نفسه.

(**فخاتم الرسل من حيث ولايته نسبته الأنبياء والرسل معه**): أي مع الرُّسل بأنَّ أخذهم منه وهو باطنهم، وهكذا الأمر في الولاية، فإنَّها باطن النبوة والرسالة، فمِنْ حيث الظاهر يأخذ من الباطن؛ لأنَّ الباطن غيب يتنزل الأمر من الغيب إلى الشهادة، فإنَّ الحقيقة الواحدة الغير المنقسمة لها اعتباران: ظهور وبطون، فمِن حيث الظاهر خُتم على الظاهر المحمَّدي، ومن حيث الباطن خُتم على الباطن المحمَّدي، والأمر ما خرج منها، فمِن الظاهر مستفيض، ومِن حيث الباطن مفيض، بل هو الظاهر والباطن، فيأخذ ظاهره من باطنه ولا غير، فافهم حتى تتخلص من شرك الوهم وقيده، واعرف

(1) أخرجه ابن حبان (87/13).

أنك ما تتخلص منه؛ لأنه وضعٌ إلهيٌ ما يرتفع أبدًا، إلا مَن أخلصه الله بمحض العناية والمنَّة لله تعالى، فلما عرفت أنَّ كل نبيٍ ما أخذ من هذا العلم إلا مِن مشكاة خاتم النبوة، كذلك كل وليّ ما أخذ هذا العلم وما رأى ما رآه إلا من مشكاة خاتم الولاية المحمّدية، وعرفت أنَّ نسبة النبي الختم مع الأنبياء عليهم السلام: أي كما أنَّهم يأخذون منه، كذلك النبي الختم يأخذ من جهة الولاية من وليه الختم، فأراد ﷺ أنْ يبين بأسمائهم وأسماء مراتبهم التي تأخذ وتعطي، وتستفيد وتفيد وتستفيض.

فقال: (فإنّه): أي خاتم الرسالة هو (الولي) من حيث الباطن، وهو جهة الاستفادة والاستفاضة من خاتم ولايته، (الرسول النبي) من حيث الظاهر، وهو وجه الإفادة والإفاضة من أحكام الشرائع والدين، (وخاتم الأولياء) أيضًا، كذلك (الولي) الذي يفيد مِن هذا الوجه (الوارث) مِن الله، إنَّما قلنا: (من الله) لسرّ ذكرناه في الخطبة في قوله: ولكني وارث (الأخذ عن الأصل)، كما فهمت إنْ فهمت تفصيلنا، (المشاهد للمراتب) المتفرج المبتهج بنفسه وذاته؛ فإنَّه يرى مراتب العالم في نفسه نبيًا ووليًا، مؤمنًا صديقًا، وكافرًا ملحدًا، زنديقا حيوانًا نباتًا فلكًا وملكًا، فافهم.

(فهو) في فتح هذا الباب (حسنة من حسنات خاتم الرسل محمد ﷺ) بل هو إجابة دعائه ﷺ حيث دعا: «اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم»[1].

ومن بركته أنَّه فيه خاتم النبوة خير المرسلين، وهكذا من بركة آل محمد أن فيه خاتم الولاية المحمّدية خير الوارثين، (مقدم الجماعة): أي جماعة الأسماء الإلهية، أو جماعة الأنبياء عليهم السلام، أو الجماعة من آدم إلى الخاتم (وسيد ولد آدم)، وإن كان لسان مرتبته يقول:

وَإِنِّي وَإِنْ كُنْت ابِنَ آدَمَ صُورَةً ... فَلِي فِيهِ مَعْنًى شَاهِدٌ بِأُبُوَّتِي

فلهذا يقول في حديثه: «ولا فخر»[2] (في فتح باب الشفاعة الكبرى) قال ﷺ في الباب العشرين وأربعمائة من «الفتوحات»: وأما المقام المحمود فهو مقام الشفاعة في الشافعين عند الله أنْ يشفعوا من ملك ورسول، ونبي وولي ومؤمن، (فعين حالاً خاصًا)،

(1) لم أقف عليه.

(2) أخرجه البخاري (1233/3)، ومسلم (305/1).

إنَّه سيد ولد آدم في فتح باب الشفاعة، كما كان فتح باب الوجود أعم؛ لأنه ليس منهم ولا من جنسهم، والتنبيه عليه في الكتاب العزيز قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ [الأحزاب: 40].

قال ﷺ في «الفتوحات»: إنَّ الله تعالى أراد بهذا النفي: أي ليس من جنسكم، أما ترى قوله ﷺ حيث يقول: «أنا سيِّدُ ولد آدم ولا فخر»[1].

لما قال ﷺ في «رسالة القدس» ذكر في المفاضلة بين الإنسان والملك: إنَّ التفاضل ما يقع إلا من جنسٍ واحدٍ، والإنسان الكامل قد خرج أن يكون جنس العالم، فافهم ولأن المفاخرة لا تكون له في هذا، بل هذا تنزُّل عنه ﷺ، كما يقول: «أنا بشرٌ مثلكم»[2] قال تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].

إشارة إلى أنَّ (ما) في (عنتم) مصدرية، أي عنتكم ومشقتكم ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي أن تهتدوا ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وعلى هذا التنبيه أشار الحديث الشريف: «لست كهيئتكم إني أبيت عند ربي.. »[3] وفي رواية: «لست كأحدكم.. »[4].

(وفي هذا الحال الخاص): أي في وقت الشفاعة (تقدم على الأسماء أيضًا) كما تقدم على (مظاهر الإلهية)، فإنه شفع قبل الرحمن، فإن (الرحمن ما شفع عند المنتقم في أهل البلاء إلا بعد شفاعة الشافعين).

قال تعالى: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: 3] (ففاز محمد ﷺ بالسيادة في هذا المقام الخاص) المتَّصف بالتقدم على الأسماء الإلهية، (فمَنْ فهم المراتب) إنَّها كلها لله رفيع الدرجات والمقامات، إنَّها كلها لظهور حقيقة الحقائق المسمَّاة بالحقيقة المحمدية في إجمالها وتفصيلها، (لم يعسر عليه قبول مثل هذا الكلام): أي إنَّ أخذ الكل من الختم؛ لأن الجاهل بحقيقة الأمر يظن أن هذا كمال يثبت لغير الله ورسوله، ولا غير في جميع المراتب؛ بل ظهورات حقيقة واحدة إجمالاً وتفصيلاً، وتفصلاً

---

(1) أخرجه مسلم (1782/4).
(2) أخرجه مسلم (401/1).
(3) أخرجه البخاري (2661/6).
(4) أخرجه مالك (188/2).

وإجمالاً، ولكن هنا جزئية أخرى، فسأذكرها لك على سبيل الإشارة، قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: 45] لعلك أن تتذكر أو تخشى، وهي أنه كل تجلٍ تأخر وجوده في الظهور، فإذا ظهر يتضمَّن جميع ما مضى من التجليات والعلوم، فإن الآخر كل الأول مع الزيادة، ومن هنا قيل: لو أقبل مقبلٌ على الله ألفَ سنة، ثم أعرض عنه ساعة، فالذي فاته أكثر مما ناله، من هنا برقت بارقة أن الولاية الطَّامة أتم من النبوة التامة؛ لأنها آخر الدورة من التجليات الكمالية وانختم الأمر بها، فافهم.

وذلك لهذا السر الذي أومأت إليه، فافهم ولا تكن الغليظ القدم الأبهم، فإن أمثال هذه الأسرار من لسان الحقائق فلا تتقيَّد.

قال المصنف ﷺ:

«وأمّا المِنَح الأسمائية فاعلَم أنَّ مَنْحَ الله تعالى خَلْقَهُ رَحْمَةٌ مِنْهُ بِهِم، وَهِيَ كُلُّها مِنَ الأسماءِ، فإمّا رَحْمَةٌ خالصَة كالطَّيِّبِ مِنَ الرِّزقِ اللَّذِيذِ في الدُّنيا الخالِص يَوْمَ القِيَامَةِ، ويُعْطَى ذلك الاسمُ الرَّحمنُ فَهُوَ عطاءٌ رحمانيٌّ، وإمّا رَحْمَةٌ مُمتزِجةٌ كشُرْبِ الدَّواءِ الكرِهِ الذي يَعْقِبُ شُرْبَهُ الرّاحةُ، وهِيَ عَطاءُ إلهِي فإنَّ العَطَايا الإلهيّة، لا يُمكِنُ إطلاقُ عطائه مِنْهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ عَلَى يَدَي سادِنٍ مِنْ سَدَنَةِ الأسماء، فَتارَةً يُعْطِي الله تعالى العَبْدَ عَلَى يَدَي الرَّحمن فيَخْلُصُ العطاءُ مِنَ الشَّوْبِ الَّذي لا يُلائم الطَّبْع في الوَقْت أوْ لا يُنيلُ الغرضَ وما أشْبَهَ ذلِك، وَتارَةً يُعطي الله على يدي الواسِع فيعمّ، أو على يدي الحكيم فَيَنْظُرُ فِي الأَصْلَحِ في الوقت، أوْ على يَدي الوهّابِ فيُعطِي لِيُنْعِمَ وَلا يَكُونُ مَعَ الواهِبِ تَكْلِيفُ المُعطَى لَهُ فَيَنْظُرُ فِي المَوْطِنِ وَما يَسْتَحِقُّهُ، أو عَلى يَدَي الغَفّارِ فَيَنْظُرُ في المحلّ وَما هو عَليه فإنْ كانَ عَلَى حالٍ يَسْتَحِقُّ العُقُوبَةَ فيستُرُهُ عنها، أوْ على حالٍ لا يستحقّ العُقُوبَةَ فَيَسْتُرُهُ، عن حالٍ يستحقُّ العُقُوبَةَ فَيُسَمّى مَعْصُوماً ومُعْتَنى بِهِ ومَحْفُوظًا، وغَير ذلك ممّا يُشاكِلُ هذا النَّوع».

قال الشارح ﷺ: فلما جعل ﷺ المنح والعطايا على قسمين: ذاتية وأسمائية، وفرغ من بيان الذاتيات وأحكامها، فأراد أن يذكر أحكام المنح الأسمائية، فقال: (وأما المنح الأسمائية): أي الصادرة من الأسماء، وحضرات العطايا الأسمائية كثيرة، كالوهب والجود والكرم والسخاء والإيثار، وهو عطاء الفتوة، وسيجيء بيانها في المتن.

وعجّلت إليك أيها الطالب بذكر هذا التفصيل:

فالوهب: عطاء بمجرد الإنعام، وهو الذي لا يقترن به طلب معاوضة، ولا يريد جزاءً ولا شكورًا.

والكرم: عطاء بعد السؤال.

والجود: عطاء قبل السؤال.

والسخاء: عطاء بقدر الحاجة.

والإيثار: عطاء ما هو المعطي محتاج إليه في الحال والاستقبال.

ولكل عطاءٍ اسم إلهي إلا الإيثار، وهذا العطاء من أغمض الأُعطيات والمنح، وأصنعها تصورًا في الإلهيات.

قال ﷺ في «الفتوحات»: إن هذا الذي يُسمَّى إيثارًا يمنعه جميع الناس، إلا نحن نقول به، وما رأينا أحدًا أثبت هذا في الإلهيات، وما يثبته إلا من عَلِم معنى اسمه الغني. انتهى كلامه ﷺ، وكيف لا وقد ظهر لأرباب الشهود، وصرَّح به أصحاب الوجود، إنه ما من شيءٍ في الوجود إلا له استناد إلى أصلٍ إلهيٍ، وهو نظيره في الإلهيات، والله مستند ذلك الفرع، بل هو كله بهذا هو مد الظل.

فالإيثار الذي في الكون يطلب الاستناد ولا بُدَّ، فما يكون وكيف تصوره في الإلهيات، فاعلم أنه ثبت في الصحيح أن العبد يصلِ بالاتِّباع: أي باتِّباع السُّنة إلى مقام المحبة، كما جاء في الأثر: «فاتبعوني يحببكم الله».

ومن المحبة إلى مقام قرب النوافل حتى تكون هوية الحق عين قواه من مقام: «كنت سمعه وبصره»[1] وهو سبحانه غني لذاته الذي لا يمكن إزالته عنه، فإذا أقام العبد في هذا المقام فقد أعطاه صفة الغنى عنه وعن كل شيءٍ؛ لأن هويته هي أعيان قوى هذا العبد المغتني المقتني، وليس ذلك في تقاسيم العطاء، إلا الإيثار فقد أثر عبده بما هو له، ولما كان الإيثار فضلاً يرجع إلى المعطى المؤثر كان الحق سبحانه أحق بصفة الفضل، فعطاء الإيثار أحق في حق الحق، وأتم في حق الخلق، فافهم.

وإذا عرفت هذا اعلم أن المنح الأسمائية، أي: المنح الأسمائية وعطائها (خلقه رحمة منه بهم)، بل من حضرة المنح والعطايا أُوجد العالم، وأنزل النواميس والشرائع، فهي الخير المحض بما فيها من الأمور المؤلمة المنازعة، لا يتعلَّق به الأعراض النفسية

---

(1) سبق تخريجه.

التي خلقها الله بالرحمة، كخلق الأدوية الكريمة البعضية للمزاج الخاص، وأغرب من ذلك أن المزاج الصحيح المعتدل بخروجه عن الاعتدال، ووقوعه في الانحراف والمرض، قد يلتذ بأكثر من صحيح المزاج، كمن يلتذ بالحكاك قريب الإنزال، ويعرف ذلك منْ ذاقه وجربه، إنه يمكنه أن يدرك مطلوبه بأمرٍ غير ملائم المزاج، فافهم.

فهذا كله عطاء إلهي كلا نمد هؤلاء، وهؤلاء أصحاب الجنة، وهؤلاء أصحاب النار، من عطاء ربك، فعم الجميع مع اختلاف الأذواق، وما كان عطاء ربك محظورًا: أي ممنوعًا لإحدى الطائفتين، واحد يريد اللذة في الجنان فأعطاه سؤله، وآخر يريد العذوبة في العذاب، واللذة في النيران فأعطاه سؤله، ومن هذا الذوق ما ذكر الشيخ ﷺ في «الفتوحات» عن أبي يزيد الأكبر - قُدِّس سرُّه - أنه قال:

وَكُــلُّ مَــا رَبِــي قَــدْ نِلْــتُ مِــنْهَا سِــوَى مَلْــذُوذِ وَجْــدِي فِــي الْعَــذَابِ

ما أراد - قُدِّس سرُّه - المحن؛ بل أراد المنح على خرق العادة، فعلمنا أن كله من عطائه، وهو عين الرحمة قد سبقت وعمَّت ووسعت كل شيءٍ من مكروه عادة، وغير مكروه، فافهم.

(وهي كلها من الأسماء الإلهية): أي كل المنح من الأسماء، ولا يخرج من الله الحكيم إلا بواسطة سادة وخادم، لا من حيث الذات، بل الباعث فيه اسم من الأسماء يطلب منه عين من الأعيان ذلك المطلوب، فذلك الاسم رب لتلك العين، مستشفع إلى الله تعالى، فإنه حكيم كريم يعطي كل ذي حقٍّ حقه، (فإما): أي تلك الرحمة (رحمة خالصة) من الكدورات الطبيعية (كالطيِّب من الرزق اللذيذ في الدنيا الخالص يوم القيامة).

قال تعالى: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الأعراف: 32] ممزوجة بالأكدار والغصص، وهي لهم في الآخرة طيبة مخلصة من الأكدار، سواء كان من كدورة الاشتراك أو غيره، فإن النفس لا تقبل الشرك في أمرٍ؛ بل تريد التفرد في الكمال، أما ترى قول سليمان عليه السلام أنه سأل مُلكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعده، فإنه من هذا المقام، فافهم.

(ويُعطي ذلك الاسم): أي النوع من الرحمة الخاصة الرحمن (فهو عطاء رحماني) من رحمة خالصة مختصة في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: 39] أي لا حساب عليك في ذلك.

هذا هو العطاء الرحماني، وهو في الدنيا لذَّة بلا منغصةٍ، وفي الآخرة لا حساب عليه ولا منغصة، هذا عطاءٌ غير مجذوذٍ، فافهم.

(وإما رحمة ممتزجة) قال الله تعالى حكايةً عن إبراهيم عليه السلام أنَّه قال لأبيه آزر: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً﴾ [مريم: 45].

فلا يكون عذاب من الرحمن إلا من الرحمة الممتزجة؛ لأنَّه منذرٌ منه و﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: 84] (كشرب الدواء، والكره الذي يعقب شربه الراحة)، وزوال ما يتلائم بحسب المآل، قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: 216].

(وهو عطاء) أسماء (إلهي) وإنما قلنا: إنَّ كلها من الأسماء، أي: لا يكون ظهور تلك الرحمة إلا على يد اسم من الأسماء الإلهية؛ هذا تعليل لقوله: (وهي كلها من الأسماء)، (فإنَّ العطاء) أي: لأنَّ العطاء الأسمائي (الإلهي لا يتمكن إطلاق عطائه منه): أي من الحق سبحانه (من غير أنْ يكون على يد سادن): أي خادم يخدمه؛ لأنَّ في مفهوم العطاء إخراج شيء لشيء، وذلك لا يكون لذاته بذاته؛ لأنَّ الذات من حيث هي لا تقتضي أمرًا؛ بل الاقتضاء والاقتضاء فيها سواء، وكيف لا وقد قلنا الذات بلا اعتبار، والاقتضاء من الاعتبارات؛ بل الذات مِن هذا الاعتبار متنزهة عن الإدراك، وكيف إدراك الاعتبارات فيها لا يقع العطايا والمنّ على البرايا؟.

وذلك (سادن مِن سدنة الأسماء): أي خدمها؛ لأنَّها خدم ذات مرتبة الألوهية، وعندها خزانة كل شيء، كقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: 21] وهي كالوهاب، والمنعم، والكريم، والجواد، والسخي، والمقيت؛ لأنَّ المقيت حضرة تعين أوقات الأقوات الروحانية والجسمانية، وموازينها وتقديرها بحسب طلب الأعيان، (فتارة يُعطي الله العبد) تلك الرحمة الممتزجة.

(على يد الرحمن، فيخلص): أي يخلص الرحمة الممتزجة (من الشوب الذي لا يلائم الطبع والمزاج)، كشرب الماء البارد في العطش الكاذب؛ فإنَّه ضررٌ في المآل، ومطبوع (في الوقت) والحال، (أو لا ينيل الغرض): أي مخلص مِن الشرب الذي يمنع إنالة الغرض المشتهي بإعطاء التوفيق، وهو جعل الأسباب موافقة في التسبب، (وما أشبه ذلك من الأمثال) التي هي موجبات ما يعطي الهناء العاجل، وترفع موانع الوصول إلى حصول الغرض العاجل والآجل.

وعلى الجملة أنَّ الرحمن تارة يخلص العطايا مِن شرب المكروه، إما عاجلاً كما في ملائم الطبع والغرض، وإنْ كانت فيها عائلة في الآخرة، فإنَّه يملي لهم برحمته إياهم في هذه الدار، واستدراجه بهم للطف الخفي كما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: 44]؛ لأنَّ الإنسان خُلق هلوعًا جزوعًا، حريصًا شحيحًا، ظلومًا جهولاً كنودًا، فالحكمة اقتضت المسايسة بالرهبات والرغبات، وإما آجلاً، كالصبر على البلايا للمجازاة الأخروية، فإنَّ الصبر من عطايا الرحمن، وإما فيها كما مرَّ في الرحمة الخالصة في الدنيا والآخرة، فافهم.

(وتارة يُعطي الله على يدي الواسع فيعم)، كما قال الله تعالى: ﴿وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 247]: أي واسع بعموم الرحمة، فلا يخلص من الشوب، فيكون حكمها الامتزاج في العاجل والآجل، فلما جاء الغضب في الوجود وجد الرحمة قد سبقته، ولا بُدّ من وجوده، فكان مع الرحمة كالماء مع اللبن إذا شابه وخالطه، فلم يخلص الماء من اللبن، كذلك لم يخلص الغضب من الرحمة.

أما ترى أبا يزيد - قُدِّس سرُّه - لما سمع القارئ يقرأ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: 12]، فقال: «بطشي أشد»؛ لأنَّ بطشه غير مخلوطٍ بالرحمة، فالضار يكون نافعًا في ضرره، والمانع معطٍ في منعه، ويُشير إلى ذلك المقام سيِّدنا سيِّد العارفين علي بن أبي طالب ﷺ في بعض مناجاته: اشتدت نقمته على أعدائه في سعة رحمته، واتسعت رحمته لأوليائه في شدة نعمته، ذكره في «نهج البلاغة».

أو (على يد الحكيم، فينظر في الأصلح في الوقت) وقد ورد: «**إنَّ الحقَّ إذا أحبَّ صورة عبده في دعائه إياه أخَّر الإجابة عنه؛ حتى يتكرَّر عنه ذلك حبًا فيه لا إعراضًا عنه؛ فإنه حكيمٌ يضع الأشياء مواضعها**».

وورد في الحديث القدسي أنه تعالى قال: «**إن من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك...** »[1].

قِيل عن أنس ﷺ أنّه كان يقول: «**إني من عبادك الذين لا يصلحهم إلا الغنى فلا تفقرني**»[2].

(1) أخرجه الحكيم (232/2).

(2) أورده القرطبي (28/61).

فإنْ كان من الكشف فهو منه وهو أهله، وإلا هو غني محمود مقبول، ثم اعلم أنَّ الرحمن أعطي العالم الوجود، أولاً عمومًا، وهو الخبر الخالص، ثم لم يزل يعطي ما يستحقه الوجود مما به قوامه وصلاحه بحكمته البالغة، كان ما كان، فهو صلاح في حقه.

فما ثم إلا خير، سواء سر أو أساء، فالسرور هو المطلوب، وقد لا يجيء إلا بعد إساءته لما يقتضيه مزاج ذلك التركيب، قال ذائقٌ:

فِي الخَلْقِ مَنْ لا يُرتَجَي نَفْعُه ... إلاَّ إذَا مَسَّ بإضْرارِ
كَالعُود لا يَطْمَعُ فِي عَرْفِه ... إلاَّ إذَا أُحْرِقَ بالنَّارِ

(أو على يد الواهب فيُعطي لينعم، لا يكون مع الواهب تكليف المعطي له بعوض على ذلك من شكرٍ أو عمل) في قوله تعالى: ﴿لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً﴾ [الإنسان: 9] أو على يد الجبَّار، فينظر في الموطن وما يستحقه إنْ كان موطن الجبر كما في المنكسرة القلوب، فيخبرها وهو جبارٌ، ورد في الحديث القدسي أنه قال تعالى: «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي»[1] وإن كان موطن الجبَّارين المتكبرين، فيكسر صورتهم بوضع القدم عليهم كما في الحديث الشريف، يقول المعطي له: (قط قط حسبي حسبي كفى كفى).

وكما قال النائب القطب الذي له قدم صدق: (إنَّ قدمي على رقبة كل وليّ صاحب كبرياء وجبروت).

فإنَّ هذا عطاء مِن هذا الخبر مِن هذا المقام (أو على يد الغفار فينظر المحل وما هو عليه، فإنْ كان على حال يستحق العقوبة، فيستره عنها) حتى لا يراها دنيا أو آخرة أو فيهما، (أو على حالٍ لا يستحق العقوبة، فيستره عن حالٍ يستحق العقوبة)، إما بالعصمة (فيُسمَّى): أي صاحب العصمة (معصومًا)، ويُسمَّى (معتنى به ومحفوظًا كالولي).

(وغير ذلك مما يُشاكل هذا النوع كثير): أي مِن السدنة فإنَّها كثير، بل غير متناهٍ كالعقور، فإنَّه صيغة مبالغة في الغفران لعمومها، فهي رجاء مطلق للعصاة على طبقاتهم، ذكره ﷺ في «الفتوح».

---

(1) أورده المناوي في «فيض القدير» (519/1).

وكالمانع فإنَّه سدنة الرحمن، (فالمعطي) كما قيل:

إذا مَـــا قُلْــتَ لـــم تُعْطَـــا ... فقـــدْ أعْطِـــيتُ لـــم تُعْطَـــا

فـــلا تَكْـــذِبْ ولا تَجْحَـــدْ ... فإنَّـــك لـــم تَـــزَلْ تُعْطَـــا

فإنْ أمسك إلا ليعطيك سؤالك، راقب علمه بالمصالح فيك، تجد ما قلنا إنَّه رقيب حكيم، فإذا عرفت هذا عرفت أنَّ منعه قد مُلِئ عطاء، وما ثَمَّ إلا عطاؤه، ولكن بصورة منع، ومنع بصورة عطاء، يقول الله تعالى: **﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾** [الإسراء: 20].

فمَن كان منعه عطاء، فذلك هو الجواد، بل حضرة المنع أنت، فإنَّ الجود مطلق والوهب عام تام، فالمنع مِنك بعدم قبولك إياه؛ لأنَّه لا يلائم مزاجك، ولا يقبله انحرافك، فمنعه تابع امتناعك؛ بل هو عينه، هذه خيرة العبد التي اختار لنفسه **﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ﴾** [القصص: 68].

فأعطي المانع كما يمنع المعطي وكذلك الضَّار، فإنَّه قد يكون النفع منه عين زوال الضرر خاصة، فالضَّار قد يجلب النفع، فوقع الضَّار نافعًا، فعطاؤه كله نفع غير ضرر، غير أنَّ المحل في وقت يجد الألم لبعض الأعطيات، فلا يدرك لذَّة العطاء ولا يعلم ما فيه من النفع الإلهيّ، فيسميه ضارًّا من أجل ذلك، وما علم أنَّ ذلك من مزاجه القابل لذلك، لا مِن العطاء، أما ترى أنَّ العسل شفاء للناس، ومع هذا يضرُّ بالصفراوي لعدم قبوله، فما مِن الله إلا الخير المحض كله، والشر ليس إليه بل إن جميع ما يلحق الإنسان نعمة الله وامتنان، حيث اختصه بالامتحان، فإنَّه لو أهمله لكان أبلغ في الهوان وأدخل في الخسران والحرمان كما قيل:

لـــئن ســـاءني أن نلتنـــي بمـــساءة ... لقـــد ســـرَّني أنِّـــي خَطَـــرت بـــبالكا

مع أنَّه ورد في الحديث أنَّه قال ﷺ: **«والله الذي لا إله إلا هو ما قدَّر الله لابن آدم من قدرٍ إلا هو خيرٌ له»**[1] وفي رواية: **«ومن قدر في الأرض... »**[2].

أو نقول في قوله ﷺ وغير ذلك، كما يستر الذنوب حتى لا يكون بالنسبة إليه ذنبًا كالمضطر، يجوز له ما يحرم على غيره، فستره الذنب عن أنْ يعقه جرح

(1) ذكر المتقي الهندي (193/16).

(2) روى الطبري في «التفسير» (97/16).

لسان المدام.

وكما ورد في أهل بدر: «افعلوا ما شِئتم فإنه غفر لكم»[1].

قال المصنف ﷺ:

«والمُعْطي هُوَ الله مِن حَيْثُ ما هُو خازِنٌ لِما عِنْدَه في خزائِنِه فَما يُخْرِجُهُ إلاَّ بِقَدَرٍ مَعلومٍ عَلى يَدي اسْمٍ خاصٍ بِذلِكَ الأمر ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [طه: 50] عَلى يَدي الاسمِ العَدلِ وأخواتِهِ».

قال الشارح ﷺ: (والمُعطي) في جميع ما ذكرناه (هو الله) الجامع لما كان في القوة الاسم الله، بالوضع الأول كل اسم إلهي؛ بل كل ما يكون عن مسمَّاه أثر في الكون تاب مناب كل اسمٍ لله تعالى.

فإذا قال قائلٌ: يا الله، فانظر في حالة القائل التي بعثته هذا النداء، أو انظر أي اسمٍ إلهيٍ خاص بتلك الحالة، فذلك الاسم الخاص هو الذي يطلب هذا الدَّاعي، بقوله: يا الله؛ لأنَّ الاسم الله، بالوضع الأول إنَّما سماه ذات الحق، وبيده ملكوت كل شيء؛ فهو مرتبة الألوهة.

فلهذا ناب الاسم الدال عليها على الخصوص مناب كل اسمٍ إلهيٍ، فالخازن هو الله وخدامه وسدنته الأسماء؛ (فهو من حيث هو خازن لما عنده من خزائنه).

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: 21].

اعلم أنَّه ما مِن شيءٍ أوجده الله تعالى في العالم إلا وله أمثال في خزائن الجود، وهذه الخزائن قد تكون في كرسيه، وكرسيه علمه؛ بل الكرسي لغة عبارة عن العلم، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ [البقرة: 255] أي علمه.

قال الشيخ ﷺ في الباب التاسع والستين وثلاثمائة من «الفتوحات»: فهذه الأمثال التي تحتوي عليها هذه الخزائن لا تتناهى أشخاصها، فالأمثال من كل يوجد في كل زمان فرد في الدنيا والآخرة دائمًا أبدًا، والخزائن تعلو أو تسفل، فأعلاها كرسيه، وأدناها خزنته الإنكار في البشر، وما بين هذين خزائن محسوسة ومعقولة؛ بل كلها عند الله فإنَّها عين الوجود، بل كلها هو الكرسي؛ لأنه علم الله في العالم بالعالم، فالخزائن

(1) أخرجه البخاري (1095/3).

منحصرة بانحصار أنواع المعلومات ومرجعها وإنْ كثُرت إلى خزانتين: خزانة العلم بالله، وخزانة العلم بالعالم، وإنْ شئت قلت: خزانة العلم بالأنفس، وخزانة العلم بالآفاق.

وقد نبّه تعالى عباده في كتابه العزيز أن عنده خزائن كل شيء، والخزائن يقتضي الحصر، والحصر يقتضي التقييد، ثم بين أنّه ما ينزل شيء منها إلا بقدرٍ معلومٍ، وبوقتٍ معلومٍ.

فقال ﷺ: (فما يخرجه إلا بقدرٍ معلومٍ): أي بوقتٍ معلومٍ، فمقدار معلوم في الدنيا بحسب طلب الأعيان، وقدر ما وهو قدر معلوم له تعالى في الأزل، إنما قال بحسب طلب الأعيان؛ إذ لا يقبل مِنه قابل إلا ما هو عليه في نفسه من الاستعداد، فيحكم باستعداده على مواهب خالقه، فلا يعطيه إلا ما يقتضيه طلبه في الدنيا؛ وإنّما قلنا في الدنيا؛ لأنَّ الشيخ ﷺ ذكر في الباب السادس والثلاثين وخمسمائة من «الفتوحات»:

إنَّ هذا حكم في الدنيا، فإذا كان في الآخرة عاد الحكم فيما يحوي عليه هذه الخزائن التي عند الله إلى العبد العارف، الذي يحمل الله سعادته، فيدخل فيها متحكمًا فيخرج منها ما شاء بغير حسابٍ، ولا قدر معلوم؛ بل يحكم ما يختار الوقت وهو أنّه يُعطي التكوين في الآخرة، ويكشف له أنّه عين الخزانة التي عند الله فإنّه عند الله ﴿وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ﴾ [النحل: 96] فكل ما حظر له تكوينه كونه، فلا يزال في الآخرة خلافًا دائمًا، ويرتفع عليه التقدير والتحجير.

قال ﷺ: (إنّه لا يخرجه القدر إلا بقدرٍ معلومٍ): أي في وقتٍ معلومٍ، أو مقدارٍ معلومٍ، فلا يستبطئ أحد، ولا يقنط في إجابة دعائه، ويثابر مثابرة رسول الله ﷺ يردد آية: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [المائدة: 118] فإنّه ﷺ سأل ربه إلحاحًا منه على ربه في ليلته الكاملة إلى طلوع الفجر يرددها، ولم يعدل إلى غيرها؛ وذلك لعلمه بأنّه لولا وفق الله عبده بالعطايا ما وفقه بسؤاله، فافهم.

(على يدي)، واليدان عبارة عن تقابل الآثار، والطبيعة لا تتأثر إلا مما يناسبها، وهي متقابلة، فجاء باليدين متقابلة فيهما، أعطي ومنع، وفرق وجمع، وبهما جمال وجلال، وإدبار وإقبال، اسم خاص بذلك الأمر فـ ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: 50]، وبيَّن أنّه أعطى العالم وجوده عطاءً امتنانيًا، وأعطى كل موجودٍ خلقه عطاءً

وجوبيًا، قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: 54].

فرحم الخلق بإعطاء ما يطلبونه منه تعالى، وما فصّلنا هذا التفصيل؛ لأنّه ﷺ في حضرة العطاء في «الفتوحات»: فصّل العطاء منه واجبًا وامتنانًا، فالعطاء الامتناني منه كالنوافل منّا، والعطاء الوجوبي كالفرائض من العبد؛ لأنّه قال تعالى على لسان رسوله: «إنّه كتب على نفسه الرحمة»، وقال: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: 16]، وكما قال: ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل: 9].

(على يدي اسم العدل) ورد في الخبر الصحيح: «بالعدل قامت السماوات والأرض»[1].

وإنْ كان العدل هو الميل والانحراف، ولكن أحد الجانبين الذي يطلبه الحكم التابع للمحكوم عليه، ومن هذه الحضرة خلق العالم على صورته، ومَن هنا كان عدلاً؛ لأنّه عدل من حضرة الوجوب إلى حضرة الإمكان، وكذلك عدل بالممكنات من حضرة ثبوتهم إلى وجودهم، فأوجدهم بعد أنْ لم يكونوا، بكونه جعلهم مظاهر، وبكونه كان محلاً لظهور إمكانهم.

وهذا كله من خزانة العدل، ومنها يقسم الله العدل في العالم بين عباده، وحظ الكامل مِنه أنّه إذا كشف الله عن ذاته، فرأى جميع العالم في حضرته، ورأى رقائق بينه وبين كل جزءٍ من العالم، فحمد يحسن إلى العالم من نفسه على تلك الرقائق، فيعطي على حكم الأصل كل ذي حقٍّ حقه، كما أعطي الأصل كل شيءٍ خلقه، فيوصل الإحسان لكل ما في العالم بهمته من الغيب، كما يوصله الحق من الأسباب لكل برٍّ وفاجرٍ، فيجهله العالم ذلك الإحسان من الكامل؛ لأنّه لا يشهده في الإحسان كما يجهل الحق بالأسباب.

فيُقال: لولا كذا ما كان كذا، فإذا حققت النظر في الوجهين الحقي والخلقي، فما أحسن أحد إلا لنفسه، والتنبيه على ذلك من جهة العبد، قوله سبحانه: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾ [الإسراء: 7].

وكذلك ورد عن سيّدنا علي المرتضى - كرّم الله وجهه - أنّه قال: «ما أسأت إلى

---

(1) أخرجه الحكيم الترمذي (125/2).

أحدٍ أبدًا، قالوا: صدقت، ثم قال: وما أحسنت إلى أحدٍ أبدًا، فقالوا: وأما الإحسان فقد أحسنت إلينا، فقرأ قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: 46]».

وأما من جهة الحق هو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ﴾ [الشورى: 53]، فلا يقع الأمر إلا منه وإليه، (وأخواته) كالمقسط.

قال المصنف ﷺ:

«وأسماءُ الله وإنْ كانَتْ لا تتناهى؛ لأنَّها تُعْلَمُ بما يَكُون عَنها وما يكونُ عَنها غير مُتَنَاهٍ وإنْ كانَتْ تَرجِع إلى أصولٍ مُتَناهِية هِيَ أمّهاتُ الأسماء أو حَضْراتُ الأسماء، وعلى الحقيقَة فَما ثَمَّ إلاَّ حَقِيقَةٌ واحِدَةٌ تقبل جَمِيعَ هذِهِ النسبِ والإضافات الّتي تُكنَى عَنها بالأسماء الإلهيّة، والحقيقَةُ تُعْطي أنْ تَكُونَ لِكلّ اسمٍ يَظْهَرُ إلى ما لا يَتَنَاهَى، حَقِيقَةٌ تُتَمَيَّزُ بِها عَن اسمٍ آخَرَ، وتِلكَ الحَقِيقَةُ الّتي بِها يَتَمَيّز الاسمُ عَيْنُهُ لا ما يَقَعُ فِيهِ الاشتراكُ، كَما أنّ الأعطيات تتميز كلُّ أعطيَةٍ عَنْ غيرها بشَخْصيتِها، وإنْ كانَت مِن أصلٍ واحِدٍ، فَمَعلُوم أنَّ هذِهِ مَا هِيَ هذه الأُخرى وسَبَبُ ذلِكَ تَميُّز الأسماء، فَما في الحَضرَة الإلهيَّةِ لاتّساعها شَيءٌ يَتَكَرَّرُ أصلاً هذا هُو الحقُّ الّذي يُعَوَّلُ عَليه».

قال الشارح ﷺ:

(**وأسماء الله وإن كانت لا تتناهى**): أي من حيث الجزئيات؛ (**لأنها تعلم**) هذه علة عدم التناهي للأسماء، فإنّها تعلم (**بما يكون عنها**)، ويوجد منها على الأحيان، (**وما يكون عنها غير متناهية**): أي أنَّ معلوماته المتأثرة منه لا نهاية لها من حيث جزئياتها، وهي معلومة لنا، وكل متأثرٍ مؤثر خاص، ولا بُدَّ وذلك؛ لأن الواحد لا يصدر إلا من الواحد، وهذا الواحد غير الأول؛ لأنه لا تكرار في التجلّي، فاستدل بعدم تناهي المتأثرات عدم تناهي المؤثرات التي هي الأسماء الإلهيّة، فهي غير متناهيّة (**وإن كانت ترجع إلى أصول متناهيّة هي أمّهات الأسماء**): كالأسماء السبعة المسمّاة بالأئمة السّبعة، وكالأسماء التّسعة والتسعين كما هو المشهور.

وهكذا المعلومات والحقائق الكونية، وإن كانت غير متناهية ترجع إلى أصولٍ متناهية، وهي الأجناس والأنواع والأصناف مع عدم تناهي الأشخاص، فهي في الأسماء تُسمّى أمّهات الأسماء (**أو حضرات الأسماء**) والمعنى يُقارب، ولكن في الأولى يريد بأن الأسماء تنتج بعضها من بعضٍ، (**وعلى الحقيقة**): أي في نفس الأمر،

(فما ثَمَّ إلا حقيقة واحدة)، وهي ذات معرّاة من جميع القيود والنسب حتى عن قيد التعري أيضًا، (تقبل جميع هذه النسب والإضافات التي يُكنى عنها بالأسماء الإلهيّة).

وبالقول والذهاب بالحقيقة الواحدة تتفضَّل أهل الكشف عن أهل النَّظر والفكر، ويمتاز أربابُ التحقيق عن أصحاب التدقيق، كالسوفسطائي، فإنه يرى الأشياء إضافات ونسب، كالأوهام والخيال كما يرى النائم، وهذه الأقاويل به إلا من أشهد هذا المشهد وقلبه مطمئنٌ بالإيمان، ومن هذا المشهد قول الصدِّيق الأكبر ﷺ: «ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله قبله» أراد التجلِّي في لا شيء، بل هذا المشهد هو الذي طلب ﷺ في قوله: «اللهم أرنا الباطل باطلاً»[1].

فإن الباطل هو العدم، ورؤيته هي التجلِّي في لا شيء، ولكن الفيلسوف يرمي بهذا القول، وأصحاب الأدلة العقليّة كلهم يرمون به، وأهل الظاهر ما يقول به، ولا يقرب هذا الذوق التام إلا السوفسطائي، غير أنّه لا يقول بحقيقةٍ واحدةٍ، وهم يقولون بحقيقة واحدة متجلِّية ظاهرة في الوجود، يقبل جميع النسب والإضافات، وهي الاعتبارات العلمية سُمِّيت بالأسماء الإلهيّة، وما الاسم إلا اسمها، وما الإضافة إلا إضافتها، وهي واحدة وحدة الأحدية لا تكرار فيها.

وحقيقة تلك (الحقيقة تعطي) باقتضاءٍ ذاتيٍ (أن تكون لكل اسمٍ يظهر إلى ما لا يتناهى)؛ لأن ظهورات كل اسمٍ غير متناهٍ، فيعطي تلك الحقيقة بحسب اقتضائها الذاتي أن يكون لكل اسمٍ اسم منها (حقيقة): أي يكون لكل اسمٍ حقيقة مختصَّة بذلك الاسم بحيث (يتميز بها): أي بتلك الحقيقة (عن اسم آخر بالحدِّ) والرَّسم والوسم والاسم.

فكل اسمٍ يظهر بحقيقة غير متناهيَة، كل برزة عن برزة أخرى بالتشخص والتَّعين الشخصي، بل ما من شيءٍ موجود أوجده الله تعالى في العالم إلا وله أمثال في خزائن الجود التي في كرسيّه: أي علمه كما قرَّرناه مسبقًا، وهذه الأمثال التي تحوي عليها تلك الخزائن لا تتناهى أشخاصها، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: 21]، عدد الخزائن لشيء، فلا يخزن فيها إلا جواهر حقائقه، فيخرج أمثالها غير متناهية، فالأمثال من كل شيءٍ، يوجد في كل زمان فرد في الدنيا والآخرة، فلكل حقيقةٍ اسم، ولكل اسمٍ حقيقة، تُسمَّى الحقائق الأسمائية، (وتلك

(1) أخرجه ابن شاهين في «شرح مذاهب السنة» (40/1).

الحقيقة التي بها يتميز اسم عن اسم هي الاسم عينه) لأن حقيقة كل شيء عينه.

والتشخص أمر زائد على الذات، فإن الحقيقة ليست سوى عين صفة اعتبرت مع الذات، وصارت أسماء، والصِفة نسبة عدمية، فالحقيقة عين ذلك الاسم بلا أمر زائد في الوجود، فافهم، (**لا ما يقع فيه الاشتراك**)، كالأجناس والأنواع والأصناف، فإنه يقع الإفراد فيهما الاشتراك في الحقيقة، بخلاف ما نحن بصدد بيانه، فإنه كالكُلِيّ الطَّبيعي في الخارج، فإنه عين إفراد بالحد، وإن كان غيرها بالشخص.

(**كما إن الأعطيات تتميز كل أعطيةٍ عن غيرها بشخصيتها، وإن كانت من أصلٍ واحدٍ**) مع إنها يجمعها أصل واحد وهو أحدية العطايا ووتريتها، كما سبق ذكرها، يتفرع منها: أي من الأصل الواحد الأشخاص الجزئية.

(**فمعلوم أن هذه**) مع أنها عينها من حيث الحقيقة (**ما هي هذه**): أي هذه الأشخاص (**الأخرى**) من حيث التعين والتشخيص.

(**وسبب ذلك**) التميز في العطايا (**تميز الأسماء**) بعضها عن بعضٍ من حيث الأشخاص، وتميز الأسماء إنما هو مِن تميز الحقائق، فإن هذا الشخص ليس ذلك الشخص؛ لأن لكل اسمٍ حقيقة مختصة يتميز بها عن اسمٍ آخر بالحد والرسم، كالنوع المنحصر في الفرد، والأنواع المنحصرة في الإفراد، فظهرت العطايا التي هي مظاهر تلك الأسماء على صفة الأسماء، ولولا الحدود ما ظهر التميز في أصلٍ واحدٍ وعينٍ واحدةٍ، ولسبب ذلك كله وسعة حضرة الأسماء وسعة الحقائق، (**فما في الحضرة الإلهيَّة لاتِّساعها شيء يتكرر أصلاً**).

فمن هنا قال أبو طالب المكِّي - قُدِّس سرُّه - في «قوت القلوب»: لا تكرار في التجلِّي الإلهي، وذلك لوسعة حضرة أسماء المتجلِّي، وسعة قبول المتجلَّي له، وكثرة العطايا والمنح، فما تجلَّى في صورة واحدة فلا يزال في جمال جديد في كل تجلٍّ، كما لا يزال في خلق جديد، فله التحول دائمًا أبدًا، فلولا الحدود ما تميز أمر من أمر، ولكن التشابه إذا أُغمض جدًّا وقعت الحيرة، وخفي الحد فيه، فإنَّ شخصيات النوع الواحد متماثلة بالحد، متميزة بالشخص، فلا بُدّ مِن فارق في المتماثل بالحد، ويكفيك أن جعلته مثله لا عينه (**هذا هو الحق**): أي العلم بأنه لا تكرار في التجلِّي، هو العلم الحق، كما أشار إليه تعالى في قوله: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: 15] وكما قالت بلقيس: ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ [النمل: 42] كأنها كانت عالمة به أم لها حدس من نفس

السؤال، فإن السائل حيث سأل أعطاها الجواب في عين سؤاله إيَّاها، حيث قال: أهكذا عرشك، وما قال: هذا عرشك، كأنه لقَّنها الجواب، فهذا من مقام قوله تعالى: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: 6] فإنه تلقين جواب في عين السؤال من العناية التي له تعالى بعبده، فافهم.

(الذي يعول عليه)، فينبغي أن تعلم أن الأسماء الإلهيَّة غير متناهيةٍ، ومظاهرها حقائق الممكنات غير متناهية، فالمعطي غير متناهٍ لا كما قاله صاحب الذوق المقيَّد، لمَّا رأى التكرار كتكرار الأيام والليالي والشهور، فقال: بالدور، والذي ما يقول بالتكرار لا يقول بالدور؛ بل يُسمَّى النهار الجديد والليل الجديد، وليس عنده تكرار جملة واحدة، فالأمر عنده له بدء وليس له غاية، كما فهمت من تفصيلنا آنفًا، فما حجب أهل الدور أن يقولوا: كمال أوسع الكشوف إلا قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: 245]، فسمَّاه رجوعًا؛ وذلك لكونه يشغلهم عنه بالنظر إلى ذواتهم، وذوات العالم عند صدورها من الله.

فإذا وفوا النظر فيما وجد من العالم تعلقوا بالله، فتخيلوا أنهم رجعوا إليهم من حيث صدورهم عنه، وما علموا أن الحقيقة الإلهيَّة التي صدروا عنها، وإنما نظروا لكونهم رجعوا إلى النَّظر في الإله بعدما كانوا ناظرين في نفوسهم، لما لم يصح أن يكون وراء الله مرمى، فما قال: بالدور إلا من جهل ما يخلق فيه على الدوام والاستمرار، ومن لا علم له بنفسه ولا علم له بربه.

قال بعض العارفين في هذا المقام: النفس بحرٌ لا ساحل له، يشير إلى عدم التناهي، فافهم.

قال المصنف ﷺ:

«وهذا العِلْمُ كان عِلْمَ شيثٍ ﷺ ورُوحُه هُوَ المُمدُّ لِكُلِّ مَنْ يَتَكَلَّمُ في مِثلِ هذا من الأرواح ما عَدا روح الخاتِمِ فإنَّهُ لا تأتيهِ المادَّة إلاّ مِنَ الله لا مِنْ روحٍ مِنَ الأرواحِ، بَلْ مِنْ رُوحِهِ تَكُونُ المادَّةُ لجَميعِ الأرواحِ، وإن كانَ لا يَعْقِلُ مِنْ نَفْسِهِ في زَمانِ تَركِيبِ جَسَدِهِ العُنْصُرِيِّ، فَهُوَ مِنْ حَيثُ حَقِيقَتِهِ وَرُتْبَتِه عالِمٌ بذلك كُلِّهِ بِعَينِه، مِنْ حَيثُ ما هُوَ جاهِلٌ به مِنْ جِهَة تَركِيبِه العُنْصُرِيّ فَهُوَ العالِمُ الجاهِلُ، فَيقبلُ الاتصافَ بِالأضْدادِ كَما يَقْبَلُ الأصلُ الاتّصافَ بذلك، كالجَليل والجَميلِ والظاهِرِ والباطِنِ والأوَّلِ والآخِرِ».

قال الشارح ﷺ:

(وهذا العلم): أي العلم بالأعطيات على التفصيل المذكور بتقاسيمها وأنواعها وأصنافها، يتحدد أمثالها، (كان علم شيث عليه السلام)، وكان عليه السلام فتح باب هذا الجنس من التجلّيات والعلوم، وكان عليه السلام أوَّل منح أُعْطي لآدم عليه السلام، (وروحه هو الحَمْد لكل من يتكلم في مثل هذا من الأرواح)؛ لأن رُوْحه عين تلك النسب المخصوصة ألوهيَّتُه؛ وذلك لأنه إذا أخذتها تفصل بالحدود المخصوصة فوجدتها بالتفصيل نسبًا خاصة، وبالمجموع أمرًا وجوديًا يُسمَّى رُوْحًا وجسدًا أو جسمًا.

وهذا بعينه ما قالوا أنَّ الأجسام أعراض مجتمعة في عين واحدة، وصارت جسمًا، ومن هذا الذوق ما قال ﷺ في «الفتوحات»: من أراد أن يراه ﷺ ممن لم يدركه من أمَّته فلينظر إلى القرآن؛ فإن القرآن انتشأ صورة جسمية، يقال لها: محمد بن عبد الله، والقرآن كلام الله وصفته، فكان محمد صفيه تعالى بجملته، ورد أوجهه تعالى، انتهى كلامه.

وقال ﷺ في كتابه «الإسفار عن نتائج الأسفار»: إن الإنسان الكامل على الحقيقة هو القرآن، نزل من حضرة قدسه إلى حضرة قدسه، والقرآن حق وبحقيقته هو ﷺ. انتهى كلامه.

وقال ﷺ في «الفتوحات»: إن أعيان الموجودات إذا فصلتها بالحدود وجدتها بالتفصيل نسبًا، وبالمجموع أمرًا وجوديًا، ولا يمكن المخلوق أن يعلم صورة الأمر فيها، ولا يقبل التعليم والتعريف من الله؛ لأنه ذوق، فأشبه العلم بذات الله تعالى، والعلم به محال حصوله لغيره، فمحال حصول هذا العلم لغيره تعالى، قال ﷺ في الباب الرابع والتسعين وثلاثمائة من «الفتوحات»: هذه المسألة ما أحد نبّه عليها، فإنها صعبة التَّصور، بل ولا يدري ذلك إلا مَن وقع له الإسراء التجلّي، وهو إسراء حل تركيبهم، فيوقفهم بهذا الإسراء على ما يناسبهم مِن كل عالم، بأن يُميّز بهم على أصناف العالم المركَّب والبسيط، فيترك مع كل عالم من ذاته ما يناسبه.

وصورة تركه معه أن يُرسل الله بينه وبين ما ترك حجابًا فلا يشهده، ويبقى له ما بقي هكذا هكذا، حتى يفنى منه كل الأجزاء الكونية، ويبقى بالسرِ الإلهي الذي هو الوجه الخاص الذي من الله له، فإذا بقي وحده رفع عنه حجاب الستر، فيبقى معه تعالى كما بقي كل شيءٍ منه مع مناسبة، فيبقى العبد في هذا هو لا هو.

فإذا بقي هو لا هو أُسري به من حيث هو إسراء معنويًا لطيفًا فيه؛ لأنه في الأصل

على صورة الحق؛ ليريه من آياته فيه، فإذا رجع إلى عالم الحِسِّ عاد لتركب ذاته، فما زال يمر بهم على أصفاف العالم، ويأخذ مِن كل عالمٍ ما ترك عنده في ذاته، فلا يزال يظهر طَورًا بعد طوْرٍ إلى أن يصل إلى أرض طبعه، فرأى نفسه معاني مجسدة، وهذا طريق معرفة هذه المسألة، فافهم.

فإذا عرفت هذا أن المعاني وعلوم المنح تجوهرت وتجسَّدت، وصارت روحًا خاصًّا مُسمًّى بشيث يعني: تجوهرت العطايا على صورة شيث، فكل روحٍ لا ينال منها إلا بها، فإنه ﷺ عينها، وأول تعين لهذا التجلِّي الخاص، فافهم.

(ما عدا روح الختم) ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[يوسف: 76]؛ لأن روحه خاتم الأرواح، وهو يشرف على الكل، ولا يشرفون عليه، وإلا يكون ختمًا، وهو ختم الله الدوائر الكمالية، وصاحب أوسع التجلِّيات، فيحيط ولا يُحاط، وبيان ذلك أنَّ نهاية الأرواح الكمالية البشرية رؤية الغاية والنهاية، والختم لا نهاية له، والله من ورائهم محيط؛ لأن الصورة الإلهية به كملت، وفيه على الكمال شهدت، فهو حسبه كما هو حسبه؛ ولهذا كان خاتم الكمال، وفاتح المقصود، وما وراء ذلك إلا العدم المحض، الذي ما فيه حق ولا خلق، فافهم.

فلا يأخذ الختم إلا من الله الحق، (فإنه لا يأتيه المادة إلا من الله)، من الوجه الخاص المختص به، فلمَّا قال: إن الرُّوح شيث مهد الأرواح، سوى رُوح الخاتم، كان يوهم أن روح الختم لا يأخذ منه ولا يعطيه، فاضرب عن هذا.

وقال: (بل من روحه تكون المادة لجميع الأرواح): أي بل يأخذ روح شيث وغيره من الأرواح من روح الخاتم، قبل التعلُّق بالأجسام، وبعد التعلُّق بها، وبعد المفارقة عنها؛ لأنه عين القلم الأعلى، وله الأسفل والأعلى، بل القلم من أجزائه، كما قال صاحب البردة في قصيدته:

فَإنَّ مِنْ جُودِكَ الدُّنيا وضُرَّتها ... ومِنْ عُلومِك علمُ اللَّوْحِ والقَلمِ

جعل ما ظهر من اللوح والقلم من العلم، أي: من بعض علومه ﷺ، وليس من مبالغة شعرية، كما هي عادة الشعراء، بل هي بيان واقع في نفس الأمر؛ لأنهما جزئية ﷺ، بل إن الله قد أودع اللوح المحفوظ علمه في خلقه بما يكون منهم إلى يوم القيامة، ولو سُئل اللوح: ما فيك أو ما خطَّ القلم فيك؟ ما علم ذلك.

وهكذا الأمر في الوارث الحقيقي، وصاحب الأسوة التحقيقي، ختم الختم، فإنه ما فتح شيء إلا وقد ختم به، قال ﷺ: فمن فهم عن الله وأنصف من نفسه، فهم ما ذكرناه في بيان أخذ العلم الإلهي سابقًا، ومراتب الأخذ على ما قررناه لاحقًا، وعلم ما قلنا، بل فهم ما بيَّناه، ومن تعسف وأعرض ولم ينصف ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: 87].

(وإن كان لا يعقل) شيث أمثاله (ذلك) الأخذ والإمداد (من نفسه) هذا من مقام اللُّطف الخفي، فإن سريانه خفيٌّ عن الأبصار والبصائر من قوة التَّحول في الصورة والمعاني، فإلَيَّ إشارة، وليتلطَّف ولا يُشْعرنَّ بكم أحدًا، وعن هذا اللُّطف قال خاتم الولاية المحمدية ﷺ في حضرة اللُّطف من «الفتوحات» أنه نال منه في خلقه الحظ الوافر، بحيث قال: إنِّي لم أجد فيمن رأيت وضع قدمه فيه حيث وضعت إلا إن كان وما رأيته، لكنِّي أقول أو أكاد أقول: إنَّه إن كان ثَمَّ فغايته أن يكون معي في درجتي فيه، وإمَّا أن يكون أتمَّ فما أظن ولا أقطع على الله تعالى فأسراره لا تُحدُّ وعطاياه لا تُعدُّ.

(في زمان تركيب جسده العنصري) فأنساه الحق ذلك كما أنساه شهادتها بالربوبيَّة في أخذ الميثاق، مع كونه وقع بحضرة جملة من الأرواح القاهرة والملائكة والنفوس، وعرفنا ذلك بالإعلام الإلهيِّ، والتعريف الربَّاني، ولا يجحده إلا كافرٌ عنيدٌ، بل علم الإنسان دائمًا أبدًا إنما هو تذكر؛ لأنه قد علم كل شيء في عالم روحانيته ونسي، فمنهم من إذا ذكر تذكَّر، ولكن يؤمن به أنه قد كان شهد بذلك إنما قال ﷺ: الجسد ولم يقل الجسم إشارةً إلى أن الأمر برزخيٌّ، كما في عالم المثال وعالم الآخرة.

والأجسام هي المعروفة في العموم لطيفها وكثيفها وشفافها، ما يُرى منها وما لا يُرى، والأجساد هي ما يظهر فيها الأرواح في اليقظة الممثلة في صور الأجسام، وما يدركه النائم في نومه من الصور المشبَّهة بالأجسام، فيما يعطيه الحسّ، وهي في نفسها ليست بأجسامٍ. هكذا ذكره الشيخ ﷺ في «الفتوحات».

(فهو): أي شيث ﷺ وأمثاله من حيث حقيقته ورتبته عالم بذلك (بعينه): أي فهو عالم بعينه (من حيث ما هو جاهلٌ به من جهة تركيبه العنصري): أي متعلق، والجهل أمر واحد، وهو الأمر الذي هو به يقول: أنا في زمانٍ واحدٍ، وباعتبارٍ واحدٍ لا باعتبارين، كما تبادر إلى بعض الأفهام.

وبيان ذلك أنّه إذا تحلل الإنسان في معراجه إلى ربِّه، وأخذ كل كون منه في طريقه السلوك إلى المبدأ ما يناسبه لم يبقَ منه إلا سرّه.

وإن شئت قلت: وجهه الذي عنده من الحق، فيعلم به كل شيء؛ لأنه قواه وسمعه وبصره، وإذا رجع من هذا المشهد الأسنى إلى تركيبه وصورته التي كانت تحللت في عروجه، وردَّ العالم إليه جميع ما أخذه منه مما يناسبه، فاجتمع ورجع من علمه إلى جهله، كما كان قبل العروج، فيعلم باليقين أنه عالم جاهل.

(فهو العالم الجاهل): أي فهو عالم بعينه من حيث ما هو جاهلٌ؛ لأن العين فيهما واحد.

وهو الذي يقول: أنا، فإن الشيث ﷺ لا يُسمَّى شيئًا إلا باعتبار مجموع الرُّوح والجسد العنصري، (فيقبل الاتِّصاف بالأضداد): أي العين الواحدة المسمَّاة بشيث ﷺ، عالم جاهل باعتبار واحد في أمان واحد، ويُطلق على هذا العين الواحدة أنه جاهل في حال كونه يُطلق عليه أنه عالم؛ لأن الأمر المركَّب ذلك التركيب اقتضى ذلك الإطلاق والاتِّصاف بالأضداد، كالمركَّب القوي في الأدوية، يُقال فيه: حار بارد، ومسهِّل قابض، كالسبق فإنه مسهل قابض، وكالكزبرة حارة باردة، محلِّلة من حيث حرارتها، تحلُّل الخنازير، رادع مكثِّف من حيث برودتها.

والمجموع متَّصف بأنه حار بارد، ومحلِّل رادع، وهذا من المعقولات التي قبلتها العقول، فإذا فهمت هذا فاعلم أن الشارح القيصري رحمه الله في شرح هذا المتن قال: أي في مقام واحد باعتبارين، من حيث اتِّصافه بالصِّفات الكونية، وأما من حيث اتصافه بالصِّفة الإلهيَّة فباعتبار واحد، انتهى كلامه وفيه ما فيه؛ لأنه إذا قلنا بالاعتبارين فكيف قبل الاتِّصاف بالأضداد، وكيف يُقبل التشبيه؟.

كما قال ﷺ: كما يقبل الأصل الاتصاف بذلك، والأصل ما اتصف بالأضداد بالاعتبارين حتى يكون مثله، مع قوله واعترافه أنه من حيث اتصافه بالصفة الإلهية فباعتبار واحد، فكيف يشبِّه الذي باعتبار واحد بالذي باعتبارين؟! كأنه اشتبه عليه - رحمه الله - أن الصِّفات لهذه العين الواحدة لما جاءته من الأجزاء فاعتبر الاعتبارين، وعقل عن أصل التشبيه بالأصل؛ لأن حقيقة الموصوف في الوجهين حقيًّا وخلقيًّا وحدة العين، ولها صفتان متضادتان، فافهم.

(كما يقبل الأصل) الحق (الاتصاف بذلك الأضداد، كالجليل والجميل) فالجليل

من صفات الجلال وله التنزيه، والجميل من صفات الجمال وله التشبيه، والعين الواحدة يتصف بها من الأزل إلى الأبد، (والظاهر والباطن والأوّل والآخر)، وهي الأسماء الإضافية المحضة، ويجمعها الله كلها كالماء في الأواني المختلفة.

قال: «العارف لون الماء لون إنائه» قبل الاتصاف بحسب الأواني من لا صفة له، وكذلك فيما نحن بصدد بيانه؛ لأن الأصل وحدة العين، فقبل الصفات المتضادة، وهي في الظاهر عين الظاهر، وفي الباطن عين الباطن، وفي الأوّل والآخر كذلك فقبل الأضداد، وهي الحرارة والبرودة، والحلاوة والمرارة، وهو ما واحد، وهذا من مدركات العقل لا كلام فيه أراد ﷺ بهذا التمثيل تقريب العقول الضعيفة.

قال المصنف ﷺ:

«وَهُوَ عَيْنُهُ وَلَيْس غَيره فَيعلَمُ وَلا يَعلَمُ، ويَدري وَلا يدرِي، ويشهدُ ولا يشهدُ، وبهذا العِلْم سُمّي شيث؛ لأنَّ مَعناهُ هِبَةُ الله فَبيَدِهِ مَفاتيح العَطايا عَلى اختلافِ أصنافِها ونِسَبِها، فإنَّ الله وَهَبَهُ لآدَمَ أوَّل ما وَهَبَه، وَما وَهَبَهُ إلاّ مِنْهُ؛ لأنَّ الوَلَد سِرُّ أبيه، فَمِنْهُ خَرَجَ وإليه عَادَ، فَما أتاهُ غَريبٌ لِمَنْ عَقَلَ عَنِ الله تعالى، وكُلّ عطاءٍ في الكَونِ عَلى هذا المجرى، فَما في أحدٍ مِن الله شيءٌ ولا في أحدٍ مِنْ سِوى نَفْسِهِ شيءٌ وإنْ تَنوعتْ عَلَيه الصُّوَرُ، وَما كلُّ أحدٍ يَعْرِفُ هذا وأنَّ الأمرَ على ذلك إلاّ آحادٌ مِنْ أهلِ الله، فإذا رَأَيْتَ مَنْ يَعْرِفُ ذلك فاعْتَمِدْ عَلَيهِ، فذلكَ هُوَ عينُ صَفاءِ خُلاصَةِ خاصَّةِ الخاصَّةِ مِنْ عُمومِ أهلِ الله».

قال الشارح ﷺ:

(وهو عينه): أي هذا الفرع القابل للاتصاف بالأضداد عين الأصل، (ليس غيره): أي قبول الاتصاف بالأضداد عين قبول الاتصاف بالأضداد، (فيعلم ما لا يعلم) له شريك، وأيضًا كل علمٍ حصل بالابتلاء، كما قال عن نفسه تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: 31].

وهذا لإقامة الحجة، فإنَّه يعلم ما يكون قبل أن يكون؛ لأن علمه في ثبوته، ومن هذا الذوق: أي وفق ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾.

قال مجذوب: وأمّا أنا فعرفته، وأما هو فلا أدري أنّه عرفني أم لا: أي عرفني مجاهدًا أم لا؛ لأن علمه تابع للمعلوم، والمعلوم: أي كونه مجاهد إما ظهر بالنسبة إلى هذا القائل في ذلك الوقت، فلا يتعلق به العلم إلا بحسب ما هو المعلوم عليه.

وبيان ذلك أنَّ العلم المطلق من حيث التعلق بالمعلومات ينقسم إلى علمٍ يأخذه الكون من الله بطريق التقوى، وهو قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 282] وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾ [الأنفال: 29] وهو علم الإفراد.

قال تعالى في خضر عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً﴾ [الكهف: 65]، وهو علم التقوى، وإلى علم يأخذه الله من الكون عند ابتلائه إياه بالتكليف، وهو قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ [محمد: 31]، فلولا الاشتراك في الصورة ما حكم على نفسه بما حكم على خلقه من حدوث التعلُّق مع قدم العلم، وهذا التفصيل من نتيجة العلم بالتحقيق بالصورة، فإذا ظهر العبد على الصورة فلا يفوته شيء؛ لأنَّه حقيقي، «اتقِ الله حق تقاته»[1] وإذا ظهر الحق بصورة الإنسان الحيواني في مقام الحيواني في مقام: «جُعت فلم تطعمني»[2] في الحال الذي لا يكون الإنسان في صورة الحق، كان الحكم عليه كالحكم على صورة الإنسان الحيواني الذي ليس على صورة، فينسب إليه ما ينسب من حركة وسكون وانتقال، وشيخ وشاب، وغضب ورضاء، وفرح وابتهاج، ويد وكف وأنامل، وغير ذلك، فافهم هذا إني خففت عليك بإيراد هذا التفصيل حين علمت فيك ضعفًا، وهكذا البيان في قوله ﷺ: (ويدري ولا يدري): أي يدري ذاته أزلاً وأبدًا، ولا يدري له انتهاء، بل من هذا المقام ما قال ابن الفارض رضي الله عنه بلسان الجذب والعشق:

قلبـــي يُحدِّثنـــي بأنَّـــكِ مُتلفـــي ... رُوْحِـي فِـدَاكِ عَـرفْتِ أمْ لَـمْ تَعرِفِـي

وقد عرفت بيان هذه الكلمة حيث عرفت تفصيل ما عرفته في العلم آنفًا، (ويشهد) الغيب غيبًا، بل كله شهادة بالنسبة إليه تعالى، بل من هذا المشهد حكى رضي الله عنه في «الفتوحات» أنه قال:

يـــا مَـــنْ يَرانـــي ولا أَراه ... كَـــم ذَا أراه ولا يَرانـــي

فاستبكى شخص فقيه كان حاضرًا في البديهة:

(1) أخرجه الترمذي (714/3).

(2)أخرجه مسلم (1990/4)، وابن حبان (503/1).

يـــــا مَـــــنْ يَرانـــــي مُجْـــرِمًا ولا أَرَاه آخِـــــــــــــــــــذا
ذَا أَرَاه مُحْـــــــــــــــــــسنًا ولا يَرَانـــــــــي لائِــــــــذا

فسكت فافهم الإشارة، إنَّ كل فقيهٍ لا يستأهل بالبشارة، فلهذا أعرض الشيخ ﷺ ولم يبين له حقيقة المعنى، فلا يدري ما قلناه إلا مَنْ فَهِم إشارة «**جعت فلم تطعمني، ومرضت فلم تعدني**»[1] فإنَّه يتنزل إلى سماء الدنيا؛ ليرى هل من مستغفر وهو علاَّم الغيوب، فافهم.

فإن الأمر في نفس الأمر جمع النقيضين، فإنَّ التضاد في الأصل والفرع، يعلم ولا يعلم، ويشهد ولا يشهد، يدري ولا يدري، ومن هذا المقام قال الخراز - قُدِّس سرُّه -: عرفت الله بجمع الأضداد؛ لأنَّه عين العالم فعين العالِم وعين الجاهل عرفت أم لم تعرف، فافهم الأمر على ما هو عليه، ولا تخلط فيُخلط عليك، فإنَّه سبحانه يقول: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: 9] أما ترى حين خاطب نبيه بقوله: «**جعت فلم تطعمني ومرضت فلم تعدني**»[2] فقال: «**سبحانك إنك تُطعِم ولا تُطْعَم**»[3] فأعرض وأول الكلام حيث رأى فيه رائحة الاستعجاب والاستغراب، وهذا الكمل في هذا المقام يقلدون سيدهم قال ﷺ: «**مَن رآني فقد رأى الحق**»[4] فلما فهم ﷺ عدم الفهم من الحاضرين فقال: «**إن الشيطان لا يتمثل بي**»[5]، فافهم فإنَّ هذا هو العلم، بل هذا من العلم الذي ورد في الحديث الصحيح: «**إنَّ أفضل الأعمال العلم بالله، ينفعك معه قليل من العمل وكثيره، وأنَّ الجهل لا ينفعك معه قليل العمل ولا كثيره**[6]» رواه الحكيم عن أنس ﷺ.

ورد أنَّ «**المؤمن إذا تعلَّم بابًا من العلم عمل به أم لم يعمل به كان أفضل من أن يصلي ألف ركعة تطوعًا**[7]». رواه ابن لال في «مكارم الأخلاق» عن ابن عمر.

---

(1) سبق تخريجه.
(2) سبق تخريجه.
(3) سبق تخريجه.
(4) أخرجه البخاري (2568/6).
(5) أخرجه مسلم (1775/4).
(6) سبق تخريجه.
(7) أخرجه الديلمي (190/1).

وفي رواية أخرى: «**تطوعًا متقبلة، وإذا علمت الناس عمل به أو لم يعمل به فهو خيرٌ لك من ألف ركعة تصليها تطوعًا متقبلة** »[1] رواه الديلمي عن أبي ذر ﷺ ذكرها في «جمع الجوامع» هذا وقد ذكرت فيه غيبة المستبصر الفهيم، وغير هذا ما هو العلم في نفس الأمر، بل ترميه الحقائق وتمجه البواطن، فافهم.

ولهذا: أي بأنّه ممد الأرواح لهذه العطايا وفنونها، (**سُمِّي شيث**) شيئًا؛ لأنَّ (**معناه هبة الله**) بلسان السرياني، فلما كان ﷺ واسطة فيها، فكأنه عينها بل هو عينها كما بيَّنَّاه.

(**فبيده مفتاح العطايا**) لأن هذا النوع من التجلّي، هو ﷺ فتح بابه وبيده مقاليده (**على اختلاف أصنافها ونسبها**)؛ وذلك لأنه أول تفصيل وقع للإجمال الآدمي في تلك الأصناف من العلوم والمواهب والمنح والأعطيات.

(**فإن الله وهبه لآدم أول ما وهبه**)، فهو وهبٌ من الوهَّاب بصورة ألوهية الكمالية الفتحية، فهو فاتح أبواب الأعطيات والخيرات، خفيَّها وجليِّها، حقيرها وحليلها (**وما وهبه إلا منه**) أي ما وهب ذلك الموهوب إلا منه، فأخذ منه وردَّ إليه، قال تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: 139]، وقال في الحديث: «**إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أردها عليكم، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه**»[2] فما خرج الأمر منه أصلاً، ولا يخرج حفظًا بحق الأصل ومراعاته، فشيث ﷺ علمًا ووجودًا تفصيل آدم صورة ومعنى (**لأنَّ الولد سر أبيه**) فسر كل شيء حقيقته أو ثمرته، فعلى الأول أنَّ الولد سر أبيه؛ لأنّه تفصيل ما أجمل فيه، فحقيقة الأب التي كانت بصورة الإجمال ظهرت في مفصله على صورة الكمال بأحسن التقويم والجمال، فما ظهر الكمال العطائي بأنواعها وأصنافها إلا فيه بتفصيل الإجمال، فالأمر إجمالي وتفصيل وإجمال، وعلى الثاني فلأن السر هو الثمرة المكنونة في أكمامه، فهو سر أبيه وثمرته؛ لأن القابليات أعطت ذلك، فالذي بالقوة في الأب يظهر في الولد؛ لأن كل تجلّي يتأخر يضمن الأول مع الزيادة، وهكذا الأمر كما قيل بلسان العجم:

نقـــاش نقـــش آخـــر بهتريـــشد زوال

(**فمنه خرج وإليه عاد**): أي من آدم خرج شيث علمًا ووجودًا وصورةً ومعنًى،

---

(1) سبق تخريجه.

(2) أخرجه مسلم (1994/4).

وإليه عاد نفعه: أي نفع شيث عليه السلام؛ لأنه رأى تلك الكمالات المفصّلة في نفسه بولده الذي هو إفشاء سرِّه، وإنشاء أمره، وتفصيل مجمله، وإعراب معجمه، فما عمَّ آدم ومن دونه ذلك التفصيل في نفسه إلا بواسطة روحه الأقدس: أي روح شيث عليه السلام؛ لأنه بواسطة وممد لكل من يتعلم في مثل هذا العلم سوى روح الختم، فإنه خُتمت به الإحاطة، وما وراء الله مرمى، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: 12] وعلمه عين ذاته، وذاته عين الوجود، فقد أحاط بكل شيءٍ وجودًا، هذا هو الختم الذي ختم به العلم والوجود، فافهم.

(**فما أتاه غريب**): أي إذا أُوتي الولد أسرار الوالد فما أتاه غريبٌ، أي: أجنبي من خارج؛ لأنه تفصيل ما أجمل فيه عليهما السلام، فكما أن الولد عضو من أعضائه التي فصل منه، كذلك من حيث تفصيل ما عنده من المحملات الأمهات، فمن علم الأمر على هذا النمط علم ما قلناه، وذلك لا يكون (**إلا لمن عقل عن الله**) تجلّيًا شهاديًا عيانيًا، أو تعريفًا إيمانيًا؛ لأنه على كشفٍ وعلمٍ منه، بل (**وكل عطاء في الكون على هذا المجرى**)، فإنه ما يجني أحدٌ من شجرة نفسه إلا ثمرةٍ غرسها، ولكن الناس لا يشعرون.

(**فما في أحدٍ من الله شيء**) أي بل (**وما في أحدٍ إلا ما هو له**).

«**فمن وجد خيرًا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك، فلا يَلومنَّ إلا نفسه**»[1] انظر ما الذي أخبرك سيد الخلق - صلوات الله وسلامه عليه وآله - في هذا الحديث، أدبك بأحسن تأديب تتأدب مع الله، إنك من وجه مرآة وجوده تعالى، وهو تعالى مرآة أحوالك، فما دام العبد محاذيًا له، يقابل كل شيءٍ بالطهارة المشروطة المعتبرة عند العلماء بالله، إنهم أهل الله وخاصته فيظهر فيه كل كمالٍ، وإذا انحرف عن كمال المسامتة؛ لاقتصاء حكم حقيقة الانحراف؛ لأنه حقيقةً لا يَلومنَّ إلا نفسه، فافهم.

(**وإن تنوعت عليه الصور**) لا تحسبها أنها خارجة عنك، كما ترى في المرائي المختلفة صورًا مختلفة، طولاً وعرضًا، فإنها تنوّعت الصور بحسب المرائي لا غير، وأنت الرائي على ما أنت عليه، وتعلم بذلك في نفسك، ولا تنكر تنوعات صورك بل تعلم أنها صورك، وهكذا الأمر في الكون، وإن شئت قلت في الإلهيات: أما ترى صور

(1) سبق تخريجه.

المنام، إنك ترى صورًا مختلفة، وتتحقق أنه لا غير هناك.

قال الشيخ ابن الفارض - قُدِّس سرُّه - في هذا المقام:

أتحسبُ مَنْ ناجاك في سِنَةِ الكرى سواك بأنواع العلوم الجليلة

فإنه - قُدِّس سرُّه - ضرب المثل لوحدة النفس مع تنوعات أوصافها وصورها، فإنه عينها لا غيرها، (وما كل أحدٍ) (من عموم أهل الله) بل خواصه (يعرف هذا): أي أن الأمر منك إليك، إنما قال ﷺ: (يعرف) ولم يقل: (يعلم) لأن المعلومات كلها تذكار، فإنها كانت معلومة ثم أُنسيت ثم أعلمت، فسمِّيت معرفة؛ لأنها مسبوقة بالجهل بخلاف العلم، فلهذا إن العلم صفة الحق، والمعرفة صفة الكون، (وأن الأمر على ذلك): أي لا يعرف أن كل ما خرج منك يعود إليك، (إلا آحاد من أهل الله) أهل القرآن هم أهل الله؛ لأن القرآن كلام الله، وكلامه علمه، وعلمه عينه، فلم يجعل لهم صفة سوى عينه، ولا مقام أشرف ممن كان عين الحق صفته على علمٍ منه، فافهم.

وأما آحادهم فهو الذي كشف له عن عينه، ورأى أحكامها بعينها بحسب القابليات والاستعدادات، ثم تنزل من عالم الغيب إلى عالم الشهادة، بلا قصور وفتور، بل بعلمٍ وشعور، بل بكشفٍ وشهودٍ وحضرٍ، بل بذوقٍ في نفسه، إن الأمر منه بدأ وإليه يعود.

(فإذا رأيت من يعرف ذلك) بالكشف والشهود والذوق، (فاعتمد عليه أنه) صاحب علم تام عام، فإنه لا يكشف هذا الكل أحد، بل هو للمعتني الفرد المعتمد الذي به الحل والعقد.

(فذلك): أي ذلك العارف هو (عين صفاء خلاصة خاصة الخاصة من عموم أهل الله تعالى).

هذه مراتب خمس للخواص من عموم أهل الله، وهم أهل القرآن، فإنهم أهل الله وخاصته على هذه المراتب الخمس، فالخاصة هو المخصوص بعناية الوصول خاصة، وخاصة الخاصة، والواصل المردود، ولكن من الحق بالحق، وخلاصتها هو الواصل المردود به لا بالحق، وهذا أتم من الأول؛ لأنه صاحب جمع وفرق، بخلاف الأول؛ فإنه صاحب جمع لا يرى في الوجود غير الله، وصفاؤها هو الذي صفا عن كدورات الأكوان، ولوُث شوب الحدوث والإمكان، وعينها: أي عين الإنسان الكبير، المسمَّى بالعالم، وهو جلاء مرآة الوجود الذي أشار إليه في النص الآدمي بقوله: (كان

آدم عين جلاء تلك المرآة التي هي العالم المسمَّى بالإنسان الكبير)، فافهم.

قال المصنف ﷺ:

«فأيُّ صاحِبِ كَشْفٍ شاهَدَ صُورَةً تُلقى إليه ما لَم يَكُنْ عِنْدَه مِنَ المعارِفِ وتَمْنَحُهُ ما لَم يَكُن قَبْلَ ذلِكَ فِي يَدِهِ فَتلكَ الصُّورةُ عَيْنُهُ لا غَيْرُهُ. فَمِنْ شَجَرةِ نَفْسِهِ جَنى ثَمَرَةَ عِلْمِهِ، كالصُّورَةِ الظاهِرَة مِنْهُ في مُقابَلَةِ الجسمِ الصَّقيلِ لَيس غيرَه، إلاّ أنَّ المحلَّ أو الحضْرةَ الَّتي رأى فِيها صُورةَ نَفْسِهِ تُلْقَى إليه بتقلبٍ من وجهٍ لحقيقة تِلكَ الحَضْرَةِ، كَما يظهر الكَبيرُ في المرآةِ الصغيرة صغيرًا، ويظهر غيرُ المستطيل والمتحرك في المستطيلة مُستطيلاً، والمتحرِكَةِ مُتحرِكًا، وَقَدْ تُعْطِيهِ انتكاس صُورتِهِ مِنْ حَضْرَةٍ خاصَّةٍ، وَقَدْ تُعْطيه عَيْنَ ما يَظْهَرُ مِنها فَيُقَابِلُ اليَمينُ مِنها اليَمينَ مِنَ الرّائي، وقَدْ يُقَابِلُ اليَمينُ اليَسارَ وَهُوَ الغالِبُ في المرايا بِمَنْزِلَةِ العادَةِ في العُموم، وبِخَرْقِ العادةِ يُقَابِلُ اليَمينُ اليمينَ ويَظْهَرُ الانتكاسُ، وهَذا كُلُّهُ من أعطياتِ حَقيقَةِ الحَضْرَةِ المُتَجَلَّى فيها الّتي أنْزَلْناها مَنْزِلَةَ المَرايا».

قال الشارح ﷺ:

(**فأي صاحب كشف**): أي صوري إنما قلنا: صوري؛ لأن صاحب الكشف الذاتي لا يخفى عليه خافية؛ لأنه تحقق بالحق، وبالحق عرف العالم أعلاه وأسفله.

(**شاهد صورةً تُلقى إليه**): أي من عالم المثال المقيَّد أو المطلق، كما يرى نائم في المنام، وصاحب اليقظة في خياله أن واحدًا يقول له: أنت ولي الله، وأمثال ذلك.

(**ما لم يكن عنده**): أي الذي لم يكن عنده قبل ذلك، ولا يعلم ذلك من نفسه من المعارف، وتمنحه ما لم يكن قبل ذلك في يده.

أشار ﷺ بذلك إلى أن الإلقاء لا يكون إلا منحًا لا محنًا، (**فتلك الصورة**) التي يُشاهدها حيث تمثّلت له، إمّا في عالم الأرواح الذي هو المثال المطلق، والخيال المطلق، وهو ميدان الإيجاز والتكوين، ويُسمَّى ذلك عند الحكماء: خيال العالم؛ لأن العالم هو الإنسان الكبير وهذا خياله.

وإمّا في الخيال المقيَّد الذي هو خليج من البحر المطلق، فتلك الصورة المرتبة (**هي عينه**): أي عين صاحب ذلك الكشف، سواء كانت صورة مَلكيَّة وفلكيَّة أو إلهيَّة، أو غير ذلك، فإنها عينه (**لا غيره**)، بل إنما هي صورة اعتقاده واستعداده الذي بعينه الثانية تتمثل في مجال عالم المثال على حسب الأحوال، ومقتضى الحال، فقد تظهر

صورة واحدة لمعانٍ كثيرة، يُراد منها في حق صاحب الصورة: أي تظهر تلك الصورة الواحدة في خيال أشخاص متعددة كثيرة مختلفة، يُراد منها تلك الصورة في حق صاحبها معنى واحد من تلك المعاني، فمن كشفه بذلك فهو صاحب النور.

(**فمن شجرة نفسه جنى ثمرة غرسه**) لأن ما في أحدٍ من أحدٍ شيئًا، بل ما في أحدٍ سوى نفسه شيء؛ لأنه سبحانه يهبك متاعك من غير الوجه الذي تعرف منها أنه متاعك؛ امتحانًا، فإذا انكشف الغطاء وكان البصر حديدًا علمت ورأيت أنه ما أعطاك إلا ما كان بيدك، فما زاد من عنده، وما أفادك مما لديه إلا تغير الصورة، وهو أيضًا من مقتضى ذاتك وعينك، كالمطر للأرض، وليس عين ما تطلبه من الارتواء سوى بحارها، ثم نزل إليها مطرًا فتغيرت صورته؛ لاختلاف المحل، فما شربت وما ارتوت إلا من مائها، فهو دولاب دائر، منه يخرج وإليه يرجع؛ ليقع الفرق بين الماء الأصلي الأولي، وبين الهواء المستحيل ماء.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: 96].

(**كالصورة الظاهرة**)، أراد بذلك تمثيل الغائب بالشاهد، قال: الصورة المشهودة (**منه**): أي من الرائي (**في مقابلة الجسم الثقيل**)، كالمرآة والماء وغيرهما كالخيال.

(**ليس غيره**): أي المرئي المشهود في الجسم الثقيل ليس غير الرائي، وإلا لكان فيه قبل المقابلة، ويعلم ذلك على الاختلاف الواقع بينه وبين المرئي، فإنه قد يكون المرئي أطول مما كان الرائي عليه، أو أعرض أو أكبر أو أصغر، وذلك التفاوت من أثر المرآة.

فلهذا قال: (**إلا أن المحل**)، الذي هو المحلي والمظهر والمرآة، (**والحضرة التي رآها فيها**) وهي الجسم الثقيل الذي هو من حضرة الخيال التي رآها فيها (**صورة نفسه**) على غير ما هو عليه.

(**تلقى إليه بتقلب من وجه**): أي تلقي تلك الحضرة إلى الرائي صورته بنوع تقلب ليس في وجه الرائي، كالطول والعرض والاستدارة، وغيرها من الأوضاع والأشكال، وفي بعض النسخ يتقلب، قيل: إنه مغزو على الشيخ.

(**بحقيقة تلك الحضرة**): أي بنوع تقلب بحقيقة تلك الحضرة، باقتضاء حقيقة الحضرة، (**كما يظهر الكبير في المرآة الصغير صغيرًا والمستطيل مستطيلاً**)، كما في السيف أنه بيان مستطيلاً، (**والمتحركة**) متحركًا، كما في الماء، فإنه بحركته بيان المرئي

الساكن متحركًا.

(**وقد تعطيه**): أي الحضرة الصقيلة تعطي الرائي.

(**انتكاس صورته**) يرى صورته فيها متنكسة، وذلك (**من حضرة خاصة**)، كالماء وكل جسم صقيل يكون تحت القدم أو فوق الرأس، فإنه يعطي الانتكاس.

(**وقد تعطيه**): أي المرآة للناظر (**فيها عين ما يظهر منها، فيقابل اليمين منها اليمين من الرائي**).

قيل: إن حضرة السر وحضرة الروح يقابل فيهما اليمين من الرائي، وأنت تعلم أن اليمين والشمال بل الصور مطلقًا لا تتصور إلا في حضرة الخيال أو الحس، وأمّا إذا كانت المرايا متعددة متقابلة، فإنه إذا ظهرت صورة الرائي في المرآة مقابلة لمرآةٍ أخرى، فلا شك أنها تظهر صورته في المرآة الثانية بصورة الأصل، كما ترى اللوح المكتوب في المرآة معكوسًا فلا تُقرأ، فإذا قابلتها بمرآة أخرى ترى الخطوط بصورتها الأصلية وتُقرأ؛ وذلك لأن عكس العكس هو الأصل، أو على صورة الأصل.

(**وقد تقابل اليمين اليسار**)، كما في حضرة الحس (**وهو الأغلب، ويخرق العادة يقابل اليمين اليمين، ويظهر الانتكاس**)، كما في الماء إذا وقف الواقف عليه يرى فيه صورته متنكسة، بحيث يقابل اليمين منه اليمين منها ظاهرًا.

(**هذا كله**): أي الذي ذكرناه من تنوعات الصور الفائضة على صاحب الكشف على أنواعها وضروبها المفهومة، مما سبق من ضرب الأمثال من (**أعطيات حقيقة الحضرة المتجلَّى فيها التي أنزلناها منزلة المرئي**) فالحاصل أن جميع ما يُرى من الصور في حضرات متعددة متنوعة سريَّة أو روحيَّة أو قلبيَّة أو خياليَّة أو حسيَّة هي عينه لا غيره، ظهرت بحكم المرئي أو بحسب المجالي، والتنوع من أحكام الحضرات والمظاهر والمرايا والعين ثابتة، وهكذا الأمر في الإلهيات، فإنه يظهر بحكم المظاهر، فإنها كالمرائي للوجه الحق سبحانه وهو ثابتٌ لا يتغير أصلاً.

قال المصنف ﷺ:

«فمَنْ عَرَف استِعدادَهُ عَرَفَ قَبُولَهُ، وما كلُّ مَن عَرَف قَبُولَهُ، يَعْرِفُ استِعدادَهُ إلاّ بَعد القَبُولِ، وإنْ كانَ يَعْرِفُه مُجْمَلاً إلاّ أن بعض أهلِ النَّظَرِ مِنْ أصحابِ العُقُولِ الضَّعِيفة يَرَوْنَ أنَّ الله لَمّا ثَبتَ عندَهُم أنّهُ فَعّالٌ لِما يَشاءُ، جَوَّزُوا عَلى الله ما يُناقِضُ الحِكْمَةَ وَما هُوَ الأمرُ عليه في نَفْسِهِ؛ ولِهذا عَدل بَعضُ النُّظارِ إلى نَفيِ الإمْكانِ وإثْباتِ

الوُجُوبِ بالذّاتِ وبالغَيْرِ، والمُحَقِّقُ يُثْبِتُ الإمْكانَ ويَعْرِفُ حَضْرَتَه، والمُمْكِنَ وَما هُوَ المُمكِنُ، وَمِنْ أين هُوَ مُمْكِن وَهُوَ بِعَيْنِهِ واجبٌ بالْغَيرِ؛ ومِنْ أين صَحَّ علَيهِ اسم الغَيرِ الَّذي اقتَضَى لَهُ الوُجُوبَ وَلا يَعْلَمُ هذا التَّفصيلَ إلاّ العلماءُ بالله خاصَّةً».

قال الشارح ﷺ:

(**فمَن عَرف استعداده عَرف قبوله**)، فإن العلم بالعلة من حيث إنَّها علة يوجب العلم بالمعلول، كما يظهر في باب التضايف، فهو ممن عرف القبول بالاستعداد، لا من الذي عرف الاستعداد بالقبول؛ لأنه دونه.

(**وما كل مَن عرف قبوله يعرف استعداده**)، بل ولا يعلم ذلك الاستعداد: (**إلا بعد القبول**) حيث رأى أنه قبل ذلك، فعرف أن لولا الاستعداد ما قبل ذلك.

(**وإن كان يعرفه**): أي الاستعداد (**مجملاً**)، فالأول صاحب العلم التفصيلي بالاستعدادات التفصيلية، والثاني صاحب العلم الإجمالي بها، وأين هذا من هذا، بل الأول أتم وأعم ما يكون في معرفة الاستعدادات في صنعه؛ لأنه مطّلع على غيبه بعثوره على عينه، بل هو مشرفٌ على أحكام أعيان غيره وأحواله، فافهم.

فلما قرأ الاقتضاءات ذاتية، والطلبات والمنح النفثية نفسية علم أن الله فعالٌ لما يريد، وما يريد إلا ما يريد المريد، قال الله تعالى: ﴿**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ**﴾ [القصص: 68]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ**﴾ [الرعد: 11].

فمنهم شقي طلب شقاوته، ومنهم سعيد طلب سعادته، ولو شاء لهداكم أجمعين، لكنه لم يشاء؛ لأن الحكمة اقتضت ذلك، قال تعالى: ﴿**وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**﴾ [الحج: 10].

(**إلا أن بعض أهل النظر المتوغل**) في الدين (**من أصحاب العقول الضعيفة**) الذين ما وفُّوا النظر (**حقه يرون الله لما ثبت عندهم أنه فعال**) لما يشاء إنه يشاء إيجاد المحيل والمستحيل، مع أنه قال الله تعالى: ﴿**فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ**﴾ [البروج: 16].

وغفلوا عن حكم الإرادة أنّها ما تتعلق إلا بممكن الوجود، فالمراد لا يكون إلا أمرًا وجوديًا لا محالاً؛ لأنه حكيم ما يريد، إلا ما تقتضي الحكمة، وهذا القدر من العلم يُدرك بالعقل السليم من نفس الآية، فعدم إدراكهم ذلك القدر من ضعف فكرهم ونظرهم، جوّزوا على الله ما لا يجوز.

(وهو ما يناقض الحكمة البالغة، وما هو عليه الأمر في نفسه)؛ لأن المشيئة لها أحدية التأثير والتعلُّق؛ لأن الحق ليس بمحل الجواز، والمشيئة تابعة للإرادة، وهي تابعة للعلم، والعلم تابع للمعلوم، والمعلوم على ما هو عليه، قال تعالى: ﴿لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ﴾ [يونس: 64]، وليست كلماته سوى صور الممكنات كلمات إثر كلمات؛ فإنَّها على ما هي عليه، وما وقع منهم ذلك إلا لقصورهم في النظر والفكر، وغلوِّهم في التنزيه، فإنَّهم وقعوا في تجويز ما لا يجوز ولا يصح؛ بل ولا هو من الممكنات وهم لا يشعرون.

هذا من الغلو الذي نهى عنه ﷺ حيث قال: «إياكم والغلو في الدين؛ فإنما هلك مَن كان من قبلكم إلا بالغلو في الدين»[1] رواه ابن عساكر، ذكره في «جمع الجوامع».

فلهذا (عدل بعض النظار إلى نفي الإمكان): أي لما رأى بعض أهل النظر أن بعضهم أخطؤوا في قياسهم، وجوّزا على الله ما لا يجوز، وهو ترك العمل بالحكم والإيجاد كيفما اتفق، فعدل عن هذا القول إلى نفي الإمكان، (وإثبات الوجوب بالذات وبالغير، وسدَّ) باب الجواز أصلاً، وهو في نفسه ذوق؛ لأن الإمكان حكم وهمي لا معقول، لا في الله ولا في الخلق المسمَّي ممكنًا، فإنه لا يعقل هذا المسمَّى أبدًا إلا مرجَّحًا، وحالة الاختيار لا يعقل إلا بترجيح، ولا ترجيح.

وهذا غير واقع عقلاً لكن يقع وهمًا، والوهم حكمٌ عدمي، فما ثمة إلا واجب بذاته، أو فمشيئته الأشياء واحدة، وإذا زال الإمكان زال الاختيار، وما بقي سوى عين واحدة، وما عندها إلا أمرٌ واحد في الأشياء، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: 50]، فافهم.

فلما كان هذا الوجه من النظر أولى من الوجه الأول، فسمَّاهم النظَّار بصيغة المبالغة بخلاف الأول، فإنه قال فيهم: أهل النظر؛ لهذا السر الذي عرفته.

(والمحقق وهو) الذي تحقق بالوجود، ورأى الأشياء بالحق فيه ذوقًا لا كشفًا، فإنهما يكفيان ويشفيان فيه، فإنه (يثبت الإمكان) حضرة مستقلة بين الحضرتين: حضرة الوجوب، وحضرة الامتناع والمحال.

(ويعرف) بالذوق (حضرته وهي العدم) المضاف حضرة متوسطة برزخيَّة، وهي

(1) أخرجه النسائي (435/2)، وابن ماجه (1008/2).

حضرة المثال المتحقق، المسمَّى بحضرة الخيال المطلق، وهي على الحقيقة حضرة الوجوب من حضرات الحس، فلهذا يلحق المعاني بالمحسوسات في الصورة حتى يتخيَّل بالمحال محسوسًا، والخيال في الدرجة الأخيرة من الحس، فإنه يأخذ ما يكسوه من الصور للمحال وغيره، بل للواجب.

كما ورد في الخبر الصحيح: «**أن تعبد الله كأنك تراه**»[1] فأعطي الواجب حكم الممكن في وهم التصوير، فافهم.

ويعرف (الممكن) بل يشهده (ما هو الممكن)، وهو مظاهر الأسماء وحقائق الأعيان الخارجية، ظاهرة في الوجود لا بالوجود، كما قيل: الأعيان الثابتة ما شمت رائحة الوجود، كالصورة الظاهرة في المرايا، لا هي عين الرائي ولا غيره، ولا هو من حيث عدمه عين المحال ولا غيره، فكأنه أمر إضافي برزخي، عين غير لا عين ولا غير، **(ويُعرف من أين هو ممكن)** مع أنه صورة علمية للحق تعالى، وهو عين الذات الواجب، ولكن ليس إمكانه من هذا الوجه، بل إمكانه من حيث إنَّه مظهر من مظاهر الأسماء الإلهية التي تُسمَّى حقائق الأعيان الخارجية، فهي بالاعتبار الأول، أي: باعتبار أنها صور علمية عين الذات، وبالاعتبار الثاني أعيان الموجودات الخارجية وحقائقها.

(وهو بعينه واجب بالغير): أي ذلك الممكن الذي تسمِّيه ممكنًا إذا اعتبرناه صورة العلم الإلهي، قلنا: بوجوبه ولكن بالغير؛ لأن العلم عين الذات، والذات لها الوجوب، فله الوجوب بالواسطة، فالممكن في نفسه لا يتَّصف بالعدم ولا بالوجود سيَّما الوجوب، فإذا نسبته إلى الوجود الواجب نسبة مجهولة الكيفية، وجدت فيه رائحة وجوب الوجود، وإذا نسبته إلى العدم وجدته معدومًا؛ لأنه بذات لا وجود له ويعرف.

(من أين صحَّ عليه اسم الغير الذي اقتضى له الوجوب)، وذلك كما ذكرته فيه آنفًا: إن الصورة العلمية لها اعتباران: اعتبار أنها عين الذات ولها الوجوب، واعتبار آخر أنها عين من الأعيان، وحقيقة من الحقائق الخارجية، ومظهر من مظهر الأسماء الإلهية.

فبهذا الاعتبار صار غيرًا، ولكن اقتضى ذلك الغير الوجوب؛ لأنه بالحق ظهر في الوجود وكان به موجودًا، بل كان بنا بصيرًا، فهو بك في الأزل، فلم يزل بصيرًا ولا يزال بصيرًا، هذا معقولية الوجوب، فافهم.

---

(1) أخرجه البخاري (27/1)، ومسلم (37/1).

فإنه واجبٌ بك كما أنت واجبٌ به، بل العارف المحقق ما يرى للغير عينًا حتى يرى له حكمًا، فافهم.

فإن تحرير هذه المسألة عسيرٌ، وعلى إفهام النظّار غير يسيرٍ، فإن اللفظ يقصر عن بيانها، والتصور لا يضبطها؛ لسرعة تقلبها، وتناقض أحكامها، فإنها مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ [الأنفال: 17] فنفى وأثبت: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ [الأنفال: 17] فنفي كون محمد ﷺ، وأثبت نفسه وعينه، وجعل له اسم الله، فهذا حكم هذه المسألة بعينه فافهم.

(ولا يعلم هذا التفصيل إلا العلماء بالله) لأن الحق سمعهم وبصرهم وقواهم، فيعرفونه به، (خاصةً): أي اختصَّ بهذا العلم والذوق العلماء بالله، فإنهم يعرفون الأمور كما هي عليه، فعرفوا بل شهدوا، بل ذاقوا أن الوجود من حيث ذاته واجب، ومن حيث تعيناته وصوره ممكن، وإنما قلنا خاصةً؛ لأن علم إلحاق الممكن بالوجوب كإلحاق المحال بالممكن، وهو مختصٌّ بأهل العناية والكشف، فإنهم علموا به تعالى، ولكن علم إلحاق الممكن بالمحال أصعب عندهم من إلحاق الواجب بالممكن؛ لأن إلحاق الممكن بالمحال، وهو عدم وقوع خلاف المعلوم مع إمكانه في نفسه، فهذا إلحاق الممكن بالمحال.

فنقول في الذي قلنا: ممكنًا عقلاً، محالاً عقلاً، فداخلت الرتب فلحق المحال بالممكن: أي برتبته، ولحق الممكن برتبة المحال، وبسبب تداخل الخلق في الحق، والحق في الخلق بالتجلِّي، والأسماء الإلهية والكونية، فأبهم الأمر عند صاحب النظر والفكر، فلا يميز الأمرين إلا صاحب العينين، من رأى وعَلِمَ التوالج والتداخل كيف ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحج: 61] وكيف يسلخ منه النهار علمًا وذوقًا، فهو العالم بالله حقًّا، قال الخراز من هذا المقام: عرفت بجميع الأضداد، فافهم.

قال المصنف ﷺ:

«وعَلى قَدَم شيثٍ يَكُونُ آخِرُ مَولُودٍ يُوْلَدُ مِنْ هذا النَّوعِ الإنسانِيّ، وَهُوَ حاملُ أسراره، وَلَيْسَ بَعْدَه وَلَدٌ في هذا النَّوعِ، فَهُوَ خاتَمُ الأولادِ، وتُولَدُ مَعَهُ أُختٌ لَهُ فَتَخْرُجُ قَبْلَهُ، ويَخرُجُ بَعدَها ويَكُونُ رأسُه عِنْدَ رجلَيْها وَيَكُون مولِدُه بالصّين ولُغَتُهُ لُغَةَ بَلَده، ويَسْرِي العُقْمُ في الرِّجالِ والنِّساءِ فَيَكثُرُ النِّكاحُ مِن غَيرِ ولادَةٍ ويَدعُوهُم إلى الله فَلا

يُجابُ فإذا قَبَضَهُ الله وقَبَض مُؤمِنِي زَمانِهِ بَقِي مَنْ بَقِي مِثْلَ البَهائِمِ لا يُحلُّون حَلالاً ولا يُحَرِّمُونَ حَرامًا، يَتَصَرَّفُونَ بِحُكم الطَّبِيعَةِ شَهْوَةً مُجَرَّدَةً عَنِ العقلِ والشَّرعِ فَعَلَيْهم تَقُومُ السَّاعَةُ».

(وعلى قدم شيث يكون آخر مولود يُولد من هذا النوع الإنساني) لما كانت الدنيا لها بداية ونهاية وهي ختمها، قضى الله سبحانه أن يكون جميع ما فيها له بدء وختم، ومنه كان ﷺ في النبوة والرسالة بدءًا وختمًا.

ورد في الخبر: «إنما بُعثت خاتمًا فاتحًا... »[1] رواه البيهقي في «شعب الإيمان» ذكره السيوطي في «جمع الجوامع».

ومنه كان ختم الولاية خاتمًا فاتحًا، فاقتضى الشأن والأمر أن يكون للمنح والأعطيات بدءٌ وختمٌ، وكان فتحه شيث عليه السلام كما ذكرنا، فختم على مولود يُولد على قدم شيث، وينطوي بساط انبساط تلك المنح بانطواء أهلها، فيكون الختم على قدم الفتح؛ لأن الأمر دوري، ينعطف الآخر لطلب أوله، فافهم.

وإنما قال رضي الله عنه: (على قدمٍ) ولم يقل: (على قلبٍ) رعايةً للأدب؛ لأنه أقرب إلى الأدب وهو مقامهم الذي يرضون لأنفسهم، ومن هذا المقام قال ﷺ: «أدَّبني ربي فأحسن تأديبي»[2].

قال الشيخ رضي الله عنه: والأدب مقامنا، وهو الذي أرتضيه لنفسي ولعباد الله، ذكره في الباب الثالث والستين وأربعمائة من «الفتوحات».

(وهو حامل أعباء أسراره)، وهي حقائق الأعطيات، ومعارف ورقائق المعارف والوهبيات على كواهل القابليات والاستعدادات.

(وليس بعده ولد يرث أباه في هذا النوع) الإنساني الكمالي من هذا الجنس من الميراث، فيختم به الأمر فهو خاتم الأولاد، وكما أن الختم ينبغي أن يكون على قدم فتحه، فشيث كان مولودًا مع أخته فقال: وكذلك الختم (تُولد معه أختٌ له) فلا يكون إلا توأمًا؛ ليكون الاختتام كالافتتاح، ولكن سبق أخته وخرج قبلها؛ لأنّه في الاعتبار، وهو بمنزلة العقل الأول في الظهور، والأخت لها الدرجة الثانية في مرتبة النفس الكل بخلاف هذا الخاتم الذي هو آخر مولود له مقام العود والانقلاب والرجوع إلى

(1) أخرجه ابن أبي شيبة (423/6).
(2) أورده المناوي (225/1).

الأصل، ففي العود تسبق العَرَجاء (فتخرج قبله)؛ لأنَّ صورة النفس في الترقي تسبق صورة العقل، وهو يتبعها (ويخرج بعدها) كان الفتح متنزلاً في الترقي، والختم ترقى في تنزله فتظهر أحكامه بعكس أحكامها.

(يكون رأسه عند رجليها) كما كان في الفتح رأسها عند رجليه، فالرجلان إشارة إلى قوتيهما شهوانية وعصبية؛ إذ بهما تمشي وتسعى لجلب المنافع ووقع المضار، كأنّه ﷺ أشار إلى أنَّ مقام العقل عند انتهاء مراتب النفس، فإنها إذا اطمأنت فيكون ابتداؤه عند انتهائها وانتهاء قواها، فإنَّه يرجع قهقرى.

والنفس لها ثلاث مراتب: تُسمَّى فيها النفس أمَّارة، فهي باعتبار غلبة قوى الحيوانية والبهيمية، ولوامة حيث تنتبه وتلوم نفسها عند المخالفات، كأنّها تخلط عملاً صالحًا وآخر سيّئًا، عسى الله أنْ يتوب عليها، وهي كالمقدمة لظهور العقل الأول وأحكامه، فلما يكمل استعدادتها ويتطهر مهبط وحيها لخطاب: ارجعي إلى أصلك فإني جعلت تحتك سريًا، فيظهر العقل تحتها، وهو في السلوك قهقرى.

(ومولده بالصين) أقصى البلاد المعمورة وأبعدها إلينا؛ فلهذا ورد في الحديث: «اطلبوا العلم ولو بالصين»[1] مبالغة في البُعد، فالاعتبار أنه مولده أقصى مراتب الإمكان، ولنزل مراتب التنزلات الإلهية.

(ولغته لغة بلده) بلسان النهوانيّة على الفطرة الأصلية الأولية من العلوم الإلهية، والمعارف اللدنية، ومن يكون مولده الطبيعة الكل يتكلم بكل لسان، ولسانه لا يكل.

مَن عَرف الله طال لسانه: أي بكل لغةٍ (ويسري العقم في الرجال والنساء) من مولود من هذا الجنس بهذا الوجه.

فلهذا يُسمَّى المجذوب الأبتر، أبتر: أي ناقص من العقم، وهو العقيم عن النتيجة والتوليد، ولا يُقال: إن ذِكر أحد الزوجين كان كافيًا في المدَّعى، وهو عدم الولادة والعقم الساري في الوجود في هذا الجنس؛ لأن الشيخ ﷺ ذكر في الباب الثالث والسبعين من «الفتوحات»:

إن من رجال الله واحدًا في كل زمان لا يوجد غيره في مقامه، وهو يشبه عيسى عليه السلام متولِّد بين الروح والبشر، لا يعلم له أب بشري، فهو مركب من جنسين مختلفين، وهو رجل البرزخ يكون مولده على هذه الصفة، فهو مخلوقٌ من ماء أمه، خلافًا لما

---

(1) أخرجه البيهقي (253/2).

ذكر عن أهل الطبائع، أنه لا يتكون من ماء المرأة ولد، بل الله على كل شيءٍ قدير. انتهى كلامه ﷺ.

وكيف لا؟ وقد كذَّب الله الطائفة الناقصة بعيسى ﷺ، وأمَّا وجود موجود بلا أب ولا أم قد يسبق في الأوهام ألوهية تكذيبه، مع إيمانه بأن ذلك من الممكنات، بل وقد وقع كوجود آدم، وما ذاك إلا الوقوف والتخشُّب مع المألوفات، والتحمل بالعادات، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: 5].

(**فيكثر النكاح**): أي بلا سِفاح، فيدل على أن الإيمان الذي سبب بقاء الملك ما انقطع الآن، ولن ينقطع أنهم تقيدوا بالنكاح، فإن النكاح وهو عقدٌ شرعيٌّ، وهم مؤمنون به، فافهم.

(**من غير ولادة**) تخفيفًا من الله لا استخفافًا، ورد في الخبر: «**خيركم في المائتين الخفيف الحاذ، قيل: يا رسول الله، وما الخفيف الحاذ؟ قال: الذي لا أهل له ولا ولد**»[1] رواه الخطيب وابن عساكر عن حذيفة ﷺ.

أما ترى قوله ﷺ حين نظر إلى الحسن والحسين - رضي الله عنهما - يمشيان ويعثران قال ﷺ: «**صدق الله ورسوله إنما أموالكم وأولادكم فتنة، فنظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما**»[2] ذكره السيوطي في «جمع الجوامع».

(**ويدعوهم إلى الله تعالى فلا يُجاب**): تصامموا عن دعوته؛ لعلمهم بما يجب عليهم من إجابة دعوته، وإنما لم يجيبوا دعوته لما فيها من القرآن، فإنه دعاهم بالاسم الجامع (الله)، وطلب منهم الجمع بين الكشف والحجاب، فأبوا ولم يجيبوا داعي الله؛ لأن الأمر عندهم فرقان وكشفٌ بلا حجاب، ومَن أقيم في الفرقان صرفًا لا يُصغي إلى القرآن، وإن كان القرآن يتضمن الفرقان، ولكن الفرقان لا يتضمن القرآن، وهم في شهود الجمع والفرقان، صرفًا لا يعرفون للقرآن طعمًا، أو نقول: إنه أغناهم أصباح العيان عن مصباح الإيمان على الحالين، مدحوا بلسان الذم، ولا يعلم ذلك إلا ذو حظٍّ عظيمٍ، (**فإذا قبضه الله، وقبض مؤمني زمانه**) الذين آمنوا من قبل (**بقي ما بقي**).

---

(1) أخرجه الخطيب (197/6).

(2) أخرجه الترمذي (658/5)، وأحمد (354/5).

ورد في الحديث: «**فيبقى شرار الناس في خفة الطير وأحلام السباع...** »[1].

في خفة الطير في المعاش والميعاد، يخرجون خماصًا ويرجعون بطانًا، بعقول فطريَّة أصلية حيوانية، يتوصلون إلى مشتهاهم بلا كلفة التكليف، وحجر التشريع.

(مثل البهائم) في دوام الكشف والشهود، فإنها على الكشف الفطري بلا حجاب من الملائكة.

قال الله تعالى: ﴿**لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ**﴾ [الأعراف: 179]: أي في الحيرة والهيمان.

اعلم أن البهائم أمم أمثالكم، لهم الكشف الفطري التام والشهود العام، وكلها عند أهل الله حيوانٌ ناطقٌ، عالمٌ قادرٌ، متكلم سميع بصير، غير أن هذا المزاج الخاص المسمَّى بالإنسان تميَّز بمزاجٍ خاصٍ، ووقع التفاضل بين الخلائق في المزاج.

قال ﷺ: إن ما عدا الثقلين من كل ما سوى الله على معرفة بالله، ووحي من الله، وعلم بما تجلَّى له، مفطور على ذلك، بل هم أهل إلهام من الله ووحي.

قال الله تعالى: ﴿**وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ**﴾ [النحل: 68]، ولكلٍّ منهما كلام يخصُّه، وصنائع لا يظهر أمثالها إلا لذي عقلٍ وقلبٍ، وما يرى في ذلك من الأوزان يدل على أن لهم علمًا وإرادةً وقدرةً في نفوسهم، بل يرى منهم أمورًا وتدابير، ليس للإنسان الحيواني مثله مع قوة تدبيره العام، فتعارضت عند الناظرين في أمرهم، فأنبهم الأمر عليهم، وربما سمعوا لذلك بهائم من إبهام الأمر، فلا يعرفوه منهم إلا قدر ما شاهدوه منهم، وأمَّا العارف فألحقهم بدرجة المعارف والعلم بالله؛ لأن الله تعالى كشف للعارف عن أمرهم وأحوالهم حتى عرفهم، وعرف مقامهم الأسنى، وعلم أنهم مفطورون على المعرفة والعلم بالله وبالآفاق وبأنفسهم.

ورد في الخبر أنه قال ﷺ: «**إن بقرة في زمن بني إسرائيل حمل عليها صاحبها فقالت: ما خُلقت لهذا؟ وإنما خلقت للحرث، فقال الصحابة ﷺ: أبقرة تتكلم؟ فقال ﷺ: آمنت بهذا أنا وأبو بكر وعمر، هذه بقرة عَلِمت لما خُلقت والإنس والجن خُلقوا**

(1) أخرجه مسلم (1524/3).

ليعبدوا الله»[1].

وما علموا ذلك إلا بتعريفٍ إلهيٍ على لسان الرسول ﷺ، ومع هذا فمنهم مَنْ آمن ومنهم مَنْ كفر، فأين مَن يَراه وشهد ذلك عمَّن استبعد وأنكر.

قال ﷺ في «الفتوحات»: إن ابن عطاء - قُدِّس سرُّه - كان راكبًا فغاصت رجل الجمل، فقال ابن عطاء: جلَّ الله يزيد عن إجلالك، فاستحى ابن عطاء.

فقال الشيخ ﷺ في «الفتوحات»: إنه مرَّ رجلٌ صالحٌ على رجلٍ راكب على حمار وهو يضرب على رأسه حتى يسرع في المشي، فقال الصالح: كم تضرب على رأس الحمار؟ فقال له الحمار: دعه فإنه على رأسه يضرب.

فهذه بقرةٌ عَلمت لما خُلقت، وهذا جملٌ عرف ربَّه، وهذا حمارٌ قد عرف المآل بالفطرة التي فُطر عليها، فانظر أين مرتبتك عن مرتبة البهائم؟ إنها تعرفك وتعرف ما يؤول إليه أمرك وأمره، وأنت جاهلٌ هذا كله، ولا تغرك الآية المتلوَّة سابقًا؛ لأن الله تعالى ما شبَّه في الآية، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: 179] نقصًا بالأنعام، بل إنما وقع التشبيه في الحيرة وهي صفة كمال، فلا أشد حيرة في الله من العلماء بالله، ومن هذا المقام ورد في الخبر: «ربِّ زدني فيك تحيرًا»[2].

ولولا التحيُّر علم وكمال لما سأل ما سأل؛ لأنه أمر بقل: رب زدني علمًا، ولم يقل: حالاً، وذلك من علو درجة الحيرة، وعلو مقام أهلها، لا يغرنك أن البهائم مسخَّرة لك، تحمل أثقالك إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه؛ لأنك مسخَّر لها في أكلها وشربها، وتنظيف مبيتها من رَوثِها وبولها، بل جعل فيك حاجة إليها وبها تخدمها خدمة العبد لمولاه، فلا فضل لأحدٍ على أحدٍ بالتسخير.

ورد في الخبر: «إن نبيًا من أنبياء بني إسرائيل استسقى ولم يسقِ، فرأى نملة تستسقي وهي رافعة قوامها إلى السماء، فأسقى الله القوم بها»[3].

ذكر هذا الشيخ الحافظ جلال الدين السيوطي في كتاب «جمع الجوامع» وثبت أنَّ كل دابة تسمع خوار الميت على نعشه، وترى عذاب القبر.

كان رسول الله ﷺ راكبًا على بغلة، فمرَّ على قبرٍ فنفرت فقال ﷺ: «إنها رأت

---

(1) أخرجه مسلم (1857/4).

(2) سبق تخريجه.

(3) أخرجه أبو الشيخ (1753/5).

صاحب هذا القبر يُعذَّب في قبره»[1].

وأمثال هذه الأخبار كثيرة، فاعرف قدرك ما هلك امرؤٌ عرف قَدره، ولم يتعدَّ طوره، فلما أُعطيت البهائم هذه الكشوف أُعطيت الحرس عن التوصل، فافهم.

فإذا عرفت فضل البهائم على الإنسان الحيواني، وعلمت أن المراد بالتشبيه كالبهائم تشبيه كمال، وإن كان غيرهم أكمل، كالبهاليل والمجاذيب الذين أذهلتهم فجأة الكشف، وجعلتهم كالبهائم في الهيمان، وردَّتهم إلى أصل الفطرة حيوانًا محضًا، وكشف لهم ما تكشفه كل دابة وبهيمة، ما عدا الثقلين فهم أهل كمال، وإن العقلاء منهم أكمل، وذلك من عموم الكشف على خصوص الخلق في آخر الزمان؛ لقربه بدار الحيوان دار عموم الكشف والعيان.

وأشار إلى هذا قوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تكلِّم السباع الإنس، ويكلم الرجل عذبة سوطه، وشراك نعله، ويخبره فخده بما فعل أهله بعده»[2].

وفي رواية: «إن الرجل يخرج من عند أهله فيخبره نعله أو سوطه أو عصاه بما أصابه أهله من بعده»[3]، وهذا بعينه كما في يوم القيامة.

ثبت في الخبر الصحيح: «ستجيؤون يوم القيامة وعلى أفواهكم الفدام، فأول ما يتكلم من الإنسان فخذه وكفه»[4] رواه الحاكم في «المستدرك» عن حكيم بن معاوية، عن أبيه، ذكره السيوطي في «جمع الجوامع».

وما ذلك إلا من عموم الكشف؛ لقرب المناسبة وقوة المشابهة بالآخرة، فإنها دار حيوان، كأنها أهل برزخ بين آخر يوم من الدنيا وأول يوم الآخرة.

قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: 65] فالمواطن من شدة الشبه تشابهت أحكامها، وزالت الشبه وظهر حكم: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: 99].

قال سهل بن عبد الله التستري - قُدِّس سرُّه - في هذه الآية: اليقين هو الله، وقال

(1) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (348/3).

(2) أخرجه الترمذي (476/4)، وأحمد (83/3).

(3) أخرجه أحمد (88/3).

(4) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (478/2).

الآخر: اليقين هو الموت، فأخبر العارف الربَّاني عن المنزل، والمفسِّر أخبر عن الطريق إليه، فالأول تأويل، والثاني تفسير، فافهم.

فإن قيل ورد في الحديث: «إن يوم القيامة ما تقوم إلا على شرار الناس»[1] وأنت نزلتهم منزلة الخيار، قلنا: صَدقت، ولكن فاتك نظرٌ آخر وما أدراك أن شرار بنسبة خيار بنسبة أخرى، كما أشار إليه الحديث الشريف: «شرار قريش خيار شرار الناس»[2] ذكره في «جمع الجوامع».

فأثبت لهم الخير حيث أثبت لهم الشر، فهم شرار الناس بالنسبة إلى العلماء بالله العقلاء، كما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقرَّبين.

سُئِلَ أبو السعود بن الشبل - قُدِّس سرُّه - عن العقلاء المجانين فقال: ملاحٌ لكن العقلاء أملح، مع أنه ورد في الخبر: «خير أمتي أولها وآخرها وفي وسطها الكدر»[3] رواه الحكيم عن أبي الدرداء ﷺ، ذكره في «جمع الجوامع».

ولا شك أنهم من أمته أو يقول: إنهم شرار الناس الذين لا يتفكَّرون في ذات الله، فإنه ورد في الخبر: «خير الناس المتفكِّرون في ذات الله»[4] رواه أبو الشيخ عن نهشل بن الضحاك عن ابن عباس - رضي الله عنهما - ذكره في «جمع الجوامع» وذلك لأن التفكُّر فرع العقل، ولا عقل لهم كما عرفته.

(لا يحلِّلون حلالاً ولا يحرِّمون حرامًا) قال تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى﴾ [الحج: 2] ولكن سلطان الشهود أذهلهم، وأذهب بعقولهم، فذهبوا في الذاهبين، وبالرجوع إلى العرفان لا بذهاب الأعيان، فهاموا ولم يتميزوا، كالبهائم سقط عنهم التكليف؛ إذ ليس لهم عقول يعقلون بها، ولا أبصار يبصرون بها، تراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون، لا يتعارفون لليل صباحًا، ولا لنهار مسائهم أدلة الشبهات والآيات المتشابهات، يسمونهم العقلاء المجانين، عقولهم محبوسة عند حضرة قُدسه، كفّه في شهود أُنسه.

وها هنا تفصيلٌ آخر سأفصِّله لك تفصيلاً إن شاء الله تعالى؛ لتكون على إجمالٍ

(1) سبق تخريجه.

(2) أورده المناوي في «فيض القدير» (156/4).

(3) أخرجه الحكيم الترمذي (92/2).

(4) سبق تخريجه.

فيما نحن فيه على بصيرة، وهو أن تعلم أن الناس في هذا المقام على ثلاثة أصناف، وما ثمة مرتبة رابعة، منهم مَن يكون ورده أعظم من القوة التي في نفسه عليها، فتحكم: أي مقام الهيمان الوارد عليه، فيغلب عليه الحال، فيكون بحكمه يتصرف الحال، ولا تدبير له في نفسه ما دام في ذلك الحال، فإن استمرَّ عليه إلى آخر العمر، فذلك المسمَّى في هذه الطريقة بالمجذوب الأبتر، مأخوذ عنه بالكلية، كأبي عقال المغربي، قيل: إنه ما أكل وما شرب من حين أُخذ إلى أن مات، وذلك من مدة أربع سنين بمكة المشرفة، فهو مجنونٌ مستورٌ، كأنهم الذين أشار إليهم ﷺ في حديثٍ طويلٍ في أشراط الساعة، وخروج الدجال: «**وأنه يجيء على الناس القحط والجدب حتى يموت كل ذي ظلفٍ، فقيل: يا رسول الله، فما يعيش بقية الناس؟ فقال: عيشهم التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير، يجري ذلك مجرى الطعام**»[1] رواه أبو إمامة، ذكره السخاوي في كتابه المُسمَّى بـ«القناعة».

ومن هذا المقام حكى الشيخ ﷺ في «**الفتوحات**»: إنه قيل لسهل بن عبد الله: ما القوت؟ قال: الله ما نريد إلا ما تقع به الحياة قال: الله فلم يرَ إلا الله، فلمَّا ألحُّوا عليه، قالوا: إنما لنريد به عمارة هذا الجسم، فهم إنهم ما فهموا، فقال: دع الدار إلى بانيها؛ إن شاء عمَّرها، وإن شاء أخربها، وإن لم يستمر إلى آخرٍ فيمسك عقله هناك، ويبقي عليه عقل حيواني، فيأكل ويشرب ويتصرف من غير تدبيرٍ منه ولا رويَّة، فهؤلاء يسمُّون العقلاء المجانين؛ لتناولهم العيش الطبيعي بحكم الطبع كسائر الحيوانات.

حكى الشيخ ﷺ في «**الفتوحات**» عن هذا المقام، وقال: إنه مرَّ عليَّ وقتٌ أؤدِّي فيه الصلوات الخمس، إما بالجماعة على ما قيل لي بإتمام الركوع والسجود وجميع أركانها وآدابها، وأنا في هذا كله لا علم لي بذلك؛ لشهود غلب عليَّ غيبت عني، وأخبرت إليَّ، كنت أقيم الصلاة وأصلي بالناس، وكانت حركاتي كحركات النائم الذي لا علم له بذلك، فعلمت أن الله تعالى حفظ عليَّ وقتي. انتهى كلامه ﷺ.

فالذي لم يستمر فإذا زال الوارد رجع بحسبه وعقله، وهذا أكمل المراتب في هذا الطريق، وهو للأنبياء والرسل والوارثين - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين -.

ومنهم مَن يكون وارده وتجلِّيه مساويًا لقوَّته، فلا يرى عليه أثرٌ من ذلك حاكم

---

(1) أورده السخاوي في «القناعة».

عليه، وحاله إمّا كحال جليس يكون معك في حديث، فيأتي شخصٌ آخر يشغله عنك في ذلك، وإمّا كرجل يحدِّثك فأخذته فكرة في أمرٍ، فصرف حسّه عنك إليه في خياله، فجمدت عينه ونظره وأنت تحدِّثه، وهو غير قابل لحديثك، فتشعر أنه مشغول باطنه، متفكِّر في أمرٍ صارفٍ، ومنهم مَنْ يكون قوته أقوى من الوارد، فإذا أتاه وهو معك بالحديث وأنت لا تدري به.

قال الشيخ ﷺ في الباب الرابع والأربعين من «الفتوحات»: إنه ما ثَمَّ أمرٌ رابع في واردات الحق على قلوب أهل هذه الطريقة، وهي مسألة غَلُط فيها بعض أهل الطريق في الفرق بين النبي والولي، فقال: إن الأنبياء يصرفون الأحوال والأولياء تصرفهم الأحوال، فالأنبياء مالكون لأحوالهم، والأولياء مملوكون لأحوالهم، وليس الأمر فيه غير ما فصَّلناه، فافهم.

(**يتصرفون بحكم الطبيعة**)؛ لأنهم بقوا في عالم الشهادة بروحهم الحيواني يتصرفون في ضروراتهم الحيوانيّة تصرف الحيوان المفطور على العلم بمنافعه ومضاره المحسوسة من غير تدبيرٍ منهم، ولا رويّة، كما في نشأة أهل السعادة في الجنان وهو دار الحيوان، فإنه لا يبقى في تلك النشأة إلا النفس الحيوانية، بها تكون اللذة لأهل النعيم. انتهى كلامه.

فهم المخبتون، قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: 34]، والمخبت: المطمئن من الأرض، ومنه خبت إذا سكنت واطمأن لهبها، فهم ساكنون تحت حجاري الأقدار، راضون مطمئنون، فرحون بما أتاهم الله، متنعمون بما هم فيه، فإن نار طبيعتهم خبتت وخملت، واطمأنت بالوصول إلى مشتهاهم الطبيعي الحيواني، حيث لا حجر عليهم.

ورد في الخبر: «**دعوا المذنبين الغارقين، لا تنزلوهم جنةً ولا نارًا، ليكون الله الحكم فيهم**»[1] رواه الديلمي عن عائشة - رضي الله عنها -.

وفي رواية: «**حتى يكون الله يقضي فيهم يوم القيامة**»[2] رواه الخطيب عن علي ابن أبي طالب - كرّم الله وجهه -.

(1) أخرجه الديلمي (212/2).

(2) أخرجه الخطيب (292/8).

وهم كأنهم أهل خطاب: «افعلوا ما شئتم»[1] بل أقيموا في مقام: ﴿لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: 23] شعر:

بنوا حق غدوًا بالحق صرفًا ... فنعت الخلق فيهم مستعارُ

هم أهل إطلاق صرف أصلي ونظر أوليته؛ لأنه الأصل.

قال تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ [البقرة: 29] أطلق ولم يقيِّد، ثم جاء التقييد، وحدث التحجُّر في الحكم فيه، فالإطلاق أصلٌ، والتقييد عارضٌ، ومن هنا قيل: إن الأصل في الأشياء المباحة (شهوة) حيوانيّة، صرفة خالصة عن شوب التحجير والتقييد، كما كانت عند الفطرة أول مرة، هذا هو الرجوع إلى البداية حقًا.

قال ﷺ في الباب السبعين والمائتين من «الفتوحات»: إن القطب لا ينكح ولا يُرغب فيه للنسل ولا للأمر، بل لمحض الشهوة الطبيعية، واللذة الحيوانية، كأهل الجنة، وعلى هذا يجري نكاح البهائم، فإنه لمجرد الشهوة. انتهى كلامه ﷺ.

أما ترى قوله ﷺ أنه شبَّه تهاجرهم وتساندهم تهارج الحُمر؛ فإنها أشد حيوان في أخذهم ذلك الحظ، وأقواهم فيه.

وورد في الخبر في أشراط الساعة: «فإذا قُبض روح كل مؤمنٍ وكل مسلمٍ، ويبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحُمر فعليهم تقوم الساعة»[2].

قال السخاوي - رحمه الله - في معنى التهارج: أي التعاقد، وهو النكاح من البهائم.

قال الشيخ الأكبر ﷺ: إن الناس غابوا عن هذا الشرف، وعابوا فاعلها، وجعلوها شهوة حيوانية مذمومة، ونزَّهوا نفوسهم عنها مع كونهم سمُوها شرف أسمائها، وهو قولهم: حيوانية: أي هي من خصائص الحيوان، وأي شرف أشرف وأتم وأعظم وأعم من الحياة، ومن هذا سُمِّيت دار الآخرة دار الحيوان، وبها تميزت عن الدنيا، فالذي اعتقده نقصًا وهجاءً ردَّ الله ثناءهم عليهم، وأجرى على لسانهم مدحًا وثناءً، فاستدرجهم من حيث لا يشعرون.

قال الشيخ الأكبر: هذه هي التجلي الأعظم، وفيها الشهود الأشمل الأتم، الذي

---

(1) سبق تخريجه.

(2) أخرجه مسلم (2254/4).

خفي عن الثقلين إلا مَنْ خصَّه الله من عباده، انتهى كلامه.

(مجردة عن الشرع والعقل) إنما قال: مجردة عن العقل؛ ليخرج منه النواميس الوضيعة الحكميَّة العقلية، فإنها رهبانية ابتدعوها، وما رعوها حق رعايتها، فهم بمعزل عنه كما فهمته سابقًا.

قال ﷺ في الفص الإلياسي: من أراد العثور على الحكمة الإلياسيَّة والإدريسيَّة، فلينزل في حكم عقله إلى شهوته، وليكن حيوانًا مطلقًا حتى ينكشف ما يكشفه كل دابة، مما عدا الثقلين، انتهى كلامه ﷺ.

وأمَّا مجرَّدة عن الشرع؛ فلأن الشرع تكليفٌ بأعمال مخصوصة عن أفعال مخصوصة على أشخاص مخصوصة، ومحلها هذا الدار الدنيا، فهي منقطعة بانقطاع أهلها أهل الإيمان كما عرفت، فما بقي منهم في الدار ديارًا، ويقول: مجرَّدة عن الشرع: أي المقيَّد؛ لأن المقام مقام الإطلاق، ومحل ظهور الشرع المحمَّدي ﷺ بصرافة إطلاقه في الآفاق من غير تحجيرٍ وتحديدٍ، قال تعالى: ﴿مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [هود: 56].

هذا دين الله الأعم، وإن الدين كله لله ﴿أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: 3] فصاحب هذا المشهد يرى وجه الحق في كل محل وملة، قال تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ [البقرة: 115].

أما ترى قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185]، ورد في الخبر الصحيح: «دين الله يُسر»[1] وأي يسرٍ، ثم من المشي على مقتضى الطبيعة الصرفة بلا تحجيرٍ، فإذا عاد الأمر إلى الإطلاق كما بدأ أولاً عادت العادة عبادة، كما أن اليوم العبادة عادة، فإن الدين عادة.

(فعليهم تقوم الساعة): أي على أهل الإطلاق المذكور تقوم الساعة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: 15]، لولا أن الإخفاء جاء لغةً بمعنى: الإظهار، لما أظهرنا لهذه المسألة عينًا، ولكن لما أظهرها تعالى بالكناية تارة وبالإشارة مرة، وبالعبارة تارة أخرى؛ اقتداءً به واقتفاءً بهدي نبيِّه والله المستعان.

واعلم أنه ذكر الشيخ ﷺ في وصل تاسع عشر من «خزائن الجود»: إن عيسى

(1) أخرجه مالك في «الموطأ» (599/2).

ﷺ ختم الولاية العامة آخر متعلِّم، وآخر أستاذ لمن أخذ عنه، ويموت هو وأصحابه من أمة محمد ﷺ في نَفَسٍ واحدٍ بريحٍ طيبة تأخذهم من تحت آباطهم يجدون لها لذة كلذة الوسنان الذي أجهده السير، وأتاه النوم في السَحر، فيجدون للموت حلاوة ولذة لا يقدِّر قدرها رعاع، كغثاء السيل أشباه البهائم، فعليهم تقوم الساعة، انتهى كلامه ﷺ.

فالجمع بين ما في «الفتوحات» وبين ما نحن فيه من الفصوص هو أن يكون هلاك الطائفتين في زمانٍ واحدٍ مع اختلاف الأمكنة هذا في الصين وذاك في ديار العرب؛ لأن هبوب ذلك آخر الآيات المؤذِّنة بقيام الساعة، فافهم.

ثم نرجع إلى بيان ما نحن بصدد بيانه ونقول: اعلم أن الله تعالى خلق العالم على قسمين: آفاقيًا، وأنفسيًا، وجعل جميع ما خلق في الآفاق له نظير في الأنفس، بل جعل الأنفس نسخة منتخبة مختصرة جامعة لجميع ما في الآفاق، مع أمر لم يكن فيه، ودُفن فيها وهو الأمانة المشار إليها في القرآن، فالأنفس خزائن لها، ثم أمرنا بالتفكُّر لوجدان ذلك في أنفسنا، وبشَّرنا بأنه يُرينا آياته في الآفاق، وفي أنفسهم حتى يتبيَّن لهم أنه الحق، فمن جملة ما خلق من النظائر خلق في الآفاق قيامة وساعة وأشراطها، كذلك في الأنفس خلق ذلك كله، وذكرها في القرآن بلسان الإشارة.

وورد في الأحاديث كذلك، فأريد أن أذكر بعضها؛ لتكون على بصيرة فيما نريد أن نبيِّنه من إشارات الحاتمي الخاتمي في هذا المتن، ونختم به الأمر إن شاء الله.

فاعلم - أيَّدك الله وإيَّانا بروحٍ منه - أن القيمة في الآفاق هي القيامة التي يجمع الله الأولين والآخرين فيها، فما تقوم هذه القيامة إلا بين يدي أشر أطماع بموت الخلق طرًا أجمعون ومن في السماوات والأرض جميعًا، والتنبيه عليه في الكتاب قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: 185].

وذلك بفناء كل أهل كل دورة واحدة لا يتصف بالنهاية، فنحن فرضنا فيه البدء والنهاية والعود والرجوع بالفرض، انتهى كلامه.

فافهم الإشارة إن كنت فهيمًا، فالعالم دوري وأحكامه دوريَّة، وإلى هذا أشار ﷺ: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض»[1] فيلتحق أهل كل دورة مفروضة بعضه بعضًا في موطن من المواطن، سمَّاه الشارع بيوم القيامة، وهو

(1) أخرجه البخاري (1168/3)، ومسلم (1305/3).

اليوم الموعود، وفيه جمع شاهد ومشهود، وإنما ذهبنا بالقول بالدورة واستشهدنا بالحديث الشريف؛ لأنه قد أخبرنا سبحانه عن نفسه الكريمة على لسان أكمل التراجم علمًا، وأوسعهم وجودًا ﷺ، قال تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: 29]، فنكر اليوم والشأن؛ ليشمل ويعم.

فهذه أيام الله لا تزال هذه الأيام دائمًا، فلا يزال الخلاف دائمًا، وقد أثبت دوام هذه الأيام، فقال تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ [هود: 107]، وخلودهم لا يزال فريق في الجنة، وفريق في السعير لا يزال؛ لأنهم خالدون فيها، فأيام الله لا يزال، وورد في الحديث الصحيح: «**ليس شيء من الإنسان إلا يُبلى إلا عظمًا واحدًا، وهو عجب الذنب ومنه يُركَّب الخلق يوم القيامة**»[1] رواه أبو هريرة ﷺ ذكره في «جمع الجوامع».

فإذا جاز في ممكن من الممكنات بقاؤه، فيمكن أنْ يكون له إفراد كثيرة بهذا الحكم، فافهم ولا تجادل، فإنَّ مطل الغني ظلم، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: 88] وكل شيء موجود نشاهده حسيًا، ونعلمه عقلاً، وليس بهالك، فكل شيء بوجهه ووجه الشيء حقيقته، فما في الوجود إلا الله، وإن تنوعت الصور، وذلك أحكام التجلي لا المتجلّي؛ فإنَّه ورد في الحديث إنه يتنوع فيعرف وينكر؛ لأنه كل يوم هو في شأن، فنكر للعموم والشمول، فذلك قال له الحكم: (**وإليه ترجعون**): أي مَن يعتقد أنَّ كل شيءٍ جعلناه هالكًا، وما عرف ما قصدناه من الآية إذا رآه ما يهلك منه، ويرى بقاء عينه بالهلاك، فهو وجهي، فعلم أن الأشياء ليست غير وجهي، فإنها لا تهلك، فردها إلَيَّ حكمًا.

قال الشيخ ﷺ في الفصل الرابع من خزائن الجود من «**الفتوحات**»: «إنَّ هذا المعنى الذي ذكرناه آنفًا معنى لطيف، يخفى على مَن لم يستظهر القرآن، وقد رميتك على الطريق؛ لتعلم ما الأمر عليه». انتهى كلامه.

ورد في الحديث الصحيح: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق إلى يوم القيامة حتى يأتي أمر الله...** »[2] وفي رواية: «**لن تزال طائفة من أمتي...** »[3].

---

(1) أخرجه البخاري (1881/4)، ومسلم (2270/4).

(2) أخرجه البخاري (2667/6)، ومسلم (1532/3).

(3) سبق تخريجه.

وورد في الحديث أيضًا: «**لن تخلو الأرض من ثلاثين مثل إبراهيم الخليل** عليه السلام، **بهم تغاثون، وبهم ترزقون، وبهم تمطرون**»[1] ذكره ابن حبان في «تاريخه» عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وورد في الخبر: «**لن يبرح هذا الدين قائمًا يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة**»[2] رواه مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه، ذكره في «جمع الجوامع».

وذهب ابن بطال: إنه ليس المراد أنَّ الدين ينقطع كله في جميع أقطار الأرض حتى لا يبقى مِنه شيء؛ لأنه ثبت أنَّ الإسلام يبقى إلى يوم القيامة، ذكره السخاوي في كتاب القناعة.

وقال رضي الله عنه: إنَّ الدين باقٍ إلى يوم القيامة، ولم يُنسخ والقطب قيُّومه، ولا يصحُّ هذا الاسم: أي القطب إلا أنْ يكون ذا جسم طبيعي وروح، ويكون موجودًا في هذه الدار الدنيا بجسده وحقيقته، فهو الذي يحفظ به هذا النوع الإنساني، وهو موجود في هذا النوع في هذه الدار بجسده وروحه، يتغذَّى وهو مجلِّي الحق مِن آدم إلى يوم القيامة.

ثم قال رضي الله عنه فيها: إن هذه المسألة كليّة فاعرف قدرها، إنك لست تراها في كلام أحد، ولولا ما أُلقي عندي في إظهارها ما أظهرتها لسرٍّ يعلمه الله، ولا يعرف ما ذكرناه إلا نوَّابهم خاصة لا غيرهم من الأولياء، فكونوا لها قابلين مؤمنين، ولا تحرموا التصديق بها، فتحرموا خيرها، وتجمعوا بين الحرمانين، انتهى كلامه رضي الله عنه.

فالقائل ببقاء العالم كافر بقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: 88]، وجاهل بالحديث الشريف: «**كان الله ولا شيء معه**»[3] وزاهل بملحقه، وهو الآن كما كان وغافل عن تجدُّد الأمثال.

والقائل بفناء العالم جاحد قوله سبحانه: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 27]؛ لأنه وجه كل شيء كما أنَّ كل شيء وجهه؛ فهو وجه العالم في الوجود، والعالم وجهه في الظهور عند الرؤية والشهود، فالكل بحمد الله وجوه حسنة، وما ثم في الوجود إلا الله، فله دوام الحمد والثناء في الآخرة والأولى، فافهم

(1) أورده ابن حجر في «لسان الميزان» (435/3).
(2) أخرجه مسلم (1524/3)، وأحمد (98/5).
(3) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (371/2).

ذلك بالذوق الحال، فإنَّ فهمه بالنظر والخيال محال.

وقد علمت من الأحاديث أنَّ القيامة الكبرى لها أشراط؛ كخروج الدجَّال، ويأجوج ومأجوج وأمثالها، وأمَّا القيامة الصغرى؛ فانتقال العبد من حياة الدنيا إلى حياة البرزخ في الجسد الممثَّل، فهو انتقال ومرور من حالٍ إلى حالٍ بالجذبة الإلهية والعناية الرحمانية، يحكم تربية الحكيم العليم سواء كان سالكًا مجذوبًا، أو مجذوبًا سالكًا وبلا سلوكٍ، فإنَّ الجذبة: هي العناية، فلهذا جذبة من جذبات الرحمن توازن عمل الثقلين؛ لأنَّ العمل للجذبة، والجذبة ليست له، وهي بهتة الكشف، وفجأته الشهود، فإذا جاءت الساعة بغتةً؛ أفنى وجود السالك عن نظر شهوده في المشهود فجأةً، فيرى جبال وجوده تمرُّ مرَّ السحاب التي كان يحسبها جامدة، فإذا فني ومات موتةً معروفة عند أهلها، فقامت قيامته التي أخبر عنه الرسول ﷺ بقوله: «مَن مات قامت قيامته»(1).

فانكشف الغطاء وانحدَّ البصر، ورأى المؤثِّر في الأثر، وأدرك بعيون البشر، وربح مَن أمن، وخسر مَن كفر.

قال الشيخ الأكبر ﷺ: ومَن كان من أهل الرؤية التي تقع لكل واصلٍ.

أما ترى إشارة قوله ﷺ: «**إنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا**»(2) رواه أبو أمامة ﷺ في «جمع الجوامع».

وذكر فيه أيضًا حديثًا آخر وهو هذا: «**قال: يا موسى لن تراني إنه لن يراني حيٌّ إلا مات، ولا يابس إلا تذهب، ولا رطب إلا تفرق، إنما يراني أهل الجنة الذين لا تموت أعينهم ولا تُبلى أجسادهم**»(3) رواه الحكيم عن ابن عباس - رضى الله عنهما - في «جمع الجوامع».

وقد وقعت له ﷺ: «**رأى ربه بعين رأسه**»(4) رواه ابن عباس - رضى الله عنهما-.

وشهد له الحق بذلك حيث قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: 11]، وقال: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم: 13].

---

(1) أخرجه الديلمي (285/1).

(2) أخرجه أحمد (324/5).

(3) أخرجه الحكيم الترمذي (45/2)، وأبو نعيم في «الحلية» (235/10).

(4) أورده ابن حجر في «فتح الباري» (483/13).

فإن كان مراد الرسول ﷺ مقولة: (حتى تموتوا) هو: الموت الطبيعيّ الاضطراري؛ فلم يصح، (لن ترون) بالتأكيد وبتأييد التأكيد، وهو ﷺ صادق في قوله: (رأى) قبل الموت الطبيعي الاضطراري في دار الدنيا عند الموت الاختياري الكمالي، بل ثبت بالدليل إمكان الرؤية لكل أحد، بل قطع بالرؤية أهل الكشف، والرؤية في دار الدنيا بالموتة الأولى، فإن الرؤية في الدنيا رحمة عاجلة لأهل العناية، بل ما أنكرها إلا شِرذمة قليلون كالحكماء، ومَن تبعهم مِن المعتزلة، والذين لا بغيابهم وبكلامهم، فعرفنا أنَّ الموت في الحديث هو الموت الكمالي الاختياري وقد وقع وورد في الخبر: «موتوا قبل أن تموتوا»[1].

وورد أيضًا: «مَن أراد أن ينظر إلى ميت يمشي على وجه الأرض؛ فلينظر إلى ابن أبي قحافة»[2].

وقال تعالى بشارة لحبيبه ونبيّه، وإدخال السرور في خلاصة خواص أمته: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: 30].

فهذه الميتة الأوليّة، والصعقة الأولى يا مَن مسّ الصعقة الأولى، ويدخل في حكم استثناء الآية؛ حيث قال سبحانه: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: 68]، وإلى هذا أشار بقوله ﷺ: «أرى موسى واقفًا ولا أدري هل صُعق في الدنيا، ولِم يُصعق في الآخرة»[3].

وهو قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف: 143] فبهذا الاعتبار يكون موسى ممَن دخل في حكم هذا الاستثناء، وهكذا شهداء هذه الأمة، فإنهم كأنبياء بني إسرائيل، ورد في الحديث أنّه ﷺ قال: «سألت جبريل عن هذه الآية: مَن الذي لم يشأ الله أن يصعقهم؟ قال: هم شهداء الله[4]». رواه أبو هريرة ﷺ، ذكره في «جمع الجوامع».

وبيَّن ﷺ معنى الشهد في حديث آخر حيث قال ﷺ: «شهداء الله أمناء لله على

---

(1) أخرجه النسائي (419/4)، وأحمد (324/5).

(2) لم أقف عليه.

(3) لم أقف عليه.

(4) أخرجه البيهقي في «الشعب» (310/1).

خلقه قُتلوا أو ماتوا[1]». رواه أحمد من رجال الصحابة ﷺ، ذكره في «جمع الجوامع».

فهمت من هذا أن الشهداء ليس على معناه المعروف خاصة، بل يشمل الذين صعقوا وماتوا موتتهم الاختيارية، فشهدوا الحق ورأوه بعين رأسهم، وحفظوا هذا السرّ عن نظر العوام.

كما ورد في الحديث: «**ستَرون ربكم عيانًا**»[2] عن جرير ﷺ ذكره في «جمع الجوامع».

فإذا عرفت هذا المذكور، فنرجع ونقول في بيان المتن: إنه قال ﷺ: **فعليهم تقوم الساعة**: أي على الذين لا يقيِّدهم العقل، ولا يتقيَّدون بالشرع المقيِّد؛ وهم أهل إطلاق صرف من أرباب الحيرة والهيمان.

ورد في الحديث: «**إن الله خلق الإنس ثلاثة أصناف: صنف كالبهائم، قال الله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾** [الأعراف: 179]» [3] الحديث رواه أبو الشيخ في العظمة عن أبي الدرداء ﷺ، ذكره في «جمع الجوامع».

فعلى الذين كالبهائم تقوم الساعة فافهم، فجاءتهم بغتة الكشف فجاءتهم حيرة وبهتة، وأذهلهم ذلك الوارد عن أنفسهم، ثم أبقى الله هذا الحال، والوارد مشهودًا لهم في دار الدنيا، وجعل لها حكم دار الدنيا كحكم دار الآخرة، كما للعموم في دار الآخرة، فماتوا وانتقلوا من حالٍ إلى حال حياة الدنيا إلى حياة الآخرة، وتبدَّل عليهم الأحكام بتبدُّل الدار، والسماوات مطويات بيد الملك القهَّار، والحق يقول في آخر الأمر عند ظهور غلبة الأحدية على الكثرة في القيامتين الكبرى والصغرى، الحاصلة للسالكين عند التحقُّق بالوصول عقيبة انتهاء السير وحال الانسلاخ.

قال تعالى: **﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾** [غافر: 16] **﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُواً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾** [القصص: 8]، فهم بقيامهم عن أنفسهم لا يعرفون للعلو طعمًا.

قال ﷺ: **لمَّا بُدِّلت الصفة من دار الدنيا فصارت بهذا التبديل آخرة مع بقاء**

---

(1) أخرجه أحمد (300/4).

(2) أخرجه البخاري (7434)، (7435)، (7436)، (554)، (573)، ومسلم (439/1).

(3) أخرجه الديلمي في «الفردوس» (189/2).

العين، ومَن لا علم له بهذا في ظلمة الحيرة، انتهى كلامه ﷺ.

أما ترى إشارة الحديث الشريف: «**قد مات كسرى فلا كسرى بعده...**» [1] رواه أبو هريرة ﷺ، ذكره في «جمع الجوامع».

فما زال الملك ولا المليك؛ ولكن ارتفع الاسم باسم آخر مع وجود الملك والمليك، فافهم.

قال تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا * إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا**﴾ [النازعات: 42. 44].

فافهم إشارة الآية، فإنه منتهى كل شيء، قال تعالى: ﴿**قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً**﴾ [الطلاق: 12]، فقد أحاط بكل شيء وجودًا؛ لأن علمه عين وجوده وذاته، تقوم تلك الساعة يوم تُبدَّل الأرض غير الأرض والسماوات، وبرزوا بأنفسهم ظاهرين على الله تعالى بأحكام الطبيعة الكليّة التي حصرت قوابل العالم بأسره، وبشّر البشير بهذه البشارة على سبيل الإشارة.

وقال ﷺ: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق...**» [2] وهو الظهور على الحق تعالى بحكم الطبيعة، وبروز الأصل على صورة الفرع بلا فصل، فرجعوا إلى البداية على حكم الطبيعة، ورجعت إليهم العادة عبادة فأضاعوا الصِّلات، واتَّبعوا الشهوات، ولم يلقوا غيًا؛ لأنهم على بصيرة فيه، فليسوا ممَن اتَّبع هواه بغير علم، وذلك أمرٌ ذوقي، وعلوم الأذواق لا تُقال ولا تُحكى، فلا يعرفها إلا مَن عرفها وذاقها، وليس في الإمكان أن يبلغها مَن ذاقها إلى مَن لم يذقها، فلا يُقبل التعريف والتوصيف؛ بل حكم تظهر لأهلها لا يجليها لوقتها إلا هو، يتجلَّى لهم بصور الأشياء ومعانيها وهو عينها، فكيف البيان عنها؟ فلا يعلم ذلك إلا الله لا يوصِّلها شرع بأخبار وتعريف.

وذلك قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ**﴾ [الأعراف: 187]، وقد أعلم الله بالتعريف لبعض الناس، وهو مَن ارتضى من رسول بأن هذا علمٌ لا يقبل التعريف؛ ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الأمر هكذا فلهذا يسألون.

وورد في الخبر: «**إن جماعة سألوه عن الساعة، فقال ﷺ: علمُها عند ربي لا**

---

(1) أخرجه البخاري (1135/3)، ومسلم (2236/4).

(2) سبق تخريجه.

يجليها لوقتها إلا هو؛ ولكن سأخبركم بمشاريطها، وما يكون بين يديها: إن بين يديها فتنة وهرجًا، قالوا: يا رسول الله الفتنة قد عرفناها، فالهرج ما هو؟ قال: هو بلسان الحبشة: القتل، ويلقي بين الناس التناكر، فلا يكاد أحد يعرف أحدًا»[1] رواه أحمد بن حنبل، وضياء المقدسي في المختارة عن حذيفة ﷺ، ذكره في «جمع الجوامع».

فأمر الساعة ذوق يشبه بالعلم بالذات، والعلم بها محال بغيره كذلك هنا، فإذا قامت القيامة الصغرى، وجاءتهم الآية الكبرى التي ثقلت في السماوات العُلا، فأتاهم أمر الله بغتةً، وأفناهم عن أنفسهم، وظهر حكم الصعق فيهم، وأزال عنهم التدبير، وأقامهم بأحكام التقدير؛ فإذن انكشف لهم حقيقة الأمر، وعاينوا الأمر على ما هو عليه الأمر في نفس الأمر.

قال ﷺ:

إِذَا جَاءَ أَمْرُ اللهِ فَالأَمْرُ الأَمْرُ وَذَلِكَ تَوْحِيدٌ إِلَى مَنْ لَهُ الأَمْر

ورد في الخبر: «أما ترى أنها ما تقوم على مؤمنٍ»[2] ذكره السخاوي.

وفي لفظ: «لا تقوم الساعة وفي وجه الأرض مَن يقول: الله الله»[3].

قال ﷺ في الفصل الرابع في فلك المنازل من «الفتوحات» في بيان الحديث الشريف: (لا تقوم الساعة على مَن يقول الله الله): فإن الله تعالى أمسك صورة السماء والأرض أن تزولا وتقعا لأجل هذا الإنسان المؤمن الموحِّد الذي مجيره الله، وإن هذا هو الذكر الأكبر: أي الذي أكبر من لا إله إلا الله، فصاحب هذا الذكر هو الإمام الذي يُقبض آخرًا، وتقوم الساعة وتنشق السماء، وتبدَّل الأرض غير الأرض، انتهى كلامه.

فإذا عرفت أن أمر الساعة ذوقي لا يقبل التعريف فاذكّر بمشاريطها، وما يكون بين يديها إن بين يديها فتنة لم يكن مثلها فتنة.

ورد في الحديث أنه قال ﷺ في أثناء الخطبة: «أيها الناس: إنه لم تكن فتنة في الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم ﷺ أعظم من فتنة الدجَّال؛ إنه يقول: أنا ربكم... »[4] وهكذا الأمر في الأنفس، فإذا ادَّعى السالك قبل الفناء مدَّعٍ كذَّاب.

---

(1) أخرجه أحمد (389/5).

(2) لم أقف عليه.

(3) سبق تخريجه.

(4) أخرجه ابن ماجه (1359/2).

كما قال الشيخ ابن الفارض يخاطب نفسه:

وهـا أنـت حـيًا إن تكـن صـادقًا مـت

ورد في الحديث: «الشقيُ مَن أدركته الساعة حيًا لم يمت»[1] رواه الديلمي عن ابن عمر. رضي الله عنهما - ذكره في «جمع الجوامع» لأنه إلى الآن ما بلغ رشده، ولا نال مبلغ الرجال، وشرطه الموت وفناء الفناء.

وقال التلمساني - قُدِّس سرُّه - أيضًا من هذا الذوق:

نحـن قـومٌ مِتـنا وذلـك شـرطٌ فـي بقائهـا فليـس الأحـياء

فهو إن ادَّعى قبله فكذَّابٌ دجَّالٌ، أما ترى إشارة ذلك في تتمة الحديث وهي: «لن تروا ربكم حتى تموتوا»[2].

وفي آخر الحديث يُشير ﷺ إلى علَّة ذلك؛ إنه أعور العين اليسرى، وبيان ذلك أن السالك قد يكون صاحب إيمان يُسمَّى في الاصطلاح ذا العقل؛ وذلك محجوبٌ أكمَه، وإذا فتح له قد يفتح له عينٌ واحدةٌ تُسمَّى ذا العين، وهو الذي يرى الحق في الخلق، فهو مفتونٌ ولا تصحُّ دعواه، بل دعواه تكون مكرًا واستدراجًا، وكذبًا وزورًا وخداجًا، كدجال وغيره من الفراعنة والدجاجلة.

أما ترى أنه قال ﷺ: «إنه أعور»[3] والعورة هي: الميل، ومنها بيوتنا عورة: أي مائلة عن الاستقامة، ومنها الأعور؛ لأنه مال نظره إلى جهة واحدة، فهذان القسمان ولو كانا صاحبا جمع وبعين واحدة، فإن الأول يرى الحق ولا يرى نفسه، والثاني يرى نفسه ولا يرى الحق، فالفرق بينهما شتان، وهما مسيحان، ولكن الأول مسيح الرحمن، والثاني مسيح الشيطان، وبالموت يحصل الكمال، وهو الجمع بين المشهدين فيُسمَّى ذا العينين.

قال تعالى: ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: 22]، يرى بالحق الجمع بعين الفرق، ويرى الفرق بعين الجمع، ولا يمنعه شهود أحدهما عن الآخر، فهو فانٍ عن النفس، وباقٍ بالعين، فهو ذو العينين الذي هداه الله النجدين.

(1) أخرجه الديلمي في «الفردوس» (365/2).

(2) سبق تخريجه.

(3) أخرجه البخاري (1215/3)، ومسلم (2250/4).

قال ﷺ في «الفتوحات»: إن أعظم الفتن التي أفتن الله بها الإنسان تعريفه إياه بأنه خلقه على الصورة؛ ليرى هل تقف مع عبوديته وسواد وجهه، أو يزهو الأجل مكانه ومكانته؟ إنه تعالى ما أظهر الصورة على الكمال، أي: بخرق حجاب سر الجمعية العامة الكبريائية، حتى يشاهد ألوهية الحق سبحانه دون ألوهيته، فإن الصورة الكاملة الإلهية لا يلحقها ذم بكل وجه، وهذا لا يكون إلا عند فناء الفناء، فيبقى وجه ربك، فهو المتكلم والمؤثر على لسان عبده ويعبده، وهو فان عن نفسه وذاته، كما أخبر عنه ﷺ عن هذا المقام بقرب الفرائض عندهم، وهذا أول قدم في الشريعة، فإن الشارع أول ما أتى به: (لا إله إلا الله)، فلا يجيبه إلا مَن خرق ذلك الحجاب، ومن نقص عن هذا المقام الكمالي فلحق بفرعون ودجال، وكان في حقه مكرًا إلهيًا من حيث لا يشعر، فافهم.

وأمّا اعتبار نزول عيسى عليه السلام في الأنفس هو ظهور الروح الأعظم، وظهور أحكامه عند قرب الساعة للسالك، فبينما يكون السالك في هرجٍ ومرجٍ في أمواج الفتن، كالحال كرؤية الألوهية لنفسه، وإظهار خوارق العادات والتأثير في الأرض والسماوات، إنها فتنة عمياء صماء؛ لأنّ آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الجاه، فإذا بعث الله الروح روحٌ وراحة، فبشهوده حسم الخصومات وخصم الشهوات، وتُرفع الشحناء والتباغض، وتنطفئ نيران غلبة النفس وشهواتها باستيلاء النفس الروح عليها، واندراجها واندماجها فيه، فإنه لها برد وسلام، وأشار في الحديث مثل هذا، فإنه ورد في الحديث الطويل:

«إذا نزل عيسى عليه السلام فأمُّهم، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء»[1].

اعتبار ذلك في الأنفس أنه شهودٌ وفناءٌ، فتنقلب النفس وأحكامها، وتذوب في العلم فتعرف نفسها، فإذا عرفت نفسها فتنقلب سفساف أخلاقها كرامًا، فهو مقرِّر لا ناسخ، بل يُلحق السفاف بالمحامد بتعين المصارف، وتبين مصادرها ومواردها، كما قيل: غاضت ثم فاضت، فلا هي هي ولا هي غيرها.

أما ترى إشارة الحديث: (إنه يذوب)، ولم يقل: يعدم أو يهلك؛ لأن الذوبان من عالم الفساد ترك صورة وخلعها، ولبس صورة أخرى كان لصوره ملح تركها، وتلبس

---

(1) أخرجه مسلم (2221/4)، وابن حبان في «صحيحه» (224/15).

بصورة الماء والعين باقية ما انعدمت، وهكذا الأمر هنا، ولم يقل: إن أحكام البشرية تزول بل ما زال البشر عن بشريته، وإن فنيت عن شهوده فعين وجوده باقية، بل الحد يصحبه.

أما ترى إشارة قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [الكهف: 110]، فإن البشرية لم تزل ولا تزول أبدًا.

قال الشيخ الأكبر ﷺ: إنما قلنا البشرية في الفناء لا تزول؛ لأني سمعت بعض الشيوخ يقول: هذا حظ البشرية، فإذا زال عن بشريته كان حكمه حكمًا آخر، والأمر ليس كذلك، فلما تحقق ما ذكرناه رجع عن هذا الاعتقاد، وقال: ما كنت أظن أن الأمر هكذا، فإنه تكلم في شرح آية: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: 51]، وغلط فيه، ذكر ﷺ هذه المسألة في الباب الموفي خمسين وثلاثمائة من «الفتوحات».

فبهذه الطائفة هم الأبدال حقًّا؛ لأنهم بدَّلوا أسفاف الأخلاق بأخلاق الخلاق، يوم تُبدل الأرض غير الأرض والسماوات.

ورد في الخبر الصحيح:

«ليتمنين قوم لو أكثروا من السيئات الذين بدَّل الله سيئاتهم حسنات[1]». ذكره في «المستدرك» عن أبي هريرة ﷺ، ذكره في «جمع الجوامع».

وأمَّا اعتبار يأجوج ومأجوج، وهما طائفتان من الخواطر، وهي الوساوس التي من الشيطان، والهواجس التي من النفس، فيظهر أن عند اقتراب ساعة فناء المريد السالك، فيفسدان في أرض قلبه، وهم من كل حدبٍ ينسلون، وبهما هلاك المريد هلاك فساد، ولا كمال، فلا ينقطعان إلا بوارد قوي كزبر الحديد، يكون حاجزًا بينه وبينهم.

﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾ [الكهف: 97]، وذلك الوارد رحمة من الله الرحمن، رحم بها عبده وساعده في وقته؛ حتى يصل درجة الكمال، ويفتح له ما يفتح، فإذا فتح وجاء وعد ربه حقًّا فدكَّ هذا السد دكًّا، ومسخها بالتبديل بخواطر ملكية أو ربَّانية لمات، وإلهامات هذا وعد ربي لعباده السالكين، قد جعله

(1) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (281/4).

صدقًا، ويدُّل الباطل حقًّا بإبدال الأحكام بانقلاب الأعيان.

أما ترى استعيذ من شر الوسواس لا من الوسواس، ورد في الحديث: «**الوسوسة محض الإيمان**»[1] ذكره في «جمع الجوامع»، ومن أشراط الساعة: «**نقص العلم**»[2] وفي لفظ: «**نقل العلم**»[3]، وفي عبارة: «**قبض العلم**»[4]، وفي لفظ: «**ينزل الجهل ويُرفع العلم**»[5]، وفي رواية: «**لا تقوم الساعة حتى يرفع القرآن من حيث جاء...** »[6] جميع هذه الروايات ذكرها السخاوي في كتابه «القناعة».

وهكذا تجد جميعها في أشراط الساعة عند قيام القيامة الصغرى حذوًا بحذو الإيمان وبيان ذلك، أمَّا نقص العلم في السلوك؛ فلأن السالك كلما علا قدره نقص علمه؛ لأن الغاية شهود وفناء، فكلما تقرَّب إليه نقص العلم بحسبه وبحسب قربه، فإن العلم على صورة القرآن رأسه الضيق إلى الذات، ورأسه الواسع إلى العالم.

قال الشيخ ﵁ في «الفتوحات»: إن هذه مسألة ظهرت لابن بطليموس، فإنه صرَّح بها في كتبه، وقال: كلَّما علا القدر نقص العلم، فإن قيل: كيف أمر الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114]، فالجواب: إنه ﷺ متنزلٌ من الذات إلى السماء، كما هو أدب المحبوبين، وإن شئت قلت: من الجمع إلى الفرق؛ لعمارة الدارين.

قال ﵁ في فصل من فصول أحكام القاتل للصيد في الحرم والإحرام من كتاب الحج من «الفتوحات»: إن الطائفة قد أجمعوا على أن العلم بالله عين الجهل بالله.

وقال تعالى في الجاهل: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ [النجم: 30]، فسُمِّي الجهل علمًا لمن تفطَّن.

ورد في الحديث: «**إن من البيان سحرًا، وإن من العلم جهلاً...** »[7] رواه أبو داود

---

(1) أخرجه البخاري في (200/2، 202).

(2) أورده المناوي في «فيض القدير» (444/2).

(3) أورده النووي في «شرح النووي على صحيح مسلم» (128/9).

(4) أخرجه البيهقي (450/1).

(5) أخرجه البخاري (43/1)، ومسلم (2056/4).

(6) أورده ابن حجر في «فتح الباري» (434/6).

(7) أخرجه البخاري (2176/5)، ومسلم (594/2).

وذكره في «جمع الجوامع».

ومن هذا المقام أشار الصديق الأكبر ﷺ: العجز عن درك الإدراك إدراك، فإن إشارته إلى مرتبة الفناء الأول، والأمر وراء ذلك؛ لأن له إلى الآن شعورًا حيث قال بالعجز، وأما في الفناء الثاني، وهو فناء الفناء لا علم ولا عجز، وهو مقام نقل العلم وقبضه ورفعه، وأمَّا رفع القرآن فمن الصدور إلى الظهور؛ حيث يستظهر القرآن كما قيل: استظهر فلان القرآن إذا رآه من ظهر عينه في سماء نفسه سماء دنياه.

ورد في الخبر: «**مَن قرأ القرآن ثم مات قبل أن يستظهره أتاه الله ملكًا يعلِّمه في قبره ويلقى الله وقد استظهره**»[1] أخرجه أبو عبيد في كتاب «الفضائل» والسلفي في استحبابه، ذكره السيوطي في «جمع الجوامع».

وذلك قرآن الفجر الذي كان مشهودًا، فإنهم فجَّروه تفجيرًا من أنفسهم حين أشهدهم الله أنفسهم حين قال في غيرهم: ﴿**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ**﴾ [السجدة: 17]، قال الشيخ الأكبر ﷺ: إن سهل بن عبد الله - قُدِّس سرُّه - استظهر القرآن وعمره ست سنين.

وقال ﷺ: إن أبا يزيد ما مات حتى استظهر القرآن، وهكذا الأمر في جميع ما ورد في أشراط الساعة الكبرى.

فإنه له نظائر في الأنفس في القيامة الصغرى حذوًا بحذوٍ بلا فرقٍ، وفصَّل أنه كلام فصل لا هزل ولا مزح، بل جعل الله خلق السماوات وما بينهما إلا أمثالها، وعبرًا ليعتبره الفاهم اللبيب، ويعبر من الصور المحسوسة إلى المعاني المعقولة؛ لقياس الغائب على الشاهد، فالعالم كله بما فيه ضرب الأمثال؛ ليعلم فيها أنه هو.

قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ* تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ [إبراهيم: 24، 25] إنما جعل ضرب المثل للناس؛ لأنهم نسوا في هذه النشأة ما كانوا عليه في أنفسهم من المعارف في أصل الفطرة، فضرب الله لهم الأمثال؛ ليثبِّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت بضرب الأمثال، كاقتراب الساعة، وقيامة الكبرى والصغرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأمثالها لتذكرة الناس الناسين حقائق الأمور

(1) أورده السيوطي في «جمع الجوامع» (233/21).

على ما هو عليه، فإن الذكرى تنفع المؤمنين لعلهم يتذكرون.

وأمَّا العارفون فقد عامله الله بالكشف والشهود، يرى نفسه أنها كلها كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت في أرض الطبيعة، وفرعها ونتيجتها منتشرة في سماء الأسماء العُلا، بالتخلُّق بالأسماء الحسنى، وهي دائم الثمرات والنتائج بإذن ربها، عطاءً غير مجذوذٍ، لا مقطوع ولا ممنوع، ضرب الله الأمثال فلا تهتدون، وقد أحكم الآيات وأنتم لتأويل المتشابهات متعرِّضون، وعن المحكمات مُعرضون، فبأي حديثٍ بعده تؤمنون، ولكن ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً:

وما كُل عَينٍ بالجَمال قَرِيرة ... وما كُل مَن نُودي يُجيب إذا دُعي

كلٌّ ميَّسر لما خُلق له، سبحان مُرتِب الأمور، شارح الصدور، وباعث مَن في القبور.

قال ﷺ في الباب السادس والسبعين وثلاثمائة من «الفتوحات»: إنَّه لا يؤمن بالحق إلا مَن خاطبه الحق سبحانه في سرّه، وإنْ لم يشعر به المخاطب، وإنما يجد في نفسه التصديق به وفي قلبه، وكذلك لا يؤمن بما جاء به الرسول ﷺ إلا مَن خاطبه الولي في سرِّه، وهو لم يدرِ ولم يشعر به.

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس: 2] هنيئًا للمؤمنين بهم، وطوبى لهم وحسن مآب.

هذا وقد بلغت رسالات المعاني والحقائق بأسبغ، إذا أصيغ في حرفي القوالب الجمع والترتيب، وأسبغت سرد الكلام في الرقائق والدقائق بأبلغ النظام، أبلغ على صدقي تصريف التأليف والتركيب، بلا إفراط ممل ولا تفريط مخل، كاشفًا لثام الإيهام عن وجوه محاسن الكلام مرة، ومسد لإقناع الإيهام على ضنائن مخدرات الخيام تارةً أخرى، مع تنبيه أولي الأفهام على مكانة الخاتم والختم، فلا تصغ إلى سواه، ولا تعرج إلى من خالف الأمر وإياه، فإنك إن أردت غير هذا ترفة طلبتها في غير أهلها، ونزهة رمتها في غير محلها.

وَمَن رَام المنى مِن غير أهلٍ ... أضَاعَ العمرَ في طلبِ المحال

إن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم، فلا تكن للمجادلين إمامًا، ولا للمراهنين زمامًا، أفمن شرح الله صدره، وجعل له في أمره فرجًا ومخرجًا، كمن ضيَّق صدره وجعله حرجًا، والله يسيؤون هذا الذي أرى لك، فانظر ماذا ترى.

ورد في الحديث عن بيتان: «**كلمة حكمة من سفيه فاقبلوها، وكلمة سفه من حكيم فاغفروها، فإنه لا سفيه إلا ذو عثرةٍ، ولا حكيم إلا ذو تجربةٍ** »[1].

والله المستعان، وعلى الله قصد السبيل.

الحمد لله رب العالمين، وصلَّى الله على سيّدنا محمد خاتم النبيين وإله الفائزين، وصحبة الحائزين، وعلى ختمه ختم الأولياء المحمَّديين، وجعلنا وإيَّاكم المؤمنين الصدِّيقين أهل عنهم أجمعين برحمتك يا أرحم الراحمين.

ختمت هذين الفصين اللذين كالزهراوين للفصوص في رمضان ليلة عشرين سنة أربعين وتسعمائة من هجرة خير المرسلين، وفي تلك الليلة رأيت والدي - رحمه الله - وعنده شخصٌ اسمه علي كان مؤدبي في الصغر، وأنا جاثٍ بين يديهما، فأحضر إليَّ خلعة سنيّة مذهبة، وهو يخاطبني ويحاورني ويلاطفني: فأشرب في قلبي منه الفرح.

فإنه ورد في الحديث: «**إن رؤيا المؤمن كلام يكلم به العبد ربه في المنام**»[2] ذكره الشيخ الأمين الحافظ البطين جلال الدين السيوطي في كتابه «جمع الجوامع» - رحمه الله - فكتبتها هنا فرحًا بها.

والسلام على من اتبع الهدى، والله أعلم.

---

(1) أخرجه الترمذي (379/4)، وابن حبان في «صحيحه» (421/1).

(2) أورده المتقي الهندي في «كنز العمال» (601/15).

أهم مصادر التحقيق

- الإشارات والتنبيهات لابن سينا.
- الإمام الجنيد سيد الطائفتين، للشيخ أحمد المزيدي.
- ابن سبعين وفلسفته الصوفية لأبي الوفاء الغنيمي.
- إحياء علوم الدين للغزالي.
- إرشاد ذوي العقول إلى براءة الصوفية من الاتحاد والحلول للشيخ أحمد المزيدي.
- إيقاظ الهمم شرح الحكم لابن عجيبة.
- الأعلام للزركلي.
- الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني، دار الكتب المصرية، ببيروت.
- الإمتاع والمؤانسة، لأبي حيان التوحيدي، منشورات مكتبة الحياة، بيروت.
- الإنصاف للباقلاني، دار الكتب العلمية.
- الانتصار للأولياء الأخيار للموصلي الكردي، ط العلمية.
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروزآبادي، المكتبة العلمية.
- بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية.. في الحلول والاتحاد. لابن تيمية.
- البداية والنهاية لابن كثير.
- تاج العروس، للزبيدي، المطبعة الخيرية، مصر، 1306.
- الترغيب والترهيب للمنذري، دار إحياء التراث العربي، ط3، 1968م.
- تفسير البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي.
- تفسير الطبري (جامع البيان في تفسير القرآن)، المطبعة الخيرية بمصر 1330.
- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، دار الكتب المصرية 1967م.
- تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم)، ط. المكتبة التوفيقية، مصر.
- تهافت التهافت لابن رشد.
- تهافت الفلاسفة للغزالي.
- تهذيب اللغة، محمد بن أحمد الأزهري.
- التصوف لإحسان إلهي ظهير.

- التصوف المنشأ والمصادر للسابق.
- التصوف بين الدين والفلسفة إبراهيم هلال.
- جامع الأصول في الأولياء للكمشخانوي.
- جامع الرسائل لابن تيمية.
- جمع المقال في إثبات كرامات الأولياء في الحياة وبعد الانتقال (10 - رسائل) المزيدي.
- جمهرة أشعار العرب، للقرشي، دار نهضة، مصر، ط1، 1967م.
- جمهرة أنساب العرب، لابن حزم، دار المعارف بمصر، ط4، 1977م.
- جمهرة اللغة، لابن دريد، حيدر آباد 1344.
- الحلية لأبي نعيم الأصبهاني.
- خصوص النعم شرح فصوص الحكم للمهايمي، تحقيق المزيدي (العلمية).
- خلق أفعال العباد للبخاري.
- دلائل الإعجاز، للجرجاني، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1984م.
- ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، للزمخشري، وزارة الثقافة، بغداد.
- رسائل الشيخ عبد الحق ابن سبعين، دار الكتب العلمية.
- الرسالة القشيرية للأبي القاسم القشيري.
- روضة الحبور ومعدن السرور لابن الأطعاني.
- روضة العقلاء لابن حبان، دار الكتب العلمية، بيروت.
- النور الأبهر في الدفاع عن الشيخ الأكبر للمزيدي.
- الرد على فصوص الحكم للسعد.
- الزهد الكبير، للبيهقي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.
- الزهد لأحمد بن حنبل، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الزهد لابن المبارك، دار الكتب العلمية، بيروت.
- سنن الترمذي، طبعة المكتبة الإسلامية.
- سنن الدارمي، دار إحياء السنة النبوية.
- سنن أبي داود.

- سنن ابن ماجه، دار إحياء الكتب العربية 1953م.
- سنن النسائي.
- سير أعلام النبلاء للذهبي، مؤسسة الرسالة ببيروت ط1، 1981م.
- شذرات الذهب لابن العماد.
- شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي.
- شرح مشاهد الأسرار القدسية للست عجم بنت النفيس.
- الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) للجوهري، دار العلم للملايين.
- صحيح البخاري، فتح الباري.
- صحيح مسلم.
- صفوة الصفوة لابن الجوزي.
- طبقات الصوفية للسلمي.
- طبقات الأولياء لابن الملقن.
- الطبقات الكبرى للشيخ الشعراني.
- الطبقات الكبرى لابن سعد.
- الطواسين للحلاج.
- العظمة لأبي الشيخ.
- العقد الفريد، لابن عبد ربه، دار الكتاب العربي ببيروت.
- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، للسمين الحلبي.
- العين للخليل بن أحمد، ط. دار الكتب العلمية.
- عيون الأخبار، لابن قتيبة، دار الكتب المصرية.
- غريب الحديث لأبي سليمان الخطابي، مكة المكرمة، كلية الشريعة.
- غريب الحديث للحربي.
- غريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام.
- غريب الحديث، لأبي عبيد الهروي.
- غريب الحديث، لابن قتيبة، مطبعة العاني ببغداد، 1977م.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر.
- الفتوحات المكية للشيخ الأكبر.

- فصوص الحكم للشيخ ابن عربي.
- الفهرست، النديم، دار المسيرة، ط3، 1988م.
- فوات الوفيات، لابن شاكر.
- فيض القدير للمناوي.
- فيض القدير، للشوكاني، ط3، 1973م.
- القاموس المحيط، للفيروزآبادي.
- الكامل في اللغة والأدب للمبرد، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الكامل في التاريخ، لابن الأثير، دار صادر.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للزمخشري.
- كشف الخفاء، للشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني.
- كشف الظنون، لحاجي خليفة.
- الكواكب الدرية في طبقات الصوفية للمناوي، ط العلمية.
- كيمياء السعادة للغزالي.
- لطائف الأعلام للقاشاني.
- اللباب في تهذيب الأنساب، لعز الدين ابن الأثير الجزري، دار صادر، ببيروت.
- لسان العرب، لابن منظور.
- مرآة الجنان لليافعي.
- مرآة الحقائق للشيخ إسماعيل حقي، دار الآفاق العربية.
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، للسيوطي.
- المستقصى في أمثال العرب، للزمخشري.
- مسند الإمام أحمد.
- المصنف، لابن أبي شيبة.
- المصنف لعبد الرزاق.
- المطالب العالية للرازي.
- معالم السنن للخطابي، المكتبة العلمية، بيروت.
- معجم الأدباء لياقوت الحموي.
- معجم البلدان، لياقوت الحموي.

- معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة.

- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، لأبي عبيد البكري.

- مفتاح الغيب للقونوي.

- مقالات الإسلامين للأشعري.

- المواقف في علم الكلام للإيجي.

- الميزان الذرية في بيان عقائد الفرقة العلية للشعراني، دارة الكرز.

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ليوسف بن تغري بردي.

- نشر المحاسن لليافعي.

- مشرع الخصوص في شرح نصوص القونوي، للمهائمي.

- نفائس العرفان لسيدي محمد وفا، دار الكتب العلمية.

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لأحمد بن محمد المقري التلمساني.

- النفحات الربانية للقونوي.

- النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير.

- هدية العارفين للبغدادي.

- الوافي بالوفيات، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي.

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان.

فهرس المحتويات

MAJMAᶜ AL-BAḤRAYN FĪ ŠARḤ AL-FAṢṢAYN

by

Al-šayḫ Nāṣir ben al-Ḥasan al-Kīlāni

Edited by

Majdi al-Jāriḥi

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKi
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban